

(سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر ٢٣)

رولة بني أمية

(٤١ - ١٣٢ هـ)

جمعه وعلق عليه

محمد علي أبو زهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدِلُّ مَنْ
تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

تمهيد

أكبر دولة في تاريخ الإسلام، حكّمها بنو أمية من سنة ٤١ هـ إلى ١٣٢ هـ وكانت عاصمة الدولة في مدينة دمشق. وبلغت الدولة الأموية ذروة اتساعها في عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك؛ إذ امتدت حدودها من أطراف الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً، وتمكنت من فتح إفريقية والمغرب والأندلس وجنوب الغال والسند وما وراء النهر.

ويرجع نسب الأمويين إلى أمية بن عبد شمس من قبيلة قُريش، وكان لهم دورٌ مهم في عهد الجاهلية وخلال العهد الإسلامي. وقد تأسست الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان، وكان قبل ذلك والياً على الشام في عهد الخليفة عُمر بن الخطّاب، ثم نشب نزاعٌ بينه وبين علي بن أبي طالب بعد فتنة مقتل عثمان، حتى تنازل ابنه الحُسن عن الخلافة لصالح معاوية بعد مقتل أبيه عليّ، فتأسست الدولة الأموية بذلك.

أخذ معاوية عن البيزنطيين بعض مظاهر الحُكم والإدارة؛ إذ جعل الخلافة وراثية عندما عهد لابنه يزيد بولاية العهد، واتخذ عرشاً وحُرّاساً، وأحاط نفسه بأهجة المُلْك، وبنى له مقصورة خاصّة في المسجد^١، كما أنشأ ديوان الخاتم ونظام البريد. وبعد وفاة يزيد اضطربت الأمور؛ فطالب عبدُ الله بن الزبير

^١ بعد محاولة اغتياله على يد الخوارج في الليلة التي اغتيل فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

بالخلافة، ثم تمكن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم من هزيمته وقتله في مكة سنة ٧٣ هـ، فاستقرت الدولة مجدداً.

وجرت أكبر الفتوحات الأموية في عهد الوليد بن عبد الملك؛ فاستكمل فتح المغرب، وفتحت الأندلس بكاملها، كما فتحت السند بقيادة عدة قادة، من أشهرهم سنان بن سلمة الهذلي ومحمد بن القاسم الثقفي، وبلاد ما وراء النهر بقيادة قتيبة بن مسلم، ثم جاء بعده الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي توفي مرابطاً في مرج دابق لإدارة حصار القسطنطينية، ثم الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، الذي يُعد من أفضل الخلفاء الأمويين سيرةً، ثم ابن عمه يزيد بن عبد الملك، ثم أخوه هشام الذي فتح في عهده جنوب فرنسا، وكان عهده طويلاً وكثير الاستقرار، وبعد موته دخلت الدولة في حالة من الاضطراب الشديد، حتى سيطر مروان بن محمد^١ على الخلافة، فأخذ يتنقل بين الأقاليم، ويقمع الثورات والاضطرابات، ثم التقى مع العباسيين في معركة الزاب، فهُزم وقتل، وكانت نهاية الدولة الأموية.

^١ المعروف بمروان الحمار. وقد بدأت الدولة الأموية الثانية بمروان وانتهت بمروان. بدأت بمروان بن الحكم وانتهت بمروان بن محمد.

هذا الكتاب

ومعلوم أنّ من أفضل مَنْ جمع السيرة والتاريخ الحافظ ابن كثير، في كتابه الموسوعي "البداية والنهاية"¹. وقد قلتُ - مراراً - إني لم أزل مشغولاً بهذا السفر العظيم لابن كثير. وقد أكرمني الله بقراءته، ورأيت أن أفصل بعض أجزائه في كُتُبٍ مستقلة يسهل على القارئ المعاصر الرجوع إليها وقراءتها، فوفقني الله لذلك، وجاءت هذه الكتب على النحو الآتي:

- قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد عليهما السلام (من أول كتاب "البداية والنهاية" حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم).
- محمد رسول رب العالمين (السيرة النبوية الشريفة).
- خلافة الصديق والفاروق رضي الله عنهما.
- خلافة ذي النورين عثمان رضي الله عنه.
- خلافة أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه..
- معاوية كسرى العرب رضي الله عنه.
- الثائران: الحسين وابن الزبير.

¹ وهو موسوعة ضخمة تضم التاريخ منذ بدأ الخلق إلى القرن الثامن الهجري. والكتاب بحق المرآة الصادقة، والمرجع الأصيل لأهل التاريخ والسير.

- دولة بني أمية (وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا)¹
- دولة بني العباس. (في الإعداد بعون الله).

وكان من عملي في خدمة ما كتبه ابن كثير عن دولة بني أمية:

- استخلاص مادة هذا الكتاب من كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير، وحذف الأسانيد وسلسلة الرواة من الأخبار؛ لتكون الرواية متسلسلة في شكل سردي؛ تسهياً على القارئ المعاصر.
- الاكتفاء بما كان في صلب تاريخ بني أمية، والتخفيف من الأخبار التي يمكن التخفيف منها.
- حذف من توفي من الأعلام في كل سنة. إلا من كان ذكره ضرورياً في أحداث الدولة الأموية.
- تخريج الأحاديث التي لم يخرّجها ابن كثير، وإضافة شروح عليها.
- إضافة عناوين فرعية إلى العناوين التي وضعها ابن كثير.
- التعريف بالأعلام، والأماكن والبلدان التي ورد ذكرها في هذا الكتاب.

¹ وهي منشورة ضمن أعمال، على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع نور، وموقع فولة بوك.

- إيضاح معاني الكلمات والألفاظ والعبارات التي تحتاج إلى بيان وشرح وتفسير، من خلال كتب اللغة والمعاجم.
- ضبط الضروري من ألفاظ الكتاب، تيسيراً على القارئ المعاصر ومساعدة له في إقامة اللغة التراثية المروية في الكتاب.
- وهو المنهج الذي التزمته وأخذت به نفسي فيما وقفتي الله في إخراجه من كتب التراث، في المشروع الذي تبنّيته وسميته (سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر) وهذا هو الكتاب الثالث والعشرون - بفضل الله - في هذه السلسلة¹.

¹ وقد سبقه لي اثنان وعشرون عملاً في الجمع والدراسة والاختصار هي: (الثائران: الحسين وابن الزبير - معاوية كسرى العرب - خلافة علي بن أبي طالب - خلافة ذي النورين عثمان بن عفان - خلافة الصديق والفاروق - محمد رسول رب العالمين - - علي ومعاوية يوم صفين - الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر - التعازي والمراثي للمبرد - محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني - الداء والدواء لابن القيم - أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي - النساء لابن قتيبة - بحجة المجالس لابن عبد البر - تهذيب تاريخ ابن خياط - مختصر زاد المعاد لابن القيم - قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد - تحقيق العواصم من القواصم لابن العربي - حقوق آل البيت في مفهوم ابن تيمية - الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي - مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: "علماء معاصرون نصرُوا الإسلام"، وكتاب "غرباء". وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).

رحم الله الحافظ ابن كثير، وجزاه عنا خيراً، ونفعنا بعلمه، وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين.

أبو زهرة

الكويت - أكتوبر ٢٠٢٣ م

بداية الكتاب

الدولة الأموية الأولى (السُّفْيَانِيَّة: ٤١ - ٦٤ هـ)

بعد استشهاده أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - على يد الخوارج، تنازل أمير المؤمنين الحسن بن عليّ عن الخلافة لمعاوية، وكانت مبايعة الحسن لمعاوية في سنة أربعين، ولهذا يُقال له: عام الجماعة؛ لاجتماع الكلمة فيه على معاوية.

وقد تأسست الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان^١، وقد استمر الحكم الأموي لما يقرب من قرن من الزمان، امتدت حدود الدولة الأموية فيه حتى وصلت إلى أوروبا وأطراف آسيا، وكانت دمشق مركز الحكم، وكانت مصر إحدى الولايات التابعة لها، حيث عُيّن عمرو بن العاص والياً على مصر للمرة الثانية من قبل معاوية بن أبي سفيان.

وبرغم كون الأمويين أساساً من مكة، إلا أنهم اتخذوا من دمشق عاصمةً لخلافتهم، وزادت مساحة الأراضي التي سيطرت عليها هذه الدولة الأموية على ١٣ مليون كيلومتر فكانت حينها أكبر إمبراطورية في العالم؛ وحتى الآن

^١ الصحيح ألا يقال معاوية خليفة. بل ملك. مصداقاً للحديث الشريف: "الخلافه ثلاثون سنة، ثم تكون مملكتاً". وآخر الثلاثين خلافة الحسن بن علي، وبعدها بدأ مملك معاوية.

هى خامس أكبر إمبراطورية متواصلة الأراضى فى العالم، كما اعتبرت أكبر دولة أسسها المسلمون عبر التاريخ.

ولطالما اعتبر نظام الحكم فى الدولة الأموية من أفضل أنظمة الحكم فى العالم، حيث كان يؤازر الخليفة فى الحكم ستة مجالس: ديوان الحراج وديوان الرسائل وديوان العمال وديوان الخاتم وديوان البريد وديوان القضاة.

ثم شرع معاوية فى بناء الدولة الحديثة، من سنة إحدى وأربعين للهجرة حتى وفاته فى سنة ستين.

أخذ البيعة ليزيد

وفى أواخر عهده شرع معاوية فى نظم البيعة ليزيد والدعاء إليها، وكتب إلى الأفاق بذلك، فبايع له الناس فى سائر الأقاليم، إلا عبد الله بن عمر والحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير وابن عباس.

فركب معاوية إلى مكة معتمراً، فلما اجتاز بالمدينة مرجعه من مكة استدعى كل واحد من هؤلاء، فأوعده وهدهدته بانفراده، ثم خطب معاوية وهؤلاء حضوراً تحت منبره، وبايع الناس ليزيد وهم فعود، ولم يوافقوا ولم يظهروا خلافاً؛ لما تهددهم وتوعددهم، فأتسقت البيعة ليزيد فى سائر البلاد.

وَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةَ لَمَّا صَالَحَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ عَهْدَ لِلْحَسَنِ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ^١، فَلَمَّا مَاتَ الْحُسَيْنُ قَوِيَ أَمْرُ يَزِيدَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، وَرَأَى أَنَّهُ لِنَدِكَ أَهْلٍ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ مَحَبَّةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، وَلَمَّا كَانَ يَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ النَّجَابَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَسَيَّمَا أَوْلَادَ الْمُلُوكِ وَمَعْرِفَتَهُمْ بِالْحُرُوبِ وَتَرْتِيبِ الْمُلْكِ وَالْقِيَامِ بِأَجْهَتِهِ، وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَفْعُومُ أَحَدٌ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ فِي الْمُلْكِ مَقَامَهُ، وَهَذَا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فِيمَا حَاطَبَهُ بِهِ: إِنِّي خِفْتُ أَنْ أَذَرَ الرَّعِيَّةَ مِنْ بَعْدِي كَالْعَنَمِ الْمَطِيرَةِ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ. فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِذَا بَايَعَهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِأَيْعَتِهِ، وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ.

وفاة معاوية

وَحِينَ حَضَرَتْ مُعَاوِيَةَ الْوَفَاةُ كَانَ يَزِيدُ فِي الصَّيْدِ، فَاسْتَدْعَى مُعَاوِيَةَ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسِ الْفِهْرِيِّ - وَكَانَ عَلَى شُرْطَةِ دِمَشْقَ - وَمُسْلِمَ بْنَ عُقْبَةَ الْمُرِّيَّ؛ فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا أَنْ يُبَلِّغَا يَزِيدَ السَّلَامَ وَيَقُولَا لَهُ يَتَوَصَّى بِأَهْلِ الْحِجَازِ، وَإِنْ سَأَلَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْ يَعْرِزَ عَنْهُمْ عَامِلًا وَيُؤَلِّيَ عَلَيْهِمْ آخَرَ فَلْيَفْعَلْ، فَعَزَلَ وَاحِدٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يُسَلَّ عَلَيْكَ مِائَةٌ أَلْفِ سَيْفٍ، وَأَنْ يَتَوَصَّى بِأَهْلِ الشَّامِ حَيْرًا، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ أَنْصَارَهُ، وَأَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، "وَلَسْتُ أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ قُرَيْشِ سِوَى ثَلَاثَةٍ: الْحُسَيْنِ، وَابْنِ عُمَرَ، وَابْنِ الزُّبَيْرِ، فَأَمَّا ابْنُ عُمَرَ

^١ يعني يكون الخليفة من بعده.

فَقَدْ وَقَدَّتْهُ الْعِبَادَةُ^١، وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَرَجُلٌ خَفِيفٌ، وَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيكَهُ اللَّهُ تَعَالَى
بِمَنْ قَتَلَ أَبَاهُ وَخَذَلَ أَحَاهُ، وَإِنَّ لَهُ رَحْمًا مَاسَّةً وَحَقًّا عَظِيمًا، وَقَرَابَةً مِنْ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أَظُنُّ أَهْلَ الْعِرَاقِ تَارِكِيهِ حَتَّى يُخْرِجُوهُ^٢، فَإِنْ قَدَرْتَ
عَلَيْهِ فَاصْفَحْ عَنْهُ، فَإِنِّي لَوْ أَنِّي صَاحِبُهُ عَفَوْتُ عَنْهُ، وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ حَبُّ
ضَبٍّ^٣، فَإِنْ شَخَّصَ لَكَ فَالْبَدُّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنْكَ صُلْحًا، فَإِنْ فَعَلَ
فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَاصْفَحْ عَنْ دِمَائِ قَوْمِكَ مَا اسْتَطَعْتَ".

وَكَانَ مَوْتُ مُعَاوِيَةَ لِاسْتِهْلَالِ رَجَبٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

وَكَانَ مُدَّةُ مُلْكِهِ اسْتِثْلَالًا مِنْ جُمَادَى سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ حِينَ بَايَعَهُ الْحَسَنُ
بْنُ عَلِيٍّ بِأَذْرَحَ، فَذَلِكَ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ نَائِبًا فِي الشَّامِ
عِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ عُمُرُهُ ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ سَنَةً.

إِمَارَةُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ

وَبُوعٍ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ أَبِيهِ فِي رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ سِتِّ
وَعِشْرِينَ، فَكَانَ يَوْمَ بُوعِ ابْنِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَأَقْرَبُ نَوَابِ أَبِيهِ عَلَى الْأَقَالِيمِ،
لَمْ يَعْزِلْ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَهَذَا مِنْ ذِكَائِهِ.

^١ وقَدَّتْهُ: غلبته وأضعفته.

^٢ وهذا أدركه معاوية وتيقن أنه بعد موته تنفجر الأمور في وجه يزيد.

^٣ يعني محتال.

أول أعمال يزيد محاولة أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير

وَمَا يَكُنْ لِيَزِيدَ هِمَّةٌ حِينَ وَليَ إِلَّا بَيْعَةُ النَّقْرِ الَّذِينَ أَبَوْا عَلَى مُعَاوِيَةَ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ، فَكَتَبَ إِلَى نَائِبِ الْمَدِينَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ^١: أَمَا بَعْدُ، فَخُذْ حُسَيْنًا وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ^٢ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِالْبَيْعَةِ أَخْذًا شَدِيدًا لَيْسَتْ فِيهِ رُحْصَةٌ حَتَّى يُبَايَعُوا، وَالسَّلَامُ. فَتَسَلَّلَ الْحُسَيْنُ وَابْنُ الزُّبَيْرِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ إِلَى مَكَّةَ. فَلَمَّا قَدَمَاهَا سَكَنَ الْحُسَيْنُ فِي دَارِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَلَزِمَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَجَعَلَ يَحْرِضُ النَّاسَ عَلَى بَنِي أُمِيَّةَ.

وَيُرْجَعُ الْمُؤَرِّخُونَ وَالْبَاخِثُونَ رَفْضَ الْحُسَيْنِ وَابْنِ الزُّبَيْرِ لِبَيْعَةِ يَزِيدَ إِلَى عِدَّةِ أَسْبَابٍ، مِنْهَا:

- الحرص على مبدأ الشورى والاعتراض على طريقة بيعة يزيد في حياة والده، وأن هذه الطريقة في أخذ البيعة لا تشابه طريقة بيعة الخلفاء الراشدين.
- ومنها عدم وجود الأفضلية في يزيد، وأن هناك من هو أفضل منه.

^١ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية: تولى إمارة المدينة المنورة من قبل عمه معاوية. كان ذا جود، وحلم، وسؤدد، وديانة. وولي الموسم مرات. ولما جاءه نعي معاوية وبيعة يزيد لم يشدد على الحسين وابن الزبير، فاملسا منه، فلامه مروان، فقال: ما كنت لأقتلها ولا أقطع رحمها. وقيل إنهم أرادوه على الخلافة بعد معاوية بن يزيد، فأبى.

^٢ بايع عبدالله بن عمر وأبى بالبيعة هو وبنوه.

- كما يرى بعض المُحلّلين أن السبب هو عدم التزام معاوية بشروط الحسن في الصلح والتي من ضمنها ما ذكره ابن حجر الهيثمي: «بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين».

ولما علمت شيعَةُ الكوفة بموت معاويةَ بن أبي سفيان وخروج الحسين إلى مكة، ورفضه البيعة ليزيد بن معاوية، اجتمعوا في منزل سليمان بن صُرَد الخزاعيِّ، واتفقوا على أن يقوموا بمراسلته ودعوته، فكتبوا له: «إنا لا نصلي مع النعمان بن بشير - والي الكوفة - جُمعَةً، ولا نخرج معه إلى عيد، فأقبل علينا، فإن أقبلتَ أخرجنا النعمان إلى الشام»¹.

¹ وصدق ما توقعه معاوية قبل موته.

وبعد أن رأى الحسينُ كثرةَ الرسائل التي وصلته وهو بمكة، وجميعها يؤكد الرغبة في حضوره ومبايعته، عَزَمَ الحسينُ على الخروج إلى الكوفة. ثم كان ما كان من أحداث انتهت باستشهاده - رضي الله عنه - على يد جيش يزيد بقيادة عبيد الله بن زياد.

وبعد مقتل الحسين، صار شاغلَ يزيد أخذُ بيعة ابن الزبير، خاصةً لما كان لابن الزبير من دَوْرٍ في تأليب المسلمين على بني أمية، وبلغ يزيد ذلك، فغضب وأقسم أن يُؤتَى بابن الزبير مُسلسلاً، فغضب ابنُ الزبير وأصر على إباطه، وعاذ بالبيت الحرام، فسُمِّيَ عائدَ البيت.

وأثار ذلك حنقَ يزيد، وبخاصة أن أناساً من أهل مكة اجتمعوا حول ابن الزبير وأيدوه، حتى أنه في موسم حج سنة ٦١ هـ لم يُصلِّ ابنُ الزبير بصلاة عمرو بن سعيد بن العاص والي يزيد على المدينة، ولم يُفِضْ بإفاضته، بل منع ابنُ الزبير الحارث بنَ خالد المخزومي نائب عمرو بن سعيد على مكة من إمامة أهل مكة في الصلاة. فكتب يزيد إلى عمرو الأشدق أن يوجّه إليه جنداً، فوجّه الأشدق قائد شرطته عمرو بن الزبير^١ لقتال أخيه في ألف رجل، إلا أنه انهزم أمام جيش اجتمع لابن الزبير.

^١ أخو عبد الله بن الزبير، وكان عدواً لأخيه.

وحدث بعد ذلك سنة ٦٣ هـ أن خرج أهل المدينة على يزيد، وطردهوا عامله، فوجه إليهم جيشًا بقيادة مُسلم بن عقبة المُرسي هزم أهل المدينة واستباح حرّمتها ثلاثة أيام بعد وقعة الحرّة. ثم أمره يزيد أن يتوجه لقتال ابن الزبير في مكة، فمات مسلمٌ قبل أن يصل، وخلفه الحصينُ بنُ ثُمير السكوني على الجيش، فبلغ الجيشُ مكةَ في ٢٦ محرم سنة ٦٤ هـ، وحاصروا ابنَ الزبير ٦٤ يومًا ونصبوا المنجنيق واحتترقت الكعبة، فمُنِيَ جيشُ ابن الزبير بخسائر كبيرة وفقد الكثير من مؤيديه^١.

ولكن بوفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ، وانسحاب جيش الحصين من حصاره لابن الزبير في مكة، دعا عبدُ الله بن الزبير إلى نفسه، فبايعه أهل الحجاز ما عدا بعض الشخصيات مثل ابن عمر وابن الحنفية وابن عباس، كما دعا له النعمانُ بنُ بشير بجمص، وزفرُ بنُ الحارث الكلابي بقنسرين، والضحاكُ بنُ قيس بدمشق، وأتته بيعَةُ الكوفة والبصرة وخراسان واليمن ومعظم الشام.

^١ وذلك في الحصار الأول في عهد يزيد. وكان الحصار الثاني في عهد عبدالمكك بن مروان كما سيأتي.

موت يزيد وإمارة معاوية بن يزيد بن معاوية

بُويعَ لَهُ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، وَكَانَ وَليَّ عَهْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فِي رَابِعِ عَشَرَ ربيعِ الأَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا نَاسِكًا، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ. قِيلَ: إِنَّهُ مَكَثَ فِي المُلْكِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا^١.

وَكَانَ فِي مُدَّةِ وِلايَتِهِ مَرِيضًا، لَمْ يُخْرَجْ إِلَى النَّاسِ، وَكَانَ الضَّحَّاكُ بِنُ قَيْسٍ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ، وَيَسُدُّ الأُمُورَ. وَمَاتَ مُعَاوِيَةُ بْنُ يَزِيدَ هَذَا عَن إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً^٢.

إمارة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

وَلَمَّا مَاتَ يَزِيدُ اسْتَفْحَلَ أَمْرَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِالْحِجَازِ وَمَا وَالآهَاءِ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ بَعْدَ يَزِيدَ بَيْعَةً عَامَةً هُنَاكَ، وَاسْتَنَابَ عَلَى المَدِينَةِ أَحَاهُ عُبَيْدَةَ بْنُ

^١ قال ابن كثير: وَقِيلَ: عِشْرِينَ يَوْمًا. وَقِيلَ: شَهْرَيْنِ. وَقِيلَ: شَهْرًا وَنِصْفَ شَهْرٍ. وَقِيلَ: ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَقِيلَ: وَعِشْرِينَ يَوْمًا. وَقِيلَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. فَاللهُ أَعْلَمُ.

^٢ قال ابن كثير: وَقِيلَ: ثَلَاثٌ وَعِشْرِينَ سَنَةً وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا. وَقِيلَ: تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً. وَقِيلَ: عِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: ثَلَاثٌ وَعِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: إِثْنَا عَاشَرَ ثَمَانِيَةَ عَشْرَةَ سَنَةً. وَقِيلَ: خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً. فَاللهُ أَعْلَمُ.

الزُبَيْرِ، وَأَمَرَهُ بِإِجْلَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَأَجْلَاهُمْ فَرَحَلُوا إِلَى الشَّامِ، وَفِيهِمْ مَرْوَانٌ^١ وَابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ.

بَيْعَةُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ

وَلَمَّا انْتَقَلَتْ بَنُو أُمَيَّةَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ، اجْتَمَعُوا إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بَعْدَ مَوْتِ مُعَاوِيَةَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ. وَقَدْ كَانَ عَزَمَ عَلَى أَنْ يُبَاعِعَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ بِدِمَشْقَ. فَلَمَّ يَزَلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ وَالْحُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرٍ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، حَتَّى ثَنَّوْهُ عَنْ رَأْيِهِ، وَحَدَّرُوهُ مِنْ دُخُولِ سُلْطَانَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَمُلْكِهِ إِلَى الشَّامِ، وَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ شَيْخٌ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا؛ فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ. وَالتَفَّ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَعَ قَوْمِهِ بَنِي أُمَيَّةَ وَمَعَ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَوَافَقَهُمْ، وَجَعَلَ يَقُولُ: مَا فَاتَ شَيْءٌ.

^١ أبو عبد الملك مروان بن الحكم بن أبي العاص الأمويّ القرشيّ، (ولد في ٢ هـ) وهو رابع خلفاء الدولة الأموية في دمشق حيث حكم أقل من سنة (٦٤ هـ - ٦٥ هـ / ٦٨٤ - ٦٨٥ م) وهو مؤسس الدولة الأموية الثانية بعد انتقال الخلافة من البيت الشفياني إلى البيت المرواني، ورغم قصر مدّة حكمه، امتازت ذريّة مروان بن الحكم بأنّها السلالة التي حكمت العالم الإسلامي بين عام ٦٨٥ و ٧٥٠م، ثم حكمت الأندلس بعد زوالها من قبل العباسيين بين عامي ٧٥٦ و ١٠٣١م.

الدولة الأموية الثانية (المروانية: ٦٤ - ١٣٢ هـ)

وَكَتَبَ ابْنُ زِيَادٍ إِلَى مَرْوَانَ يَأْمُرُهُ أَنْ يُظْهِرَ دَعْوَتَهُ، فَدَعَا إِلَى نَفْسِهِ، وَتَزَوَّجَ بِأُمِّ حَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، وَهِيَ أُمُّ هَاشِمِ بْنِ أَبِي هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَعَظَّمَ أَمْرَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ، وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَسَارَ إِلَى مَرْجِ رَاهِطٍ نَحْوِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ وَهَرَمَةَ، ثُمَّ جِيءَ بِرَأْسِ الضَّحَّاكِ. وَاسْتَقَرَّ مُلْكُ الشَّامِ بِيَدِ مَرْوَانَ. وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ فِي الْمُلْكِ إِلَّا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ^١.

خِلاَفَةُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ

بُويعَ لَهُ بِالْخِلاَفَةِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ فِي ثَالِثِ رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، سَنَةَ حَمْسٍ وَسِتِّينَ، جُدِدَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ بِدِمَشْقَ وَمِصْرَ وَأَعْمَالِهَا، فَاسْتَقَرَّتْ يَدُهُ عَلَى مَا كَانَتْ يَدُ أَبِيهِ عَلَيْهِ.

بِنَاءُ عَبْدِ الْمَلِكِ قِبَةَ الصَّخْرَةِ مَكَايِدَةً لِابْنِ الزُّبَيْرِ

وَقَدْ ابْتَدَأَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بِنَاءَ الْقُبَّةِ عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَعِمَارَةَ الْجَمَاعِ الْأَقْصَى، وَكَمَلَتْ عِمَارَتُهُ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ كَانَ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى مَكَّةَ، وَكَانَ يَخْطُبُ فِي أَيَّامِ

^١ بدأت الدولة الأموية الثانية بمروان بن الحكم وانتهت بمروان بن محمد.

مَنَى وَعَرَفَةَ، وَمُقَامِ النَّاسِ بِمَكَّةَ، وَيَنَالُ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَيَذْكُرُ مَسَاوِيَّ بَنِي مَرْوَانَ، وَيَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ الْحَكَمَ^١ وَمَا نَسَلَ، وَإِنَّهُ طَرِيدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَعِينُهُ، وَكَانَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ فَصِيحًا، فَمَالَ مُعْظَمَ أَهْلِ الشَّامِ إِلَيْهِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ، فَمَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْحُجِّ فَضَجُّوا، فَبَنَى لَهُمُ الْقُبَّةَ عَلَى الصَّخْرَةِ وَالْجَمَاعِ الْأَقْصَى؛ لِيَسْغَلَهُمْ بِذَلِكَ عَنِ الْحُجِّ وَيَسْتَعِطِفَ قُلُوبَهُمْ، وَكَانُوا يَقْفُونَ عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَيَطُوفُونَ حَوْلَهَا كَمَا يَطُوفُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَيَنْحَرُونَ يَوْمَ الْعِيدِ وَيَحْلِفُونَ رُءُوسَهُمْ، فَفَتَحَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ تَشْنِيعِ ابْنِ الزُّبَيْرِ عَلَيْهِ، فَكَانَ يُشْنِعُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ وَيَقُولُ: ضَاهَى بِهَا فِعْلَ الْأَكَّاسِرَةِ فِي إِيْوَانِ كِسْرَى، وَالْخُضْرَاءَ كَمَا فَعَلَ مُعَاوِيَةُ^٢، وَنَقَلَ الطَّوْفَ مِنْ بَيْتِ اللَّهِ إِلَى قِبْلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَلَمَّا أَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ بِنَاءَهَا سَارَ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَعَهُ الْأَمْوَالُ وَالْعُمَّالُ، وَوَكَّلَ بِالْعَمَلِ رَجَاءَ بْنَ حَيَوَةَ، وَيَزِيدَ بْنَ سَلَامٍ مَوْلَاهُ، وَجَمَعَ الصُّنَّاعَ وَالْمُهَنْدِسِينَ فَأَمَرَهُمْ فَصَوَّرُوا لَهُ الْقُبَّةَ فِي صَحْنِ الْمَسْجِدِ فَأَعْجَبَهُ، وَبَنَى لِلْمَالِ بَيْتًا شَرْقِيَّ الْقُبَّةِ، وَشَحَنَهُ بِالْمَالِ، وَأَمَرَ رَجَاءَ بْنَ حَيَوَةَ، وَيَزِيدَ أَنْ يُفْرِغَا

^١ جد عبد الملك بن مروان.

^٢ قصر الخضراء من القصور الأموية في مدينة دمشق، بناه معاوية بن أبي سفيان أيام ولايته في دمشق، كدار للحكم، يقع قبلي المسجد الأموي الكبير، وبنى فيه قبة خضراء فعرف القصر بعدها بهذا الاسم: قصر الخضراء وسكنها معاوية أربعين سنة.

الْأَمْوَالَ إِفْرَاغًا، وَلَا يَتَوَقَّفَا فِيهِ، فَبَثُوا النَّفَقَاتِ وَأَكْثَرُوا، فَبَنُوا الْقُبَّةَ الَّتِي هِيَ
 الْيَوْمَ قَائِمَةٌ، وَبَنُوا مِنْ نَاحِيَةِ الْقِبْلَةِ سَبْعَ قِيَابٍ، وَالْقُبَّةُ الَّتِي بَاقِيَةُ الْيَوْمِ عَلَى
 الْمِحْرَابِ هِيَ أَوْسَطُهَا، وَلَمَّا تَمَّ بِنَاءُ الْقُبَّةِ عَمِلَ لَهَا جِلَالَيْنِ^١: أَحَدُهُمَا مِنْ
 لَبُودٍ أَحْمَرَ لِلشِّتَاءِ، وَالْآخَرُ مِنْ أَدَمٍ لِلصَّيْفِ^٢، وَحَفَّ الصَّخْرَةَ بِدَرَارِيزٍ مِنْ
 السَّاجِ^٣ الْمُطَعَّمِ بِالْيَشْمِ^٤، وَخَلَفَ الدَّرَارِيزِ سُتُورٌ مِنَ الدِّيْبَاجِ مُرْحَاةً بَيْنَ
 الْعُمْدِ، وَكَانَتِ السَّدَنَةُ كُلَّ حَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ يَدُوبُونَ الْمِسْكَ، وَالْعَنْبَرَ وَالْمَاوَرِدَ
 وَالرَّعْفَرَانَ وَيَعْمَلُونَ مِنْهُ عَالِيَةً^٥، وَيَحْمَرُّوْنَهَا مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ يَدْخُلُ الْحَدْمُ الْحَمَّامَ
 مِنَ اللَّيْلِ فَيَعْتَسِلُونَ وَيَتَطَيَّبُونَ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابَ الْوَشِيِّ، وَيَشُدُّونَ أَوْسَاطَهُمْ
 بِالْمَنَاطِقِ الْمُحَلَّاةِ بِالذَّهَبِ، وَيُخْلِقُونَ الصَّخْرَةَ^٦، ثُمَّ يَضْعُونَ الْبُحُورَ فِي مَجَامِرِ
 الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَفِيهَا الْعُودُ الْقَمَارِيُّ الْمَعْلِيُّ بِالْمِسْكَ، وَيُرْخِي السَّدَنَةَ
 السُّتُورَ فَتَخْرُجُ تِلْكَ الرَّائِحَةُ فَتَمَلَأُ الْمَدِينَةَ كُلَّهَا، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: أَلَا إِنَّ
 الصَّخْرَةَ قَدْ فُتِحَتْ، فَمَنْ أَرَادَ الزِّيَارَةَ فَلْيَأْتِ، فَيُقْبَلُ النَّاسُ مُبَادِرِينَ، فَيُصَلُّونَ

^١ الجلال: العطاء.

^٢ الأدم: جمع أديم، وهو الجلد.

^٣ السَّاجُ: ضربٌ من الشجر الطويل وخشبه صلب. والجمع: سيجان.

^٤ اليشمُ: معادن صلدة ملونة تتدرج ألوانها من الأبيض إلى الأخضر الأذكن.

^٥ العَالِيَةُ: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.

^٦ يدهنوها.

وَيَخْرُجُونَ، فَمَنْ وُجِدَتْ مِنْهُ رَائِحَةُ الْبُحُورِ قَالَ النَّاسُ: هَذَا كَانَ الْيَوْمَ فِي الصَّحْرَةِ.

وَأَبْوَابُ الصَّحْرَةِ أَرْبَعَةٌ، عَلَى كُلِّ بَابٍ عَشْرَةٌ مِنَ الْحُجَبَةِ، الْبَابُ الشَّمَالِيُّ يُسَمَّى بَابَ الْجَنَّةِ، وَالشَّرْقِيُّ بَابَ إِسْرَائِيلَ، وَالغَرْبِيُّ بَابَ جَبْرَيْلَ، وَالْقِبْلِيُّ بَابَ الْأَقْصَى، وَكَانُوا يُشْعَلُونَهَا بِدُهْنِ الْبَانِ، وَلَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ غَيْرَ أَيَّامِ الزِّيَارَةِ سِوَى الْحَدَمِ، وَكَانَ لِلْحَرَمِ عِشْرُونَ بَابًا، وَكَانَ فِيهِ أَلْفَ عَمُودٍ مِنَ الرُّحَامِ، وَفِي السُّفُوفِ سِتُونَ أَلْفَ حَشْبَةِ مِنَ السَّاجِ الْمَنْفُوشِ، وَمِنَ الْقَنَادِيلِ خَمْسَةُ آلَافٍ قَنَدِيلٍ، وَكَانَ فِيهِ أَرْبَعُمِائَةَ سِلْسِلَةٍ، كُلُّ سِلْسِلَةٍ أَلْفُ رِطْلٍ شَامِيٍّ، طُولُ السَّلَاسِلِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ، وَكَانَ يُوقَدُ فِي الصَّحْرَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ مِائَةٌ شَمْعَةٍ، وَكَذَا فِي الْأَقْصَى، وَكَانَ يُوقَدُ فِي الْقَنَادِيلِ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ الرِّيتِ الْمَفْتُولِ فَنَطَارًا، وَكَانَ فِي الْحَرَمِ خَمْسُونَ قُبَّةً، وَمِنَ الْأَوْحِ الرَّصَاصِ سَبْعُونَ أَلْفَ لَوْحٍ، وَكَانَ فِي الْحَرَمِ ثَلَاثُمِائَةَ خَادِمٍ ابْتَاعُوا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مِنَ الْخُمْسِ، كُلَّمَا مَاتَ وَاحِدٌ قَامَ وَلَدُهُ بَعْدَهُ مَقَامَهُ، وَيَقْبِضُونَ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ شَهْرًا بِشَهْرٍ، وَكَانَ فِي الْحَرَمِ مِائَةٌ صَهْرِيحٍ، وَكَانَتْ صَفَائِحُ الْقُبَّةِ وَسَقْفُ الْأَقْصَى مِنْ صَفَائِحِ الذَّهَبِ عِوَضَ الرَّصَاصِ، وَكَذَلِكَ أَبْوَابُ الْقُبَّةِ وَصَفَائِحُهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَمَلَ الْبِنَاءُ فَضَلَ مِنَ الْمَالِ ثَلَاثُمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَقِيلَ سِتْمِائَةَ أَلْفٍ.

وَكَتَبَ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ، وَيَزِيدُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يُعْرِفَانِهِ بِذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا: قَدْ جَعَلْتُهُ لَكُمْ عِوَضًا عَنْ تَعْبِكُمَا. فَكَتَبَا إِلَيْهِ: إِنَّمَا قُمْنَا بِهَذَا الْبَيْتِ لِلَّهِ

تَعَالَى، فَلَا نَقْبُلُ عَلَى ذَلِكَ عَرْضَ الدُّنْيَا، وَلَوِ دِدْنَا أَنْ نَزِيدَ فِيهِ مِنْ حَلِي نِسَائِنَا. فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ إِذَا أَبَيْتُمْ ذَلِكَ فَأَفْرِغَاهُ عَلَى الْقُبَّةِ وَالْأَبْوَابِ، فَمَا كَانَ أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَأَمَّلَ الْقُبَّةَ مِمَّا عَلَيْهَا مِنَ الذَّهَبِ. فَلَمَّا كَانَ فِي خِلَافَةِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ قَدِمَ الْقُدْسَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ فَوَجَدَ الْأَقْصَى وَقِبَابُهُ تَشْكُو مِنَ الْحَرَابِ، فَأَمَرَ بِقُلْعِ الصَّفَائِحِ الَّتِي عَلَى الْقُبَّةِ وَالْأَبْوَابِ، وَأَنْ يُعَمَّرَ بِهَا مَا تَشَعَّثَ فِي الْحَرَمِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ طَوِيلًا فَأَمَرَ أَنْ يُؤَخَذَ مِنْ طُولِهِ وَيُرَادَ فِي عَرْضِهِ، وَلَمَّا كَمَلَ الْبِنَاءُ كَتَبُوا عَلَى الْقُبَّةِ مِمَّا يَلِي الْبَابَ الْقُبْلِيِّ مِنْ جِهَةِ الْأَقْصَى بِالنَّصِّ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ: بَنَى هَذِهِ الْقُبَّةَ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَكَانَ طُولُ الْمَسْجِدِ مِنَ الْقِبْلَةِ إِلَى الشَّمَالِ سَبْعِمِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَسِتِّينَ ذِرَاعًا، وَعَرْضُهُ أَرْبَعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ ذِرَاعًا، وَكَانَ فَتْحُ الْقُدْسِ سَنَةَ سِتِّ عَشْرَةَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ^١.

مَقْتَلُ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ

وكان عملُ عبدِ الملِكِ بنِ مروانَ بعدَ استتبابِ الأمرِ له أن سارَ في جُنُودِ هَائِلَةٍ مِنَ الشَّامِ قَاصِدًا مُصْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ بِالْعِرَاقِ، وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ السَّرَايَا، وَدَخَلَ بَعْضُ مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَى الْبَصْرَةِ فَدَعَا أَهْلَهَا إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فِي السِّرِّ، فَاسْتَجَابَ لَهُ بَعْضُهُمْ.

^١ قَالَه صَاحِبُ مِرَاةِ الرِّمَانِ.

وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِعُضِّ أُمْرَائِهِ أَنْ يُقِيمَ بِالشَّامِ، وَأَنْ يَبْعَثَ إِلَى مُصْعَبِ جَيْشًا، فَأَبَى، وَقَالَ: لَعَلِّي أَبْعَثُ رَجُلًا شَجَاعًا لَا رَأْيَ لَهُ، أَوْ مَنْ لَهُ رَأْيٌ وَلَا شَجَاعَةَ لَهُ، وَإِنِّي أَجِدُ مِنْ نَفْسِي بَصْرًا بِالْحَرْبِ وَشَجَاعَةً. فَسَارَ بِنَفْسِهِ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِمَقْتَلِ مُصْعَبٍ.

وَلَمَّا قَتَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ مُصْعَبًا اذْتَحَلَ إِلَى الْكُوفَةِ فَنَزَلَ النُّحَيْلَةَ، فَوَفَدَتْ عَلَيْهِ الْوُفُودُ، بِهَا مِنْ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ وَسَادَاتِ الْعَرَبِ، وَجَعَلَ يُخَاطِبُهُمْ بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَاسْتِشْهَادٍ بِأَشْعَارٍ حَسَنَةٍ، وَبَايَعَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ، وَفَرَّقَ الْعِمَالَاتِ فِي النَّاسِ، وَوَلَّى الْكُوفَةَ أَحَاهُ بِشَرَ بْنِ مَرْوَانَ. ثُمَّ رَجَعَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الشَّامِ.

الحجاج وحصار مكة الثاني

ثُمَّ بَعَثَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ الثَّقَفِيَّ^١ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ؛ لِإِحْصَارِهِ بِمَكَّةَ، وَكَانَ السَّبَبُ فِي بَعْثِهِ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ

^١ الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ - ٩٥ هـ): قائد وسياسي أموي، وُلِدَ وَنَشَأَ فِي الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زبياع نائب عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قَلَّدَهُ عبد الملك بن مروان أمر عسكره. أمره عبد الملك بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيشٍ كبيرٍ وقتل عبد الله وفرَّقَ جموعه، فولَّاهُ عبدُ الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى الكوفة في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. بنى مدينة واسط ومات بها، وأجرى على قبره الماء، فاندرس. وكان سَفَاكًا سَفَّاحًا مُرْعِبًا بِاتِّفَاقِ مُعْظَمِ الْمُؤَرِّخِينَ. عُرفَ بِالْمُبِيرِ أَيِ الْمَيْدِ.

مَرَوَانَ لَمَّا أَرَادَ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّامِ بَعْدَ قَتْلِهِ مُصْعَبًا وَأَخَذِهِ الْعِرَاقَ، نَدَبَ النَّاسَ إِلَى قِتَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ إِلَى ذَلِكَ، فَقَامَ الْحَجَّاجُ وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا لَهُ. فَبَعَثَهُ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ أَمَانًا لِأَهْلِ مَكَّةَ إِنْ هُمْ أَطَاعُوا.

مَقْتَلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَسَبْعِينَ، وَفِيهَا كَانَ مَقْتَلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى يَدَيْ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ، الْمُبِيرِ^١، فَبَحَهُ اللَّهُ وَأَحْرَاهُ. فَلَمَّا اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ، اسْتَهَلَّتْ وَأَهْلُ الشَّامِ مُحَاصِرُونَ أَهْلَ مَكَّةَ، وَقَدْ نَصَبَ الْحَجَّاجُ الْمُنْجَبِقَ عَلَى مَكَّةَ؛ لِيَحْصُرَ أَهْلَهَا، حَتَّى يَخْرُجُوا إِلَى الْأَمَانِ وَالطَّاعَةِ لِعَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ مَعَ الْحَجَّاجِ حَلْقٌ قَدِمُوا عَلَيْهِ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَجَعَلُوا يَزْمُونَ بِالْمُنْجَبِقِ، فَقَتَلُوا حَلْقًا كَثِيرًا.

وَمَا زَالَ أَهْلُ مَكَّةَ يَخْرُجُونَ إِلَى الْحَجَّاجِ بِالْأَمَانِ، وَيَبْتَزُّوْنَ ابْنَ الزُّبَيْرِ، حَتَّى خَرَجَ إِلَيْهِ قَرِيبٌ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ، فَأَمَّتْهُمْ، وَقَالَ أَصْحَابُ ابْنِ الزُّبَيْرِ جِدًّا، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِمَقْتَلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

^١ سبق الحديث الشريف: " يخرج من ثقيف كذابان، الآخر منهما أشرُّ من الأول وهو مُبِيرٌ". أما الكذاب فهو المختار الثقفي مدعي النبوة، وأما المبير فهو الحجاج، ومعنى المبير: المبيد سفاك الدماء.

الحجاج ينقض ما بناه ابن الزبير في الكعبة

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ أَرْبَعٌ وَسَبْعِينَ، وَفِيهَا عَزَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ طَارِقَ بْنَ عَمْرٍو عَنِ
إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ، وَأَضَافَهَا إِلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ، فَقَدِمَهَا الْحَجَّاجُ،
فَأَقَامَ بِهَا شَهْرًا، ثُمَّ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي صَفَرٍ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثَةَ
أَشْهُرٍ، وَبَنَى فِي بَنِي سَلَمَةَ مَسْجِدًا، وَهُوَ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ الْيَوْمَ.
وَفِيهَا نَقَضَ الْحَجَّاجُ بُنْيَانَ الْكَعْبَةِ الَّذِي كَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بَنَاهُ، وَأَعَادَهَا عَلَى
بُنْيَانِهَا الْأَوَّلِ^١.

١ قال ابن كثير: فُلْتُ: الْحَجَّاجُ لَمْ يَنْقُضْ بُنْيَانَ الْكَعْبَةِ جَمِيعَهُ؛ بَلْ إِتَمَّ هَدْمَ الْحَائِطِ الشَّامِيِّ، حَتَّى
أَخْرَجَ الْحِجْرَ مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ سَدَّهُ، وَأَدْخَلَ فِي جُوفِ الْكَعْبَةِ مَا فَضَلَ مِنَ الْأَحْجَارِ، وَتَقَيَّتِ الْحَيْطَانُ
الثَّلَاثَةُ بِجَاهِهَا؛ وَهَذَا بَقِيَ الْبَابَانِ الشَّرْقِيُّ وَالْعَرَبِيُّ وَهُمَا مُلْصَقَانِ بِالْأَرْضِ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ إِلَى يَوْمِنَا
هَذَا، وَلَكِنْ سَدَّ الْعَرَبِيُّ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَرَدَمَ أَسْفَلَ الشَّرْقِيِّ، حَتَّى جَعَلَهُ مُرْتَفِعًا كَمَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمْ
يَبْلُغِ الْحَجَّاجُ وَلَا عَبْدُ الْمَلِكِ مَا كَانَ بَلَغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنَ الْعِلْمِ النَّبَوِيِّ، الَّذِي كَانَتْ أَخْبَرَتْهُ بِهِ خَالَتُهُ
أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا
تَقَدَّمَ ذَلِكَ - مِنْ قَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ - وَفِي رِوَايَةٍ: بِجَاهِلِيَّةٍ - لَنَقَضْتُ
الْكَعْبَةَ، وَأَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجْرَ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَلَأَلْصَقْتُهُمَا بِالْأَرْضِ، فَإِنَّ
قَوْمَكَ قَصُرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ، فَلَمْ يُدْخِلُوا فِيهَا الْحِجْرَ، وَلَمْ يُتِمِّمُوها عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَرَفَعُوا بَابَهَا
لِيُدْخِلُوا مِنْ شَاءُوا، وَيَتَعَوَّأَ مِنْ شَاءُوا» فَلَمَّا تَمَكَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِنَاهَا كَذَلِكَ، وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ الْمَلِكِ
هَذَا الْحَدِيثِ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: وَدِدْنَا أَنَا تَرَكْنَاهُ وَمَا تَوَلَّى مِنْ ذَلِكَ.

تولية المهلب بن أبي صفرة حرب الأزارقة

وفي هذه السنة ولي المهلب بن أبي صفرة^١ حرب الأزارقة عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يُجهز المهلب إلى الحوارج الأزارقة في جيوش من أهل البصرة والكوفة، ووجد^٢ بشر على المهلب في نفسه، حيث عينه عبد الملك في كتابه؛ فلم يجد بُدًّا من طاعته في تأميره على الناس في هذه العزوة، وما كان له من الأمر شيء، غير أنه أوصى أمير الكوفيين عبد الرحمن بن مخنف أن يستبد بالأمر دونه، وألا يقبل له رأياً ولا مشورة، فسار المهلب بأهل البصرة، وأمراء الأرباع^٣ معه على منازلهم، حتى نزل برامهرمز، فلم يقيم عليها إلا عشرًا حتى جاء نعي بشر بن مروان، وأنه مات بالبصرة، واستخلف عليها خالد بن عبد الله، فارتضى^٤ بعض الجيش، ورجعوا إلى البصرة، فبعثوا

^١ المهلب بن أبي صفرة بن سراق بن صبح العتكي الأزدي: وال من ولاة الأمويين على خراسان، استعمله الحجاج عاملاً على خراسان عام (٧٨هـ) وقام بفتوحات واسعة في بلاد ما وراء النهر فقد قاد المهلب حملة استولى من خلالها على إقليم الصغد وغزا خوارزم وافتتح جرجان وطبرستان وبذلك فرض سيطرة الدولة الأموية على أراض كثيرة فيما وراء النهر وكان لها أكبر الأثر في إثراء الحضارة الإسلامية، وقد برز في تلك المناطق علماء ومفكرون أمثال الخوارزمي والبخاري.

^٢ وجد: غضب.

^٣ الأرباع: أجزاء الجيش الأربعة: المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة. وعلى كل ربع أمير.

^٤ تفرقوا وانصرفوا عنه.

فِي آثَارِهِمْ مَنْ يُرُدُّهُمْ، وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْفَارِسِينَ يَتَوَعَّدُهُمْ إِنْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى أَمِيرِهِمْ، وَيَتَوَعَّدُهُمْ بِسَطْوَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَعَدَلُوا يَسْتَأْذِنُونَ عَمْرَو بْنَ حَرْثِثٍ فِي الْمَصِيرِ إِلَى الْكُوفَةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ: إِنَّكُمْ تَرَكْتُمْ أَمِيرَكُمْ، وَأَقْبَلْتُمْ عَاصِيْنَ مُخَالِفِينَ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِذْنٌ وَلَا إِمَامٌ وَلَا أَمَانٌ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ ذَلِكَ، أَقْبَلُوا إِلَى رِحَالِهِمْ فَرَكِبُوهَا، ثُمَّ سَارُوا إِلَى بَعْضِ الْبِلَادِ، فَلَمْ يَزَالُوا مُخْتَفِينَ بِهَا حَتَّى قَدِمَ الْحَجَّاجُ وَالْيَا عَلَى الْعِرَاقِ مَكَانَ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ قَرِيبًا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَزَلَ عَبْدِ الْمَلِكِ بُكَيْرَ بْنَ وَشَاحِ التَّمِيمِيِّ عَنِ إِمْرَةِ خُرَاسَانَ، وَوَلَّاهَا أُمَيَّةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدِ الْقُرَشِيِّ؛ لِيَجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَإِنَّهُ قَدْ كَادَتْ الْفِتْنَةُ تَتَفَاقَمُ بِخُرَاسَانَ بَعْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَازِمٍ، فَلَمَّا قَدِمَ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ خُرَاسَانَ عَرَضَ عَلَى بُكَيْرِ بْنِ وَشَاحٍ أَنْ يَكُونَ عَلَى شُرْطَتِهِ، فَأَبَى، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُؤَلِّيَهُ طُحَارِسْتَانَ، فَخَوَّفُوهُ مِنْهُ أَنْ يَخْلَعَهُ هُنَالِكَ، فَتَرَكَهُ مُقِيمًا عِنْدَهُ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا الْحَجَّاجُ، وَهُوَ عَلَى إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالْيَمَنِ وَالْيَمَامَةَ.

موت عبد الله بن عمر بن الخطاب

ومات في هذه السنة عبد الله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي، أبو عبد الرحمن، المكي ثم المدني.

أَسْلَمَ قَدِيمًا مَعَ أَبِيهِ، وَلَمْ يَبْلُغِ الْخُلْمَ، وَهَاجَرَ وَعُمُرُهُ عَشْرُ سِنِينَ، وَقَدِ اسْتُصْغِرَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَجَازَهُ^١، وَهُوَ ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً، فَشَهِدَهَا وَمَا بَعْدَهَا، وَهُوَ شَقِيقُ حَفْصَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أُمُّهُمَا زَيْنَبُ بِنْتُ مَطْعُونٍ، أُحْتُ عَثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رُبْعَةً مِنَ الرِّجَالِ، آدَمَ، لَهُ جُمَّةٌ تَضْرِبُ إِلَى مَنْكَبَيْهِ، جَسِيمًا، يَخْضِبُ بِالصُّفْرَةِ، وَيُغْفِي شَارِبَهُ، وَكَانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلَاةٍ، وَيُدْخِلُ الْمَاءَ فِي أَصُولِ عَيْنَيْهِ، وَقَدِ أَرَادَهُ عَثْمَانُ عَلَى الْقِضَاءِ فَأَبَى ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ أَبُوهُ، وَشَهِدَ الْيَرْمُوكَ وَالْقَادِسيَّةَ وَجُلُولَاءَ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ وَقَائِعِ الْفُرْسِ، وَشَهِدَ فَتْحَ مِصْرَ، وَاحْتَطَّ بِهَا دَارًا، وَقَدِمَ الْبَصْرَةَ وَشَهِدَ غَزْوَ فَارِسَ، وَوَرَدَ الْمَدَائِنَ مِرَارًا، وَكَانَ عُمُرُهُ يَوْمَ مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ إِذَا أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ تَقَرَّبَ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ عَيْدُهُ قَدْ عَرَفُوا ذَلِكَ مِنْهُ، فَرُبَّمَا لَزِمَ أَحَدَهُمُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَأَهُ ابْنُ عُمَرَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَعْتَقَهُ، فَيُقَالُ لَهُ: إِتْمَمَ يَخْدَعُونَكَ. فَيَقُولُ: مَنْ خَدَعَنَا بِاللَّهِ انْخَدَعْنَا لَهُ. وَكَانَ لَهُ جَارِيَةٌ يُحِبُّهَا كَثِيرًا، فَأَعْتَقَهَا وَرَوَّجَهَا لِمَوْلَاهُ نَافِعٍ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَكَانَ لَهُ نَجِيبٌ^٢ اشْتَرَاهُ بِمَالٍ،

^١ أجازه النبي صلى الله عليه وسلم وقبله في المقاتلين.

^٢ جمل.

فَأَعَجَبَهُ لَمَّا رَكِبَهُ، فَقَالَ: يَا نَافِعُ، أَدْخِلْهُ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ. وَأَعْطَاهُ ابْنُ جَعْفَرٍ فِي نَافِعِ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، فَقِيلَ لَهُ: مَا تَنْتَظِرُ بِبَيْعِهِ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، هُوَ حُرٌّ لِرُجُوعِهِ لِلَّهِ. وَاشْتَرَى مَرَّةً غُلَامًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَأَعْتَقَهُ، فَقَالَ الْعُلَامُ: يَا مَوْلَايَ، قَدْ أَعْتَقْتَنِي فَهَبْ لِي شَيْئًا أَعِيشُ بِهِ. فَأَعْطَاهُ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَاشْتَرَى مَرَّةً خَمْسَةَ عِبِيدٍ، فَقَامَ يُصَلِّي فَقَامُوا حَلْفَهُ يُصَلُّونَ، فَقَالَ: لِمَنْ صَلَّيْتُمْ هَذِهِ الصَّلَاةَ؟ فَقَالُوا: لِلَّهِ! فَقَالَ: أَنْتُمْ أَحْرَارٌ لِمَنْ صَلَّيْتُمْ لَهُ. فَأَعْتَقَهُمْ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ مَا مَاتَ حَتَّى أَعْتَقَ أَلْفَ رَقَبَةٍ، وَرُبَّمَا تَصَدَّقَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَكَانَتْ تَمْضِي عَلَيْهِ الْأَيَّامُ الْكَثِيرَةُ وَالشَّهْرُ لَا يَذُوقُ فِيهِ لَحْمًا، وَمَا كَانَ يَأْكُلُ طَعَامَهُ إِلَّا وَعَلَى مَائِدَتِهِ يَتِيمٌ.

وَبَعَثَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ بِمِائَةِ أَلْفٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُبَايِعَ لِيَزِيدَ، فَمَا حَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَكَانَ يَثُورُ: إِنِّي لَا أَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا، فَمَا رَزَقَنِي اللَّهُ فَلَا أَرُدُّهُ، وَكَانَ فِي مُدَّةِ الْفِتْنَةِ لَا يَأْتِي أَمِيرٌ إِلَّا صَلَّى حَلْفَهُ، وَأَدَّى إِلَيْهِ زَكَاةَ مَالِهِ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِمَنَاسِكَ الْحَجِّ، وَكَانَ يَتَتَبَعُ آثَارَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلِّ مَكَانٍ صَلَّى فِيهِ، أَوْ قَعَدَ فِيهِ، حَتَّى إِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَتَعَاهَدُهَا، وَيَصُبُّ فِي أَصْلِهَا الْمَاءَ حَتَّى لَا تَيْبَسَ، وَكَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الْعِشَاءُ فِي جَمَاعَةٍ أَحْيَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكَانَ يَقُومُ أَكْثَرَ اللَّيْلِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ مَاتَ وَهُوَ فِي الْفَضْلِ مِثْلُ أَبِيهِ، وَكَانَ يَوْمَ مَاتَ خَيْرٌ مِنْ بَقِيٍّ، وَمَكَثَ سِتِّينَ سَنَةً يُفْتِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ.

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً، وَرَوَى عَنِ الصِّدِّيقِ، وَعَنْ عُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَسَعْدٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَحَفْصَةَ وَعَائِشَةَ أُمِّي الْمُؤْمِنِينَ، وَعَبْدَ اللَّهِ، وَعَنْهُ خَلَقَ مِنَ التَّابِعِينَ: مِنْهُمْ بَنُو حَمْرَةَ، وَبِلَالٌ، وَزَيْدٌ، وَسَالِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَعَبِيدُ اللَّهِ، وَعُمَرُ - إِنْ كَانَ مُحْفُوظًا - وَأَسْلَمٌ - مَوْلَى أَبِيهِ - وَأَنْسُ بْنُ سِيرِينَ، وَالْحَسَنُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَطَاوُسٌ، وَعُرْوَةُ، وَعَطَاءٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَابْنُ سِيرِينَ، وَالزُّهْرِيُّ، وَمَوْلَاهُ نَافِعٌ.

وَتَبَّتْ فِي "الصَّحِيحِ" عَنْ حَفْصَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ؛ لَوْ كَانَ يَفُومُ اللَّيْلَ» فَكَانَ بَعْدُ يَفُومُ اللَّيْلَ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ مِنْ أَمَلِكِ شَبَابٍ قُرَيْشٍ لِنَفْسِهِ عَنِ الدُّنْيَا ابْنُ عُمَرَ. وَقَالَ جَابِرٌ: مَا مِنَّا أَحَدٌ أَدْرَكَ الدُّنْيَا إِلَّا مَالَتْ بِهِ، وَمَالَ بِهَا، إِلَّا ابْنُ عُمَرَ، وَمَا أَصَابَ أَحَدٌ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا نَقَصَ مِنْ دَرَجَاتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ كَرِيمًا.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: مَاتَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمَ مَاتَ وَمَا مِنَ الدُّنْيَا أَحَدٌ أَحَبَّ أَنْ أَلْفَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْهُ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: لَا يُعَدُّلُ بِرَأْيِهِ، فَإِنَّهُ أَقَامَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتِّينَ سَنَةً، فَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَا مِنْ أَمْرِ أَصْحَابِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَقَالَ مَالِكٌ: بَلَغَ ابْنُ عُمَرَ سِتًّا وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَأَفْتَى فِي الْإِسْلَامِ سِتِّينَ سَنَةً، يَفْدُمُ عَلَيْهِ وَفُودُ النَّاسِ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ.

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: لَمَّا قُتِلَ عَثْمَانُ وَاسْتُخْلِفَ عَلِيٌّ، أَنَاهُ ابْنُ عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّكَ مَحْبُوبٌ إِلَى النَّاسِ، فَسِرْ إِلَى الشَّامِ فَقَدْ وَلَّيْتَكَهَا. فَقَالَ: أَدْرِكُكَ اللَّهُ وَقَرَاتِي وَصُحْبَتِي لِرَسُولِ اللَّهِ وَالرَّحِمِ إِلَّا مَا وَلَّيْتَ غَيْرِي وَأَعْفَيْتَنِي. فَأَبَى عَلَيْهِ، فَاسْتَعَانَ بِحَفْصَةَ أُخْتِهِ فَكَلَّمَتْهُ، ثُمَّ سَارَ مِنْ لَيْلَتِهِ إِلَى مَكَّةَ هَارِبًا مِنْهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِابْنِ عُمَرَ: أَلَا تَخْرُجُ إِلَى الشَّامِ فَيَبَايَعُوكَ؟ قَالَ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ؟ قَالَ: نُقَاتِلُهُمْ بِأَهْلِ الشَّامِ. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا يَسْرُنِي أَنْ لِي مَلِكُ الْأَرْضِ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ بَايَعُونِي، وَقَدْ قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا أَحِبُّ أَنَّهُمَا أَتَتْنِي وَرَجُلٌ يَقُولُ: لَا، وَآخَرُ يَقُولُ: نَعَمْ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ الْحِجَابُ وَهُوَ مَرِيضٌ فَعَمَّضَ عَيْنَيْهِ، فَكَلَّمَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ. تُوفِّيَ بِمَكَّةَ بَعْدَ مُنْصَرَفِ النَّاسِ مِنَ الْحَجِّ فِي آخِرِ السَّنَةِ، وَعُمُرُهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً^١، وَدُفِنَ بِالْمُحَصَّبِ، وَهُوَ آخِرُ مَنْ مَاتَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِمَكَّةَ.

وَكَانَ لَهُ مِنَ الْوَالِدِ: أَبُو بَكْرٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَوَأَقْدُ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَعُمَرُ وَحَفْصَةُ وَسَوْدَةُ، أُمَّهُمُ صَفِيَّةُ بِنْتُ أَبِي عُبَيْدٍ أُخْتُ الْمُخْتَارِ^٢، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَسَلَامُ،

^١ وقيل ست وثمانون.

^٢ المختار الثقفي الشهير بالكذاب.

وَعَبِيدُ اللَّهِ، وَحَمْرَةُ، وَأُمُّهُمْ أُمُّ وَلَدٍ، وَزَيْدٌ وَعَائِشَةُ لِأُمِّ وَلَدٍ، وَأَسْنَدُ الْفَيْنِ وَسِتِّمَائَةَ وَثَلَاثِينَ حَدِيثًا.

الحجاج في العراق

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ حَمْسٍ وَسَبْعِينَ، وَفِيهَا عَزَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ - أَخُو عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَهُوَ وَالِدُ مَرْوَانَ الْحِمَارِ - صَائِفَةً^١ الرُّومِ حِينَ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِ مَرْعَشٍ.

وَفِيهَا وَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ نِيَابَةَ الْمَدِينَةِ لِيَحْيَى بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، وَهُوَ عَمُّهُ، وَعَزَلَ عَنْهَا الْحَجَّاجَ.

وَفِيهَا وَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ الْحَجَّاجَ بْنُ يُوسُفَ نِيَابَةَ الْعِرَاقِ: الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْكِبَارِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ، فَرَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ أَنَّهُ لَا يَسُدُّ عَنْهُ أَهْلَ الْعِرَاقِ غَيْرُ الْحَجَّاجِ؛ لِسَطَوْتِهِ وَقَهْرِهِ وَقَسْوَتِهِ وَشَهَامَتِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ بِوِلَايَةِ الْعِرَاقِ، فَسَارَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْعِرَاقِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَاكِبًا عَلَى النَّجَائِبِ، فَنَزَلَ قَرِيبَ الْكُوفَةِ فَأَعْتَسَلَ وَاحْتَضَبَ، وَلَبَسَ نِيَابَهُ، وَتَقَلَّدَ سَيْفَهُ، وَأَلْفَى عَدَبَةَ الْعِمَامَةِ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، ثُمَّ سَارَ فَنَزَلَ دَارَ الْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَقَدْ أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ الْأَوَّلُ، فَحَرَجَ

^١ الصائفة اسم للغزوة التي تخرج في الصيف لفتح بلاد الأعداء، والجمع: صوائف، ومقابلها: الشوائف. وكان بنو أمية يخرجون لفتح بلاد الروم كل عام مرة في الصيف ومرة في الشتاء.

عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَأَمْسَكَ عَنِ الْكَلَامِ طَوِيلًا، وَقَدْ شَخَّصُوا إِلَيْهِ بِأَبْصَارِهِمْ، وَجَنَّتُوا عَلَى الرَّكْبِ، وَتَنَاوَلُوا الْحُصَى لِيُقْذِفُوهُ بِهَا، وَقَدْ كَانُوا حَصَبُوا الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ، فَلَمَّا سَكَتَ أَهْتَتَهُمْ، وَأَحْبُوا أَنْ يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ:

يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، يَا أَهْلَ الشِّتِّاقِ، وَيَا أَهْلَ التَّفَاقِ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، وَاللَّهِ إِنْ كَانَ أَمْرُكُمْ لِيَهْمُنِي قَبْلَ أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمْ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ بِي^١، فَأَجَابَ دَعْوَتِي، إِلَّا أَيَّ سِرِّتِ الْبَارِحَةِ فَسَقَطَ مِنِّي سَوْطِي الَّذِي أُؤْذِيكُمْ بِهِ، فَاتَّخَذْتُ هَذَا مَكَانَهُ - وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ - ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَأَجْرَنَّهُ فِيكُمْ جَرَّ الْمَرْأَةِ ذَيْلَهَا، وَلَأَفْعَلَنَّ بِكُمْ وَلَأَصْنَعَنَّ. فَلَمَّا سَمِعُوا كَلَامَهُ جَعَلَ الْحُصَى يَتَسَاقَطُ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

وَلَمَّا دَخَلَ الْكُوفَةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ظَهَرًا، أَتَى الْمَسْجِدَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَهُوَ مُعْتَجِرٌ بِعِمَامَةٍ حُمْرَاءَ، مُتَلَثِّمٌ بَطَرْفِهَا، ثُمَّ قَالَ: عَلَيَّ بِالنَّاسِ. فَحَسِبَهُ النَّاسُ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَهَمُّوا بِهِ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ قَامَ وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ:

^١ ابتلاهم الله به عقاباً لهم على مخالفة أمير المؤمنين عليٍّ وولده الحسن من بعده، وتسليمهم الحسين إلى أعدائه حتى قتلوه. (وما ربك بظلام للعبيد).

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعِ الثَّنَائِيَا ... مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي^١

ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَجْمَلُ الشَّرِّ بِحَمْلِهِ، وَأَحْدُوهُ بِنَعْلِهِ^٢، وَأَجْزِيهِ بِمِثْلِهِ، وَإِنِّي
لَأَرَى رُءُوسًا قَدْ أَيْنَعَتْ وَحَانَ قِطَافُهَا، وَإِنِّي لِأَنْظُرُ إِلَى الدِّمَاءِ تَتَرَفَّرُقُ بَيْنَ
الْعَمَائِمِ وَاللِّحَى:

قَدْ شَمَّرْتُ عَنْ سَاقِهَا فَشَمَّرِي^٣

ثُمَّ أَنشَدَ أَيضًا:

هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدِّي زَيْمٌ قَدْ لَقَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمٌ^٤

^١ البيت لسُحَيْمِ بْنِ وَثِيلِ بْنِ عَمْرِو الرِّيَاحِيِّ اليربُوعِيِّ الحَنْظَلِيِّ التَّمِيمِيِّ. شاعر محضرم، عاش في الجاهلية والإسلام، وناهز عمره المائة، كان شريفاً في قومه نابه الذكر. له أخبار مع زياد بن أبيه ومفاخرة مع غالب بن صعصعة والد الفرزدق. عاش أربعين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام وأشهر أشعاره أبيات مطلعها:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا.

^٢ يعني أقالبه بما يساويه.

^٣ "قَدْ شَمَّرْتُ عَنْ سَاقِهَا فَشَمَّرِي" مثل يضرب في الحث على الجد في الأمر. والتاء في "شمرت" للداهية، والخطاب في "شَمَّرِي" على التأنيث للنفس.

^٤ "هذا أوان الشد فاشتدي زيم" قال الأصمعي إن (زيم) في هذا الموضع اسم فرس، والمثل الذي المذكور شطر من رجز اختلف في قائله، فنسبه أبو تمام إلى رُشيد بن زُمَيْض، إلا أن الأغلبين ينسبون المثل للأخنس بن شهاب التعلبي. وقيل إن زيم كانت فرسه.

لَسْتُ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِحِزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمَّ
 قَدْ لَقَّهَا اللَّيْلُ بِعَصَلِيٍّ أَرْوَغَ حَرَّاجٍ مِنْ الدَّوِيِّ
 مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ

ثُمَّ قَالَ: إِنِّي يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَعْمُرُ بِغِمَارٍ، وَلَا يَقَعُّعُ لِي بِالشَّنَانِ، وَلَقَدْ
 فَرَزْتُ عَنْ دِكَاءٍ، وَجَرَيْتُ إِلَى الْعَايَةِ الْفُصُوى، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ
 بْنَ مَرْوَانَ نَثَرَ كِنَانَتَهُ، ثُمَّ عَجَمَ عِيدَانَهَا عُوْدًا عُوْدًا، فَوَجَدَنِي أَمْرَهَا عُوْدًا،
 وَأَصْلَبَهَا مَعْمَرًا، فَوَجَّهَنِي إِلَيْكُمْ، فَإِنَّكُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ فِي أُوْدِيَةِ الْفِتَنِ، وَسَنَنْتُمْ
 سُنَنَ الْعَجِيِّ، أَمَا وَاللَّهِ لِأَلْحُوتِكُمْ لِحَيِّ الْعُوْدِ، وَلَا عَصَبَتِكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ،
 وَلَا ضَرْبَتِكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفَيْتُ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا
 فَرَيْتُ، فَإِيَّايَ وَهَذِهِ الْجَمَاعَاتِ وَقِيْلًا وَقَالًا، وَاللَّهِ لَتَسْتَقِيمَنَّ عَلَيَّ سَبِيلِ الْحَقِّ،
 أَوْ لَأَدْعَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ شُعْلًا فِي جَسَدِهِ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ثَالِثَةِ
 مِنْ بَعَثِ الْمُهَلَّبِ - يَعْنِي الَّذِينَ كَانُوا قَدْ رَجَعُوا عَنْهُ لَمَّا سَمِعُوا بِمَوْتِ بَشْرِ
 بْنِ مَرْوَانَ كَمَا تَقَدَّمَ - سَفَكْتُ دَمَهُ^١، وَأَنْتَهَبْتُ مَالَهُ. ثُمَّ نَزَلَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ،
 وَلَمْ يَزِدْ عَلَيَّ ذَلِكَ.

وَيُقَالُ إِنَّ الْحِجَّاجَ قَالَ فِي حُطْبَتِهِ هَذِهِ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ، إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلًا
 { قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ

^١ سيأتي بعد قليل كيف قتل واحداً من تأخر ثلاثة أيام عن تنفيذ هذا الأمر.

فَأَذَاهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْحَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ { وَأَنْتُمْ أَوْلِيَاكُمْ، فَاسْتَوْثِقُوا
وَأَسْتَقِيمُوا، فَوَاللَّهِ لَأُذِيَقَنَّكُمْ الْهُوَانَ حَتَّى تَدْرُوا، وَلَا عَصَبَنَّاكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ
حَتَّى تَنْفَادُوا، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتُقْبِلَنَّ عَلَيَّ الْإِنْصَافِ، وَلَتَدَعُنَّ الْإِرْجَافَ وَكَانَ
وَكَانَ، وَأَخْبَرَنِي فَلَانٌ عَنْ فَلَانٍ، وَالْخَبْرُ وَمَا الْخَبْرُ، أَوْ لَأَهْبِرَنَّكُمْ بِالسَّيْفِ هَبْرًا
يَدْعُ النِّسَاءَ أَيَّامِي، وَالْأَوْلَادَ يَتَّامِي، حَتَّى تَمَشُوا السُّمَّهَى^١، وَتُقْلِعُوا عَنْ هَا
وَهَا. فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ بَلِيغٍ غَرِيبٍ، يَشْتَمِلُ عَلَى وَعِيدٍ شَدِيدٍ، لَيْسَ فِيهِ وَعْدٌ
بِخَيْرٍ.

فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ سَمِعَ تَكْبِيرًا فِي السُّوقِ، فَخَرَجَ حَتَّى جَلَسَ عَلَى
الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ،
إِنِّي سَمِعْتُ تَكْبِيرًا فِي الْأَسْوَاقِ، لَيْسَ بِالتَّكْبِيرِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّرْغِيبُ، وَلَكِنَّهُ
تَكْبِيرٌ يُرَادُ بِهِ التَّرْهِيْبُ، وَقَدْ عَصَفَتْ عَجَاجَةٌ تَحْتَهَا قَصْفٌ، يَا بَنِي اللَّكِيْعَةِ،
وَعَبِيدَ الْعَصَا، وَأَبْنَاءَ الْإِمَاءِ وَالْأَيَّامِي، أَلَا يَرَبُّعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ عَلَى ظَلْعِهِ،
وَيُحْسِنُ حَقْنَ دَمِهِ، وَيُبْصِرُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَأُوشِكُ أَنْ أُوقَعَ بِكُمْ
وَقَعَةً تَكُونُ نَكَالًا لِمَا قَبْلَهَا، وَأَدَبًا لِمَا بَعْدَهَا. فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَيْرُ بْنُ ضَابِيٍّ
التَّمِيمِيُّ ثُمَّ الْخَنْظَلِيُّ^٢، قَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، أَنَا فِي هَذَا الْبُعْثِ، وَأَنَا شَيْخُ

^١ السُّمَّهَى: مشية العليل الكليل.

^٢ عُمَيْرُ بْنُ ضَابِيٍّ بن الحارث البرجمي الخنظلي التميمي: شاعر من سكان الكوفة. كان أبوه قد مات في سجن عثمان بن عفان، لقتله صبيًا بدابته، ولهجائه قومًا من الأنصار. وعلم الحجاج

كَبِيرٌ وَعَلِيلٌ، وَهَذَا ابْنِي هُوَ أَشْبُ مِنِّْي. قَالَ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عُمَيْرُ بْنُ ضَابِيٍّ التَّمِيمِيُّ. قَالَ: أَسَمِعْتَ كَلَامَنَا بِالْأَمْسِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَلَسْتَ الَّذِي عَزَا عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: وَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: كَانَ حَبَسَ أَبِي وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا. قَالَ: أَوْلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... فَعَلْتُ وَوَلَّيْتُ الْبُكَاءَ حَلَالَةً

ثُمَّ قَالَ الْحُجَّاجُ: إِنِّي لِأَحْسَبُ أَنَّ فِي قَتْلِكَ صَلاَحَ الْمِصْرَيْنِ. ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ إِلَيْهِ يَا حَرَسِيُّ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَضْرَبَ عُنُقَهُ، وَأَنْتَهَبَ مَالَهُ، وَأَمَرَ مُنَادِيًا فِي النَّاسِ: أَلَا إِنَّ عُمَيْرَ بْنَ ضَابِيٍّ تَأَخَّرَ بَعْدَ سَمَاعِ الْبِدَاءِ ثَلَاثًا، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ^١.

فَخَرَجَ النَّاسُ حَتَّى ازْدَحَمُوا عَلَى الْجِسْرِ، فَعَبَّرَ عَلَيْهِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ مَذْحِجٍ، وَخَرَجَتْ مَعَهُمُ الْعُرَفَاءُ حَتَّى وَصَلُوا بِهِمْ إِلَى الْمُهَلَّبِ،

التقفي بعد ذلك، وهو في الكوفة، أن عميراً هذا كان ممن دخل على «عثمان» يوم مقتله، ووطنه برجله، وأن أباه القائل:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكَتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالَةً

فأمر الحجاج بضرب عنقه.

^١ جعله عبرة لمن تلكأ في تنفيذ أمره بعد ثلاثة أيام.

وَأَخَذُوا مِنْهُ كِتَابًا بِوُصُولِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ الْمُهَلَّبُ: قَدِمَ الْعِرَاقَ وَاللَّهُ رَجُلٌ ذَكَرْتُ،
الْيَوْمَ قُوتِلَ الْعَدُوُّ.

وَبَعَثَ الْحَجَّاجُ الْحَكَمَ بْنَ أَيُّوبَ الثَّقَفِيَّ نَائِبًا عَلَى الْبَصْرَةِ مِنْ جِهَتِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ
يَشْتَدَّ عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَقَرَّ عَلَى قَضَاءِ الْكُوفَةِ شَرِيحًا، ثُمَّ رَكِبَ الْحَجَّاجُ
إِلَى الْبَصْرَةِ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْكُوفَةِ أَبَا يَعْفُورَ، وَوَلَّى قَضَاءَ الْبَصْرَةِ لِرِزَارَةَ بْنَ
أَوْفَى، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْكُوفَةِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ، وَأَقَرَّ عَمَّهُ يَحْيَى عَلَى نِيَابَةِ
الْمَدِينَةِ، وَعَلَى بِلَادِ حُرَّاسَانَ أُمَيَّةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ.

ثورة أهل البصرة والخوارج على الحجّاج

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَثَبَ النَّاسُ بِالْبَصْرَةِ عَلَى الْحَجَّاجِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَ مِنْ
الْكُوفَةِ، بَعْدَ قَتْلِ عُمَيْرِ بْنِ ضَابِيٍّ، وَقَامَ فِي أَهْلِ الْبَصْرَةِ بِخُطْبَةٍ نَظِيرَ مَا قَامَ فِي
أَهْلِ الْكُوفَةِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ الْأَكِيدِ، ثُمَّ أَتَى بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي يَشْكُرَ،
فَقِيلَ: هَذَا عَاصِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّ بِي فَتَقًا، وَقَدْ عَدَرَنِي بِشُرِّ بْنِ مَرْوَانَ،
وَهَذَا عَطَائِي مَرْذُودٌ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ. فَلَمْ يُثْبَلْ مِنْهُ وَأَمَرَ بِمُتْلِهِ فَقُتِلَ، فَفَرَعَ
أَهْلُ الْبَصْرَةِ، وَخَرَجُوا مِنَ الْبَصْرَةِ حَتَّى اجْتَمَعُوا عِنْدَ قَنْطَرَةِ رَامَهُرْمَزَ، وَعَلَيْهِمْ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْجَارُودِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْحَجَّاجُ - وَذَلِكَ فِي شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ
- فِي أَمْرَاءِ الْجَيْشِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ، فَاقْتَتَلُوا هُنَاكَ قِتَالًا شَدِيدًا، فَهَزَمَهُمُ الْحَجَّاجُ،

وَقَتَلَ أَمِيرُهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَارُودِ، فِي رُءُوسٍ مِنَ الْقَبَائِلِ مَعَهُ، وَأَمَرَ بِرُءُوسِهِمْ
فَنُصِبَتْ عِنْدَ الْجِسْرِ مِنْ رَامْهُرْمُزٍ، ثُمَّ بَعَثَ بِهَا إِلَى الْمُهَلَّبِ؛ فَقَوِيَ بِذَلِكَ،
وَضَعُفَ أَمْرُ الْخَوَارِجِ، وَأُرْسِلَ الْحَجَّاجُ إِلَى الْمُهَلَّبِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ
فَأَمَرَهُمَا بِمُناهِضَةِ الْأَزْرَاقَةِ، فَهَضَبَا بِمَنْ مَعَهُمَا إِلَى الْخَوَارِجِ الْأَزْرَاقَةِ فَأَجْلَوْهُمَ عَنْ
أَمَاكِنِهِمْ مِنْ رَامْهُرْمُزٍ بِأَيْسَرٍ قِتَالٍ، فَهَرَبُوا إِلَى أَرْضِ كَازُرُونَ مِنْ إِفْلِيمِ سَائِبُورَ،
وَسَارَ النَّاسُ وَرَاءَهُمْ، فَالتَقُوا فِي الْعَشْرِ الْأَخْرَ مِنْ رَمَضَانَ.

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ بَيَّتَ الْخَوَارِجُ الْمُهَلَّبَ مِنَ اللَّيْلِ، فَوَجَدُوهُ قَدْ تَحَصَّنَ بِمُحَنَدِ
حَوْلَ مُعَسْكَرِهِ، فَجَاءُوا إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدُوهُ غَيْرَ مُحْتَرِزٍ - وَكَانَ
الْمُهَلَّبُ قَدْ أَمَرَهُ بِالِاخْتِرَازِ بِمُحَنَدِ حَوْلَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ - فَاقْتَتَلُوا فِي اللَّيْلِ،
فَقَتَلَتِ الْخَوَارِجُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ مُحَمَّدٍ وَطَائِفَةً مِنْ جَيْشِهِ، وَهَزَمُوهُمْ هَزِيمَةً
مُنْكَرَةً.

وَلَمَّا التَمَى الْخَوَارِجُ مَعَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ كَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ لِعَشْرِ
بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ مِنَ الْخَوَارِجِ، وَحَمَلَتِ
الْخَوَارِجُ عَلَى جَيْشِ الْمُهَلَّبِ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى مُعَسْكَرِهِ، فَجَعَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ
مُحَنَدٍ يَمُدُّهُ بِالْحَيْلِ بَعْدَ الْحَيْلِ، وَالرِّجَالِ بَعْدَ الرِّجَالِ، فَحَمَلَتِ الْخَوَارِجُ إِلَى
مُعَسْكَرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَاقْتَتَلُوا مَعَهُ إِلَى اللَّيْلِ، فَمُتِلَ عَبْدُ
الرَّحْمَنِ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ، وَقُتِلَ مَعَهُ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ تَبَنَوْا مَعَهُ،
فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ جَاءَ الْمُهَلَّبُ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَدَفَنَهُ، وَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ

بِمَهْلِكِهِ، فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يُعْزِيهِ فِيهِ، فَنَعَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى النَّاسِ بِمِثِّي، وَأَمَرَ الْحَجَّاجُ مَكَانَهُ عَتَّابَ بْنَ وَرْقَاءَ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ الْمُهَلَّبَ، فَكَرِهَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَجِدْ بُدْأً مِنْ طَاعَةِ الْحَجَّاجِ، وَلَمْ يُمْكِنَهُ مُحَالَفَتُهُ، فَسَارَ إِلَى الْمُهَلَّبِ فَجَعَلَ لَا يُطِيعُهُ إِلَّا ظَاهِرًا، وَيَعْصِيهِ كَثِيرًا، ثُمَّ تَقَاوَلَا، فَهَمَّ الْمُهَلَّبُ أَنْ يُوقِعَ بَعْتَابَ، ثُمَّ حَجَزَ بَيْنَهُمَا النَّاسُ، فَكَتَبَ عَتَّابُ إِلَى الْحَجَّاجِ يَشْكُو الْمُهَلَّبَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الْمُهَلَّبُ مَكَانَهُ ابْنَهُ حَبِيبَ بْنَ الْمُهَلَّبِ.

وَفِيهَا حَرَجَ دَاوُدُ بْنُ النُّعْمَانِ الْمَازِنِيُّ بِنَوَاحِي الْبَصْرَةِ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ أَمِيرًا عَلَى سِرِّيَّةٍ فَقَتَلَهُ.

محاولة اغتيال الخوارج عبد الملك في الحج

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَحَرَّكَ صَالِحُ بْنُ مُسَرِّحٍ أَحَدُ بَنِي امْرِئِ الْقَيْسِ، وَكَانَ يَرَى رَأْيَ الصُّفْرِيَّةِ^١، وَقِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ حَرَجَ مِنَ الصُّفْرِيَّةِ، وَكَانَ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّهُ حَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَمَعَهُ شَيْبُ بْنُ يَزِيدَ، وَالْبَطِينُ، وَأَشْبَاهُهُمْ مِنْ رُءُوسِ الْخَوَارِجِ، وَاتَّفَقَ حَجُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَهَمَّ شَيْبُ بِالْفَتْكِ بِهِ، فَبَلَغَ عَبْدَ الْمَلِكِ ذَلِكَ مِنْ خَبَرِهِ، فَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الْحَجِّ أَنْ يَنْطَلِبَهُمْ، وَكَانَ صَالِحُ بْنُ مُسَرِّحٍ هَذَا يُكْثِرُ الدُّخُولَ إِلَى الْكُوفَةِ وَالْإِقَامَةَ بِهَا،

^١ إحدى فرق الخوارج.

وَكَانَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَارِ وَأَهْلِ الْمُوصِلِ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ، وَيُقْصُّ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ مُصَفَّرًا كَثِيرَ الْعِبَادَةِ، وَكَانَ إِذَا قَصَّ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيُصَلِّي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالرَّعْبَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَيُحْتُّ عَلَى ذِكْرِ الْمَوْتِ، ثُمَّ يَتَرَحَّمُ عَلَى الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِمَا ثَنَاءً حَسَنًا، وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ يَذْكُرُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَيَسُبُّهُ وَيَنَالُ مِنْهُ، وَيُنْكِرُ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ مِنْ جِنْسِ مَا كَانَ يُنْكِرُ عَلَيْهِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوهُ مِنْ فَجْرَةِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، ثُمَّ يَخْضُ أَصْحَابَهُ عَلَى الْخُرُوجِ مَعَ الْخَوَارِجِ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْتِكَارِ الْمُنْكَرِ الَّذِي قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ وَذَاعَ، وَيَهْوَنُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ، وَيَذُمُّ الدُّنْيَا وَأَمْرَهَا وَيُصَغِّرُهَا، فَالْتَفَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ شَيْبُ بْنُ يَزِيدَ الْخَارِجِيُّ يَسْتَبْطِئُهُ فِي الْخُرُوجِ، وَيَحْتُّهُ عَلَيْهِ، وَيَنْدُبُهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَدِمَ شَيْبُ عَلَى صَالِحٍ وَهُوَ بِدَارِا، فَتَوَاعَدُوا وَتَوَافَقُوا عَلَى الْخُرُوجِ فِي مُسْتَهْلٍ صَفَرٍ مِنَ السَّنَةِ الْآتِيَةِ - وَهِيَ سَنَةٌ سِتِّ وَسَبْعِينَ - وَقَدِمَ عَلَى صَالِحٍ شَيْبُ، وَأَخُوهُ مُصَادُّ، وَالْمَحَلَّلُ، وَالْفَضْلُ بْنُ عَامِرٍ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَبْطَالِ وَهُوَ بِدَارِا نَحْوُ مِائَةِ وَعِشْرَةَ أَنْفُسٍ، ثُمَّ وَثَبُوا عَلَى حَيْلٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ، فَأَخَذُوهَا وَتَقَوُّوا بِهَا، ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا سَنَدُّكُرُهُ فِي الْوَأْتِي بَعْدَهَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

اشتداد الخوارج في الجزيرة الفراتية

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سِتٌّ وَسَبْعِينَ، وَكَانَ فِي أَوَّلِهَا فِي مُسْتَهَلٍّ صَفَرٍ مِنْهَا لَيْلَةٌ الْأُرْبَعَاءِ اجْتِمَاعُ صَالِحِ بْنِ مُسَرِّحٍ^١ أَمِيرِ الصُّفْرِيَّةِ، وَشَيْبِ بْنِ يَزِيدٍ^٢ أَحَدِ شُجْعَانَ الْخَوَارِجِ، فَقَامَ فِيهِمْ صَالِحُ بْنُ مُسَرِّحٍ، فَأَمَرَهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ، وَأَلَّا يُقَاتِلُوا أَحَدًا حَتَّى يَدْعُوهُ إِلَى الدُّخُولِ مَعَهُمْ.

ثُمَّ مَالُوا إِلَى دَوَابِّ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ، نَائِبِ الْجَزِيرَةِ^٣ لِأَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَحْدَوْهَا فَتَقَوُّوا بِهَا، وَأَقَامُوا بِأَرْضِ دَارَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَحَصَّنَ مِنْهُمْ أَهْلُ

^١ صالح بن مسرح التميمي: مؤسس الخوارج الصفرية، والصفرية نسبة إلى صفرة وجوهرهم، من طول العباد، وكثرة الصوم. سكن دارا في الجزيرة، وتنقل بين الموصل، ونصيبين. دعا أصحابه إلى الخروج على الظلم، فوافق أصحابه، ووفد عليه شبيب الشيباني، وأصبح قائد جيشه. اشتبك مع أمير الجزيرة مروان بن محمد الأموي في معارك. بعث إليه الحجاج بن يوسف الحارث بن عميرة على رأس ٣٠٠٠ مقاتل، فسار إليهم في أرض الموصل وليس مع صالح إلا ٩٠ رجلاً وحصلت بينهم وقعة عظيمة صبر فيها الخوارج صبراً شديداً وقتل صالح بن مسرح في هذه الوقعة وذلك في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٧٦هـ، ثم خلفه شبيب على الخوارج فهزم الحارث بن عميرة ومن معه.

^٢ شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني: خرج في الموصل مع صالح بن مسرح على الحجاج الثقفي، فقتل صالح فنادى بالخلافة لنفسه فبايعه حوالي ١٢٠ شخصاً. كاد شبيب أن يهزم الحجاج لولا أن تدخل عبد الملك من الشام بجيش بقيادة سفيان بن الأبرد الكلي. فر شبيب ولكنه مات، قبل غرقاً.

^٣ الجزيرة الفراتية: اختصاراً الجزيرة، وتاريخياً إقليم أقور، منطقة واقعة بين الشام والعراق والأناضول، تشمل المنطقة اليوم شمال شرق سوريا وشمال غرب العراق وجنوب شرق تركيا وهي الجزء الشمالي

دَارًا وَنَصِيبِينَ وَسِنَجَارَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ نَائِبَ الْجَزِيرَةِ حَمْسَمَائَةَ
فَارِسٍ، عَلَيْهِمْ عَدِيُّ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ عُمَيْرَةَ، ثُمَّ زَادَهُ حَمْسَمَائَةَ أُخْرَى، فَسَارَ فِي
أَلْفٍ مِنْ حِرَانَ إِلَيْهِمْ، وَكَأَنَّمَا يُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ وَهُوَ يَنْظُرُ؛ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَلَدِ
الْخَوَارِجِ وَقُوَّتِهِمْ وَشِدَّةِ بَأْسِهِمْ، فَلَمَّا التَقَى مَعَ الْخَوَارِجِ هَزَمُوهُ هَزِيمَةً شَنِيعَةً
بَالِغَةً، وَاحْتَوُوا عَلَى مَا فِي مَعْسِكَرِهِ، وَرَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ فَعَضِبَ،
وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ أَلْفًا وَحَمْسَمَائَةَ مَعَ الْحَارِثِ بْنِ جَعُونََةَ، وَالْأَلْفَا وَحَمْسَمَائَةَ مَعَ خَالِدِ
بْنِ جَزْرِ السُّلَمِيِّ، وَقَالَ لَهُمَا: أَيُّكُمَا سَبَقَ إِلَيْهِمْ فَهُوَ الْأَمِيرُ عَلَى النَّاسِ.

فَسَارُوا إِلَيْهِمْ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ، وَالْخَوَارِجُ فِي نَحْوِ مِنْ مِائَةِ نَفْسٍ وَعَشْرَةَ
أَنْفُسٍ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى أَمَدٍ تَوَجَّهَ صَالِحٌ إِلَى خَالِدِ بْنِ جَزْرِ فِي شَطْرِ النَّاسِ،
وَوَجَّهَ شَيْبَا إِلَى الْحَارِثِ بْنِ جَعُونََةَ فِي الْبَاقِينَ، فَاقْتَتَلَ النَّاسُ فِي هَذَا الْيَوْمِ
قِتَالًا شَدِيدًا إِلَى اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ انْكَفَّ كُلُّ مَنْ الْفَرِيقَيْنِ عَنِ الْآخَرِ،
وَقَدْ قُتِلَ مِنَ الْخَوَارِجِ نَحْوُ السَّبْعِينَ، وَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَرْوَانَ نَحْوُ الثَّلَاثِينَ،
وَهَرَبَتِ الْخَوَارِجُ فِي اللَّيْلِ، فَخَرَجُوا مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَأَخَذُوا فِي أَرْضِ الْمَوْصِلِ،
وَمَضَوْا حَتَّى قَطَعُوا الدَّسْكَرَةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الْحَبَّاجُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مَعَ الْحَارِثِ
بْنِ عُمَيْرَةَ، فَسَارَ نَحْوَهُمْ حَتَّى لَحِقَهُمْ بِأَرْضِ الْمَوْصِلِ، وَلَيْسَ مَعَ صَالِحٍ سِوَى
تِسْعِينَ رَجُلًا، فَالْتَقَى مَعَهُمْ، وَقَدْ جَعَلَ صَالِحٌ أَصْحَابَهُ ثَلَاثَةَ كَرَادِيسٍ: فَهُوَ

من وادي الرافدين. يحدها من الشرق جبال زاغروس ومن الشمال جبال طوروس وإلى الجنوب
بادية الشام ومنخفضات الثرثار والحبانية.

فِي كُرْدُوسٍ، وَشَيْبٌ عَنْ يَمِينِهِ فِي كُرْدُوسٍ، وَسُوَيْدٌ بِنُ سُلَيْمَانَ عَنْ يَسَارِهِ فِي كُرْدُوسٍ، وَحَمَلٌ عَلَيْهِمُ الْحَارِثُ بِنُ عُمَيْرَةَ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ أَبُو الرِّوَاغِ الشَّكْرِيُّ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الزُّبَيْرُ بِنُ الْأَرْوَحِ التَّمِيمِيُّ، فَصَبَرَتِ الْخَوَارِجُ عَلَى قِتْلِهِمْ صَبْرًا شَدِيدًا، ثُمَّ انْكَشَفَ وَسُوَيْدٌ بِنُ سُلَيْمَانَ، ثُمَّ قَتَلَ صَالِحُ بِنُ مُسَرِّحٍ أَمِيرَهُمْ، وَصُرِعَ شَيْبٌ عَنْ فَرَسِهِ، فَالْتَفَّ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ الْخَوَارِجِ حَتَّى احْتَمَلُوهُ، فَدَخَلُوا بِهِ حِصْنًا هُنَالِكَ، وَقَدْ بَقِيَ مَعَهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فَأَحَاطَ بِهِمُ الْحَارِثُ بِنُ عُمَيْرَةَ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْرِقُوا الْبَابَ، فَفَعَلُوا، وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى مُعَسِكَرِهِمْ يَنْتَظِرُونَ حَرِيقَ الْبَابِ، فَيَأْخُذُونَ الْخَوَارِجَ قَهْرًا، فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ وَاطْمَأَنَّنُوا حَرَجَتْ عَلَيْهِمُ الْخَوَارِجُ مِنَ الْبَابِ عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلُولِ، فَبَيَّتُوا جَيْشَ الْحَارِثِ بِنُ عُمَيْرَةَ، فَفَقِلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَهَرَبَ النَّاسُ سِرَاعًا إِلَى الْمَدَائِنِ، وَاحْتَازَ شَيْبٌ وَأَصْحَابُهُ مَا فِي مُعَسِكَرِهِمْ، فَكَانَ جَيْشُ الْحَارِثِ بِنُ عُمَيْرَةَ أَوَّلَ جَيْشٍ هَزَمَهُ شَيْبٌ، وَكَانَ مَقْتَلُ صَالِحِ بِنِ مُسَرِّحٍ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

وَفِيهَا^١ دَخَلَ شَيْبٌ الْكُوفَةَ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ غَزَالَةُ^٢، وَذَلِكَ أَنَّ شَيْبًا جَرَتْ لَهُ فُصُولٌ يَطُولُ تَفْصِيلُهَا بَعْدَ مَقْتَلِ صَالِحِ بِنِ مُسَرِّحٍ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْخَوَارِجُ

^١ فِي سَنَةِ سِتِّ وَسَبْعِينَ.

^٢ غَزَالَةُ الشَّيْبَانِيَّةُ (ت ٧٧ هـ)، مِنْ شَهْرِيَّاتِ النِّسَاءِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفُرُوسِيَّةِ. امْرَأَةٌ شَيْبِ بْنِ يَزِيدِ بْنِ نَعِيمِ الشَّيْبَانِيِّ. وَوُلِدَتْ فِي الْمَوْصِلِ، وَخَرَجَتْ مَعَ زَوْجِهَا عَلِيَّ بْنِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ سَنَةَ ٧٦ هـ.

وَبَايَعُوهُ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ جَيْشًا آخَرَ، فَقَاتَلُوهُ فَهَزَمُوهُ ثُمَّ هَزَمَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ سَارَ فَحَاصَرَ الْمَدَائِنَ، فَلَمْ يَنْلُ مِنْهَا شَيْئًا، فَسَارَ فَأَخَذَ دَوَابَّ لِلْحَجَّاجِ مِنْ كَلَوَادَا، وَمِنْ عَزْمِهِ أَنْ يُبَيِّتَ أَهْلَ الْمَدَائِنِ، فَهَرَبَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْجُنْدِ إِلَى الْكُوفَةِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْفُلُّ إِلَى الْحَجَّاجِ جَهَّزَ جَيْشًا أَرْبَعَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ إِلَى شَيْبٍ، فَمَرُّوا عَلَى الْمَدَائِنِ، ثُمَّ سَارُوا فِي طَلَبِ شَيْبٍ، فَجَعَلَ شَيْبٌ يَسِيرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قَلِيلًا قَلِيلًا، وَهُوَ يُرِيهِمْ أَنَّهُ حَائِفٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ يَكُرُّ فِي كُلِّ وَقْتٍ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ فَيَكْسِرُهَا، وَيَنْهَبُ مَا فِيهَا، وَلَا يُوَاجِهُ أَحَدًا إِلَّا هَزَمَهُ، وَالْحَجَّاجُ يُلِحُّ فِي طَلَبِهِ، وَيُجَهِّزُ إِلَيْهِ السَّرَايَا وَالْبُعُوثَ وَالْمَدَدَ، وَشَيْبٌ لَا يُبَالِي بِأَحَدٍ، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِائَةٌ وَسِتُّونَ فَارِسًا، وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ.

ثُمَّ سَارَ مِنْ طَرِيقِ أُحْرَى حَتَّى وَاجَهَ الْكُوفَةَ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُحَاصِرَهَا، فَخَرَجَ الْجَيْشُ بِكَمَالِهِ إِلَى السَّبْحَةِ لِقِتَالِهِ، وَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَلَمْ يُبَالِ بِهِمْ، وَأَنْزَعَجَ النَّاسُ، وَخَافُوا مِنْهُ وَفَرَقُوا، وَهُمُومًا أَنْ يَدْخُلُوا الْكُوفَةَ خَوْفًا مِنْهُ، فَيَتَحَصَّنُوا فِيهَا مِنْهُ،

أيام ولاية الحجاج في العراق، فكانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال. أشهر أخبارها فرار «الحجاج» منها في إحدى الوقائع أو تحصنه منها حين أرادت دخول الكوفة، وقد عبّره بذلك الشعراء فقال أحدهم:

أسدٌ عليٌّ وفي الحروب نعامه رداء تجفل من صغير الصافر

هلاً برزت إلى "غزاة" في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

صدعت غزاة قلبه بفوارس تركت مدايره كأمس الدابر

حَتَّى قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ سُؤْيُدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي آثَارِهِمْ، وَقَدْ اقْتَرَبَ مِنْهُمْ، وَسَبَّيْبٌ نَازِلٌ بِالْكُوفَةِ بِالدَّيْرِ، لَيْسَ عِنْدَهُ خَبْرٌ مِنْهُمْ وَلَا خَوْفٌ، وَقَدْ أَمَرَ بِطَعَامٍ وَشِوَاءٍ أَنْ يُصْنَعَ لَهُ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ جَاءَكَ الْجُنْدُ فَأَذْرِكْ نَفْسَكَ. فَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى ذَلِكَ وَلَا يَكْتَرِثُ بِهِمْ، وَيَقُولُ لِلدَّهْقَانِ الَّذِي يُصْنَعُ لَهُ الطَّعَامُ: عَجَلْ بِهِ. فَلَمَّا اسْتَوَى أَكَلَهُ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةً تَامَّةً بِتَطْوِيلٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، ثُمَّ لَيْسَ دِرْعَهُ، وَتَقَلَّدَ سَيْفَيْنِ، وَأَخَذَ عَمُودَ حَدِيدٍ، ثُمَّ قَالَ: أَسْرِجُوا لِي الْبَغْلَةَ. فَقَالَ لَهُ أَحُوهُ مُصَادُّ: أَيْ هَذَا الْيَوْمَ تَرْكَبُ بَغْلَةً، وَقَدْ أَحَاطَ بِكَ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَرَكَبَهَا، ثُمَّ فَتَحَ بَابَ الدَّيْرِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا أَبُو الْمُدَلِّهِ، لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَتَقَدَّمَ إِلَى أَمِيرِ الْجَيْشِ الَّذِي تَقَدَّمُوا إِلَيْهِ، فَضْرَبَهُ بِالْعَمُودِ الْحَدِيدِ فَفَتَلَهُ، وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ الْمُجَالِدِ، وَحَمَلَ عَلَى الْجَيْشِ الْآخِرِ الْكَثِيفِ فَصَرَعَ أَمِيرَهُ، وَهَرَبَ النَّاسُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَجُّوا إِلَى الْكُوفَةِ، وَمَضَى سَبَّيْبٌ حَتَّى أَغَارَ عَلَى أَسْفَلِ الْفُرَاتِ، وَقَتَلَ جَمَاعَةً هُنَاكَ.

وَحَرَجَ الْحَجَّاجُ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْكُوفَةِ عُرْوَةَ بْنَ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ، ثُمَّ اقْتَرَبَ سَبَّيْبٌ مِنَ الْكُوفَةِ يُرِيدُ دُخُولَهَا، فَأَعْلَمَ الدَّهَاقِيُّ عُرْوَةَ بْنَ الْمُغِيرَةَ بِذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ، فَأَسْرَعَ الْحَجَّاجُ الْخُرُوجَ مِنَ الْبَصْرَةِ، وَقَصَدَ الْكُوفَةَ، فَأَسْرَعَ السَّيْرَ، وَبَادَرَهُ سَبَّيْبٌ إِلَى الْكُوفَةِ، فَسَبَقَهُ الْحَجَّاجُ إِلَيْهَا، فَدَخَلَهَا الْعَصْرَ، وَوَصَلَ سَبَّيْبٌ إِلَى الْمِرْبَدِ عِنْدَ الْعُرُوبِ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ دَخَلَ سَبَّيْبٌ الْكُوفَةَ، وَقَصَدَ قَصْرَ الْإِمَارَةِ، فَضْرَبَ بَابَهُ

بِعُمُودِهِ الْحَدِيدِ، فَأَثَرَتْ ضَرْبَتُهُ فِي الْبَابِ، فَكَانَتْ تُعْرَفُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ يُقَالُ: هَذِهِ ضَرْبَةُ شَيْبٍ، وَسَلَكَ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ، وَتَقَصَّدَ مَحَالَّ الْقَبَائِلِ، وَقَتَلَ رِجَالًا مِنْ رُؤَسَاءِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَشْرَافِهِمْ، مِنْهُمْ أَبُو سُلَيْمٍ وَالِدُ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، وَعَدِيُّ بْنُ عَمْرٍو، وَأَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَامِرِيِّ، فِي طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَكَانَ مَعَ شَيْبٍ امْرَأَتُهُ غَزَالَةٌ، وَكَانَتْ مَعْرُوفَةً بِالشَّجَاعَةِ، فَدَخَلَتْ مَسْجِدَ الْكُوفَةِ، وَجَلَسَتْ عَلَى مَنبَرِهِ، وَجَعَلَتْ تَذُمُّ بَنِي مَرْوَانَ.

وَنَادَى الْحَجَّاجُ فِي النَّاسِ: يَا حَيْلَ اللَّهِ اِرْكَبِي وَأَبْشِرِي. فَخَرَجَ شَيْبٌ مِنَ الْكُوفَةِ، فَجَهَّزَ الْحَجَّاجُ فِي أَثَرِهِ سِتَّةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ، فَسَارُوا وَرَاءَهُ، وَهُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يَنْعَسُ وَيَهْزُ رَأْسَهُ، وَفِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ شَيْبٌ، فَيَقْتُلُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً، حَتَّى قَتَلَ مِنْ جَيْشِ الْحَجَّاجِ خَلْقًا كَثِيرًا، وَقَتَلَ جَمَاعَةً مِنْ الْأَمْرَاءِ، مِنْهُمْ: زَائِدَةُ بْنُ قُدَامَةَ - قَتَلَهُ شَيْبٌ، وَهُوَ ابْنُ عِمِّ الْمُخْتَارِ - فَوَجَّهَ الْحَجَّاجُ مَكَانَهُ لِحَرْبِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ، فَلَمْ يُقَابِلْ شَيْبًا وَرَجَعَ، فَوَجَّهَ مَكَانَهُ عُثْمَانَ بْنَ قَطَنِ الْحَارِثِيِّ، فَالْتَقُوا فِي آخِرِ السَّنَةِ، فَمُتِلَ عُثْمَانُ بْنُ قَطَنِ، وَأَهْرَمَتْ جُمُوعُهُ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ سِتُّمِائَةِ نَفْسٍ، فَمِنْ أَعْيَانِهِمْ عَقِيلُ بْنُ شَدَّادِ السُّلُولِيِّ، وَخَالِدُ بْنُ هَيْبِ الْكِنْدِيِّ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ رَبِيعَةَ.

وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُ شَيْبٍ، وَتَزَلَّزَلَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ، وَالْحَجَّاجُ، وَسَائِرُ الْأَمْرَاءِ، وَخَافَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا، فَبَعَثَ لَهُ جَيْشًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَدِمُوا فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ، وَإِنَّ مَا مَعَ شَيْبٍ شِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ، وَقَدْ مَلَأَ

قُلُوبِ النَّاسِ رُعْبًا، وَجَرَتْ حُطُوبٌ كَثِيرَةٌ لَهُ مَعَهُمْ، وَمَ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبَهُ وَدَأْبُهُمْ حَتَّى اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ نَقَشَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عَلَى الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَقَشَهَا. وَكَانَتِ الذَّنَانِيرُ رُومِيَّةً، وَالذَّرَاهِمُ كِسْرُويَّةً. ضُرِبَ عَلَى الْجَانِبِ الْوَاحِدِ مِنْهَا "اللَّهُ أَحَدٌ"، وَعَلَى الْوَجْهِ الْآخَرَ "اللَّهُ الصَّمَدُ".

ولادة مروان الحمار

وَفِيهَا وُلِدَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، وَهُوَ مَرْوَانُ الْحِمَارِيُّ^١، آخِرُ مَنْ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالشَّامِ، وَمِنْهُ أَحَدَهَا بَنُو الْعَبَّاسِ.

وَفِيهَا وَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ نِيَابَةَ الْمَدِينَةِ لِأَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ، وَعَزَلَ عَنْهَا يَحْيَى بْنُ مَرْوَانَ عَمَّهُ، وَاسْتَدْعَاهُ إِلَى الشَّامِ.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَقْمَانَ نَائِبُ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ عَلَى إِمْرَةِ الْعِرَاقِ الْحَجَّاجُ، وَعَلَى خُرَّاسَانَ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

^١ وهو لقب مدح وليس ذماً. المقصود به الشدة والقوة.

هزيمة جيش الحجاج على يد الخوارج

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَسَبْعِينَ، وَفِيهَا أُخْرِجَ الْحَجَّاجُ مُقَاتِلَةَ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَكَانُوا أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَأَنْصَافَ عَلَيْهِمْ عَشْرَةُ آلَافٍ، فَصَارُوا حَمْسِينَ أَلْفًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَتَّابُ بْنُ وَرْقَاءٍ^١، وَأَمَرَهُ أَنْ يَفْصِدَ لِشَيْبِ بْنِ يَزِيدٍ أَيْنَ كَانَ، وَأَنْ يُصِمِّمَ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَنْ مَعَهُ، وَكَانُوا قَدْ تَجَمَّعُوا أَلْفَ رَجُلٍ، وَأَلَّا يَفْعَلُوا كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ قَبْلَهَا مِنَ الْفِرَارِ وَالْهَزِيمَةِ.

وَلَمَّا بَلَغَ شَيْبًا مَا بَعَثَ بِهِ الْحَجَّاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْجُنُودِ، لَمْ يَعْباُ بِهِمْ شَيْئًا، بَلْ قَامَ فِي أَصْحَابِهِ خَطِيئًا، فَوَعَظَهُمْ وَذَكَرَهُمْ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الصَّبْرِ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَمُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ، ثُمَّ سَارَ شَيْبٌ بِأَصْحَابِهِ نَحْوَ عَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءٍ، فَالْتَقِيَ فِي آخِرِ النَّهَارِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأَمَرَ شَيْبٌ مُؤَدِّئَهُ سَلَامَ بَنِ سَيَّارِ الشَّيْبَانِيِّ فَأَدَّنَ الْمَعْرِبَ، ثُمَّ صَلَّى شَيْبٌ بِأَصْحَابِهِ الْمَعْرِبَ، وَصَفَّ عَتَّابٌ أَصْحَابَهُ - وَكَانَ قَدْ حَنَّاقَ حَوْلَ جَيْشِهِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ - فَلَمَّا صَلَّى شَيْبٌ بِأَصْحَابِهِ

^١ عتّاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو الرياحي البربوعي التميمي: قائد عسكري. ولّاه مصعب بن الزبير (أمير العراق لأخيه عبد الله بن الزبير الخليفة في الحجاز) إمارة أصبهان، وانتدبه لقمع ثورة في الري، وفتحها، ومهد أمورها، ثم أصبح من أمراء جيش المهلب بن أبي صفرة. كلفه الحجاج بن يوسف الثقفي (والي العراق للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان) مع جند من أهل الشام والعراق، لقتال شبيب الخارجي، فقتله عامر بن عمير التغلبي (أحد أصحاب شبيب) في المعركة التي دارت بينهما، وعرفت بيوم عتاب عام ٧٧ هـ.

الْمَغْرِبِ انْتَظَرَ حَتَّى طَلَعَ الْقَمَرُ وَأَضَاءَ، تَأَمَّلَ الْمَيْمَنَةَ وَالْمَيْسِرَةَ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَصْحَابِ رَايَاتِ عَتَّابٍ، وَهُوَ يَثُولُ: أَنَا شَيْبٌ أَبُو الْمُدَلَّةِ، لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. فَهَزَمَهُمْ، وَقُتِلَ أَمِيرُهُمْ قَبِيصَةُ بْنُ وَالِقِ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ مَعَهُ، ثُمَّ كَرَّ عَلَى الْمَيْمَنَةِ وَعَلَى الْمَيْسِرَةَ، فَفَرَّقَ شَتْلَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، ثُمَّ قَصَدَ الْقَلْبَ، فَمَا زَالَ حَتَّى قُتِلَ الْأَمِيرُ عَتَّابُ بْنُ وَرْقَاءَ، وَزَهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ، وَوَلَّى عَامَّةُ الْجَيْشِ مُدَبِّرِينَ، وَدَاسُوا الْأَمِيرَ عَتَّابًا، وَزَهْرَةَ، فَوَطَّنَتْهُ الْحَيْلُ، وَقُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ عَمَّارُ بْنُ يَزِيدَ الْكَلْبِيُّ، ثُمَّ قَالَ شَيْبٌ لِأَصْحَابِهِ: لَا تَتَّبِعُوا مُنْهَزِمًا. وَاهْتَزَمَ جَيْشُ الْحَجَّاجِ عَنْ بَكْرَةَ أَبِيهِمْ رَاجِعِينَ إِلَى الْكُوفَةِ.

وَكَانَ شَيْبٌ لَمَّا اخْتَوَى عَلَى الْمُعَسْكَرِ أَخَذَ مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ الْبَيْعَةَ لَهُ بِالْإِمَارَةِ وَقَالَ لَهُمْ: إِلَى سَاعَةِ تَهْرُبُونَ؟ ثُمَّ اخْتَوَى عَلَى مَا فِي الْمُعَسْكَرِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحَوَاصِلِ، وَاسْتَدْعَى بِأَخِيهِ مُصَادٍ مِنَ الْمَدَائِنِ، ثُمَّ قَصَدَ نَحْوَ الْكُوفَةِ، وَقَدَّ وَفَدَ إِلَى الْحَجَّاجِ سُفْيَانَ بْنَ الْأَبْرَدِ الْكَلْبِيِّ، وَحَبِيبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَكَمِيُّ مِنْ مَدْحَجٍ فِي سِتَّةِ آلَافِ فَارِسٍ، وَمَعَهُمَا حَلْقٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَاسْتَعْنَى الْحَجَّاجُ بِهِمْ عَنْ نُصْرَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَقَامَ فِي النَّاسِ حَطِيبًا، فَحَمِدَ اللَّهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ لَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَرَادَ بِكُمْ الْعِزَّ، وَلَا نَصَرَ مَنْ أَرَادَ بِكُمْ النَّصَرَ، اخْرُجُوا عَنَّا فَلَا تَشْهَدُوا مَعَنَا قِتَالَ عَدُوِّنَا، الْحُقُوفَا بِالْحَيْرَةِ فَانزِلُوا مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَلَا يُقَاتِلَنَّ مَعَنَا إِلَّا مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلًا، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ قِتَالَ عَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءَ.

هزيمة شبيب والحوارج

وَعَزَمَ الْحَجَّاجُ عَلَى قِتَالِ شَبِيبٍ بِنَفْسِهِ، وَسَارَ شَبِيبٌ حَتَّى بَلَغَ الصَّرَاةَ، وَحَرَجَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الشَّامِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ، فَلَمَّا تَوَاجَهَ الْفَرِيقَانِ نَظَرَ الْحَجَّاجُ إِلَى شَبِيبٍ وَهُوَ فِي سِتِّمَائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَحَطَبَ الْحَجَّاجُ أَهْلَ الشَّامِ وَقَالَ: يَا أَهْلَ الشَّامِ، أَنْتُمْ أَهْلُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، لَا يَعْزُبَنَّ بَاطِلٌ هَؤُلَاءِ الْأَرْجَاسِ حَقِّكُمْ، غُضُّوا الْأَبْصَارَ، وَاجْتِثُوا عَلَى الرَّكْبِ، وَاسْتَقْبِلُوا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ.

وَأَقْبَلَ شَبِيبٌ وَقَدْ عَبَأَ أَصْحَابَهُ ثَلَاثَ فَرَقٍ: وَاحِدَةً مَعَهُ، وَأُخْرَى مَعَ سُؤَيْدِ بْنِ سُلَيْمٍ، وَأُخْرَى مَعَ الْمُجَلَّلِ بْنِ وَاثِلٍ، وَأَمَرَ شَبِيبٌ سُؤَيْدًا أَنْ يَحْمَلَ، فَحَمَلَ عَلَى جَيْشِ الْحَجَّاجِ، فَصَبَرُوا لَهُ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُمْ وَثَبُوا إِلَيْهِ وَثَبَةً وَاحِدَةً، فَانْهَزَمَ عَنْهُمْ، فَنادى الْحَجَّاجُ: يَا أَهْلَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، هَكَذَا فَافْعَلُوا. ثُمَّ أَمَرَ الْحَجَّاجُ فَقَدَّمَ كُرْسِيَّهُ الَّذِي هُوَ جَالِسٌ عَلَيْهِ إِلَى الْأَمَامِ، ثُمَّ أَمَرَ شَبِيبَ الْمُجَلَّلِ أَنْ يَحْمَلَ، فَحَمَلَ، فَفَعَلُوا بِهِ كَمَا فَعَلُوا بِسُؤَيْدٍ، وَقَالَ لَهُمُ الْحَجَّاجُ كَمَا قَالَ لِأَوْلَيْكَ، وَقَدَّمَ كُرْسِيَّهُ إِلَى أَمَامِ، ثُمَّ إِنَّ شَبِيبًا حَمَلَ عَلَيْهِمْ فِي كَتِيبَتِهِ فَثَبَّتُوا لَهُ، حَتَّى إِذَا غَشَى أَطْرَافَ الْأَسِنَّةِ وَثَبُوا فِي وَجْهِهِ فَقَاتَلَهُمْ طَوِيلًا، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الشَّامِ طَاعَنُوهُ فُدمًا حَتَّى أَلْحَقُوهُ بِأَصْحَابِهِ، فَلَمَّا رَأَى صَبْرَهُمْ نادى: يَا سُؤَيْدُ، احْمِلْ فِي حَيْلِكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ السِّكَّةِ؛ لَعَلَّكَ تُزِيلُ أَهْلَهَا عَنْهَا، فَأَتَى الْحَجَّاجُ مِنْ وَرَائِهِ، وَنَحْمِلُ نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ أَمَامِهِ. فَحَمَلَ فَلَمْ يُفِدْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَذَلِكَ أَنَّ

الْحَجَّاجُ كَانَ قَدْ جَعَلَ عُرْوَةَ بْنَ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ فِي ثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ رِدْءًا لَهُ مِنْ وَرَائِهِ؛ لِئَلَّا يُؤْتُوا مِنْ خَلْفِهِمْ، وَكَانَ الْحَجَّاجُ بَصِيرًا بِالْحَرْبِ أَيْضًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَرَّضَ شَيْبُ بْنُ أَصْحَابِهِ عَلَى الْحُمَلَةِ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا، فَفَهَمَ ذَلِكَ الْحَجَّاجُ، فَنَادَى: يَا أَهْلَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، اصْبِرُوا لِهَذِهِ السِّنْدَةِ الْوَاحِدَةِ، ثُمَّ وَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَا شَيْءٌ دُونَ الْفَتْحِ. فَجَثُوا عَلَى الرَّكْبِ، وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ شَيْبُ بْنُ جَمِيعِ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ نَادَى الْحَجَّاجُ بِجَمَاعَةِ النَّاسِ، فَوَثَبُوا فِي وَجْهِهِ، فَمَا زَالُوا يَطْعُنُونَ وَيُطْعَنُونَ، وَهُمْ مُسْتَظْهِرُونَ عَلَى شَيْبِ وَأَصْحَابِهِ حَتَّى رَدُّوهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ إِلَى مَا وَرَاءَهَا، فَنَادَى شَيْبُ بْنُ أَصْحَابِهِ: يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، الْأَرْضَ الْأَرْضَ. ثُمَّ نَزَلَ وَنَزَلَ أَصْحَابُهُ، وَنَادَى الْحَجَّاجُ: يَا أَهْلَ الشَّامِ، يَا أَهْلَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، هَذَا أَوَّلُ النَّصْرِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ. وَصَعِدَ مَسْجِدًا هُنَالِكَ لِشَيْبِ، وَمَعَهُ نَحْوُ مِنْ عِشْرِينَ رَجُلًا مَعَهُمُ النَّبْلُ، وَاقْتَتَلَ النَّاسُ قِتَالًا شَدِيدًا عَامَّةَ النَّهَارِ، مِنْ أَشَدِّ قِتَالٍ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى أَقْرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لِصَاحِبِهِ، وَالْحَجَّاجُ يَنْظُرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ مِنْ مَكَانِهِ.

ثُمَّ إِنَّ خَالِدَ بْنَ عَتَّابٍ اسْتَأْذَنَ الْحَجَّاجَ فِي أَنْ يَرْكَبَ فِي جَمَاعَةٍ فَيَأْتِي الْخَوَارِجَ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَأَذِنَ لَهُ، فَأَنْطَلَقَ فِي جَمَاعَةٍ مَعَهُ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ، فَدَخَلَ عَسْكَرَ الْخَوَارِجِ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَقَتَلَ مُصَادًّا أَحَا شَيْبِ، وَغَزَالَ امْرَأَةَ شَيْبِ؛ قَتَلَهَا رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: فَرُوَّةُ بْنُ دَقَانَ الْكَلْبِيِّ. وَحَرَّقَ فِي جَيْشِ شَيْبِ، فَفَرِحَ بِذَلِكَ الْحَجَّاجُ وَأَصْحَابُهُ وَكَبَّرُوا، وَأَنْصَرَفَ شَيْبُ وَأَصْحَابُهُ كُلُّ مَنْهُمْ عَلَى

فَرَسٍ، فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ النَّاسَ أَنْ يَنْطَلِقُوا فِي تَطَلُّبِهِمْ، فَشَدُّوا عَلَيْهِمْ فَهَزَمُوهُمْ، وَتَخَلَّفَ شَيْبٌ فِي حَامِيَةِ النَّاسِ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَاتَّبَعَهُ الطَّلَبُ، فَجَعَلَ يَنْعَسُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ حَتَّى يَخْفِقَ بِرَأْسِهِ، وَدَنَا مِنْهُ الطَّلَبُ، فَجَعَلَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يَنْهَاهُ عَنِ النَّعَاسِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، فَجَعَلَ لَا يَكْتَرِثُ بِهِمْ، وَيَعُودُ فَتَخْفِقُ رَأْسُهُ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ بَعَثَ الْحَجَّاجُ إِلَى أَصْحَابِهِ يَقُولُ: دَعُوهُ فِي حَرِّ النَّارِ. فَتَرَكُوهُ وَرَجَعُوا.

ثُمَّ دَخَلَ الْحَجَّاجُ الْكُوفَةَ، فَحَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ فِي حُطْبَتِهِ: إِنَّ شَيْبًا لَمْ يُهْزَمْ قَبْلَهَا. ثُمَّ قَصَدَ شَيْبٌ الْكُوفَةَ، فَحَرَجَتْ إِلَيْهِ سَرِيَّةٌ مِنْ جَيْشِ الْحَجَّاجِ، فَالتَقُوا مَعَهُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَهَزَمَ الْحَوَارِجُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَسَارَتِ الْحَوَارِجُ هَارِبِينَ.

وَكَانَ عَلَى سَرِيَّةِ الْحَجَّاجِ الْحَارِثُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الثَّقَفِيُّ فِي أَلْفِ فَارِسٍ مَعَهُ، فَحَمَلَ شَيْبٌ عَلَى الْحَارِثِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَكَسَرَهُ وَمَنْ مَعَهُ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ طَائِفَةً، وَدَخَلَ النَّاسُ الْكُوفَةَ هَارِبِينَ، وَحَصَّنَ النَّاسُ السِّكَّكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبُو الْوَرْدِ مَوْلَى الْحَجَّاجِ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْجَيْشِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ هَرَبَ أَصْحَابُهُ، وَدَخَلُوا الْكُوفَةَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ أَمِيرٌ آخَرٌ فَانْكَسَرَ أَيْضًا، ثُمَّ سَارَ شَيْبٌ بِأَصْحَابِهِ نَحْوَ السَّوَادِ، فَمَرُّوا بِعَامِلِ الْحَجَّاجِ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ حَطَبَ أَصْحَابُهُ وَقَالَ: اشْتَعَلْتُمْ بِالذُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ. ثُمَّ رَمَى بِالْمَالِ فِي الْفُرَاتِ، ثُمَّ سَارَ بِهِمْ حَتَّى افْتَتَحَ بِلَادًا كَثِيرَةً، وَلَا يَبْرُؤُ لَهُ أَحَدٌ إِلَّا قَتَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ عَلَى بَعْضِ الْمُدُنِ، فَقَالَ لَهُ: يَا شَيْبُ ابْرُؤْ إِلَيَّ وَأَبْرُؤْ إِلَيْكَ - وَكَانَ

صَدِيقُهُ - فَقَالَ لَهُ شَيْبٌ: إِنِّي لَا أَحِبُّ قَتْلَكَ. فَقَالَ لَهُ: لَكِنِّي أَحِبُّ قَتْلَكَ، فَلَا تُعْرِتْكَ نَفْسُكَ وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْوَقَائِعِ. ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ فَضْرَبَهُ شَيْبٌ عَلَى رَأْسِهِ، فَهَمَسَ رَأْسُهُ حَتَّى اخْتَلَطَ دِمَاعُهُ بِلَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، ثُمَّ كَفَّنَهُ وَدَفَنَهُ. ثُمَّ إِنَّ الْحَجَّاجَ أَنْفَقَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً عَلَى الْجِيُوشِ وَالْعَسَاكِرِ فِي طَلَبِ شَيْبٍ فَلَمْ يُطِيقُوهُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَوْتًا قَدَرًا مِنْ غَيْرِ صُنْعِهِمْ، وَلَا صُنْعِهِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ.

مَقْتَلِ شَيْبِ زَعِيمِ الْخَوَاجِ

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْحَجَّاجَ كَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ عَلَى الْبَصْرَةِ؛ الْحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي عَقِيلٍ، وَهُوَ زَوْجُ ابْنَةِ الْحَجَّاجِ، يَأْمُرُهُ أَنْ يُجَهِّزَ جَيْشًا أَرْبَعَةَ آلَافٍ يَتَطَلَّبُونَ شَيْبًا، وَيَكُونُونَ تَبَعًا لِسُفْيَانَ بْنِ الْأَبْرَدِ، فَفَعَلَ فَالْتَقَوْا فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَصَبَرَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لِصَاحِبِهِ، ثُمَّ عَزَمَ أَصْحَابُ الْحَجَّاجِ فَحَمَلُوا عَلَى الْخَوَاجِ، فَفَرُّوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ذَاهِبِينَ حَتَّى اضْطَرُّوهُمْ إِلَى حِسْرِ هُنَاكَ، فَوَقَفَ عِنْدَهُ شَيْبٌ فِي مِائَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَعَجَزَ سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ عَنِ مُقَاوَمَتِهِ، وَرَدَّهُ عَنِ مَوْفِقِهِ هَذَا بَعْدَمَا تَقَاتَلُوا نَهَارًا كَامِلًا أَشَدَّ قِتَالٍ يَكُونُ، ثُمَّ أَمَرَ سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ الرُّمَاءَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَرَشَقُوهُمْ بِالنَّبْلِ رَشَقًا وَاحِدًا، فَفَرَّتِ الْخَوَاجِ، ثُمَّ كَرَّتْ عَلَى الرُّمَاءِ، فَفَقَتَلُوا مِنْهُمْ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ رَجُلًا، مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَبْرَدِ، وَجَاءَ اللَّيْلُ بِظُلَامِهِ، فَكَفَّ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنِ بَعْضٍ،

وَبَاتَ كُلُّ مَنْ الْفَرِيقَيْنِ مُصِرًّا عَلَى مُنَاهِضَةِ الْآخَرِ، فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ عَبَرَ شَيْبٌ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الْجِسْرِ، فَبَيْنَمَا شَيْبٌ عَلَى مَتْنِ الْجِسْرِ، وَهُوَ عَلَى حِصَانٍ لَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ فَرَسٌ أُتْنَى، فَتَزَا فَرَسُهُ وَهُوَ عَلَى الْجِسْرِ، وَنَزَلَ حَافِئُ فَرَسِ شَيْبٍ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَسَقَطَ فِي الْمَاءِ، فَقَالَ: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا. ثُمَّ انْغَمَرَ فِي الْمَاءِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ وَهُوَ يَقُولُ: { ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } فَغَرِقَ.

وَلَمَّا تَحَقَّقَتِ الْخَوَارِجُ سُقُوطَهُ فِي الْمَاءِ كَرُّوا، وَانْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ مُفَرِّقِينَ فِي الْبِلَادِ، وَجَاءَ أَمِيرُ جَيْشِ الْحِجَاجِ، فَاسْتُخْرِجَ شَيْبًا مِنَ الْمَاءِ، وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَشُقَّ صَدْرُهُ، فَاسْتُخْرِجَ قَلْبُهُ، فَإِذَا هُوَ مُجْتَمِعٌ صُلْبٌ كَأَنَّهُ صَخْرَةٌ، وَكَانُوا يَضْرِبُونَ بِهِ الْأَرْضَ فَيَثْبُ قَامَةً الْإِنْسَانَ، وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ قَدْ أَبْعَضُوهُ لَمَّا أَصَابَ مِنْ عَشَائِرِهِمْ، فَلَمَّا تَخَلَّفَ فِي السَّاقَةِ اسْتَوْرُوا وَقَالُوا: نَقُطِعُ الْجِسْرَ بِهِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَمَالَتِ السُّفُنُ بِالْجِسْرِ، وَنَفَرَ فَرَسُهُ، فَسَقَطَ فِي الْمَاءِ فَغَرِقَ، فَنَادَا: غَرِقَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. فَعَرَفَ جَيْشُ الْحِجَاجِ ذَلِكَ فَجَاءُوا فَاسْتُخْرِجُوهُ. وَلَمَّا نُعِيَ شَيْبٌ إِلَى أُمِّهِ، قَالَتْ: صَدَقْتُمْ، إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ وَأَنَا حَامِلٌ بِهِ أَنَّهُ قَدْ حَرَجَ مَيِّ شِهَابٌ مِنْ نَارٍ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يُطْفِئُهُ إِلَّا الْمَاءُ. وَكَانَتْ أُمُّهُ جَارِيَّةً اسْمُهَا جَهِيْرَةٌ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً، وَكَانَتْ مِنْ أَشْجَعِ النِّسَاءِ، وَقَاتَلَتْ مَعَ ابْنِهَا فِي الْحُرُوبِ. وَقَاتَلَتْ فِي هَذِهِ الْعَزْوَةِ، وَكَذَلِكَ قُتِلَتْ زَوْجَتُهُ

عَزَالَةٌ. وَكَانَتْ شَدِيدَةَ الْبَأْسِ حَارِجِيَّةً، وَكَانَ الْحُجَّاجُ مَعَ هَيْبَتِهِ يَخَافُ مِنْهَا
أَشَدَّ خَوْفٍ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

أَسَدٌ عَلَيَّ فِي الْخُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَحَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى عَزَالَةٍ فِي الْوَعَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ

ترجمة شبيب بن يزيد

وَقَدْ كَانَ شَبِيبُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ نُعَيْمِ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الصَّلْتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ
شَرَّاحِيلِ بْنِ مَرَّةَ بْنِ ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ الشَّيْبَانِيِّ - يَدْعِي الْخِلَافَةَ، وَيَتَسَمَّى
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَهَرَهُ بِمَا فَهَرَهُ بِهِ مِنَ الْعَرَقِ لَنَالَ الْخِلَافَةَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَمَّا قَدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَإِنَّمَا فَهَرَهُ اللَّهُ عَلَى يَدِي الْحُجَّاجِ، لَمَّا
أَرْسَلَ إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بَعْسَاكِرَ لِقَاتِهِ، فَهَرَبَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَلَمَّا
أَلْقَاهُ جَوَادُهُ عَلَى الْجِسْرِ فِي نَهْرِ دُجَيْلٍ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَعْرَقَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟
فَنَزَعَ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ، فَإِذَا هُوَ مِثْلُ الْحَجَرِ.

وَكَانَ شَبِيبُ رَجُلًا طَوِيلًا أَشْمَطَ جَعْدًا، وَكَانَ مَوْلَدُهُ فِي يَوْمِ عِيدِ النَّحْرِ سَنَةَ
سِتِّ وَعِشْرِينَ، وَقَدْ أُمْسِكَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَحَمَلَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ
مَرْوَانَ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ الْقَائِلَ:

فَإِنْ يَكُ مِنْكُمْ كَانَ مَرْوَانُ وَابْنُهُ وَعَمْرُو وَمِنْكُمْ هَاشِمٌ وَحَبِيبُ
فَمِنَّا حُصَيْنٌ، وَالْبَطِينُ، وَقَعْنَبُ وَمِنَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَبِيبُ

فَقَالَ: إِذَا قُلْتُ: وَمِنَّا أَمِيرًا الْمُؤْمِنِينَ شَيْبٌ. فَأَعْجَبَهُ اعْتِدَارُهُ وَأَطْلَقَهُ.
 وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ بَيْنَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ نَائِبِ الْحَجَّاجِ،
 وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ مِنَ الْأَزْرَاقَةِ، وَأَمِيرِهِمْ قَطْرِيَّ بْنِ الْفُجَاءَةِ، وَكَانَ أَيْضًا مِنَ الْفُرْسَانِ
 الشُّجْعَانِ الْمَدْكُورِينَ الْمَشْهُورِينَ، وَقَدْ تَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَنَفَرُوا فِي هَذِهِ
 السَّنَةِ، وَأَمَّا هُوَ فَشَرَدَ فِي الْأَرْضِ لَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ، وَقَدْ جَرَتْ بَيْنَهُمْ
 مَنَاوِسَاتٌ وَمُجَاوَلَاتٌ يَطُولُ بَسْطُهَا وَاسْتِقْصَاؤُهَا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ ثَارَ بُكَيْرُ بْنُ وَشَّاحٍ الَّذِي كَانَ نَائِبَ حُرَّاسَانَ، عَلَى نَائِبِهَا
 أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدٍ - كَمَا سَيَأْتِي - وَذَلِكَ أَنَّ بُكَيْرًا اسْتَجَاشَ
 عَلَيْهِ النَّاسَ، وَغَدَرَ بِهِ وَقَتَلَهُ، وَقَدْ جَرَتْ بَيْنَهُمَا حُطُوبٌ طَوِيلَةٌ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ وِفَاةُ شَيْبِ بْنِ يَزِيدِ الْخَارِجِيِّ - كَمَا قَدَّمْنَا - وَقَدْ كَانَ
 مِنَ الشُّجَاعَةِ وَالْفُرُوسِيَّةِ عَلَى جَانِبِ كَبِيرٍ، لَمْ أَرْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ مِثْلَهُ، وَمِثْلَ
 الْأَشْتَرِ وَابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَأَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ، وَمَنْ يَنَاطُ بِهِؤُلَاءِ فِي
 الشُّجَاعَةِ؛ مِثْلَ قَطْرِيَّ بْنِ الْفُجَاءَةِ مِنَ الْأَزْرَاقَةِ الْخَوَارِجِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

¹ ينصب كلمة (أمير) على أنه يوجه الخطاب إلى عبد الملك.

استقرار الأمر للحجاج بعد هزيمة الخوارج

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ، وَفِيهَا كَانَتْ غَزْوَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِبِلَادِ الرُّومِ، فَفَتَحُوا إِزْقِيلِيَّةً، فَلَمَّا رَجَعُوا أَصَابَهُمْ مَطَرٌ عَظِيمٌ وَثُلُجٌ وَبَرَدٌ، فَأَصِيبَ بِسَبَبِهِ نَاسٌ كَثِيرٌ.

وَفِيهَا وَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ^١ غَزْوَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ جَمِيعِهِ، فَسَارَ إِلَى طَنْجَةَ وَقَدَّمَ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ طَارِقًا^٢، فَقَتَلُوا مُلُوكَ تِلْكَ الْبِلَادِ، وَبَعْضُهُمْ قَطَعُوا أَنْفَهُ وَنَفَوْهُ.

وَفِيهَا عَزَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ أُمَيَّةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ، وَأَضَافَهَا إِلَى الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ مَعَ سِجِسْتَانَ أَيْضًا، وَرَكِبَ الْحَجَّاجُ بَعْدَ فَرَاحِهِ مِنْ شَأْنِ شَيْبِ بْنِ الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَقَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْكُوفَةِ الْمُغِيرَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرِ الْخُزْرَمِيِّ، فَقَدِمَ الْمُهَلَّبُ عَلَى الْحَجَّاجِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ، وَقَدْ فَرَّغَ مِنْ شَأْنِ الْأَزَارِقَةِ أَيْضًا، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ، وَاسْتَدْعَى بِأَصْحَابِ الْبَلَاءِ مِنْ جَيْشِهِ، فَمَنْ أَتَى عَلَيْهِ الْمُهَلَّبُ أَجْزَلَ الْحَجَّاجُ لَهُ الْعَطِيَّةَ،

^١ موسى بن نصير (١٩ - ٩٧ هـ): قائد عسكري عربي في عصر الدولة الأموية. شارك في فتح قبرص في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ثم أصبح واليًا على إفريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، واستطاع ببراعة عسكرية أن ينهي نزعات البربر المتوالية للخروج على حكم الأمويين، كما أمر بفتح شبه الجزيرة الأيبيرية، وهو الغزو الذي أسقط حكم مملكة القوط في إسبانيا.

^٢ طارق بن زياد.

ثُمَّ وَلى الْحَجَّاجُ الْمُهَلَّبَ إِمْرَةً سِحْجِسْتَانَ، وَوَلَّى عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ إِمْرَةً خُرَّاسَانَ، ثُمَّ نَاقَلَ بَيْنَهُمَا قَبْلَ خُرُوجِهِمَا مِنْ عِنْدِهِ، فَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ بِإِشَارَةِ الْمُهَلَّبِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْتَعَانَ بِصَاحِبِ الشُّرْطَةِ، وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ طَارِقِ الْعَبْسَمِيِّ، حَتَّى أَشَارَ عَلَى الْحَجَّاجِ بِذَلِكَ، فَأَجَابَهُ الْحَجَّاجُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَلَزَمَ الْمُهَلَّبَ بِأَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ؛ لِكَوْنِهِ اعْتَرَضَ عَلَى ذَلِكَ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ أَبَانَ بْنُ عُثْمَانَ^١، وَأَمِيرُ الْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ وَسِحْجِسْتَانَ وَتِلْكَ النَّوَاحِي كُلِّهَا الْحَجَّاجُ، وَنَائِبُهُ عَلَى خُرَّاسَانَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ وَنَائِبُهُ عَلَى سِحْجِسْتَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ التَّقْفِيَّيَّ، وَعَلَى قِضَاءِ الْكُوفَةِ شُرَيْحٌ، وَعَلَى قِضَاءِ الْبَصْرَةِ مُوسَى بْنُ أَنَسِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ.

مقتل الحارث بن سعيدِ المُتَنَبِّئِ الكَذَّابِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعٌ وَسَبْعِينَ، وَفِيهَا وَقَعَ طَاعُونٌ عَظِيمٌ بِالشَّامِ، حَتَّى كَادُوا يَفْتُونُ مَنْ شِدَّتِهِ، وَلَمْ يَعْزُ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ؛ لِضَعْفِهِمْ وَقَلَّتِهِمْ، وَوَصَلَتْ الرُّومُ فِيهَا أَنْطَاكِيَّةً، فَأَصَابُوا حَلَقًا مِنْ أَهْلِهَا؛ لِعِلْمِهِمْ بِضَعْفِ الْجُنُودِ وَالْمُقَاتِلَةِ.

^١ أَبَانَ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ.

وَفِيهَا عَزَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ زُنَيْلَ مَلِكِ التُّرْكِ حَتَّى أَوْعَلَ فِي بِلَادِهِ، ثُمَّ صَالَحَهُ عَلَى مَالٍ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ.

وَفِيهَا قَتَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْحَارِثَ بْنَ سَعِيدِ الْمُتَنَبِّئِ الْكَذَّابَ، وَيُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ الدِّمَشْقِيِّ، مَوْلَى أَبِي الْجَلَّاسِ الْعَبْدَرِيِّ. كَانَ أَصْلُهُ مِنَ الْخَوْلَةِ، فَنَزَلَ دِمَشْقَ، وَتَعَبَّدَ بِهَا، وَتَنَسَّكَ وَتَزَهَّدَ، ثُمَّ مُكِرَ بِهِ، وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى عَلَى عَقْبِهِ، وَأَنْسَلَخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفَارَقَ حِزْبَ اللَّهِ الْمُفْلِحِينَ، وَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّيْطَانُ يُزْحُ فِي فَمَاهُ حَتَّى أَحْسَرَهُ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ، وَأَحْزَاهُ وَأَشْقَاهُ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِعُونَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

كَانَ الْحَارِثُ الْكَذَّابُ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ، وَكَانَ مَوْلَى لِأَبِي الْجَلَّاسِ، وَكَانَ لَهُ أَبٌ بِالْخَوْلَةِ، فَعَرَضَ لَهُ إِبْنَلِيسُ وَكَانَ رَجُلًا مُتَعَبِّدًا زَاهِدًا، لَوْ لَبَسَ جُبَّةً مِنْ ذَهَبٍ لَرَتَّيْتَ عَلَيْهِ الرِّهَادَةَ وَالْعِبَادَةَ، وَكَانَ إِذَا أَحَدَ فِي التَّحْمِيدِ لَمْ يَسْمَعْ السَّمْعُونَ مِثْلَ تَحْمِيدِهِ، وَلَا أَحْسَنَ مِنْ كَلَامِهِ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِيهِ، وَكَانَ بِالْخَوْلَةِ: يَا أَبَتَاهُ، أَعْجَلَ عَلَيَّ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَشْيَاءَ أَتَخَوَّفُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ قَدْ عَرَضَ لِي. فزاده أبوه غيًّا على غيِّه، فكتب إليه أبوه: يا بُنَيَّ، أقبل على ما أمرت به فإن الله تعالى يقول: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} ولست بأفَّاكٍ ولا أثيمٍ، فامض لِمَا أَمَرْتُ بِهِ. فَكَانَ يَجِيءُ

إِلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ رَجُلًا رَجُلًا فَيُذَكِّرُهُمْ أَمْرَهُ، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ،
إِنْ هُوَ يَرَى مَا يَرْضَى قَبْلَ وَإِلَّا كَتَمَ عَلَيْهِ.

وَكَانَ يُرِيهِمُ الْأَعَاجِيبَ، كَانَ يَأْتِي إِلَى رُحَامَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَيَنْقُرُهَا بِيَدِهِ
فَتُسَبِّحُ تَسْبِيحًا بَلِيغًا، حَتَّى يَضِجَّ مِنْ ذَلِكَ الْحَاضِرُونَ. قُلْتُ: وَقَدْ سَمِعْتُ
شَيْخَنَا الْعَلَّامَةَ أَبَا الْعَبَّاسِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ: كَانَ يَنْقُرُ هَذِهِ الرُّحَامَةَ
الْحُمْرَاءَ الَّتِي فِي الْمَقْصُورَةِ فَتُسَبِّحُ، وَكَانَ زَنْدِيقًا.

وَكَانَ الْحَارِثُ يُطْعِمُهُمْ فَآكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ،
وَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ: اخْرُجُوا حَتَّى أُرِيكُمْ الْمَلَائِكَةَ. فَيَخْرُجُ بِهِمْ إِلَى دَيْرِ الْمُرَانِ،
فَيُرِيهِمْ رَجُلًا عَلَى حَيْلٍ، فَتَبِعَهُ عَلَى ذَلِكَ بَشَرٌ كَثِيرٌ، وَفَشَا أَمْرُهُ فِي الْمَسْجِدِ،
وَكَثُرَ أَصْحَابُهُ وَاتَّبَاعُهُ، حَتَّى وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى الْقَاسِمِ بْنِ مُحَيَّمَةَ، فَعَرَضَ عَلَى
الْقَاسِمِ أَمْرَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ؛ إِنْ هُوَ رَضِيَ أَمْرًا قَبْلَهُ، وَإِنْ كَرِهَهُ
كَتَمَهُ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: إِنِّي نَبِيٌّ. فَقَالَ الْقَاسِمُ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، مَا أَنْتَ
نَبِيٌّ، وَلَكِنَّكَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ الدَّجَالِينَ الَّذِينَ أَحْبَرَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَعُومُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ، دَجَالُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ
يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ»، وَأَنْتَ أَحَدُهُمْ وَلَا عَهْدَ لَكَ. ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ إِلَى أَبِي إِدْرِيسَ -
وَكَانَ عَلَى الْقُضَاءِ بِدِمَشْقَ - فَأَعْلَمَهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْحَارِثِ، فَقَالَ أَبُو إِدْرِيسَ:
نَعْرِفُهُ. ثُمَّ أَعْلَمَ أَبُو إِدْرِيسَ عَبْدَ الْمَلِكِ بِذَلِكَ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ مَكْحُولًا، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي زَكَرِيَّا دَخَلَا عَلَى الْحَارِثِ فَدَعَاهُمَا إِلَى نُبُوتِهِ، فَكَذَّبَاهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ مَا قَالَ، وَدَخَلَا عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَعْلَمَاهُ بِأَمْرِهِ، فَتَطَلَّبَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ طَلَبًا حَثِيثًا، وَاحْتَفَى الْحَارِثُ، وَصَارَ إِلَى دَارِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ سِرًّا، وَاهْتَمَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بِشَأْنِهِ، حَتَّى رَكِبَ إِلَى الصَّنْبَرَةِ فَنَزَلَهَا، فَوَرَدَ عَلَيْهِ هُنَاكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، يَمُنُّ كَمَا يَدْخُلُ عَلَى الْحَارِثِ وَهُوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَعْلَمَهُ بِأَمْرِهِ وَأَيْنَ هُوَ، وَسَأَلَ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْ يَبْعَثَ مَعَهُ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْجُنْدِ الْأَنْزَاكِ لِيَحْتَاطَ عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ طَائِفَةً وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِ الْقُدْسِ؛ لِيَكُونَ فِي طَاعَةِ هَذَا الرَّجُلِ، وَيَفْعَلَ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ الرَّجُلُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ يَمُنُّ مَعَهُ انْتَدَبَ نَائِبُ الْقُدْسِ لِحُدُومَتِهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَجْمَعَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّمُوعِ، وَيَجْعَلَ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ شَمْعَةً، فَإِذَا أَمَرَهُمْ بِإِشْعَالِهَا فِي اللَّيْلِ أَشْعَلُوهَا كُلُّهُمْ فِي سَائِرِ الطُّرُقِ وَالْأَرْقَةِ، حَتَّى لَا يَخْفَى أَمْرُهُ، وَذَهَبَ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، فَدَخَلَ الدَّارَ الَّتِي فِيهَا الْحَارِثُ، فَقَالَ لِيَوَائِبِهِ: اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ. فَقَالَ: فِي هَذِهِ السَّاعَةِ لَا يُؤْذَنُ عَلَيْهِ حَتَّى يُصْبَحَ. فَصَاحَ الْبَصْرِيُّ: أَسْرِجُوا. فَأَسْرِجَ النَّاسُ شُمُوعَهُمْ حَتَّى صَارَ اللَّيْلُ كَأَنَّهُ النَّهَارُ، وَهَجَمَ الْبَصْرِيُّ عَلَى الْحَارِثِ، فَاحْتَفَى مِنْهُ فِي سِرْبٍ هُنَاكَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: هَيْهَاتَ، تُرِيدُونَ أَنْ تَصِلُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ. فَأَدْحَلَ الْبَصْرِيُّ يَدَهُ فِي ذَلِكَ السِّرْبِ فَإِذَا بِثَوْبِهِ، فَاجْتَرَّهُ فَأَخْرَجَهُ، ثُمَّ قَالَ لِلْفَرْعَانِيِّينَ مِنْ أَنْزَاكِ الْخَلِيفَةِ: تَسَلَّمُوا. فَأَخَذُوهُ فَرَبَطُوهُ فَقَيَّدُوهُ، فَيَقَالُ: إِنَّ

الْقُبُودَ وَالْجَامِعَةَ سَقَطَتْ مِنْ عُنُقِهِ مِرَارًا، وَيُعِيدُونَهَا، وَجَعَلَ يَقْرَأُ: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}، وَقَالَ لِأَوْلِيكَ الْأَتْرَاكِ: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} فَقَالُوا لَهُ بِلِسَانِهِمْ وَلُغَتِهِمْ: هَذَا كُرَانُنَا فَهَاتِ كُرَانَكَ. أَيْ: هَذَا قُرَانُنَا فَهَاتِ قُرَانَكَ. فَلَمَّا انْتَهَوْا بِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ أَمَرَ بِصَلْبِهِ عَلَى حَشَبَةٍ، وَأَمَرَ رَجُلًا فَطَعَنَهُ بِحَرْبَةٍ، فَانْتَنَتْ فِي ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: وَيْحَكَ، أَذْكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ حِينَ طَعَنْتَهُ؟ فَقَالَ: نَسِيتُ. فَقَالَ: وَيْحَكَ، سَمَّ اللَّهَ، ثُمَّ اطْعَنَهُ. فَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ ثُمَّ طَعَنَهُ فَأَنْفَذَهُ. وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ حَبَسَهُ قَبْلَ صَلْبِهِ، وَأَمَرَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ أَنْ يَعِظُوهُ وَيُعَلِّمُوهُ أَنَّ هَذَا الَّذِي بِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ، فَصَلَبَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الْعَدْلِ وَالِدِّينِ.

وَقَالَ الْعَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ الْعَدَوِيُّ يَقُولُ: مَا غَبَطْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ بِشَيْءٍ مِنْ وَلَايَتِهِ إِلَّا بِقَتْلِهِ حَارِثًا؛ حَدَّثْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَمَنْ قَالَهُ فَاقْتُلُوهُ، وَمَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ أَحَدًا فَلَهُ الْجَنَّةُ».

وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ قَالَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ: لَوْ حَضَرْتُكَ مَا أَمَرْتُكَ بِقَتْلِهِ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ إِنَّهُ إِذَا كَانَ بِهِ الْمَذْهَبُ^١، فَلَوْ جَوَّعْتَهُ لَذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُ.

وَفِيهَا غَزَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ^٢ رُثَيْلَ - مَلِكِ التُّرْكِ الْأَعْظَمِ فِيهِمْ - وَقَدْ كَانَ يُصَانِعُ الْمُسْلِمِينَ تَارَةً، وَيَتَمَرَّدُ أُخْرَى، فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ أَنْ نَاجِرُهُ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَسْتَيْحَ أَرْضَهُ، وَتَهْدِمَ قِلاَعَهُ، وَتَقْتُلَ مُقَاتِلَتَهُ. فَخَرَجَ فِي جَمْعٍ مِنَ الْجُنُودِ مِنْ بِلَادِهِ، وَخَلَقَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ، ثُمَّ التَّمَى مَعَ رُثَيْلَ - مَلِكِ التُّرْكِ - فَكَسَرَهُ، وَهَدَمَ أَرْكَانَهُ بِسَطْوَةِ بِنْتِ تَارَةَ، وَجَاسَ ابْنُ أَبِي بَكْرَةَ وَجُنْدُهُ خِلَالَ دِيَارِهِمْ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَقَالِيمِهِ وَمُدُنِهِ وَأَمْصَارِهِ، وَتَبَّرَ مَا هُنَالِكَ تَتْبِيرًا، ثُمَّ إِنَّ رُثَيْلَ تَقَهَّرَ مِنْهُ مُنْشَمِرًا، وَمَا زَالَ يَتَّبِعُهُ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْ مَدِينَتِهِ الْعُظْمَى، حَتَّى كَانُوا مِنْهَا عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشْرَ فَرَسَحًا، وَخَافَتِ الْأَتْرَاكُ مِنْهُمْ حَوْفًا شَدِيدًا، ثُمَّ إِنَّ التُّرْكَ أَخَذَتْ عَلَيْهِمُ الطُّرُقَ وَالشَّعَابَ، وَضَيَّفُوا عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكَ، حَتَّى ظَنَّ كُلُّ مَنْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ لَا مَحَالَةَ هَالِكٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ طَلَبَ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يُصَالِحَ رُثَيْلَ عَلَى أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ سَبْعِمِائَةَ أَلْفٍ، وَيَفْتَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ طَرِيقًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ،

^١ المذهب: الوسوسة، ومنه المذهب وهو وسوسة الوضوء ونحوه.

^٢ عبید الله بن أبي بكره الثقفي (١٤ - ٧٩ هـ): من أبناء الصحابي أبي بكره الثقفي، ولي قضاء البصرة وولي إمرة سجستان سنة ٥٠ هـ ثم عزل بعد ثلاث سنين، ثم وليها الحجاج.

وَيَرِجْعُونَ عَنْهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَانْتَدَبَ شُرَيْحُ بْنُ هَانِيٍّ الْحَارِثِيُّ - وَكَانَ صَحَابِيًّا، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَصْحَابِ عَلِيٍّ، وَهُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ - فَانْدَبَ النَّاسَ إِلَى الْقِتَالِ وَالْمُصَابَرَةِ، وَالنِّزَالِ وَالْجِلَادِ بِالسُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَالنِّبَالِ، فَهَاهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ فَلَمْ يَنْتَه، وَأَجَابَهُ شِرْذِمَةٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الشُّجْعَانِ وَأَهْلِ الْحَفَائِظِ، فَمَا زَالَ يُقَاتِلُ بِهِمُ التَّرْكَ حَتَّى فَنِيَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقُتِلَ مَعَهُ خَلْقٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

ثُمَّ خَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنَ النَّاسِ صُحْبَةَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ مِنْ أَرْضِ رُتْبِيلَ، وَهُمْ قَلِيلٌ، وَبَلَغَ ذَلِكَ الْحُجَّاجَ فَأَخَذَهُ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ، وَيَسْتَشِيرُهُ فِي بَعْثِ جَيْشٍ كَثِيفٍ إِلَى بِلَادِ رُتْبِيلَ؛ لِيَنْتَقِمُوا مِنْهُ بِسَبَبِ مَا حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِهِ، فَحِينَ وَصَلَ الْبَرِيدُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ كَتَبَ إِلَى الْحُجَّاجِ بِالْمُؤَافَقَةِ عَلَى مَا رَأَى مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي ذَلِكَ، وَأَنْ يُعْجَلَ ذَلِكَ سَرِيعًا، فَحِينَ وَصَلَ الْبَرِيدُ إِلَى الْحُجَّاجِ بِذَلِكَ أَخَذَ فِي جَمْعِ الْجِيُوشِ، فَجَهَّزَ جَيْشًا كَثِيفًا لِذَلِكَ، عَلَى مَا سَأَيْتِي تَفْصِيلُهُ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ بَعْدَهَا. وَقِيلَ: إِنَّهُ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ شُرَيْحِ بْنِ هَانِيٍّ ثَلَاثُونَ أَلْفًا، وَابْتِيعَ الرَّغِيفُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ بِدِينَارٍ، وَقَاسُوا شِدَائِدًا، وَمَاتَ بِسَبَبِ الْجُوعِ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ أَيْضًا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَقَدْ قَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ التَّرْكَ خَلْقًا كَثِيرًا أَيْضًا، قَتَلُوا أَوْضَاعَهُمْ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ اسْتَعْفَى شُرَيْحٌ مِنَ الْقَضَاءِ فَأَعْفَاهُ الْحَجَّاجُ مِنْ ذَلِكَ، وَوَلَّى مَكَانَهُ أَبَا بُرْدَةَ بْنَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ.
وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ.

مقتل قَطْرِيِّ بْنِ الْفُجَاءَةِ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ التَّمِيمِيُّ، أَبُو نَعَامَةَ الْخَارِجِيُّ، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانَ الْمَشَاهِيرِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ مَكَثَ عَشْرِينَ سَنَةً يُسَلِّمُ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ بِالْخِلَافَةِ، وَقَدْ جَرَتْ لَهُ حُطُوبٌ وَحُرُوبٌ مَعَ جَيْشِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ مِنْ جِهَةِ الْحَجَّاجِ وَعَیْرِهِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا مِنْهَا طَرَفًا صَالِحًا فِي أَمَاكِينِهِ.

وَكَانَ حُرُوجُهُ فِي زَمَنِ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَتَعَلَّبَ عَلَى قِلَاعٍ كَثِيرَةٍ وَأَقَالِيمَ وَعَیْرَهَا، وَوَقَائِعُهُ مَشْهُورَةٌ، وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ جُيُوشًا كَثِيرَةً فَهَزَمَهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ بَرَزَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ الْحُرُورِيَِّّةِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ أَعْجَفَ، وَبِيَدِهِ عَمُودٌ حَدِيدٍ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ كَشَفَ قَطْرِيُّ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَوْلَى الرَّجُلُ هَارِبًا، فَقَالَ لَهُ قَطْرِيُّ: إِلَى أَيْنَ؟ أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَفِرَّ وَمَنْ تَرَّ طَعْنَا وَلَا ضَرْبًا؟ فَقَالَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَفِرَّ مِنْ مِثْلِكَ.

ثُمَّ إِنَّهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ الْكَلْبِيُّ فِي جَيْشٍ، فَأَقْتَتَلُوا بِطَبَرِ سِتَّانَ، فَعَتَرَ بِقَطْرِيِّ فَرَسُهُ فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ، فَتَكَاثَرُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، وَحَمَلُوا رَأْسَهُ إِلَى الْحَجَّاجِ. وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلَهُ سَوْدَةُ بْنُ الْحَرِّ الدَّارِمِيُّ.

وَكَانَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ - مَعَ شَجَاعَتِهِ الْمُفْرَطَةِ وَإِفْدَامِهِ - مِنْ حُطَبَاءِ الْعَرَبِ
الْمَشْهُورِينَ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَجَوْدَةِ الْكَلَامِ، وَالشَّعْرِ الْحَسَنِ، فَمِنْ
مُسْتَجَادِ شِعْرِهِ قَوْلُهُ يُشَجِّعُ نَفْسَهُ وَغَيْرُهُ، وَمَنْ سَمِعَهَا انْتَفَعَ بِهَا:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا مِنْ الْأَبْطَالِ وَيْحُكَ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْحَيَاةِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْيَرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةٌ كُلِّ حَيٍّ وَدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبَطُ يَسَامُ وَيَهْرَمُ وَتُسَلِمُهُ الْمُنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

دَكَرَهَا صَاحِبُ الْحَمَاسَةِ، وَاسْتَحْسَنَهَا ابْنُ خَلِّكَانَ فِي تَارِيخِهِ كَثِيرًا.

وَفِيهَا ثُوْبِيٌّ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ أَمِيرُ الْجَيْشِ الَّذِي دَخَلَ
بِلَادَ التُّرْكِ، وَقَاتَلُوا رُتْبِيلَ - مَلِكَ التُّرْكِ - وَقَدْ قُتِلَ مِنْ جَيْشِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مَعَ
شُرَيْحِ بْنِ هَانِيٍّ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ.

وَقَدْ دَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ عَلَى الْحَجَّاجِ مَرَّةً، وَفِي يَدِهِ حَاتِمٌ، فَقَالَ لَهُ
الْحَجَّاجُ: كَمْ حَتَمْتَ بِحَاتِمِكَ هَذَا؟ قَالَ: عَلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ. قَالَ:

فَقِيمَ أَنْفَقْتَهَا؟ قَالَ: فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ، وَرَدِّ الْمَلْهُوفِ، وَالْمُكَافَاةِ
بِالصَّنَائِعِ، وَتَرْوِجِ الْعَقَائِلِ^١.

وَقِيلَ: إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ عَطَشَ يَوْمًا فَأَخْرَجَتْ لَهُ امْرَأَةٌ كُوزَ مَاءٍ بَارِدٍ، فَأَعْطَاهَا
ثَلَاثِينَ أَلْفًا. وَقِيلَ: إِنَّهُ أَهْدَى إِلَيْهِ وَصِيفٌ وَوَصِيفَةٌ، وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَ أَصْحَابِهِ،
فَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: خُذْهُمَا لَكَ. ثُمَّ فَكَّرَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ، إِنَّ إِيثَارَ بَعْضِ
الْجُلَسَاءِ عَلَى بَعْضِ لَشْحٍ قَبِيحٍ، وَدَنَاءَةٌ رَدِيئَةٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا غُلَامُ، ادْفَعْ إِلَيَّ كُلَّ
وَاحِدٍ مِنْ جُلَسَائِي وَصِيفًا وَوَصِيفَةً. فَأُحْصِيَ ذَلِكَ فَكَانُوا ثَمَانِينَ وَوَصِيفًا
وَوَصِيفَةً.

تُورِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ بُسْتًا. وَقِيلَ: بِدَرِيحٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

السَّيْلُ الْجُحَافُ بِمَكَّةَ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَمَانِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَفِيهَا كَانَ السَّيْلُ الْجُحَافُ بِمَكَّةَ؛
لِأَنَّهُ جَحْفٌ^٢ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مَرَّ بِهِ، وَحَمَلَ الْحُجَّاجَ مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ وَالْجِمَالَ
بِمَا عَلَيْهَا، وَالرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِنْهُ، وَبَلَغَ الْمَاءُ إِلَى

^١ عقائل: جمع عقيلة، وهي السيدة الكريمة تلرم بيتها.

^٢ جحف: قشر وأزال.

الْحُجُونِ، وَعَرِقَ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُ ارْتَفَعَ حَتَّى كَادَ أَنْ يُعْطِيَ الْبَيْتَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِيهَا قَطَعَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ نَهْرَ بَلْحَ، وَأَقَامَ بِكَشَّ سَنَتَيْنِ صَابِرًا مُصَابِرًا لِلْأَعْدَاءِ مِنَ الْأَتْرَاكِ، وَجَرَتْ لَهُ مَعَهُمْ هُنَاكَ فُصُولٌ يُطَوَّلُ ذِكْرُهَا، وَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي عُبُونِ هَذِهِ الْمُدَّةِ كِتَابُ ابْنِ الْأَشْعَثِ بِحُلَاةِ الْحَجَّاجِ، فَبَعَثَهُ الْمُهَلَّبُ بِرُمَّتِهِ إِلَى الْحَجَّاجِ حَتَّى قَرَأَهُ، ثُمَّ كَانَ مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ فِيمَا بَعْدَ مِنْ حُرُوبِ ابْنِ الْأَشْعَثِ.

القصاص من رُئبيل

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ جَهَّزَ الْحَجَّاجُ الْجِيُوشَ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكَوْفَةِ وَغَيْرِهِمَا؛ لِقِتَالِ رُئْبِيلِ مَلِكِ الثُّرُكِ، لِيَقْتَصُوا مِنْهُ مَا كَانَ مِنْ قَتْلِ جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ، فَجَهَّزَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ كُلِّ مِنَ الْمِصْرَيْنِ عَشْرِينَ أَلْفًا، وَأَمَرَ عَلَى الْجَمِيعِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ^١، مَعَ أَنَّ الْحَجَّاجَ كَانَ يُبْغِضُهُ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ إِلَّا هَمَمْتُ بِقَتْلِهِ.

وَدَخَلَ ابْنُ الْأَشْعَثِ يَوْمًا عَلَى الْحَجَّاجِ وَعِنْدَهُ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَى مِشِيَّتِهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَأَسْرَهَا الشَّعْبِيُّ إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ،

^١ صاحب الفتنة الشهيرة. ستأتي ترجمته عند ذكر مقتله.

فَقَالَ ابْنُ الْأَشْعَثِ: وَأَنَا وَاللَّهِ لِأَجْهَدَنَّ أَنْ أَزِيلَهُ عَنْ سُلْطَانِهِ إِنْ طَالَ بِي وَبِهِ
الْبَقَاءُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْحَجَّاجَ أَخَذَ فِي اسْتِعْرَاضِ هَذِهِ الْجَيْوشِ، وَبَدَّلَ فِيهِمُ الْعَطَاءَ،
ثُمَّ اخْتَلَفَ رَأْيُهُ فِيمَنْ يُؤَمَّرُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ
بْنِ الْأَشْعَثِ، فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِمْ، فَأَتَى عُمَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْأَشْعَثِ، فَقَالَ
لِلْحَجَّاجِ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ تُؤَمَّرَهُ فَلَا يَرَى لَكَ طَاعَةً إِذَا جَاوَزَ جِسْرَ الْفُرَاتِ.
فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ هُنَالِكَ، هُوَ لِي أَهْيَبُ، وَمِنِّي أَرْهَبُ أَنْ يُخَالِفَ أَمْرِي، أَوْ
يَخْرُجَ عَنِّي طَاعَتِي، فَأَمَضَاهُ عَلَيْهِمْ، فَسَارَ ابْنُ الْأَشْعَثِ بِالْجَيْوشِ نَحْوَ أَرْضِ
رُثَيْبِلَ، فَلَمَّا بَلَغَ رُثَيْبِلَ حَمِيءُ ابْنِ الْأَشْعَثِ بِالْجُنُودِ إِلَيْهِ كَتَبَ إِلَيْهِ رُثَيْبِلٌ يَعْتَذِرُ
مِمَّا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِهِ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ، وَأَنَّهُ كَانَ لِذَلِكَ كَارِهًا،
وَأَنَّهُمْ أَلْجَأُوهُ إِلَى قِتَالِهِمْ، وَسَأَلَ مِنَ ابْنِ الْأَشْعَثِ أَنْ يُصَالِحَهُ، وَأَنْ يَبْدُلَ
لِلْمُسْلِمِينَ الْحَرَاجَ، فَلَمْ يُجِبْهُ ابْنُ الْأَشْعَثِ إِلَى ذَلِكَ، وَصَمَّمَ عَلَى دُخُولِ بِلَادِهِ،
وَجَمَعَ رُثَيْبِلٌ جُنُودَهُ، وَهَيَّأَ لَهُ وَحَرْبِهِ، وَجَعَلَ ابْنُ الْأَشْعَثِ كَلَّمَا دَخَلَ بَلَدًا أَوْ
مَدِينَةً، أَوْ أَخَذَ قَلْعَةً مِنْ بِلَادِ رُثَيْبِلَ اسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا نَائِبًا مِنْ جِهَتِهِ، وَجَعَلَ
مَعَهُ مَنْ يَحْفَظُهَا، وَجَعَلَ الْمَسَالِحَ^١ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ وَمَكَانٍ مَخُوفٍ، فَاسْتَحْوَذَ
عَلَى بِلَادٍ وَمُدُنٍ كَثِيرَةٍ مِنْ بِلَادِ رُثَيْبِلَ، وَعَنِمَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً جَزِيلَةً، وَسَبَى خَلْقًا

^١ المسالِح: المعسكرات.

كثيرةً، ثُمَّ حَبَسَ النَّاسَ عَنِ التَّوَعُّلِ فِي بِلَادِ رُبَيْلٍ حَتَّى يُصْلِحُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ
مِنَ الْبِلَادِ، وَيَتَقَوَّوْا بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعَلَّاتِ وَالْحَوَاصِلِ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُوا فِي الْعَامِ
الْمُقْبِلِ إِلَى أَعْدَائِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ يَجُوزُونَ الْأَرْضِي وَالْأَقَالِيمَ حَتَّى يُحَاصِرُوهُمْ فِي
مَدِينَتِهِمْ - مَدِينَةَ الْعُظْمَاءِ - عَلَى الْكُنُوزِ وَالْأَمْوَالِ وَالذَّرَارِيِّ حَتَّى يَغْنَمُوهَا،
ثُمَّ يَفْتُلُونَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَعَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الرَّأْيُ.

وَكَتَبَ ابْنُ الْأَشْعَثِ إِلَى الْحَجَّاجِ يُخْبِرُهُ بِمَا وَقَعَ مِنَ الْفَتْحِ، وَمَا صَنَعَ اللَّهُ لَهُمْ،
وَهَذَا الرَّأْيِ الَّذِي رَأَاهُ لَهُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ الْحَجَّاجُ قَدْ وَجَّهَ هَمِيانَ بْنَ
عَدِيٍّ السَّدُوسِيِّ إِلَى كَرْمَانَ مَسْلُوحَةً لِأَهْلِهَا؛ لِيَمُدَّ عَامِلَ سَجِسْتَانَ وَالسِّنْدِ
إِنْ احتَاجَا إِلَى ذَلِكَ، فَعَصَى هَمِيانُ وَمَنْ مَعَهُ، فَوَجَّهَ الْحَجَّاجُ إِلَيْهِ ابْنَ
الْأَشْعَثِ، فَهَزَمَهُ وَأَقَامَ بِمَنْ مَعَهُ.

وَمَاتَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ، فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ بِإِمْرَةٍ
سَجِسْتَانَ مَكَانَ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ، وَجَهَّزَ إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ جَيْشًا أَنْفَقَ عَلَيْهِ
أَلْفِي أَلْفٍ، سِوَى أُعْطِيَاتِهِمْ، وَكَانَ يُدْعَى هَذَا الْجَيْشُ جَيْشَ الطَّوَاوِيسِ^١، وَأَمَرَهُ
بِالْإِقْدَامِ عَلَى رُبَيْلٍ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُ مَا تَقَدَّمَ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ.

^١ يقال ان الناس سموهم بذلك لتكامل أهبتهم وعدتهم ونبيلهم وشجاعتهم.

وَكَانَ عَلَى الصَّائِفَةِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَعَلَى الْمَدِينَةِ أَبَانُ بْنُ عُمَانَ، وَعَلَى الْمَشْرِقِ بِكَمَالِهِ الْحَجَّاجُ، وَعَلَى قِضَاءِ الْكُوفَةِ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى، وَعَلَى قِضَاءِ الْبَصْرَةِ مُوسَى بْنُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ.

فِتْنَةُ ابْنِ الْأَشْعَثِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَثَمَانِينَ، وَفِيهَا فَتَحَ عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَدِينَةَ قَالِقْلَا، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا غَنَائِمَ كَثِيرَةً.

وَفِيهَا قُتِلَ بُكَيْرُ بْنُ وَشَّاحٍ؛ قَتَلَهُ بُحَيْرُ بْنُ وَرْقَاءِ الصُّرَيْمِيُّ، وَكَانَ بُكَيْرٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ الشُّجْعَانِ، ثُمَّ تَارَ لِبُكَيْرِ بْنِ وَشَّاحٍ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ يُقَالُ لَهُ صَعْصَعَةُ بْنُ حَرْبِ الْعَوِيَّةِ الصُّرَيْمِيُّ؛ فَقَتَلَ بُحَيْرُ بْنُ وَرْقَاءِ الَّذِي قَتَلَ بُكَيْرًا؛ طَعَنَهُ بِخَنْجَرٍ، وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، فَحَمِلَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَهُوَ بِأَخْرِ رَمَقٍ، فَبَعَثَ الْمُهَلَّبُ بِصَعْصَعَةَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ بُحَيْرُ بْنُ وَرْقَاءِ قَالَ: ضَعُوا رَأْسَهُ عِنْدَ رِجْلِي. فَوَضَعُوهُ، فَطَعَنَهُ بُحَيْرٌ بِحَرْبَتِهِ حَتَّى قَتَلَهُ، وَمَاتَ عَلَى إِثْرِهِ. وَقَدْ قَالَ لَهُ أَنَسُ بْنُ طَارِقٍ: اعْفُ عَنْهُ، فَقَدْ قَتَلْتَ بُكَيْرَ بْنَ وَشَّاحٍ. فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَمُوتُ وَهَذَا حَيٌّ. ثُمَّ قَتَلَهُ.

وَفِتْنَةُ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِذَا كَانَ ابْتِدَائُهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ. وَكَانَ سَبَبَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ أَنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ كَانَ الْحَجَّاجَ يُبْغِضُهُ، وَكَانَ هُوَ يَفْهَمُ ذَلِكَ، وَيُضْمِرُ لَهُ الشُّوْءَ وَزَوَالَ الْمُلْكِ عَنْهُ، فَلَمَّا أَمَرَهُ الْحَجَّاجَ عَلَى ذَلِكَ الْجَيْشِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرَهُ، وَأَمَرَهُ

١ عبد الرحمن بن محمد الكندي: كان قائداً عسكرياً أمويًا من أهل الكوفة وأشرفها وصاحب أعنف الثورات ضد الدولة الأموية. بدأ عبد الرحمن كأبي قائد عسكري حليف لبني أمية وضم عدداً كبيراً من البلدان لصالح الدولة الأموية ولم تكن أسباب خروجه دينية على الإطلاق. ولد عبد الرحمن في الكوفة في بيت من أشرفها؛ فأبوه محمد بن الأشعث، أحد وجوه كندة، وأمه أم عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني. ولد متروفاً غنياً فكان لذلك أثر على شخصيته إذ وصفه عدد من كتب التراث بالغرور والأبهة والاعتداد بالذات. كان والده قاتل مسلم بن عقيل واشترك في قتال المختار الثقفي. كان عبد الرحمن في سنة ثمانين للهجرة في أربعين ألفاً من جنوده وكانوا لا يجيئون للحجاج، فتشاور عبد الرحمن مع جنده ودعوا إلى خلع من سموه بـ«عدو الله» الحجاج وكانت تلك بداية واحدة من أعنف الثورات وأشدها على الدولة الأموية. بعث عبد الملك بن مروان بمدد للحجاج فقتل عبد الرحمن بن الأشعث مطهر بن الحر الجذامي وعبد الله بن رميثة الطائي واقتحم البصرة فبايعته البصرة وكل همدان وهم أخواله، وانضم إليه القراء والتابعون مثل سعيد بن جبير ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وعظم شأن عبد الرحمن؛ فخشي عبد الملك بن مروان وهلع وعرض على أهل العراق نزع الحجاج وتولية عبد الرحمن عليهم، فحز ذلك في نفس الحجاج كثيراً واستمر خروج بن الأشعث قرابة أربع سنين وخاض بضعاً وثمانين معركة مع الحجاج وجيوشه كلها كانت لصالح عبد الرحمن إلى أن هُزم في دير الجماجم فهرب عبد الرحمن إلى بلاد الترك هو وعبيد بن أبي سبيع التميمي فأرسل الحجاج عمارة بن تميم اللخمي يطلب عبد الرحمن، فعندما أدرك الكندي أنه سيسلم إلى اللخمي آثر الانتحار على أن يسلم للحجاج فرمى نفسه وهو مقيد بالحديد من فوق قصر بالرخج فمات وذلك سنة خمس وثمانين للهجرة.

بِدُخُولِ بِلَادِ رُبَيْلِ مَلِكِ التُّرْكِ، فَمَضَى وَصَنَّعَ مَا قَدَّمَنَاهُ مِنْ أَخْذِهِ بَعْضَ بِلَادِ التُّرْكِ، ثُمَّ رَأَى لِأَصْحَابِهِ أَنْ يُقِيمُوا حَتَّى يَنْقَوُوا إِلَى الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ بِذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ يَسْتَهْجِنُ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ، وَيَسْتَضْعِفُ عَقْلَهُ، وَيَفْرَعُهُ بِالْجُبْنِ وَالتُّكُولِ عَنِ الْحَرْبِ، وَيَأْمُرُهُ حَتْمًا بِدُخُولِ بِلَادِ رُبَيْلِ، ثُمَّ أَرْدَفَ ذَلِكَ بِكِتَابٍ ثَانٍ ثُمَّ ثَالِثٍ، فَلَمَّا تَوَارَدَتْ كُتُبُ الْحَجَّاجِ إِلَيْهِ يَحْتِثُهُ عَلَى التَّوَعُّلِ فِي بِلَادِ رُبَيْلِ، جَمَعَ مَنْ مَعَهُ، وَقَامَ فِيهِمْ، فَأَعْلَمَهُمْ بِمَا كَانَ رَأَى مِنَ الرَّأْيِ فِي ذَلِكَ، وَمَا كَتَبَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ مِنَ الْأَمْرِ بِمُعَاجَلَةِ رُبَيْلِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَقَالُوا: لَا، بَلْ نَأْتِي عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ الْحَجَّاجِ، وَلَا نَسْمَعُ لَهُ وَلَا نُطِيعُ. قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ الْكِنَانِيِّ، إِنَّ أَبَاهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ، وَكَانَ شَاعِرًا حَاطِيًّا، وَكَانَ مِمَّا قَالَ: إِنَّ مَثَلَ الْحَجَّاجِ فِي هَذَا الرَّأْيِ وَمَثَلْنَا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ لِأَخِيهِ: احْمِلْ عَبْدَكَ عَلَى الْفَرَسِ، فَإِنْ هَلَكَ هَلَكَ، وَإِنْ نَجَا فَلَكَ. إِنَّكُمْ إِنْ ظَفَرْتُمْ كَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي سُلْطَانِهِ، وَإِنْ هَلَكْتُمْ كُنْتُمْ الْأَعْدَاءَ الْبُغْضَاءُ. ثُمَّ قَالَ: اخْلَعُوا عَدُوَّ اللَّهِ الْحَجَّاجِ - وَلَمْ يَذْكُرْ خَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ - وَبَايَعُوا لِأَمِيرِكُمْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ، فَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي أَوَّلُ خَالِعِ لِلْحَجَّاجِ. فَقَالَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: خَلَعْنَا عَدُوَّ اللَّهِ. وَوَثَبُوا إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ فَبَايَعُوهُ عِوَضًا عَنِ الْحَجَّاجِ، وَلَمْ يَذْكُرُوا خَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ.

وَبَعَثَ ابْنُ الْأَشْعَثِ إِلَى رُثَيْبِلَ، فَصَالِحُهُ عَلَى أَنَّهُ إِنْ ظَفِرَ بِالْحَجَّاجِ فَلَا حَرَاجَ عَلَى رُثَيْبِلَ أَبَدًا، ثُمَّ سَارَ ابْنُ الْأَشْعَثِ بِالْجُنُودِ الَّذِينَ مَعَهُ مُقْبِلًا مِنْ سِجِسْتَانَ إِلَى الْحَجَّاجِ؛ لِيُقَاتِلَهُ وَيَأْخُذَ مِنْهُ الْعِرَاقَ، ثُمَّ لَمَّا تَوَسَّطُوا الطَّرِيقَ قَالُوا: إِنَّ خَلْعَنَا لِلْحَجَّاجِ خَلْعُ لَابِنِ مَرْوَانَ؛ فَخَلَعُوهُمَا جَمِيعًا، وَجَدَّدُوا الْبَيْعَةَ لِابْنِ الْأَشْعَثِ، فَبَايَعَهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسِنَةِ رَسُولِهِ، وَخَلَعَ أُمَّةَ الضَّلَالَةِ وَجِهَادِ الْمُحِلِّينَ. فَإِذَا قَالُوا: نَعَمْ. بَايَعَهُمْ.

فَلَمَّا بَلَغَ الْحَجَّاجُ مَا صَنَعُوا مِنْ خَلْعِهِ وَخَلَعَ ابْنِ مَرْوَانَ، كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ، وَيَسْتَعْجِلُهُ فِي بَعْنِهِ الْجُنُودَ إِلَيْهِ، وَجَاءَ الْحَجَّاجُ حَتَّى نَزَلَ الْبَصْرَةَ، وَبَلَغَ الْمُهَلَّبُ خَبْرَ ابْنِ الْأَشْعَثِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَأَبَى عَلَيْهِ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَى الْحَجَّاجِ، وَكَتَبَ الْمُهَلَّبُ إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ يَا ابْنَ الْأَشْعَثِ قَدْ وَضَعْتَ رَجْلَكَ فِي رِكَابِ طَوِيلٍ، أَبَقِ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّهُ اللَّهُ، انظُرْ لِنَفْسِكَ فَلَا تُهْلِكْهَا، وَدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا تَسْفِكْهَا، وَالْجَمَاعَةَ فَلَا تُفْرِقْهَا، وَالْبَيْعَةَ فَلَا تَنْكُثْهَا، فَإِنْ قُلْتَ أَحَافُ النَّاسِ عَلَى نَفْسِي، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخَافَهُ مِنَ النَّاسِ، فَلَا تُعْرِضْهَا لِلَّهِ فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ، أَوْ اسْتِحْلَالِ مُحَرَّمٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

وَكَتَبَ الْمُهَلَّبُ إِلَى الْحَجَّاجِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَيْكَ مِثْلَ السَّيْلِ الْمُنْحَدِرِ مِنْ عَلٍ، لَيْسَ شَيْءٌ يُرَدُّهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى قَرَارِهِ، وَإِنَّ لِأَهْلِ

العِراقِ شِرَّةً^١ فِي أَوَّلِ مَخْرَجِهِمْ، وَصَبَابَةً إِلَى أَبْنَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، فَلَيْسَ شَيْءٌ يُرَدُّهُمْ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ، وَيَشْمُوا أَوْلَادَهُمْ، ثُمَّ وَقَعَهُمْ عِنْدَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَلَمَّا قَرَأَ الْحَجَّاجُ كِتَابَهُ قَالَ: فَعَلَ اللَّهُ بِهِ وَفَعَلَ، لَا وَاللَّهِ مَا لِي نَظَرًا، وَلَكِنْ لِابْنِ عَمِّهِ نَصَحَ. وَلَمَّا وَقَعَ كِتَابُ الْحَجَّاجِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ هَالَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ، وَبَعَثَ إِلَى خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَأَقْرَأَهُ كِتَابَ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ قَبْلِ حُرَّاسَانَ فَحَفُّهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ سِجِسْتَانَ فَلَا تَحْفُهُ.

ثُمَّ أَخَذَ عَبْدُ الْمَلِكِ فِي بَجْهِيهِ الْجُنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْعِراقِ فِي نُصْرَةِ الْحَجَّاجِ، وَبَجْهِيهِ الْحَجَّاجِ لِلْخُرُوجِ إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ، وَعَصَى رَأْيَ الْمُهَلَّبِ فِيمَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِيهِ التُّصْحُ وَالصِّدْقُ، وَجَعَلَتْ كُتُبُ الْحَجَّاجِ لَا تَنْقَطِعُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بِخَيْرِ ابْنِ الْأَشْعَثِ صَبَاحًا وَمَسَاءً: أَيْنَ نَزَلَ؟ وَمِنْ أَيْنَ ارْتَحَلَ؟ وَأَيُّ النَّاسِ إِلَيْهِ أَسْرَعُ؟ وَجَعَلَ النَّاسُ يَلْتَفُونَ عَلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ سَارَ مَعَهُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ فَارِسٍ، وَمِائَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ رَاجِلٍ.

^١ الشِّرَّةُ: الحِدَّة والنَّشَاطُ.

وَحَرَجَ الْحَجَّاجُ فِي جُنُودِ الشَّامِ مِنَ الْبَصْرَةِ نَحْوَ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَنَزَلَ تُسْتَرَ، وَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُطَهَّرَ بَنٍ حَيٍّ الْعَكِّيَّ أَمِيرًا عَلَى الْمُقَدِّمَةِ، وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زُمَيْتٍ أَمِيرًا آخَرَ، فَاَنْتَهَوْا إِلَى دُجَيْلٍ، فَإِذَا مُقَدِّمَةُ ابْنِ الْأَشْعَثِ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ فَارِسٍ عَلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبَانَ الْحَارِثِيُّ، فَالْتَقَوْا فِي يَوْمِ الْأَضْحَى عِنْدَ تَهْرٍ دُجَيْلٍ، فَهَزِمَتْ مُقَدِّمَةُ الْحَجَّاجِ، وَقَتَلَ أَصْحَابُ ابْنِ الْأَشْعَثِ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، نَحْوَ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَاحْتَارُوا مَا فِي مُعَسْكَرِهِمْ مِنْ حِيُولٍ وَفُتْمَاشٍ وَأَمْوَالٍ، وَجَاءَ الْخَبْرُ إِلَى الْحَجَّاجِ بِهَزِيمَةِ أَصْحَابِهِ، فَأَخَذَهُ مَا دَبَّ وَدَرَجٌ^١، وَقَدْ كَانَ قَائِمًا يَخْطُبُ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، ارْجِعُوا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَإِنَّهُ أَرْفُقُ بِالْجُنْدِ، فَارْجِعَ بِالنَّاسِ، وَاتَّبَعْتَهُمْ حِيُولُ ابْنِ الْأَشْعَثِ لَا يُدْرِكُونَ مِنْهُمْ شَاذًا إِلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا فَاذًا إِلَّا أَهْلَكُوهُ، وَمَضَى الْحَجَّاجُ هَارِبًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى أَتَى الرَّوَابِيَةَ، فَعَسَكَرَ عِنْدَهَا، وَجَعَلَ يَقُولُ: لِلَّهِ دَرُّ الْمُهَلَّبِ! أَيُّ صَاحِبِ حَرْبٍ هُوَ؟! فَذُ أَشَارَ عَلَيْنَا بِالرَّأْيِ، وَلَكِنَّا لَمْ نَقْبَلْ.

وَأَنْفَقَ الْحَجَّاجُ عَلَى جَيْشِهِ - وَهُوَ بِهَذَا الْمَكَانِ - مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَخَنَدَقَ حَوْلَ جَيْشِهِ خَنَدَقًا، وَجَاءَ أَهْلُ الْعِرَاقِ فَدَخَلُوا الْبَصْرَةَ، وَاجْتَمَعُوا بِأَهْلِيهِمْ وَشَتُّوا أَوْلَادَهُمْ، وَدَخَلَ ابْنُ الْأَشْعَثِ الْبَصْرَةَ، فَخَطَبَ النَّاسَ بِهَا، وَبَايَعَهُمْ وَبَايَعُوهُ عَلَى خَلْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَنَائِبِهِ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، وَقَالَ

^١ تعبير يقصد به الخوف من كل شيء صغيره وكبيره.

هُمْ ابْنُ الْأَشْعَثِ: لَيْسَ الْحَجَّاجُ بِشَيْءٍ، وَلَكِنْ أَذْهَبُوا بِنَا إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لِثِقَاتِلَهُ. وَوَافَقَهُ عَلَى خَلْعِهِمَا جَمِيعٌ مِّنَ الْبَصْرَةِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْقُرَّاءِ وَالشُّيُوخِ وَالشَّبَابِ، ثُمَّ أَمَرَ ابْنُ الْأَشْعَثِ بِخُنْدَقٍ حَوْلَ الْبَصْرَةِ فَعَمِلَ ذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَفِيهَا غَزَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ^١ أَمِيرُ بِلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ جِهَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ، فَافْتَتَحَ مُدُنًا كَثِيرَةً، وَأَرَاضِي عَامِرَةً، وَأَوْغَلَ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى الرُّقَاقِ الْمُنْبَتِقِ مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ الْمُحِيطِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَعَةُ الزَّوَايَةِ بَيْنَ ابْنِ الْأَشْعَثِ وَالْحَجَّاجِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثِنْتَيْنِ وَثَمَانِينَ؛ فَفِي الْمَحْرَمِ مِنْهَا كَانَتْ وَقَعَةُ الزَّوَايَةِ^٢ بَيْنَ ابْنِ الْأَشْعَثِ وَالْحَجَّاجِ فِي آخِرِهِ، وَكَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ، ثُمَّ تَوَافَعُوا يَوْمًا آخَرَ، فَحَمَلَ سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ - أَحَدُ أَمْرَاءِ أَهْلِ الشَّامِ - عَلَى

^١ موسى بن نصير (١٩ - ٩٧ هـ): قائد عسكري عربي في عصر الدولة الأموية. شارك في فتح قبرص في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ثم أصبح واليًا على إفريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، واستطاع ببراعة عسكرية أن ينهي نزعات البربر المتوالية للخروج على حكم الأمويين، كما أمر بفتح شبه الجزيرة الأيبيرية، وهو الغزو الذي أسقط حكم مملكة القوط في إسبانيا.

^٢ الزاوية: موضع قرب البصرة.

مَيْمَنَةَ ابْنِ الْأَشْعَثِ فَهَزَمَهَا، وَقَتَلَ حَلْفًا كَثِيرًا مِنَ الْفُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَحَرَّ الْحَجَّاجُ لِلَّهِ سَاجِدًا بَعْدَ مَا كَانَ جَنَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَسَلَ شَيْئًا مِنْ سَيْفِهِ، وَجَعَلَ يَتَرَحَّمُ عَلَى مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَيَقُولُ: مَا كَانَ أَكْرَمَهُ حِينَ صَبَرَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ.

وَلَمَّا فَرَّ أَصْحَابُ ابْنِ الْأَشْعَثِ رَجَعَ ابْنُ الْأَشْعَثِ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ، وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْكُوفَةَ، فَعَمَدَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَبَايَعُوهُ، فَقَاتَلَ الْحَجَّاجُ خَمْسَ لَيَالٍ أَشَدَّ الْقِتَالِ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَحِقَ بِابْنِ الْأَشْعَثِ، وَتَبِعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَاسْتَنَابَ الْحَجَّاجُ عَلَى الْبَصْرَةِ أَيُّوبَ بْنَ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي عَقِيلٍ، وَدَخَلَ ابْنُ الْأَشْعَثِ الْكُوفَةَ، فَبَايَعَهُ أَهْلُهَا عَلَى خَلْعِ الْحَجَّاجِ وَعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ، وَكَثُرَ مُتَابِعُو ابْنِ الْأَشْعَثِ عَلَى ذَلِكَ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ، وَتَفَرَّقَتِ الْكَلِمَةُ، وَعَظُمَ الْخُطْبُ، وَاتَّسَعَ الْحَرْقُ.

وَلَمَّا تَقَى جَيْشُ الْحَجَّاجِ وَجَيْشُ ابْنِ الْأَشْعَثِ بِالزَّوَايَةِ، جَعَلَ جَيْشُ الْحَجَّاجِ يَحْمِلُ عَلَيْهِمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَقَالَ الْفُرَّاءُ - وَكَانَ عَلَيْهِمْ جَبَلَةٌ بِنُ زَحْرِ - : أَيُّهَا النَّاسُ، لَيْسَ الْفِرَارُ مِنْ أَحَدٍ بِأَقْبَحَ مِنْهُ مِنْكُمْ، فَقَاتَلُوا عَنْ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ نَحْوَ ذَلِكَ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: قَاتِلُوهُمْ عَلَى جُورِهِمْ، وَاسْتِنْدِلَالِهِمُ الضُّعَفَاءَ، وَإِمَاتِهِمُ الصَّلَاةَ. ثُمَّ حَمَلَتِ الْفُرَّاءُ - وَهُمْ الْعُلَمَاءُ - عَلَى جَيْشِ الْحَجَّاجِ حَمَلَةً صَادِقَةً، فَبَدَّعُوا فِيهِمْ، ثُمَّ رَجَعُوا فَإِذَا هُمْ بِمُقَدَّمِهِمْ

جَبَلَةُ بْنُ زَحْرِ صَرِيْعًا، فَهَدَّهُمْ ذَلِكَ، فَنَادَاهُمْ جَيْشُ الْحَجَّاجِ: يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ،
قَدْ قَتَلْنَا طَاغِيَتِكُمْ.

ثُمَّ حَمَلَ سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ - وَهُوَ عَلَى حَيْلِ الْحَجَّاجِ - عَلَى مَيْسِرَةَ ابْنِ
الْأَشْعَثِ - وَعَلَيْهَا الْأَبْرَدُ بْنُ قُرَّةَ التَّمِيمِيِّ - فَانْهَزَمُوا، وَلَمْ يُقَاتِلُوا كَثِيرَ قِتَالٍ،
فَأَنْكَرَ النَّاسُ مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَكَانَ أَمِيرُ مَيْسِرَةَ ابْنِ الْأَشْعَثِ - الْأَبْرَدُ - شُجَاعًا
لَا يَفِرُّ، وَظَنُوا أَنَّهُ قَدْ حَامَرَ، فَتَقِضَتِ الصُّفُوفُ، وَرَكِبَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا، وَكَانَ ابْنُ الْأَشْعَثِ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْقِتَالِ، فَلَمَّا رَأَى مَا النَّاسُ فِيهِ
أَخَذَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَذَهَبَ إِلَى الْكُوفَةِ، فَبَايَعَهُ أَهْلُهَا.

وَقَعَةُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ

ثُمَّ كَانَتْ وَقَعَةُ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ فِي شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ
لَمَّا قَصَدَ الْكُوفَةَ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا، فَتَلَقَّوْهُ، وَحَقَّقُوا بِهِ، وَدَخَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، غَيْرَ
أَنَّ شَرِذِمَةَ قَلِيلَةً أَرَادَتْ أَنْ تُقَاتِلَهُ دُونَ مَطَرِ بْنِ نَاجِيَةَ نَائِبِ الْحَجَّاجِ، فَلَمْ
يُمْكِنْ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَعَدَلُوا إِلَى الْقَصْرِ، فَلَمَّا وَصَلَ ابْنُ الْأَشْعَثِ إِلَى الْكُوفَةِ
أَمَرَ بِالسَّلَالِيمِ فَنُصِبَتْ عَلَى قَصْرِ الْإِمَارَةِ، فَأَخَذَهُ، وَاسْتَنْزَلَ مَطَرِ بْنَ نَاجِيَةَ،
وَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَبْقِنِي فَإِنِّي حَيْرٌ مِنْ فُرْسَانِكَ. فَحَبَسَهُ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ
فَأَطْلَقَهُ وَبَايَعَهُ، وَاسْتَوْثَقَ لِابْنِ الْأَشْعَثِ أَمْرَ الْكُوفَةِ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِ مَنْ جَاءَ مِنْ

أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ مِمَّنْ قَدِمَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَمَرَ بِالْمَسَالِحِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَحَفِظَتْ التُّغُورُ وَالطُّرُقُ وَالْمَسَالِكُ.

ثُمَّ إِنَّ الْحَجَّاجَ رَكِبَ فَيَمَّنَ مَعَهُ مِنَ الْجِيُوشِ الشَّامِيَّةِ مِنَ الْبَصْرَةِ فِي الْبَرِّ، حَتَّى مَرَّ بَيْنَ الْقَادِسِيَّةِ وَالْعُدَيْبِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ ابْنَ الْأَشْعَثِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْعَبَّاسِ فِي حَيْلٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ^١، فَمَنَعُوا الْحَجَّاجَ مِنْ نُزُولِ الْقَادِسِيَّةِ، فَسَارَ الْحَجَّاجُ حَتَّى نَزَلَ دَيْرَ قُرَّةَ، وَجَاءَ ابْنُ الْأَشْعَثِ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجِيُوشِ الْبَصْرِيَّةِ وَالْكُوفِيَّةِ حَتَّى نَزَلَ دَيْرَ الْجَمَاجِمِ، وَمَعَهُ جُنُودٌ كَثِيرَةٌ، وَفِيهِمُ الْفَرَاءُ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ، وَحَلَقُوا مِنَ الصَّالِحِينَ، وَكَانَ الْحَجَّاجُ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ: قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الْأَشْعَثِ، أَمَا كَانَ يَرْجُرُ الطَّيْرَ حَيْثُ رَأَيْتُ قَدْ نَزَلْتُ دَيْرَ قُرَّةَ، وَنَزَلَ هُوَ بِدَيْرِ الْجَمَاجِمِ.

وَكَانَ جُمْلَةُ مَنْ اجْتَمَعَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ مِائَةً أَلْفٍ مُقَاتِلٍ، مِمَّنْ يَأْخُذُ الْعَطَاءَ، وَمَعَهُمْ مِثْلُهُمْ مِنْ مَوَالِيهِمْ، وَقَدِمَ عَلَى الْحَجَّاجِ فِي غُبُونِ ذَلِكَ أَمَدًا كَثِيرَةً مِنَ الشَّامِ، وَخَنَدَقَ كُلُّ مَنْ الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَوْلَ جَيْشِهِ خَنَدَقًا، يَمْتَنِعُ بِهِ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ كَانَ يَبْزُرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ

^١ المصيران: الكوفة والبصرة.

فَيَقْتَتِلُونَ قِتَالًا شَدِيدًا فِي كُلِّ يَوْمٍ، حَتَّى أُصِيبَ مِنْ رُءُوسِ النَّاسِ حَلْقٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ.

عبد الملك يفكر في عزل الحجاج دفعا للفتنة

وَاسْتَمَرَ هَذَا الْحَالُ مُدَّةً طَوِيلَةً، وَاجْتَمَعَ الْأَمْرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْمَشُورَةِ عِنْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فَقَالُوا لَهُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يُرْضِيهِمْ مِنْكَ أَنْ تَعَزَلَ عَنْهُمْ الْحَجَّاجَ فَهُوَ أَيْسَرُ مِنْ قِتَالِهِمْ وَسَفْكَ دِمَائِهِمْ، فَاسْتَحْضَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ عِنْدَ ذَلِكَ أَخَاهُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ، وَابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَمَعَهُمَا جُنُودٌ كَثِيرَةٌ، وَكَتَبَ مَعَهُمَا كِتَابًا إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ يَقُولُ لَهُمْ: إِنْ كَانَ يُرْضِيكُمْ مِنِّي عَزْلُ الْحَجَّاجِ عَنْكُمْ عَزَلْتُهُ، وَأَبْقَيْتُ عَلَيْكُمْ أُعْطِيَاتِكُمْ مِثْلَ أَهْلِ الشَّامِ، وَليَحْتَرِ ابْنُ الْأَشْعَثِ أَيَّ بَلَدٍ شَاءَ يَكُونُ عَلَيْهِ أَمِيرًا مَا عَاشَ وَعِشْتُمْ، وَتَكُونُ إِمْرَةً الْعِرَاقِ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ. وَقَالَ فِي عَهْدِهِ هَذَا: فَإِنْ لَمْ يُجِبْ أَهْلُ الْعِرَاقِ إِلَى ذَلِكَ فَالْحَجَّاجُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَإِلَيْهِ إِمْرَةُ الْحَرْبِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي طَاعَتِهِ وَتَحْتِ أَمْرِهِ، لَا يَخْرُجُونَ عَن رَأْيِهِ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهِ.

وَلَمَّا بَلَغَ الْحَجَّاجَ مَا كَتَبَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ مِنْ عَزْلِهِ إِنْ رَضُوا بِهِ، شَقَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مَشَقَّةً عَظِيمَةً، وَعَظَّمَ شَأْنَ هَذَا الرَّأْيِ عِنْدَهُ، وَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ لَئِنْ أُعْطِيتُ أَهْلَ الْعِرَاقِ نَزْعِي عَنْهُمْ لَا

يَلْبَثُونَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يُخَالِفُوا وَيَسِيرُوا إِلَيْكَ، وَلَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا جُزْأَةً عَلَيْكَ، أَلَمْ تَرَ وَتَسْمَعُ بِوُثُوبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ مَعَ الْأَشْتَرِ النَّحَعِيِّ عَلَى ابْنِ عَقَّانَ، فَلَمَّا سَأَلَهُمْ: مَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نَزَعَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ، فَلَمَّا نَزَعَهُ لَمْ تَتَمَّ لَهُمُ السَّنَةُ حَتَّى سَارُوا إِلَيْهِ فَفَقَتَلُوهُ؟ وَإِنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ، كَانَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا ارْتَأَيْتَ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ.

فَأَبَى عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَّا عَرَضَ هَذِهِ الْخِصَالِ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ كَمَا أَمَرَ، فَتَقَدَّمَ عَبْدُ اللَّهِ وَمُحَمَّدٌ، فَنَادَى عَبْدُ اللَّهِ: يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، أَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَإِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْكُمْ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَذَكَرَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُوهُ مَعَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ: وَأَنَا رَسُولُ أَخِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكُمْ بِذَلِكَ. فَقَالُوا: نَنْظُرُ فِي أَمْرِنَا غَدًا، وَنَرُدُّ عَلَيْكُمْ الْخَبَرَ عَشِيَّةً، ثُمَّ انصَرَفُوا، فَاجْتَمَعَ جَمِيعُ الْأَمْرَاءِ إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا، وَنَدَبَهُمْ إِلَى قَبُولِ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَزْلِ الْحَجَّاجِ عَنْهُمْ، وَبَيْعَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَإِبْقَاءِ الْأَعْطِيَّاتِ، وَإِمْرَةَ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ عَلَى الْعِرَاقِ بِدَلِّ الْحَجَّاجِ. فَتَفَرَّ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ لَا نَقْبَلُ ذَلِكَ؛ نَحْنُ أَكْثَرُ عَدَدًا وَعَدَدًا، وَهُمْ فِي ضَيْقٍ مِنَ الْحَالِ، وَقَدْ حَكَمْنَا عَلَيْهِمْ وَذَلُّوا لَنَا، وَاللَّهِ لَا نُحِبُّ إِلَى ذَلِكَ أَبَدًا. ثُمَّ جَدَّدُوا خَلَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ثَانِيَةً، وَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ كُلُّهُمْ.

فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعَمَّهُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْخَبْرُ قَالَ لِلْحَجَّاجِ: شَأْنُكَ بِهَمْ إِذْنٍ، فَتَحْنُ فِي طَاعَتِكَ كَمَا أَمَرْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَكَانَا إِذَا لَقِيَاهُ سَلَّمَا عَلَيْهِ بِالْإِمْرَةِ، وَبُسِّمَ هُوَ أَيْضًا عَلَيْهِمْ بِالْإِمْرَةِ.

وَتَوَلَّى الْحَجَّاجُ أَمْرَ الْحَرْبِ وَتَدْبِيرَهَا، كَمَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ بَرَزَ كُلُّ مَنْ الْفَرِيقَيْنِ لِلْقِتَالِ وَالْحَرْبِ، فَجَعَلَ الْحَجَّاجُ عَلَى مَيْمَنَتِهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سُلَيْمَانَ الْكَلْبِيِّ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ عُمَارَةَ بْنَ تَمِيمِ اللَّحْمِيِّ، وَعَلَى الْخَيْلِ سُفْيَانَ بْنَ الْأَبْرَدِ، وَعَلَى الرَّجَالِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَبِيبِ الْحَكَمِيِّ، وَجَعَلَ ابْنَ الْأَشْعَثِ عَلَى مَيْمَنَتِهِ الْحَجَّاجِ بْنَ حَارِثَةَ الْخَثْعَمِيِّ، وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ الْأَبْرَدَ بْنَ قُرَّةَ التَّمِيمِيِّ، وَعَلَى الْخَيْالَةِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبَّاسِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعَلَى الرَّجَالَةِ مُحَمَّدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصِ الرَّهْرِيِّ، وَعَلَى الْفُرَّاءِ جَبَلَةَ بْنَ زَحْرِ بْنِ قَيْسِ الْجُعْفِيِّ، وَكَانَ فِي الْفُرَّاءِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى، وَكَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ - وَكَانَ شَجَاعًا فَاتِكًا عَلَى كِبَرِ سِنِّهِ - وَأَبُو الْبَحْتَرِيِّ الطَّائِيُّ وَعَظِيمُهُمْ.

وَجَعَلُوا يَفْتَتِلُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَأَهْلُ الْعِرَاقِ تَأْتِيهِمُ الْمِيرَةُ مِنَ الرَّسَاتِيقِ وَالْأَقَالِيمِ، مِنَ الْعَلْفِ وَالطَّعَامِ وَغَيْرِهِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّامِ الَّذِينَ مَعَ الْحَجَّاجِ فَفِي ضَيْقٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَقَلَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ، وَقَدْ فَقَدُوا اللَّحْمَ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَا يَجِدُونَهُ، وَمَا زَالَتْ الْحَرْبُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ كُلِّهَا، حَتَّى انْسَلَحَتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَهُمْ عَلَى حَالِهِمْ وَقِتَالِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ، أَوْ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ، وَالِدَائِرَةُ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ فِي أَكْثَرِ

الأيام، وَقَدْ قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ الْحِجَّاجِ زِيَادُ بْنُ عَنَمٍ، وَكَسَرَ بِسَطَامُ بْنُ مِصْقَلَةَ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ جُفُونَ سَيُوفِهِمْ، وَاسْتَقْتَلُوا، وَكَانُوا مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ.

وَفَاةُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ وَفَاةُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، وَهُوَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ظَالِمٌ، أَبُو سَعِيدِ الْأَزْدِيِّ، أَحَدُ أَشْرَافِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَوُجُوهِهِمْ وَدَهَاتِهِمْ وَأَجْوَادِهِمْ وَكُرْمَائِهِمْ، وَوُلِدَ عَامَ الْفَتْحِ، وَكَانُوا يَنْزِلُونَ فِيمَا بَيْنَ عُمَانَ وَالْبَحْرَيْنِ، وَقَدْ ارْتَدَّ قَوْمُهُ فَقَاتَلَهُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ فَظَفَرَ بِهِمْ، وَبَعَثَ بِهِمْ إِلَى الصِّدِّيقِ، وَفِيهِمْ أَبُو صُفْرَةَ، وَابْنُهُ الْمُهَلَّبُ عَلَامٌ لَمْ يَبْلُغِ الْحِنْتَ^١، ثُمَّ نَزَلَ الْمُهَلَّبُ الْبَصْرَةَ وَقَدْ عَزَا فِي أَيَّامِ مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الْهِنْدِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَوَلِيَ الْجَزِيرَةَ لِابْنِ الرُّبَيْرِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ، ثُمَّ وَلِيَ حَرْبَ الْخَوَارِجِ أَوَّلَ دَوْلَةِ الْحِجَّاجِ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ فِي وَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ أَرْبَعَةَ آلَافٍ وَثَمَانِمِائَةٍ، فَعَظُمَتْ مَنَزِلَتُهُ عِنْدَ الْحِجَّاجِ. وَكَانَ فَاضِلًا شَجَاعًا كَرِيمًا، يُحِبُّ الْمَدْحَ، وَلَهُ كَلَامٌ حَسَنٌ، فَمِنْهُ: نِعْمَ الْخِصْلَةُ السَّخَاءُ، تَسْتُرُ عَوْرَةَ الشَّرِيفِ، وَتَلْحَقُ حَسِيْسَةَ الْوَضِيعِ، وَتُحِبُّبُ الْمَرْهُودَ فِيهِ. وَقَالَ: يُعْجِبُنِي فِي الرَّجُلِ حَصْلَتَانِ: أَنْ أَرَى عَقْلَهُ زَائِدًا عَلَى لِسَانِهِ، وَلَا أَرَى لِسَانَهُ زَائِدًا عَلَى عَقْلِهِ.

^١ الْحِنْتُ: سن البلوغ والحساب على الذنب.

تُوِّفِي الْمُهَلَّبُ غَازِيًا بِمَرِّ الرُّوْذِ، وَعُمُرُهُ سِتَّةٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً رَحِمَهُ اللهُ، وَكَانَ لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْوَالِدِ وَهُمْ: يَزِيدُ، وَزِيَادٌ، وَالْمُفَضَّلُ، وَمُدْرِكٌ، وَحَبِيبٌ، وَالْمَغِيرَةُ، وَقَبِيصَةُ، وَمُحَمَّدٌ، وَهِنْدٌ، وَقَاطِمَةُ.

تُوِّفِي الْمُهَلَّبُ فِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْهَا، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ، وَلَهُ مَوَاقِفُ حَمِيدَةٌ، وَعَزَوَاتٌ مَشْهُورَةٌ فِي التُّرْكِ وَالْأَزْرَاقَةِ وَعَيْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَوَارِجِ، وَجَعَلَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ لَوْلَدِهِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ عَلَى إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ، فَأَمَضَى لَهُ ذَلِكَ الْحَجَّاجُ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ.

وَفِي جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْهَا عَزَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عَنِ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ أَبَانَ بْنَ عَثْمَانَ، وَوَلَّى عَلَيْهَا هِشَامَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيَّ^١، وَكَانَتْ وِلَايَةُ أَبَانَ عَلَى الْمَدِينَةِ سَبْعَ سِنِينَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَكَانَ عَلَى إِمْرَةِ بِلَادِ الْمَشْرِقِ بِكَمَالِهِ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ، وَالثُّوَابُ فِي الْأَقَالِيمِ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ، وَهُوَ مَشْغُولٌ عَنِ تَدْبِيرِ الْمَمَالِكِ بِحَرْبِ ابْنِ الْأَشْعَثِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ كُلِّهَا.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ الَّذِي كَانَ نَائِبَ الْمَدِينَةِ.

^١ هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي: قدم دمشق، فتزوج عبد الملك بن

مروان ابنته، وولاه المدينة، وولدت لعبد الملك هشاماً.

هزيمة ابن الأشعث وفراره

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَثَمَانِينَ، وَاسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَالنَّاسُ مُتَوَافِقُونَ لِقِتَالِ الْحُجَّاجِ وَأَصْحَابِهِ بِدَيْرِ قُرَّةَ، وَابْنُ الْأَشْعَثِ وَأَصْحَابُهُ بِدَيْرِ الْجَمَاحِمِ، وَالْمُبَارَزَةُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بَيْنَهُمْ وَاقِعَةٌ، وَفِي غَالِبِ الْأَيَّامِ تَكُونُ النُّصْرَةُ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ، حَتَّى قِيلَ إِنَّ أَصْحَابَ ابْنِ الْأَشْعَثِ - وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ - كَسَرُوا أَهْلَ الشَّامِ - وَهُمْ أَصْحَابُ الْحُجَّاجِ - بِضَعًا وَثَمَانِينَ مَرَّةً يَنْتَصِرُونَ عَلَيْهِمْ. وَمَعَ هَذَا فَالْحُجَّاجُ ثَابِتٌ فِي مَكَانِهِ صَابِرٌ وَمُصَابِرٌ، لَا يَتَزَحَّرُ عَنْ مَوْضِعِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، بَلْ إِذَا حَصَلَ لَهُ ظَفَرٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ يَتَقَدَّمُ بِجَيْشِهِ إِلَى خَرِّ عَدُوِّهِ، وَكَانَ لَهُ خِبْرَةٌ بِالْحَرْبِ.

وَمَا زَالَ ذَلِكَ دَائِبَةً وَذَاتُهُمْ حَتَّى أَمَرَ بِالْحُمْلَةِ عَلَى كَتِيبَةِ الْفُرَّاءِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا تَبَعًا لَهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ يُحْرِضُونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَالنَّاسُ يُقْتَدُونَ بِهِمْ، فَصَبَرَ الْفُرَّاءُ لِحُمْلَةِ جَيْشِهِ، ثُمَّ جَمَعَ الرُّمَةَ مِنْ جَيْشِهِ وَحَمَلَ بِهِمْ، وَمَا انْفَكَ حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ حَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى جَيْشِ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَانْهَزَمَ أَصْحَابُ ابْنِ الْأَشْعَثِ وَذَهَبُوا فِي كُلِّ وَجْهِ، وَهَرَبَ ابْنُ الْأَشْعَثِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَمَعَهُ قَلِيلٌ قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، فَاتَّبَعَهُ الْحُجَّاجُ جَيْشًا كَثِيرًا مَعَ عِمَارَةَ بْنِ تَمِيمِ اللَّحْمِيِّ، وَمَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُجَّاجِ، وَالْإِمْرَةُ لِعِمَارَةَ، فَسَاقُوا وَرَاءَهُمْ يَطْرُدُونَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَظْفَرُونَ بِهِ قَتْلًا أَوْ أَسْرًا، فَمَا زَالَ يَسُوقُ وَيَخْتَرِقُ الْأَقَالِيمَ وَالْكَوَرِ وَالرَّسَاتِيقَ، وَهُمْ فِي أَثَرِهِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى كَرْمَانَ وَاتَّبَعَهُ الشَّامِيُّونَ.

ثُمَّ إِنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ دَخَلَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْقَلِّ إِلَى بِلَادِ رُثَيْبِلَ مَلِكِ التُّرْكِ، فَأَكْرَمَهُ رُثَيْبِلُ، وَأَنْزَلَهُ عِنْدَهُ، وَأَمَّنَهُ وَعَظَّمَهُ.

وَمَرَّ ابْنُ الْأَشْعَثِ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى بِلَادِ رُثَيْبِلَ عَلَى عَامِلٍ لَهُ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ، كَانَ ابْنُ الْأَشْعَثِ قَدْ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ رُجُوعِهِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَأَكْرَمَهُ ذَلِكَ الْعَامِلُ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ هَدَايَا وَأَنْزَلَهُ؛ فَعَلَّ ذَلِكَ حَدِيثَهُ بِهِ وَمَكْرًا، وَقَالَ لَهُ: ادْخُلْ عِنْدِي إِلَى الْبَلَدِ لِتَتَحَصَّنَ بِهَا مِنْ عَدُوِّكَ، وَلَكِنْ لَا تَدْعُ أَحَدًا مِمَّنْ مَعَكَ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ. فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْمَكْرَ بِهِ، فَمَنَعَهُ أَصْحَابُهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ، فَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَثَبَ عَلَيْهِ الْعَامِلُ فَمَسَكَهُ وَأوثَقَهُ بِالْحَدِيدِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ بِهِ يَدًا عِنْدَ الْحِجَّاجِ، وَقَدْ كَانَ الْمَلِكُ رُثَيْبِلَ سَرَّ بِقُدُومِ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ مَا حَدَّثَ لَهُ مِنْ جِهَةِ ذَلِكَ الْعَامِلِ بِمَدِينَةِ بُسْتِ، سَارَ حَتَّى أَحَاطَ بِبُسْتِ، وَأَرْسَلَ إِلَى عَامِلِهَا يَقُولُ لَهُ: وَاللَّهِ لَعْنُ آذَيْتَ ابْنَ الْأَشْعَثِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَسْتَنْزِلَكَ، وَأَقْتُلَ جَمِيعَ مَنْ فِي بَلَدِكَ؛ فَخَافَهُ ذَلِكَ الْعَامِلُ، وَسَيَّرَ إِلَيْهِ ابْنَ الْأَشْعَثِ، فَأَكْرَمَهُ رُثَيْبِلُ، فَقَالَ ابْنُ الْأَشْعَثِ لِرُثَيْبِلَ: إِنَّ هَذَا الْعَامِلَ كَانَ عَامِلِي وَمِنْ جِهَتِي، فَعَدَرَ بِي، وَفَعَلَ مَا رَأَيْتَ فَأَذْنُ لِي فِي قَتْلِهِ. فَقَالَ: قَدْ أَمَنْتُهُ.

وَكَانَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبَّاسِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ هُنَالِكَ فِي بِلَادِ رُثَيْبِلَ.

ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقَلِّ الَّذِينَ هَرَبُوا مِنَ الْحَجَّاجِ اجْتَمَعُوا وَسَارُوا وَرَاءَ ابْنِ
 الْأَشْعَثِ؛ لِيُدْرِكُوهُ فَيَكُونُوا مَعَهُ، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ سِتِّينَ أَلْفًا، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى
 سِجِسْتَانَ وَجَدُوا ابْنَ الْأَشْعَثِ قَدْ دَخَلَ إِلَى عِنْدِ زُبَيْلٍ فَتَعَلَّبُوا عَلَى
 سِجِسْتَانَ، وَعَدَّبُوا عَامِلَهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرِ الْبَعَارِ وَإِخْوَتَهُ وَقَرَائِبَهُ، وَاسْتَحْوَذُوا
 عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَانْتَشَرُوا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَخَذُوهَا، ثُمَّ كَتَبُوا إِلَى ابْنِ
 الْأَشْعَثِ: أَنْ اخْرُجْ إِلَيْنَا حَتَّى نَكُونَ مَعَكَ؛ نَنْصُرَكَ عَلَى مَنْ يُخَالِفُكَ، وَنَأْخُذُ
 بِلَادِ خُرَّاسَانَ، فَإِنَّ بِهَا جُنْدًا عَظِيمًا مِنَّا، فَنَكُونُ بِهَا حَتَّى يُهْلِكَ اللَّهُ الْحَجَّاجَ
 أَوْ عَبْدَ الْمَلِكِ، فَنَرَى بَعْدَ ذَلِكَ رَأَيْنَا، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ابْنُ الْأَشْعَثِ، وَسَارَ بِهِمْ
 قَلِيلًا إِلَى نَحْوِ خُرَّاسَانَ، فَاعْتَزَلَهُ شِرْذِمَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ مَعَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ
 الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، فَقَامَ فِيهِمْ ابْنُ الْأَشْعَثِ حَطِيبًا، فَذَكَرَ غَدْرَهُمْ وَنُكُوبَهُمْ عَنِ
 الْحَرْبِ، وَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِكُمْ، وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَى صَاحِبِي زُبَيْلٍ فَأَكُونُ عِنْدَهُ،
 ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُمْ، وَتَبِعَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ مُعْظَمُ الْجَيْشِ، فَلَمَّا انفصلَ عَنْهُمْ
 ابْنُ الْأَشْعَثِ بَايَعُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبَّاسِ بْنِ رَبِيعَةَ الْهَاشِمِيَّ، وَسَارُوا مَعَهُ إِلَى
 خُرَّاسَانَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَمِيرُهَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ؛ لِيَمْنَعَهُمْ مِنْ
 دُخُولِ بِلَادِهِ، وَكَتَبَ يَزِيدُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ لَهُ: إِنَّ فِي الْبِلَادِ
 مُتَسَعًّا، فَأَذْهَبْ إِلَى أَرْضٍ لَيْسَ بِهَا سُلْطَانٌ، فَإِنِّي أَكْرَهُ قِتَالَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ
 مَا لَا بَعَثُ إِلَيْكَ. فَقَالَ لَهُ: إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا نَسْتَرِيحَ وَنُرِيحَ
 حَيْلِنَا، ثُمَّ نَذْهَبُ، وَلَيْسَتْ بِنَا حَاجَةٌ إِلَى حَاجَةٍ مِمَّا عَرَضَتْ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى أَحَدِ الخُرَاجِ مِمَّا حَوْلَهُ مِنَ الْبِلَادِ مِنْ كُورِ خُرَاسَانَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ وَمَعَهُ أَحْوَهُ الْمُفْضَلُ فِي جُيُوشِ كَثِيفَةَ، فَلَمَّا صَادَفُوهُمْ افْتَتَلُوا عَيْرَ كَثِيرٍ، ثُمَّ انْهَزَمَ أَصْحَابُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَقَتَلَ يَزِيدُ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَأَسَرَ مِنْهُمْ أَسْرَى كَثِيرَةً، وَاحْتَارَ مَا فِي مُعَسْكَرِهِمْ، وَبَعَثَ بِالْأَسَارَى - وَفِيهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ - إِلَى الْحَجَّاجِ.

وَلَمَّا قَدِمَتِ الْأَسَارَى عَلَى الْحَجَّاجِ قَتَلَ أَكْثَرَهُمْ، وَعَفَا عَنْ بَعْضِهِمْ، وَقَدْ كَانَ الْحَجَّاجُ يَوْمَ ظَهَرَ عَلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ بِدَيْرِ الْجَمَاجِمِ نَادَى مُنَادِيَهُ فِي النَّاسِ: مَنْ رَجَعَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ لَحِقَ بِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ بِالرِّيِّ فَهُوَ آمِنٌ، فَلَحِقَ بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَأَمَّنَهُمُ الْحَجَّاجُ، وَمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِهِ شَرَعَ الْحَجَّاجُ فِي تَتْبُعِهِمْ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، حَتَّى كَانَ آخِرَ مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

وَكَانَ الشَّعْبِيُّ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ صَارَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، فَذَكَرَهُ يَوْمًا الْحَجَّاجُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ سَارَ إِلَى قُتَيْبَةَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَنْ ابْعَثْ إِلَيَّ بِالشَّعْبِيِّ. قَالَ الشَّعْبِيُّ: فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالْإِمْرَةِ، ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَمْرُونِي أَنْ أَعْتَذَرَ إِلَيْكَ بِغَيْرِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَا أَقُولُ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ وَاللَّهِ تَمَرَّدْنَا عَلَيْكَ، وَحَرَضْنَا وَجَهَدْنَا كُلَّ الْجُهْدِ، فَمَا آلَوْنَا، فَمَا كُنَّا بِالْأَقْوِيَاءِ الْفَجْرَةِ، وَلَا بِالْأَتْقِيَاءِ الْبَرَّةِ، وَلَقَدْ نَصَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا، وَأَظْفَرَكَ بِنَا، فَإِنْ سَطَوْتَ فَبِدُونِنَا، وَمَا جَرَّتْ إِلَيْكَ أَيْدِينَا، وَإِنْ عَفَوْتَ عَنَّا فَبِحِلْمِكَ،

وَبَعْدُ فَالْحُجَّةُ لَكَ عَلَيْنَا. فَقَالَ الْحُجَّاجُ: أَنْتَ وَاللَّهِ يَا شَعْبِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّنْ يَدْخُلُ عَلَيْنَا يَقْطُرُ سَيْفُهُ مِنْ دِمَائِنَا، ثُمَّ يَقُولُ مَا فَعَلْتُ وَلَا شَهِدْتُ. قَدْ أَمِنْتُ عِنْدَنَا يَا شَعْبِي. قَالَ: فَانصَرَفْتُ، فَلَمَّا مَشَيْتُ قَلِيلًا قَالَ: هَلُمَّ يَا شَعْبِي. قَالَ: فَوَجَلَّ لِذَلِكَ قَلْبِي، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَهُ: قَدْ أَمِنْتَ يَا شَعْبِي، فَاطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي. فَقَالَ: كَيْفَ وَجَدْتَ النَّاسَ بَعْدَنَا يَا شَعْبِي؟ قَالَ: - وَكَانَ لِي مُكْرِمًا - فَقُلْتُ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، قَدْ ائْتَحَلْتُ بَعْدَكَ السَّهْرَ، وَاسْتَوْعَرْتُ السُّهُولَةَ، وَاسْتَوْحَمْتُ الْجُنَابَ، وَاسْتَحْلَسْتُ الخَوْفَ، وَاسْتَحْلَيْتُ الهَمَّ، وَفَقَدْتُ صَالِحَ الإِحْوَانِ، وَمَ أَّحِدَ مِنَ الْأَمِيرِ خَلْفًا. قَالَ: انصَرَفْ يَا شَعْبِي. فَانصَرَفْتُ.

وَقِيلَ إِنَّ الْحُجَّاجَ قَتَلَ خَمْسَةَ آلَافِ أُسِيرٍ، مِمَّنْ سَيَّرَهُمْ إِلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ، ثُمَّ سَارَ إِلَى الْكُوفَةِ فَدَحَلَهَا، فَجَعَلَ لَا يُبَايِعُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا قَالَ: أَتَشْهَدُ عَلَى نَفْسِكَ أَنَّكَ قَدْ كَفَرْتَ. فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ. بَايَعَهُ، وَإِنْ أَبِي قَتَلَهُ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، مِمَّنْ أَبِي أَنْ يَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ. فَأُتِيَ بِرَجُلٍ، فَقَالَ الْحُجَّاجُ: مَا أَطْنُ هَذَا يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْكَفْرِ؛ لِصَلَاحِهِ وَدِينِهِ، وَأَرَادَ الْحُجَّاجُ مُحَادَعَتَهُ، فَقَالَ: أَخَادِعِي أَنْتَ عَن نَفْسِي، أَنَا أَكْفَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَكْفَرُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَمَرْوَدَ. قَالَ: فَضَحِكَ الْحُجَّاجُ وَخَلَّى سَبِيلَهُ.

وَأُنِّي بِأَعَشَى هَمْدَانَ^١ إِلَى الْحَجَّاجِ، وَكَانَ قَدْ عَمِلَ قَصِيدَةً هَجَا فِيهَا الْحَجَّاجَ وَعَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَمَدَحُ فِيهَا ابْنَ الْأَشْعَثِ وَأَصْحَابَهُ، فَاسْتَنْشَدَهُ إِيَّاهَا فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً طَوِيلَةً دَالِيَةً، فِيهَا مَدْحٌ كَثِيرٌ لِعَبْدِ الْمَلِكِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَجَعَلَ أَهْلُ الشَّامِ يَقُولُونَ: قَدْ أَحْسَنَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ، إِنَّمَا يَقُولُ هَذَا مُصَانَعَةً. ثُمَّ أَلَحَّ عَلَيْهِ حَتَّى أَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الْأُخْرَى، فَلَمَّا أَنْشَدَهَا غَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَجَّاجُ، وَأَمَرَ بِهِ فَضْرِبَتْ عَنْقُهُ صَبْرًا بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَأَسْمُ الْأَعَشَى هَذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، أَبُو الْمُصْبِحِ الْهَمْدَانِيُّ، الْكُوَيْتِيُّ، الشَّاعِرُ، أَحَدُ الْفُصَحَاءِ الْبُلَغَاءِ الْمَشْهُورِينَ، وَقَدْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ وَعِبَادَةٌ فِي مُبْتَدِئِهِ، ثُمَّ تَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الشِّعْرِ فَعُرِفَ بِهِ، وَقَدْ وَفَدَ عَلَى النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ - وَهُوَ أَمِيرٌ بِحِمصَ - فَأَمْتَدَحَهُ، وَكَانَ مُحْصُولُهُ فِي رِحْلَتِهِ إِلَيْهِ مِنْهُ وَمِنْ جُنْدِ حِمصَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَكَانَ زَوْجَ أُخْتِ الشَّعْبِيِّ، كَمَا أَنَّ الشَّعْبِيَّ كَانَ زَوْجَ أُخْتِهِ أَيْضًا، وَكَانَ مِمَّنْ حَرَجَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَقَتَلَهُ الْحَجَّاجُ كَمَا ذَكَرْنَا، رَحِمَهُ اللَّهُ.

^١ أعشى همدان (ت ٨٣ هـ) من شعراء العصر الأموي المقدمين. خرج على السلطة الأموية مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ٨٢ هـ، أيام حكومة الحجاج بن يوسف الثقفي. كان من أشد المتحمسين لثورة ابن الأشعث، لكن الثورة فشلت، فأسر أعشى همدان وأمر الحجاج بضرب عنقه سنة ٨٣ هـ.

وَقَدْ كَانَ الْحَجَّاجُ وَهُوَ مُوَاقِفُ ابْنِ الْأَشْعَثِ بَعَثَ كَمِينًا يَأْتُونَ جَيْشَ ابْنِ الْأَشْعَثِ مِنْ ورائِهِ، ثُمَّ تَوَاقَفَ الْحَجَّاجُ وَابْنُ الْأَشْعَثِ، وَهَرَبَ الْحَجَّاجُ بِمَنْ مَعَهُ، وَتَرَكَ مُعَسَكَرَهُ، فَجَاءَ ابْنُ الْأَشْعَثِ فَاحْتَارَ مَا فِي الْمُعَسَكَرِ، وَبَاتَ فِيهِ، فَجَاءَتِ السَّرِيَّةُ إِلَيْهِمْ لَيْلًا، وَقَدْ وَضَعُوا أَسْلِحَتَهُمْ، فَمَالُوا عَلَيْهِمْ مِئْلَةً وَاحِدَةً، وَرَجَعَ الْحَجَّاجُ بِأَصْحَابِهِ فَأَحَاطُوا بِهِمْ، فَأَقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ حُلُقٌ كَثِيرٌ، وَعَرِقَ حُلُقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي دِجْلَةَ وَدُجَيْلٍ، وَجَاءَ الْحَجَّاجُ إِلَى مُعَسَكَرِهِمْ فَقَتَلَ مَنْ وَجَدَهُ فِيهِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ، مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْأَعْيَانِ، وَاحْتَارُوهُ بِكَمَالِهِ، وَأَنْطَلَقَ ابْنُ الْأَشْعَثِ هَارِبًا فِي ثَلَاثِمِائَةٍ، فَرَكِبُوا دُجَيْلًا فِي السُّفُنِ، وَعَقَرُوا دَوَابَّهُمْ، وَجَازُوا إِلَى الْبَصْرَةِ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ هُنَالِكَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مِنْ دُحُولِهِمْ بِإِلَادِ رُبَيْلٍ مَا كَانَ، ثُمَّ شَرَعَ الْحَجَّاجُ فِي تَتَبُعِ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ، فَقَتَلَهُمْ مَثَى وَفَرَادَى، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، كَمَا سَيَأْتِي ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ.

بِنَاءُ الْحَجَّاجِ وَاسِطًا

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ بَنَى الْحَجَّاجُ وَاسِطًا، وَكَانَ سَبَبَ بِنَائِهِ هَذَا أَنَّهُ رَأَى رَاهِبًا عَلَى أَتَانٍ قَدْ أَجَازَ دِجْلَةَ، فَلَمَّا مَرَّ بِمَوْضِعِ وَاسِطٍ وَقَفَّتْ أَتَانُهُ فَبَالَتْ، فَنَزَلَ عَنْهَا وَعَمَدَ إِلَى مَوْضِعِ بَوْلِهَا فَاحْتَفَرَهُ، وَرَمَى بِهِ فِي دِجْلَةَ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: عَلَيَّ بِهِ.

فَأْتِي بِهِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّا نَحْدُ فِي كُتُبِنَا أَنَّهُ يُبْنَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَسْجِدٌ يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ مَا دَامَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ يُوحِّدُهُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ اخْتَطَّ الْحَجَّاجُ مَدِينَةَ وَاسِطٍ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَبَنَى الْمَسْجِدَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ.

وَفِيهَا كَانَتْ غَزْوَةُ عَطَاءِ بْنِ رَافِعٍ صَقَلِيَّةً.

سنة الحريق

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ، وَفِيهَا افْتَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْمَصِيصَةَ.

وَفِيهَا غَزَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ أَرْمِينِيَّةً فَقَتَلَ مِنْهُمْ حَلْفًا كَثِيرًا، وَحَرَّقَ كِنَائِسَهُمْ، وَضِيَاعَهُمْ. وَتُسَمَّى سَنَةُ الْحَرِيقِ.

وَفِيهَا اسْتَعْمَلَ الْحَجَّاجُ عَلَى فَارِسَ مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاسِمِ الثَّقَفِيِّ وَأَمَرَهُ بِقَتْلِ الْأَكْرَادِ.

وَفِيهَا وَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ عِيَاضَ بْنَ غَنَمِ الثُّجَيْبِيِّ، وَعَزَلَ عَنْهَا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ أَبِي الْكَنْودِ الَّذِي كَانَ قَدْ وَلِيَهَا فِي الْعَامِ الْمَاضِي.

وَفِيهَا افْتَتَحَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ طَائِفَةً مِنْ بِلَادِ الْمَعْرَبِ مِنْ ذَلِكَ بَلَدُ أَوْرَبَةَ، وَقَتَلَ مِنْ أَهْلِهَا بَشَرًا كَثِيرًا، وَأَسَرَ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا.

وَفِيهَا قَتَلَ الْحَجَّاجُ أَيْضًا جَمَاعَةً مِنْ رُؤَسَاءِ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ، مِنْهُمْ أَيُّوبُ بْنُ الْقُرَيْبِ، وَكَانَ فَصِيحًا بَلِيغًا وَاعِظًا، قَتَلَهُ صَبْرًا بَيْنَ يَدَيْهِ.

وفاة عبدالعزير بن مروان

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ حَمْسٍ وَثَمَانِينَ، وَفِيهَا كَانَ مَقْتُلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ الْكِنْدِيِّ فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِيهَا عَزَلَ الْحَجَّاجُ عَنْ إِمْرَةِ خُرَاسَانَ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ، وَوَلَّى عَلَيْهَا أَخَاهُ الْمُفَضَّلَ بْنَ الْمُهَلَّبِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ مُوسَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَازِمٍ بِتَرْمِذٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَزَمَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَلَى عَزْلِ أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ عَنْ إِمْرَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَحَسَنَ لَهُ ذَلِكَ رَوْحُ بْنُ زَيْبَاعِ الْجُدَامِيُّ، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي ذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِمَا قَبِيصَةُ بْنُ دُوَيْبٍ فِي اللَّيْلِ، وَكَانَ لَا يُحْجَبُ عَنْهُ أَيَّ سَاعَةٍ جَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَعَزَّاهُ فِي أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَتَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْعَزْمِ عَلَى عَزْلِهِ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى إِرَادَةِ عَزْلِهِ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْهَدَ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ لِأَوْلَادِهِ: الْوَلِيدُ ثُمَّ سُلَيْمَانَ ثُمَّ يَزِيدَ ثُمَّ هِشَامَ، وَذَلِكَ عَنْ رَأْيِ الْحَجَّاجِ وَتَرْبِيئِهِ ذَلِكَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ أَبُوهُ مَرْوَانُ عَهَدَ بِالْأَمْرِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَأَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنْ يُنْحِيَهُ عَنِ الْإِمْرَةِ مِنْ بَعْدِهِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَيَجْعَلَ الْأَمْرَ فِي أَوْلَادِهِ وَعَقْبِهِ، وَأَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ بَاقِيَةً فِيهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ترجمة عبد العزيز بن مروان رحمه الله تعالى

هُوَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، أَبُو الْأَصْبَغِ، الْفُرَشِيُّ الْأَمْوِيُّ، وُلِدَ بِالْمَدِينَةِ، ثُمَّ دَخَلَ الشَّامَ مَعَ أَبِيهِ مَرْوَانَ، وَكَانَ وَليَّ عَهْدِهِ مِنْ بَعْدِ أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَوَلَاهُ أَبُوهُ إِمْرَةَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ، فَكَانَ وَالِيًّا عَلَيْهَا إِلَى هَذِهِ السَّنَةِ، وَشَهِدَ قَتْلَ عَمْرٍو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، كَمَا قَدَّمْنَا، وَكَانَتْ لَهُ دَارٌ بِدِمَشْقَ، وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي لِلصُّوفِيَّةِ الْيَوْمَ، الْمَعْرُوفَةُ بِالْخَانِقَاهِ السَّمِيسَاطِيَّةِ، ثُمَّ كَانَتْ مِنْ بَعْدِهِ لِوَلَدِهِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ثُمَّ تَنَقَّلَتْ إِلَى أَنْ صَارَتْ خَانِقَاهَ لِلصُّوفِيَّةِ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ الْحَدِيثَ عَنْ أَبِيهِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعُثْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ. وَحَدِيثُهُ عَنْهُ فِي "مُسْنَدِ أَحْمَدَ"، وَ"سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ"، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحُّ هَالِعٍ وَجُبْنُ خَالِعٍ». وَعَنْهُ ابْنُهُ عُمَرُ، وَالزُّهْرِيُّ، وَعَلِيُّ بْنُ رَبَاحٍ، وَجَمَاعَةٌ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ: كَانَ ثَقَّةً قَلِيلَ الْحَدِيثِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: كَانَ يَلْحَنُ فِي الْحَدِيثِ وَفِي كَلَامِهِ، ثُمَّ تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ فَأَتَقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا، فَكَانَ مِنْ أَفْصَحِ النَّاسِ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ يَشْكُو خَتَنَهُ - وَهُوَ زَوْجُ ابْنَتِهِ - فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ: مَنْ خَتَنَكَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: خَتَنِي الْخَاتِنُ الَّذِي يَخْتِنُ النَّاسَ. فَقَالَ لِكَاتِبِهِ: وَيْحَكَ، بِمَاذَا أَجَابَنِي؟ فَقَالَ الْكَاتِبُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،

كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقُولَ مَنْ حَتُّكَ؟ فَأَلَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ حَتَّى يَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ، فَمَكَثَ جُمُعَةً وَاحِدَةً فَتَعَلَّمَهَا، فَخَرَجَ وَهُوَ مِنْ أَفْصَحِ النَّاسِ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يُجْزِلُ عَطَاءً مَنْ يُعْرِبُ كَلَامَهُ، وَيَنْقُصُ عَطَاءً مَنْ يَلْحَنُ فِيهِ؛ فَتَسَارَعَ النَّاسُ فِي زَمَانِهِ إِلَى تَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ يَوْمًا لِرَجُلٍ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قَالَ مِنْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ. فَقَالَ: تَجِدُهَا فِي جَائِزَتِكَ، فَنَقَصَهُ مِائَةَ دِينَارٍ. وَكَتَبَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بَنُ مَرْوَانَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: ارْزُقْ إِلَيَّ حَاجَتَكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ». وَلَسْتُ أَسْأَلُكَ شَيْئًا، وَلَا أَرُدُّ رِزْقًا رَزَقَنِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْكَ.

وَقَالَ سُؤِيدُ بْنُ قَيْسٍ: بَعَثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بِأَلْفِ دِينَارٍ إِلَى ابْنِ عُمَرَ. فَجِئْتُهُ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ الْكِتَابَ. فَقَالَ: أَيُّنَ الْمَالِ؟ فَقُلْتُ: لَا أَسْتَطِيعُهُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحَ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا بَيْتُ ابْنِ عُمَرَ اللَّيْلَةَ وَلَهُ أَلْفُ دِينَارٍ^١. فَدَفَعُ إِلَيَّ الْكِتَابَ حَتَّى جِئْتُهُ بِهَا، فَفَرَّقَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

^١ والمعنى كما في العبارة التالية أنه لا يجب أن يبيت وفي ذمته مال إلا أنفقه في سبيل الله. وكان هذا ديدن ابن عمر أن يسارع بتفريق أي مال يأتيه. وقد مر ذلك في ترجمته في سنة أربع وسبعين.

وَمِنْ كَلَامِهِ^١ رَحِمَهُ اللَّهُ: عَجَبًا لِمُؤْمِنٍ يُؤْمِنُ وَيُوقِنُ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ وَيُخْلِفُ عَلَيْهِ،
 كَيْفَ يَحْسِبُ مَا لَا عَنَ عَظِيمِ أَجْرٍ وَحَسَنِ سَمَاعٍ.
 وَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَحْضَرَ لَهُ مَالٌ يُحْضُهُ، وَإِذَا هُوَ ثَلَاثِمِائَةَ مَدْيٍ مِنْ ذَهَبٍ^٢،
 فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهُ بَعْرٌ حَائِلٌ بِنَجْدٍ. وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ شَيْئًا
 مَذْكُورًا، وَلَوَدِدْتُ أَنْ أَكُونَ هَذَا الْمَاءِ الْجَارِي، أَوْ نَبَاتَةَ بَارِضِ الْحِجَازِ.
 وَقَالَ: ائْتُونِي بِكَفَيِّ الَّذِي تُكْفِنُونِي فِيهِ. فَجَعَلَ يَقُولُ: أُنْفِ لَكَ مَا أَقْصَرَ
 طَوِيلَكَ، وَأَقَلَّ كَثِيرَكَ!

وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ مِنْ خِيَارِ الْأَمْرَاءِ، كَرِيمًا جَوَادًا مُمَدِّحًا، وَهُوَ وَالِدُ
 الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ اِكْتَسَى عُمَرُ أَخْلَاقَ أَبِيهِ، وَزَادَ عَلَيْهِ
 بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانَ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ مِنَ الْأَوْلَادِ غَيْرُ عُمَرَ: عَاصِمٌ وَأَبُو بَكْرٍ وَمُحَمَّدٌ
 وَالْأَصْبَغُ - مَاتَ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ حُزْنًا كَثِيرًا، وَمَرِضَ بَعْدَهُ وَمَاتَ -
 وَسُهَيْلٌ، وَكَانَ لَهُ عِدَّةُ بَنَاتٍ: أُمُّ مُحَمَّدٍ، وَأُمُّ عَثْمَانَ، وَأُمُّ الْحَكَمِ، وَأُمُّ الْبَنِينِ،
 وَهُنَّ مِنْ أُمَّهَاتِ شَتَّى، وَلَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ غَيْرُ هَؤُلَاءِ، مَاتَ بِالْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَاهَا
 عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ مِصْرَ، وَحُمِلَ إِلَى مِصْرَ فِي النَّيْلِ، وَدُفِنَ بِهَا، وَقَدْ تَرَكَ عَبْدُ
 الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَثَاثِ وَالِدَوَابِّ: مِنَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْإِبِلِ وَغَيْرِ

^١ كلام عبدالعزیز.

^٢ المَدْي: جمع أمداء: مكيال من المكايل القديمة يسع تسعة عشر صاعاً.

ذَلِكَ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ الْوَصْفُ، مِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ: ثَلَاثُمِائَةَ مُدٍّ ذَهَبٍ عَيْرُ الْوَرِقِ، مَعَ جُودِهِ وَكْرَمِهِ وَبَذْلِهِ وَعَطَايَاهُ الْجَزِيلَةَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَعْطَى النَّاسِ لِلْجَزِيلِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

فَلَمَّا جَاءَ عَبْدَ الْمَلِكِ الْخَبْرُ بِمَوْتِ أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَيْلًا حَزِنَ وَبَكَى، وَبَكَى أَهْلُهُ بُكَاءً كَثِيرًا عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ.

الوليد بن عبد الملك ولي العهد

وَقَدْ كَانَ الْحُجَّاجُ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يُزَيِّنُ لَهُ وِلَايَةَ الْوَلِيدِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْفَدَ إِلَيْهِ وَفَدًا فِي ذَلِكَ، عَلَيْهِمْ عِمْرَانُ بْنُ عِصَامِ الْعَنْزِيُّ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَامَ عِمْرَانُ حَاطِبًا فَتَكَلَّمَ، وَتَكَلَّمَ الْوَفْدُ فِي ذَلِكَ، وَحَثُّوا عَبْدَ الْمَلِكِ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْتَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَبْلَ مَوْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِعَامٍ وَاحِدٍ، فَتَمَكَّنَ حِينَئِذٍ مِمَّا أَرَادَ مِنْ بَيْعَةِ الْوَلِيدِ وَسُلَيْمَانَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

البيعة للوليد ثم سليمان بن عبد الملك

وَكَانَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بَعْدَ مَوْتِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ، بُويعَ لَهُ بِدِمَشْقَ، ثُمَّ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ، ثُمَّ لِسُلَيْمَانَ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ لَمَّا انْتَهَتْ الْبَيْعَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ امْتَنَعَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنْ يُبَايَعَ فِي حَيَاةِ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَحَدٍ، فَأَمَرَ بِهِ

¹ رفض أن يبائع لاثنتين في وقت واحد؛ وهو أمر لم يحدث من قبل فهو بدعة.

هشامُ بنُ إسماعيلَ نائِبُ المَدِينَةِ، فَضْرِبَ سِتِّينَ سَوْطًا، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابًا مِنْ شَعْرِ،
وَأَرْكَبَهُ جَمَلًا، وَطَافَ بِهِ فِي المَدِينَةِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ، فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى ثِيَّةِ ذُبَابٍ -
وَهِيَ الثِّيَّةُ الَّتِي كَانُوا يَصُلبُونَ عِنْدَهَا، وَيَقْتُلُونَ - فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا رَدُّهُ إِلَى
المَدِينَةِ فَأَوْدَعُوهُ السَّجْنَ، فَقَالَ لَهُمْ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكُمْ لَا تَقْتُلُونِي لَمْ أَلْبَسَ
هَذَا الثُّبَانَ.

ثُمَّ كَتَبَ هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ المَحْزُومِيُّ إِلَى عَبْدِ المَلِكِ يُعْلِمُهُ بِمُخَالَفَةِ سَعِيدٍ
فِي ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ يُعِنِّفُهُ فِي ذَلِكَ، وَيَأْمُرُهُ بِإِخْرَاجِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: إِنَّ سَعِيدًا
كَانَ أَحَقَّ مِنْكَ بِصَلَةِ الرَّحِمِ مِمَّا فَعَلْتَ بِهِ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ سَعِيدًا لَيْسَ عِنْدَهُ
شِقَاقٌ وَلَا خِلَافٌ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ المَحْزُومِيُّ نَائِبُ المَدِينَةِ،
وَكَانَ عَلَى العِرَاقِ وَالمَشْرِقِ بِكَمَالِهِ الحُجَّاجُ.

طاعون الفتيات

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سِتِّ وَثَمَانِينَ، وَفِيهَا غَزَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ نَائِبُ الحُجَّاجِ عَلَى
مَرْوٍ وَخُرَاسَانَ، بِإِلَادًا كَثِيرَةً مِنْ أَرْضِ التُّرْكِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الكُفَّارِ، وَسَبَى وَغَنِمَ
وَسَلِمَ وَتَسَلَّمَ قِلاَعًا وَحُصُونًا وَمَمَالِكًا، ثُمَّ قَفَلَ فَسَبَقَ الجَيْشَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ
الحُجَّاجُ يُلُومُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيَقُولُ لَهُ: إِذَا كُنْتَ قَاصِدًا بِإِلَادِ العَدُوِّ فَكُنْ فِي
مُقَدِّمَةِ الجَيْشِ، وَإِذَا قَفَلْتَ رَاجِعًا فَكُنْ فِي سَاقَةِ الجَيْشِ، يَعْني لَتَكُونَ رِدْءًا

هُمْ مِنْ أَنْ يَنَالَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْعَدُوِّ وَعَيْبِهِمْ بِكَيْدٍ، وَهَذَا رَأْيٌ حَسَنٌ، وَعَلَيْهِ
جَاءَتِ السُّنَّةُ.

وَلَمَّا رَجَعَ قُتَيْبَةُ إِلَى حُرَّاسَانَ تَلَقَّاهُ دَهَاقِينُ بُلْعَارَ وَصَاغَانَ بِهَدَايَا عَظِيمَةٍ،
وَمِفْتَاحٍ مِنْ ذَهَبِ بُلْعَارَ.

وَفِيهَا كَانَ طَاعُونٌ بِالشَّامِ وَالْبَصْرَةِ وَوَاسِطِ، وَيُسَمَّى طَاعُونَ الْفَتَيَاتِ؛ لِأَنَّهُ
أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِالنِّسَاءِ فَسُمِّيَ بِذَلِكَ.

وَفِيهَا عَزَا مَسَلْمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِلَادَ الرُّومِ، فَقَتَلَ وَسَبَى وَعَنَمَ وَسَلِّمَ، وَافْتَتَحَ
حِصْنَ بُولُقَ، وَحِصْنَ الْأَحْرَمِ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ.

وَفِيهَا عَقَدَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى مِصْرَ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ عَبْدِ
الْعَزِيزِ، فَدَخَلَهَا فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَعُمُرُهُ يَوْمَئِذٍ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً.

وَفِيهَا هَلَكَ مَلِكُ الرُّومِ الْأَحْرَمِ بَوْرَى، لَا رَحْمَةَ اللَّهُ.

وَفِيهَا حَبَسَ الْحَجَّاجُ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ^١.

^١ لم يلبث أن نقم الحجاج على يزيد لأسباب منها أنه لم يكن جاداً في ملاحقة فلول ابن الأشعث الذين التجؤوا إلى هراة، وكان لبيئاً في معاملة الذين أسروا من اليمنية، يضاف إلى ذلك تباطؤه في محاسبة موسى بن عبد الله بن خازم وأصحابه من القيسية الذين خرجوا بجوار بلخ، وظن يزيد أن الحجاج لن يقدم على عزله ما دام هؤلاء يرفعون رايات الثورة لأن الحجاج لن يجد غيره ولا سيما من القيسية يرضى بمحاربة أبناء جلدته. ومكث الوضع كذلك حتى آخر سلطان عبد الملك بن مروان، عندما استطاع الحجاج إقناع عبد الملك بضرورة عزل يزيد، فعزله وولى أخاه المفضل بن

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيُّ.

وَفَاةُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَالِدِ الْخُلَفَاءِ الْأُمَوِيِّينَ

وَهُوَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ، أَبُو الْوَلِيدِ الْأُمَوِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأُمُّهُ عَائِشَةُ بِنْتُ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْمُغِيرَةَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ.

سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، وَشَهِدَ الدَّارَ مَعَ أَبِيهِ، وَلَهُ عَشْرُ سِنِينَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَارَ بِالنَّاسِ فِي بِلَادِ الرُّومِ سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ، وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَهُ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَاهُ إِيَّاهَا مُعَاوِيَةُ، وَكَانَ يُجَالِسُ الْفُقَهَاءَ وَالْعُلَمَاءَ وَالْعِبَادَ وَالصُّلَحَاءَ.

وَرَوَى الْحَدِيثَ عَنْ أَبِيهِ، وَجَابِرٍ، وَأَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنَ عُمَرَ، وَمُعَاوِيَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ، وَبَرِيرَةَ مَوْلَاةَ عَائِشَةَ.

المهلب، ثم لم يلبث أن عزله وولى قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٦ هـ، واستقدم الحجاج يزيد وسجنه وأمر بإخراج إخوته من خراسان، وفرق التجمع اليمني الذي كانوا يرأسونه، وبقي يزيد في سجنه حتى سنة ٩٠ هـ حين هرب ولحق هو وإخوته بسليمان بن عبد الملك والي جند فلسطين، الذي كان يقيم بالرملة، فاحتفى سليمان به، وأكرمه وتوسط له عند أخيه الوليد بن عبد الملك، فعفا عنه.

وَرَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ: حَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ، وَعُرْوَةُ، وَالزُّهْرِيُّ، وَعَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ، وَرَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ، وَجَرِيرُ بْنُ عُثْمَانَ.

ذَكَرَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ قَدْ سَمَّاهُ الْقَاسِمَ، فَكَانَ يُكْنَى بِأَبِي الْقَاسِمِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ النَّهْيُ عَنِ التَّكْنِي بِأَبِي الْقَاسِمِ، غَيَّرَ اسْمَهُ فَسَمَّاهُ عَبْدَ الْمَلِكِ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سُمِّيَ فِي الْإِسْلَامِ بِعَبْدِ الْمَلِكِ.

وَبُوعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ، فِي خِلَافَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَبَقِيَ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ مُدَّةَ سَبْعِ سِنِينَ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى بَاقِي الْبِلَادِ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِالْخِلَافَةِ عَلَى سَائِرِ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ، بَعْدَ مَقْتَلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ إِلَى هَذِهِ السَّنَةِ، كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ.

وَكَانَ مَوْلَدُهُ وَمَوْلَدُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ فِي سَنَةِ سِتِّ وَعِشْرِينَ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ قَبْلَ الْخِلَافَةِ مِنَ الْعُبَادِ الزُّهَادِ الْفُقَهَاءِ، الْمُلَازِمِينَ لِلْمَسْجِدِ، التَّلَائِينَ لِلْقُرْآنِ، وَكَانَ رُبْعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ أَقْرَبَ إِلَى الْقِصْرِ.

وَكَانَتْ أَسْنَانُهُ مُشَبَّكَةً بِالذَّهَبِ، وَكَانَ أَفْوَهَ مَفْتُوحِ الْقَمِ، فَرُبَّمَا عَقَلَ فَيَنْفَتِحُ فَمُهُ فَيَدْخُلُ فِيهِ الذُّبَابُ؛ وَهَذَا كَانَ يُقَالُ لَهُ: أَبُو الذُّبَابِ، وَكَانَ أَبْيَضَ رُبْعَةً لَيْسَ بِالنَّحِيفِ وَلَا الْبَادِنِ، مَقْرُونٌ الْحَاجِبِينَ، أَشْهَلُ كَبِيرِ الْعَيْنَيْنِ، دَقِيقُ الْأَنْفِ، مُشْرِقُ الْوَجْهِ، أَبْيَضَ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ، حَسَنَ الْوَجْهِ، لَمْ يَخْضَبْ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ خَضَبَ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَدْ قَالَ نَافِعٌ: لَقَدْ رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ وَمَا فِيهَا شَابُّ أَشَدَّ تَشْمِيرًا، وَلَا أَفْقَهَ وَلَا أَفْرَأَ لِكِتَابِ اللَّهِ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ: كَانَ فُقَهَاءَ الْمَدِينَةِ أَرْبَعَةً: سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، وَعَمْرُوَةُ^١، وَقَبِيصَةُ بْنُ ذُوَيْبٍ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ؛ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِمَارَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: وَلَدَ النَّاسُ أَبْنَاءً، وَوَلَدَ مَرْوَانُ أَبًّا - يَعْنِي عَبْدَ الْمَلِكِ - وَرَأَاهُ يَوْمًا وَقَدْ ذَكَرَ اخْتِلَافَ النَّاسِ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ هَذَا الْعُلَامُ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: كُنْتُ أُجَالِسُ بَرِيرَةَ^٢ قَبْلَ أَنْ أَلِي هَذَا الْأَمْرَ، فَكَانَتْ تَقُولُ: يَا عَبْدَ الْمَلِكِ إِنَّ فِيكَ خِصَالًا، وَإِنَّكَ لِحَدِيثٌ أَنْ تَلِي أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَاحْذَرِ الدِّمَاءَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْفَعُ عَنْ بَابِ الْجَنَّةِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا عَلَى مُحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ يُرِيْفُهُ مِنْ مُسْلِمٍ بَعِيرٍ حَقٍّ». وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِ قَبْلَ الْوِلَايَةِ مُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي قِصَّةِ طَوِيلَةٍ.

^١ عروة بن الزبير.

^٢ بريرة بنت صفوان مولاة عائشة بنت أبي بكر، صحابية مشهورة.

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَفَتِيَانُ مَعَهُ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: لَيْسَتْ الْعِبَادَةُ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ، إِنَّمَا الْعِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَالْوَرَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: مَا جَالَسْتُ أَحَدًا إِلَّا وَجَدْتُ لِي الْفَضْلَ عَلَيْهِ إِلَّا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ؛ فَإِنِّي مَا ذَاكْرْتُهُ حَدِيثًا إِلَّا زَادَنِي فِيهِ، وَلَا شِعْرًا إِلَّا زَادَنِي فِيهِ.

وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى مَرْوَانَ، وَهُوَ نَائِبُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ سَنَةَ خَمْسِينَ: أَنْ ابْعَثْ ابْنَكَ عَبْدَ الْمَلِكِ عَلَى بَعْثِ الْمَدِينَةِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَدِيحٍ، فَذَكَرَ مِنْ كِفَايَتِهِ وَغَنَائِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ شَيْئًا كَثِيرًا.

وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ الْمَلِكِ مُقِيمًا بِالْمَدِينَةِ حَتَّى كَانَتْ وَقَعَةُ الْحَرَّةِ، وَاسْتَوْلَى ابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ، وَأَجْلَى بَنِي أُمَيَّةَ مِنْ هُنَالِكَ، فَقَدِمَ مَعَ أَبِيهِ الشَّامَ، ثُمَّ لَمَّا صَارَتِ الْإِمَارَةُ مَعَ أَبِيهِ وَبَايَعَهُ أَهْلُ الشَّامِ كَمَا تَقَدَّمَ، أَقَامَ فِي الْإِمَارَةِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ عَهَدَ إِلَيْهِ بِالْإِمَارَةِ مِنْ بَعْدِهِ، فَاسْتَقَلَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بِالْخِلَافَةِ فِي مُسْتَهَلِّ رَمَضَانَ أَوْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ بَعْدَ مَقْتَلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِي جُمَادَى الْأُولَى إِلَى هَذِهِ السَّنَةِ.

وَلَمَّا سُلِّمَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْخِلَافَةِ كَانَ فِي حِجْرِهِ مُصْحَفٌ، فَأَطْبَقَهُ، وَقَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ^١.

^١ الله أعلم بصحة هذا الخبر.

وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ لَهُ إِقْدَامٌ عَلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ، وَكَانَ عُمَّالُهُ عَلَى مَذْهَبِهِ؛ مِنْهُمْ الْحَجَّاجُ وَالْمَهَلَّبُ، وَغَيْرُهُمْ، وَكَانَ حَازِمًا فَهَمًّا فَطِنًا، سَائِسًا لِأُمُورِ الدُّنْيَا، لَا يَكِلُ أَمْرَ دُنْيَاهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَأُمُّهُ عَائِشَةُ بِنْتُ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْمُغِيرَةَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، وَأَبُوهَا مُعَاوِيَةُ هُوَ الَّذِي جَدَعَ أَنْفَ حَمْرَةَ عَمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ.

وَلَمَّا حَرَجَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْعِرَاقِ لِقِتَالِ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ، ظَفَرَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا كَيْفِيَّةَ قَتْلِهِ مُصْعَبًا، وَدُخُولِهِ الْكُوفَةَ، وَوَضْعِهِ رَأْسَ مُصْعَبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَعَزِّ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِ.

وَلَمَّا بُويعَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بِالْخِلَافَةِ، كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّكَ رَاعٍ، وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}؟ لَا أَحَدًا، وَالسَّلَامُ.

وَبَعَثَ بِهِ مَعَ سَلِيمٍ^١، فَوَجَدُوا عَلَيْهِ^٢؛ إِذْ قَدَّمَ اسْمَهُ عَلَى اسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ نَظَرُوا فِي كُتُبِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ فَوَجَدُوهَا كَذَلِكَ، فَاحْتَمَلُوا ذَلِكَ مِنْهُ.

^١ ابنه. سالم بن عبد الله بن عمر. رضي الله عنهم.

^٢ غضبوا.

وَقَالَ ابْنُ كَعْبٍ: سَمِعْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ يَلْزَمَ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ لِأَنَّكُمْ، وَقَدْ سَأَلْتُ عَلَيْنَا أَحَادِيثَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْمَشْرِقِ وَلَا نَعْرِفُهَا، وَلَا نَعْرِفُ مِنْهَا إِلَّا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، فَالزُّمُوا مَا فِي مُصْحَفِكُمْ الَّذِي جَمَعَكُمْ عَلَيْهِ الْإِمَامُ الْمَظْلُومُ^١، وَعَلَيْكُمْ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي جَمَعَكُمْ عَلَيْهَا إِمَامُكُمْ الْمَظْلُومُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ قَدِ اسْتَشَارَ فِي ذَلِكَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَنِعَمَ الْمَشِيرُ كَانَ لِلْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَأَحْكَمَا مَا أَحْكَمَا وَأَسْقِطَا مَا شَدَّ عَنْهُمَا^٢.

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِدِمَشْقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. فِي النَّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ. سَنَةَ سِتِّ وَثَمَانِينَ، وَصَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ الْوَلِيدُ وَلِيُّ عَهْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَانَ عُمُرُهُ يَوْمَ مَاتَ سِتِّينَ سَنَةً، وَدُفِنَ بِبَابِ الْجَائِيَةِ الصَّغِيرِ.

ذِكْرُ أَوْلَادِهِ وَأَزْوَاجِهِ

مِنْهُمْ الْوَلِيدُ، وَسُلَيْمَانُ، وَمَرْوَانُ الْأَكْبَرُ - دَرَجٌ^٣ - وَعَائِشَةُ، وَأُمُّهُمْ وَوَلَادُهُ بِنْتُ الْعَبَّاسِ بْنِ جَزْءِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ جَذِيمَةَ بْنِ رَوَاحَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ مَازِنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ قَطِيعَةَ بْنِ عَبْسِ بْنِ بَغِيضٍ.

^١ عثمان رضي الله عنه.

^٢ ترجمة عبد الملك التي ساقها ابن كثير طويلة، اكتفيت منها بما سبق.

^٣ يعني عاش حتى درج. ودرج الصَّبِيُّ: أخذ في الحركة ومَشَى قليلاً أول ما يمشي.

وَيَزِيدُ، وَمَرْوَانَ الْأَصْغَرَ، وَمُعَاوِيَةَ - دَرَجَ - وَأُمَّ كُثُومَ، وَأُمَّهُمُ عَاتِكَةُ بِنْتُ يَزِيدَ
بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ.

وَهِشَامُ، وَأُمُّهُ أُمُّ هِشَامٍ عَائِشَةُ بِنْتُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيِّ.
وَأَبُو بَكْرٍ، وَاسْمُهُ بَكَّارٌ، وَأُمُّهُ عَائِشَةُ بِنْتُ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
التَّيْمِيِّ.

وَالْحَكَمُ - دَرَجَ - وَأُمُّهُ أُمُّ أَيُّوبَ بِنْتُ عَمْرٍو بْنِ عُنْتَمَانَ بْنِ عَقَّانَ الْأُمَوِيِّ،
وَقَاطِمَةُ، وَأُمُّهَا الْمُغِيرَةُ بِنْتُ الْمُغِيرَةَ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةَ
الْمَخْزُومِيِّ. وَعَبْدُ اللَّهِ، وَمَسْلَمَةُ، وَالْمُنْدِرِيُّ، وَعَنْبَسَةُ، وَمُحَمَّدٌ، وَسَعْدُ الْخَيْرِ،
وَالْحَجَّاجُ لِأُمَّهَاتِ أَوْلَادِ شَتَّى.

فَكَانَ جُمْلَةُ أَوْلَادِهِ تِسْعَةَ عَشَرَ: ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَكَانَتْ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ إِحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْهَا تِسْعُ سِنِينَ مُشَارِكًا لِابْنِ الرَّبِيعِ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَثَلَاثَةَ
أَشْهُرٍ وَنِصْفٍ مُسْتَقِلًّا بِالْخِلَافَةِ وَحْدَهُ.

وَكَانَ قَاضِيَهُ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ، وَكَاتِبُهُ رُوحُ بْنُ زُبَاعٍ، وَحَاجِبُهُ يُوسُفُ
مَوْلَاهُ، وَصَاحِبُ بَيْتِ الْمَالِ وَالْخَاتِمِ قَبِيصَةُ بْنُ ذُوَيْبٍ، وَعَلَى شَرْطَتِهِ أَبُو
الرُّعْبِزَةَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا عُمَالَهُ فِيمَا مَضَى.

وَكَانَ لَهُ زَوْجَاتٌ أُخَرَ: شَفْرَاءُ بِنْتُ سَلَمَةَ بْنِ حَلْبَسِ الطَّائِيِّ، وَابْنَةُ لِعَلِيِّ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ، وَأُمُّ أَبِيهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ.

خِلاَفَةُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

لَمَّا رَجَعَ مِنْ دَفْنِ أَبِيهِ حَارِجِ بَابِ الْجَائِيَةِ الصَّغِيرِ لَمْ يَدْخُلِ الْمَنْزِلَ حَتَّى صَعِدَ الْمِنْبَرَ - مِنْبَرَ الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ بِدِمَشْقٍ - فَحَطَبَ النَّاسَ، فَكَانَ بِمَا قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مُصِيبَتِنَا بِمَوْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا مِنَ الْخِلاَفَةِ، فُؤِمُوا فَبَايَعُوا.

وَهُوَ بَابِي جَامِعِ دِمَشْقِ الَّذِي لَا يُعْرَفُ فِي الْأَفَاقِ أَحْسَنُ بِنَاءٍ مِنْهُ، وَقَدْ شَرَعَ فِي بِنَائِهِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَلَمْ يَزَلْ فِي بِنَائِهِ وَتَحْسِينِهِ مُدَّةَ خِلاَفَتِهِ، وَهِيَ عَشْرُ سِنِينَ، فَلَمَّا أَتَمَّهَا انْتَهَتْ أَيَّامُ خِلاَفَتِهِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا.

بناء مسجد دمشق

وَقَدْ كَانَ مَوْضِعُ هَذَا الْمَسْجِدِ كَنِيسَةً يُقَالُ لَهَا: كَنِيسَةُ يُوحَنَّا، فَلَمَّا فَتَحَتِ الصَّحَابَةُ دِمَشْقَ جَعَلُوهَا مُنَاصِفَةً، فَأَخَذُوا مِنْهَا الْجَانِبَ الشَّرْقِيَّ فَحَوَّلُوهُ مَسْجِدًا، وَبَقِيَ الْجَانِبُ الْعَرَبِيُّ كَنِيسَةً بِحَالِهِ مِنْ لَدُنْ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ إِلَى هَذِهِ السَّنَةِ، فَعَزَمَ الْوَلِيدُ عَلَى أَخْذِ بَقِيَّةِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ مِنْهُمْ، وَعَوَّضَهُمْ عَنْهَا كَنِيسَةً مَرِيَمَ لِذُحُولِهَا فِي جَانِبِ السَّيْفِ، وَقِيلَ: عَوَّضَهُمْ عَنْهَا كَنِيسَةَ ثُومًا، وَهَدَمَ بَقِيَّةَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ وَأَضَافَهَا إِلَى مَسْجِدِ الصَّحَابَةِ، وَجَعَلَ الْجَمِيعَ مَسْجِدًا

وَاحِدًا، عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ لَا يَعْرِفُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لَهَا نَظِيرًا فِي
الْبُنْيَانِ وَالِدِّيَارَاتِ وَالْآثَارِ وَالْعِمَارَاتِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

إمارة عمر بن عبدالعزيز على المدينة

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَنَعٍ وَثَمَانِينَ، وَفِيهَا عَزَلَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ هِشَامَ بْنَ
إِسْمَاعِيلَ عَنِ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ، وَوَلَّى عَلَيْهَا ابْنَ عَمِّهِ وَرَوْجَ أُخْتِهِ - فَاطِمَةَ بِنْتَ
عَبْدِ الْمَلِكِ - عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ فَدَخَلَهَا فِي ثَلَاثِينَ بَعِيرًا فِي رَيْعِ الْأَوَّلِ
مِنْهَا، فَتَزَلَ دَارَ مَرْوَانَ؛ وَجَاءَ النَّاسُ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ - وَعَمْرُهُ إِذْ ذَاكَ خَمْسٌ
وَعِشْرُونَ سَنَةً - فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ دَعَا عَشْرَةَ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ وَهُمْ: عُرْوَةُ
بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَيْثَمَةَ، وَسُلَيْمَانَ بْنُ يَسَارٍ،
وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَخُوهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَيْعَةَ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَدَخَلُوا
عَلَيْهِ فَجَلَسُوا، فَحَمِدَ اللَّهُ، وَأَتَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي إِذَا دَعَوْتُكُمْ
لِأَمْرٍ تُوجِرُونَ عَلَيْهِ، وَتَكُونُونَ فِيهِ أَعْوَانًا عَلَى الْحَقِّ، إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ أَمْرًا
إِلَّا بِرَأْيِكُمْ، أَوْ بِرَأْيِ مَنْ حَضَرَ مِنْكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا يَتَعَدَّى، أَوْ بَلَغَكُمْ
عَنْ غَامِلٍ لِي ظُلْمَةً، فَأُحَرِّجُ عَلَى مَنْ بَلَغَهُ ذَلِكَ إِلَّا أَبْلَغَنِي، فَخَرَجُوا مِنْ
عِنْدِهِ يَجْزُونَهُ حَيْرًا، وَافْتَرَفُوا عَلَى ذَلِكَ.

وَكَتَبَ الْوَلِيدُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِأَنْ يُوقِفَ هِشَامَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ لِلنَّاسِ عِنْدَ دَارِ مَرْوَانَ، وَكَانَ سَيِّئِ الرَّأْيِ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَسَاءَ إِلَى النَّاسِ بِالْمَدِينَةِ فِي مُدَّةٍ وَلَا يَتَّبِعُهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَلَا سِيَّمَا إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَإِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَلَمَّا أُوقِفَ لِلنَّاسِ قَالَ هِشَامٌ: مَا أَخَافُ إِلَّا مِنْ سَعِيدِ وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ. فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ لِابْنِهِ وَمَوَالِيهِ: لَا يَعْزُضُ مِنْكُمْ أَحَدٌ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنِّي تَرَكْتُ ذَلِكَ لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ، وَأَمَّا كَلَامُهُ فَلَا أُكَلِّمُهُ أَبَدًا. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ فَإِنَّهُ مَرَّ بِهِ وَهُوَ مَوْفُوفٌ عِنْدَ دَارِ مَرْوَانَ فَلَمْ يَتَّعِزْضْ لَهُ، وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى خَاصَّتِهِ أَلَّا يَعْزِضَ لَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَلَمَّا اجْتَازَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَتَجَاوَزَهُ، نَادَاهُ هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَ: "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ".^١

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ^٢ بِلَادَ الرُّومِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَفَتَحَ حُصُونًا كَثِيرَةً، وَعَنِمَ غَنَائِمَ جَمَّةً، وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي غَزَا بِلَادَ الرُّومِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَفَتَحَ حِصْنَ بُولُقَ، وَحِصْنَ الْأَحْرَمِ، وَوَحْيِرَةَ الْفُرْسَانَ، وَحِصْنَ بُولَسَ وَفُتَيْمِقَمَ، وَقَتَلَ مِنَ الْمُسْتَعْرَبَةِ نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ، وَسَجَى ذُرَارِيَّهُمْ.

وَفِيهَا غَزَا فُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ^٣ بِلَادَ الثُّرُكِ، وَصَالِحَهُ مَلِكُهُمْ نَيْزِكُ عَلَى مَالٍ جَزِيلٍ، وَعَلَى أَنْ يُطْلَقَ كُلٌّ مِنْ بِلَادِهِ مِنْ أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ.

^١ يعني أنه أكبر تجاوزَ زين العابدين عنه، فمدحه بأنه من بيت الرسالة.

^٢ مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أمية الأموي القُرشي (٦٦ - ١٢١ هـ): أمير أموي، وقائد عسكري، ووالٍ، وسياسي ورجل دولة. برز ما بين عامي ٨٦ و ١٢١ هـ بخوضه الكثير من المعارك والغزوات والحملات العسكرية على كُليِّ من الإمبراطورية الروميَّة البيزنطيَّة وإمبراطورية الخزر والخورج والجراجمة، وكانت جلَّ حروبه وأغلبها على الدولة الرومية البيزنطية. وخلال فترات متفرقة من حياته تولى العديد من المناطق والمدن، مثل مكة، وحلب، والعراق، وخراسان، وتولى إمارة أرمينية وأذربيجان (منطقة جنوب القوقاز) ثلاث مرات بأوقات مختلفة. والده هو الخليفة عبد الملك بن مروان الذي يُعد من أعظم الخلفاء، ويُعدُّ مؤسس الدولة الأموية الثاني، وجده هو الخليفة مروان بن الحكم. وهو أخ غير شقيق لكُلِّ من: الخليفة الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك. وهو عم لثلاثة من الخلفاء هم؛ الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد. وابن عم لخليفتيهما: عمر بن عبد العزيز، ومروان بن محمد.

^٣ قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحُصَيْن الباهلي (٤٩ - ٩٦ هـ): قائد إسلامي شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد أسيا الوسطى في القرن الأول الهجري. وكان أبوه مسلم بن عمرو من أصحاب مصعب بن الزبير والي العراق من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وقاتل معه في حربه ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هجرية، وقد نشأ قتيبة على ظهور الخيل رفيقاً لل سيف والرمح، محباً للفروسية، وقد أبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد العظيم المهلب بن أبي صفرة وكان خبيراً في معرفة الأبطال ومعادن الرجال ففترس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به لوالى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يحب الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهام ليختبره بها ويعلم مدى صحة ترشيح المهلب له، وهل سيصلح للمهمة التي سيوكلها له بعد ذلك أم لا. فتح خوارزم وبخارى، وسمرقند، بلخ، كاشغر أستشهد سنة ٩٦ هـ، وعمره ٤٨ سنة.

وَفِيهَا عَزَا فُتَيْبَةُ بِيكَندَ فَاجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الْأَنْزَاكِ عِنْدَهَا بَشَرٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِيرٌ، وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ بُخَارَى، فَلَمَّا نَزَلَ بِأَرْضِهِمْ اسْتَنْجَدُوا عَلَيْهِ بِأَهْلِ الصُّعْدِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَنْزَاكِ، فَأَتَوْهُمْ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، فَأَخَذُوا عَلَى فُتَيْبَةَ الطَّرِيقَ وَالْمَضَائِقَ، فَتَوَاقَفَ هُوَ وَهُمْ قَرِيبًا مِنْ شَهْرَيْنِ، وَهُوَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، وَلَا يَأْتِيَهُ مِنْ جِهَتِهِمْ رَسُولٌ، وَأَبْطَأَ خَبْرُهُ عَلَى الْحَجَّاجِ حَتَّى خَافَ عَلَيْهِ، وَأَشْفَقَ عَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ مِنَ التُّرْكِ، فَأَمَرَ النَّاسَ بِالِدُّعَاءِ لَهُمْ فِي الْمَسَاجِدِ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَمْصَارِ. وَقَدْ كَانَ فُتَيْبَةُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِلُونَ مَعَ التُّرْكِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَكَانَ لِفُتَيْبَةَ عَيْنٌ مِنَ الْعَجَمِ يُقَالُ لَهُ تَنْدُرٌ، فَأَعْطَاهُ أَهْلُ بُخَارَى مَالًا جَزِيلاً عَلَى أَنْ يَأْتِيَ فُتَيْبَةَ فَيُحَذِّلُهُ عَنْهُمْ، فَجَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: أَحْلِي، فَأَحْلَاهُ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ سِوَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ ضِرَارُ بْنُ حُصَيْنٍ، فَقَالَ لَهُ تَنْدُرٌ: هَذَا عَامِلٌ يَقْدَمُ عَلَيْكَ سَرِيعًا بَعْزَلِ الْحَجَّاجِ، فَلَوْ انصَرَفْتَ بِالنَّاسِ إِلَى مَرَوْ. فَقَالَ فُتَيْبَةُ لِمَوْلَاهُ سِيَاهٍ: اضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَتَلَهُ، ثُمَّ قَالَ فُتَيْبَةُ لِضِرَارٍ: لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ سَمِعَ هَذَا غَيْرِي وَغَيْرِكَ، وَإِنِّي أُعْطِي اللَّهَ عَهْدًا إِنْ ظَهَرَ هَذَا الْخَبْرُ حَتَّى يَنْقُضِي حَرْبَنَا لِأَلْحِقَنَّكَ بِهِ، فَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، فَإِنَّ انْتِشَارَ هَذَا يَفُتُّ فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، ثُمَّ هَضَّ فُتَيْبَةُ فَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَى الْحَرْبِ، وَوَقَفَ عَلَى أَصْحَابِ الرِّايَاتِ يُحَرِّضُهُمْ، فَأَقْتَتَلَ النَّاسُ قِتَالًا شَدِيدًا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الصَّبْرَ، فَمَا انْتَصَفَ النَّهَارُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ، فَهَزِمَتِ التُّرْكَ هَزِيمَةً عَظِيمَةً، وَاتَّبَعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ

يَقْتُلُونَ فِيهِمْ، وَيَأْسِرُونَ مَا شَاءُوا، وَاعْتَصَمَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ بِالْمَدِينَةِ، فَأَمَرَ قُتَيْبَةُ الْفَعْلَةَ بِهَدْمِهَا، فَسَأَلُوهُ الصُّلْحَ عَلَى مَالٍ عَظِيمٍ فَصَاحَهُمْ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهِ، وَعِنْدَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْجَيْشِ، ثُمَّ سَارَ رَاجِعًا، فَلَمَّا كَانَ مِنْهُمْ عَلَى خَمْسِ مَرَاحِلَ نَفَضُوا الْعَهْدَ، وَقَتَلُوا الْأَمِيرَ، وَجَدَعُوا أَنْوْفَ مَنْ كَانَ مَعَهُ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ وَحَاصَرَهَا شَهْرًا، وَأَمَرَ النَّقَابِينَ وَالْفَعْلَةَ فَعَلَّقُوا سُورَهَا عَلَى الْحَشَبِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُضْرِمَ النَّارَ فِيهَا، فَسَقَطَ السُّورُ، فَقَتَلَ مِنَ الْفَعْلَةِ أَرْبَعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلُوهُ الصُّلْحَ فَأَبَى، وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى افْتَتَحَهَا، فَقَتَلَ الْمُقَاتِلَةَ، وَسَبَى الدُّرَيْتَةَ، وَعَنِمَ الْأَمْوَالَ.

وَكَانَ الَّذِي أَلْبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ أَعْوَزَ مِنْهُمْ، فَأَسِرَ فَقَالَ: أَنَا أَقْتَدِي نَفْسِي بِخَمْسَةِ أَنْوَابِ صَيْبِيَّةٍ، قِيمَتُهَا أَلْفُ أَلْفٍ، فَأَشَارَ الْأَمْرَاءُ عَلَى قُتَيْبَةَ بِقَبُولِ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ قُتَيْبَةُ: لَا وَاللَّهِ لَا أُرْوَعُ بِكَ مُسْلِمًا مَرَّةً ثَانِيَةً، وَأَمَرَ بِهِ فَضْرِبَتْ عُنُقَهُ، وَقَدْ عَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَيْكَنْدَ شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَصْنَامِ مِنَ الذَّهَبِ، وَكَانَ فِيهَا صَنْمٌ سُبُكٌ فَحَرَجَ مِنْهُ مِائَةُ أَلْفٍ وَخَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَوَجَدُوا فِي خَزَائِنِ الْمَلِكِ أَمْوَالًا كَثِيرَةً وَسِلَاحًا كَثِيرًا وَعِدَدًا مُنَوَّعَةً، وَجَوَاهِرَ نَفِيسَةً، وَأَخَذُوا مِنَ السَّبْيِ شَيْئًا كَثِيرًا، فَكَتَبَ قُتَيْبَةُ إِلَى الْحَجَّاجِ فِي أَنْ يُعْطِيَ ذَلِكَ لِلْجُنْدِ، فَأَذِنَ لَهُ؛ فَتَمَوَّلَ الْمُسْلِمُونَ مَالًا كَثِيرًا، وَصَارَتْ لَهُمْ.

وَقَدْ حَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ نَائِبُ الْمَدِينَةِ، وَقَاضِيهِ
بِهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، وَعَلَى الْعِرَاقِ وَالْمَشْرِقِ بِكَمَالِهِ
الْحَجَّاجُ بْنُ يُونُسَ الثَّقَفِيُّ، وَنَائِبُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ الْجِرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيُّ،
وَقَاضِيهِ بِهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُدَيْنَةَ، وَعَامِلُهُ عَلَى الْحَرْبِ بِالْكُوفَةِ زِيَادُ بْنُ جَرِيرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ، وَقَاضِيهِ بِهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَنَائِبُهُ عَلَى
خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ.

فتح حصن طوانة

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ، وَفِيهَا غَزَا الصَّائِفَةَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَابْنُ
أَخِيهِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَافْتَتَحَا بِمَنْ مَعَهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ
حِصْنَ طَوَانَةَ فِي جُمَادَى مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَكَانَ حِصْنًا مَنِيعًا افْتَتَلَ النَّاسُ عِنْدَهُ
قِتَالًا عَظِيمًا، ثُمَّ حَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى النَّصَارَى، فَهَزَمُوهُمْ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ
الْكَنِيسَةَ، ثُمَّ خَرَجَتِ النَّصَارَى فَحَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَانْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ، وَلَمْ
يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي مَوْقِفِهِ إِلَّا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَمَعَهُ ابْنُ مُحْيِرِيزِ الْجُمَحِيُّ،
فَقَالَ الْعَبَّاسُ لِابْنِ مُحْيِرِيزِ: أَيُّنَ قُرَاءِ الْقُرْآنِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟
فَقَالَ: نَادِهِمْ يَا تُوكُ. فَنَادَى: يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ. فَتَرَجَعَ النَّاسُ، فَحَمَلُوا عَلَى
النَّصَارَى فَكَسَرُوهُمْ، وَجَاءُوا إِلَى الْحِصْنِ، فَحَاصَرُوهُمْ حَتَّى فَتَحُوهُ.

توسعة المسجد النبوي

وَقَدِمَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ كِتَابُ الْوَلِيدِ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالْمَدِينَةِ، يَأْمُرُهُ بِهَدْمِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَإِضَافَةِ حُجْرِ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ، وَأَنْ يُوسِّعَهُ مِنْ قِبَلْتِهِ وَسَائِرِ نَوَاحِيهِ، حَتَّى يَكُونَ مَائَتِي ذِرَاعٍ فِي مَائَتِي ذِرَاعٍ، فَمَنْ بَاعَكَ مِلْكَهُ فَاشْتَرِ مِنْهُ، وَإِلَّا فَقَوِّمَهُ لَهُ قِيمَةَ عَدْلٍ، ثُمَّ اهُدِمَ، وَادْفَعِ إِلَيْهِمْ أَثْمَانَ بُيُوتِهِمْ، فَإِنَّ لَكَ فِي ذَلِكَ سَلْفَ صِدْقٍ: عُمَرَ وَعُثْمَانَ.

فَجَمَعَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وُجُوهَ النَّاسِ، وَالْفُقَهَاءَ الْعَشْرَةَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ الْوَلِيدِ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَقَالُوا: هَذِهِ حُجْرٌ قَصِيرَةٌ السُّقُوفِ، وَسُقُوفُهَا مِنْ جَرِيدِ النَّحْلِ، وَحَيْطَانُهَا مِنَ اللَّبَنِ، وَعَلَى أَبْوَابِهَا الْمُسُوحُ، وَتَرَكُهَا عَلَى حَالِهَا أَوْلَى، لِيَنْظُرَ إِلَيْهَا الْحُجَّاجُ وَالزُّرَّارُ وَالْمُسَافِرُونَ، وَإِلَى بُيُوتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ وَيَعْتَبِرُوا بِهِ، وَيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لَهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا يُعَمَّرُونَ فِيهَا إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، وَهُوَ مَا يَسْتُرُ وَيُكِنُّ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ هَذَا الْبُنْيَانَ الْعَالِيَّ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَفْعَالِ الْفَرَاعِنَةِ وَالْأَكَاسِرَةِ، وَكُلِّ طَوِيلِ الْأَمَلِ رَاغِبٍ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْخُلُودِ فِيهَا.

فَعِنْدَ ذَلِكَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْوَلِيدِ بِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ الْعَشْرَةَ الْمُتَقَدِّمَ ذِكْرُهُمْ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِالْحَرَابِ وَبِنَاءِ الْمَسْجِدِ عَلَى مَا ذَكَرَ، وَأَنْ يُعَلِّيَ سُقُوفَهُ، فَلَمْ يَجِدْ عُمَرُ بُدًّا مِنْ هَدْمِهَا، وَلَمَّا شَرَعُوا فِي الْهَدْمِ صَاحَ الْأَشْرَافُ وَوُجُوهُ النَّاسِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ، وَتَبَاكَوْا مِثْلَ يَوْمِ مَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَجَابَ مَنْ لَهُ مِلْكٌ مُتَاحِمٌ لِلْمَسْجِدِ لِلْبَيْعِ فَاشْتَرَى مِنْهُمْ، وَشَرَعَ فِي بِنَائِهِ، وَشَمَّرَ عَنْ إِرَارِهِ، وَاجْتَهَدَ فِي ذَلِكَ، وَجَاءَتْهُ فِعُولٌ كَثِيرَةٌ مِنْ قَبْلِ الْوَلِيدِ، فَأَدْخَلَ فِيهِ الْحُجْرَةَ النَّبَوِيَّةَ، حُجْرَةَ عَائِشَةَ، فَدَخَلَ الْقَبْرَ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَتْ حَدَّهُ مِنَ الشَّرْقِ، وَسَائِرُ حُجْرِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا أَمَرَ الْوَلِيدُ.

وَرَوَيْنَا أَنَّهُمْ لَمَّا حَفَرُوا الْحَائِطَ الشَّرْقِيَّ مِنْ حُجْرَةِ عَائِشَةَ بَدَتْ لَهُمْ قَدَمٌ، فَخَشُوا أَنْ تَكُونَ قَدَمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَحْقُقُوا أَنَّهُمَا قَدَمَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَيُحْكَى أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ أَنْكَرَ إِدْخَالَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فِي الْمَسْجِدِ، كَأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ الْقَبْرَ مَسْجِدًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَتَبَ الْوَلِيدُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ يَخْفِرَ الْفَوَّارَةَ بِالْمَدِينَةِ^١، وَأَنْ يُجْرِيَ مَاءَهَا، فَفَعَلَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَخْفِرَ الْأَبَارَ، وَأَنْ يُسَهِّلَ الطُّرُقَ وَالنَّيَا، وَسَاقَ إِلَى الْفَوَّارَةِ الْمَاءَ مِنْ ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ، وَالْفَوَّارَةُ بُنِيَتْ فِي ظَاهِرِ الْمَسْجِدِ، عِنْدَ بُفْعَةٍ رَأَاهَا فَأَعْجَبَتْهُ. وَفِيهَا غَزَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ مَلِكِ التُّرُكِ كُورَمَعَاثُونَ ابْنَ أُحْتِ مَلِكِ الصِّينِ، وَمَعَهُ مِائَتَا أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنْ أَهْلِ الصُّعْدِ وَفَرْعَانَةَ وَعَيْرِهِمْ، فَأَقْتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا وَكَانَ مَعَ قُتَيْبَةَ نَيْرُكُ مَلِكِ التُّرُكِ مَأْسُورًا، فَكَسَرَهُمْ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَعَنَمَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئًا كَثِيرًا، وَقَتَلَ مِنْهُمْ حُلُقًا وَسَبَى وَأَسَرَ.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَمَعَهُ جَمَاعَاتٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا كَانَ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَأَخْبَرُوهُ عَنْ قِلَّةِ الْمَاءِ بِمَكَّةَ لِقِلَّةِ الْمَطَرِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَلَا نَسْتَمْطِرُ؟ فَدَعَا وَدَعَا النَّاسُ، فَمَا زَالُوا يَدْعُونَ حَتَّى سُقُوا، وَدَخَلُوا مَكَّةَ وَمَعَهُمُ الْمَطَرُ، وَجَاءَ سَيْلٌ عَظِيمٌ حَتَّى خَافَ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ شِدَّةِ الْمَطَرِ، وَمُطِرَتْ عَرْفَةُ وَمُزْدَلِفَةُ وَمِنَى، وَأُخْصِبَتِ الْأَرْضُ هَذِهِ السَّنَةَ خِصْبًا عَظِيمًا بِمَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، وَذَلِكَ بِبَرَكَتِ دُعَاءِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَكَانَ النَّوَابُ عَلَى الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ هُمْ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهَا.

^١ الفوارة: بئر تفور بالماء.

غزو بلاد الروم

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعٌ وَثَمَانِينَ، وَفِيهَا غَزَا مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَابْنُ أَخِيهِ الْعَبَّاسُ بِلَادَ الرُّومِ، فَقَتَلَا حَلَقًا كَثِيرًا، وَفَتَحَا حُصُونًا كَثِيرَةً: مِنْهَا حِصْنُ سُورِيَّةَ وَعَمُورِيَّةَ وَهَرَقَلَةَ وَقَمُودِيَّةَ، وَغَنِمَا شَيْئًا كَثِيرًا، وَأَسْرَا جَمًّا غَفِيرًا.

وَفِيهَا غَزَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِلَادَ الصُّغَدِ، وَنَسَفَ، وَكَسَّ، وَقَدَّ لَقِيَهُ هُنَالِكَ حَلَقٌ مِنَ الْأَتْرَاكِ، فَظَفَرَ بِهِمْ فَقَتَلَهُمْ، وَسَارَ إِلَى بُخَارَى فَلَقِيَهُ دُوَهَا حَلَقٌ كَثِيرٌ مِنَ التَّرَكِّ، فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ عِنْدَ مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: حَرْقَانُ. وَظَفَرَ بِهِمْ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ نَهَارٍ بَنُو تَوْسِعَةَ:

وَبَاتَتْ لَهُمْ مَنَا بِحَرْقَانَ لَيْلَةٌ
وَلَيْلَتُنَا كَانَتْ بِحَرْقَانَ أَطُولًا

ثُمَّ قَصَدَ قُتَيْبَةُ وَرَدَانَ حُدَاهُ، مَلِكَ بُخَارَى، فَقَاتَلَهُ وَرَدَانُ قِتَالًا شَدِيدًا، فَلَمْ يَظْفَرْ بِهِ قُتَيْبَةُ، فَرَجَعَ عَنْهُ إِلَى مَرَوْ، فَجَاءَهُ كِتَابُ الْحَجَّاجِ يُعَنِّفُهُ عَلَى الْفِرَارِ، وَالنُّكُولِ عَنِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَ بِصُورَةَ هَذَا الْبَلَدِ يَعْنِي بُخَارَى، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِصُورَتِهَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ ارْجِعْ إِلَيْهَا وَتُبْ إِلَى اللَّهِ مِنْ دَنْبِكَ، وَائْتِهَا مِنْ مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، وَرِدْ وَرَدَانَ حُدَاهُ، وَإِيَّاكَ وَالتَّحْوِيْطَ، وَدَعْنِي وَبُنَيَاتِ الطَّرِيقِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَوَلَّى الْوَلِيدُ بِنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِمْرَةَ مَكَّةَ لِحَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ^١، فَحَفَرَ بِنْرًا بِأَمْرِ الْوَلِيدِ عِنْدَ ثَنِيَّةِ طُوًى وَثَنِيَّةِ الْحُجُونِ، فَجَاءَتْ عَذْبَةَ الْمَاءِ طَيِّبَةً، وَكَانَ يَسْتَقِي النَّاسُ مِنْهَا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا مَسْلَمَةُ التُّرْكُ حَتَّى بَلَغَ الْبَابَ^٢ مِنْ نَاحِيَةِ أُذْرُبِجَانَ، وَفَتَحَ خُصُونًا وَمَدَائِنَ هُنَالِكَ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ فُتِحَتْ صِقْلِيَّةٌ وَمَيُورْقَةُ. وَهُمَا فِي الْبَحْرِ بَيْنَ جَزِيرَةِ صِقْلِيَّةٍ وَحَدَارُةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ.

وَفِيهَا سَيَّرَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ وَوَلَدَهُ إِلَى النَّقْرِيسِ مَلِكِ الْفَرَنْجِ، فَافْتَتَحَ بِلَادًا كَثِيرَةً.

^١ خالد بن عبد الله القسري البجلي: وال من ولاية بني أمية، تباينت أقوال المراجع بشأن سيرته، فمنهم من ذمه وسبه، ومنهم من مدحه وبجله، والأكثر على ذمه لبغى فيه، حتى أنه هلك بسبب ذلك، إذ قتله الخليفة الأموي.

^٢ مدينة باب الأبواب.

فتح مدينة بخارى

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَفِيهَا غَزَا مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بِلَادَ الرُّومِ، فَفَتَحَا حُصُونًا، وَقَتَلَا خَلْقًا مِنَ الرُّومِ، وَغَنِمَا وَأَسْرَا خَلْقًا كَثِيرًا. وَفِيهَا أَسْرَتِ الرُّومُ خَالِدَ بْنَ كَيْسَانَ صَاحِبَ الْبَحْرِ، وَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَأَهْدَاهُ مَلِكُ الرُّومِ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ. وَفِيهَا عَزَلَ الْوَلِيدُ أَحَاهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ إِمْرَةِ مِصْرَ، وَوَلَّى عَلَيْهَا قُرَّةَ بِنَ شَرِيكِ.

وَفِيهَا قَتَلَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الثَّقَفِيُّ مَلِكَ السِّنْدِ دَاهِرَ بْنَ صَصَّةَ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ هَذَا عَلَى جَيْشٍ مِنْ جِهَةِ الْحَجَّاجِ.

وَفِيهَا فَتَحَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ مَدِينَةَ بُخَارَى، وَهَزَمَ جَمْعَ الْعُدُوِّ مِنَ التُّرْكِ بِهَا، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ فُصُولٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا.

وَفِيهَا طَلَبَ طَرْحُونَ مَلِكَ الصُّغْدِ بَعْدَ فَتْحِ بُخَارَى مِنْ قُتَيْبَةَ أَنْ يُصَالِحَهُ عَلَى مَالٍ يَبْدُلُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، فَأَجَابَهُ قُتَيْبَةُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَخَذَ مِنْهُ رَهْنًا عَلَيْهِ.

وَفِيهَا اسْتَنْجَدَ وَرْدَانُ خُذَاهُ بِالتُّرْكِ، فَأَتَوْهُ مِنْ جَمِيعِ التَّوَّاحِي وَهُوَ صَاحِبُ بُخَارَى بَعْدَ أَخْذِ قُتَيْبَةَ لَهَا، وَخَرَجَ وَرْدَانُ خُذَاهُ وَحَمَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَحَطَمُوهُمْ، ثُمَّ عَادَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَصَالِحَ قُتَيْبَةَ مَلِكِ الصُّغْدِ، وَفَتَحَ بُخَارَى وَحُصُونَهَا.

وَرَجَعَ قُتَيْبَةُ بِالْجُنْدِ إِلَى بِلَادِهِ فَأَذِنَ لَهُ الْحَجَّاجُ، فَلَمَّا سَارَ إِلَى بِلَادِهِ بَلَغَهُ أَنَّ صَاحِبَ الصُّعْدِ قَالَ لِمُلُوكِ الثُّرُكِ: إِنَّ الْعَرَبَ بِمَنْزِلَةِ اللُّصُوصِ، فَإِنْ أُعْطُوا شَيْئًا ذَهَبُوا، وَإِنَّ قُتَيْبَةَ هَكَذَا يَفْصِدُ الْمُلُوكَ، فَإِنْ أَعْطَوْهُ شَيْئًا أَخَذَهُ وَرَجَعَ عَنْهُمْ، وَإِنَّ قُتَيْبَةَ لَيْسَ بِمَلِكٍ، وَلَا يَطْلُبُ مُلْكًا. فَبَلَغَ قُتَيْبَةَ قَوْلَهُ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، فَكَاتَبَ نَيْزُكَ مَلِكَ الثُّرُكِ مُلُوكَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ: مِنْهُمْ مَلِكُ الطَّلَاقَانِ، وَكَانَ قَدْ صَاحَ قُتَيْبَةَ فَتَقَضَّ الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُتَيْبَةَ، وَاسْتَجَاشَ عَلَيْهِ بِالْمُلُوكِ كُلِّهَا، فَأَتَاهُ مُلُوكٌ كَثِيرٌ كَانُوا قَدْ عَاهَدُوا قُتَيْبَةَ عَلَى الصُّلْحِ، فَتَقَضُّوا كُلُّهُمْ وَصَارُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى قُتَيْبَةَ، وَاتَّعَدُوا إِلَى الرَّبِيعِ، وَتَعَاهَدُوا وَتَعَاقَدُوا عَلَى أَنْ يَجْتَمِعُوا فَيُقَاتِلُوا كُلُّهُمْ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ مِنَ السَّنَةِ الْآتِيَةِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ قُتَيْبَةُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهَا، وَصَلَبَ مِنْهُمْ سِمَاطِينَ فِي مَسَافَةِ أَرْبَعَةِ فَرَاسِخٍ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ مِمَّا كَسَرَ جُمُوعَهُمْ كُلَّهُمْ. وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ هَرَبَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ وَأَخَوَاهُ الْمُفْضَلُ وَعَبْدُ الْمَلِكِ مِنْ سِجْنِ الْحَجَّاجِ، فَلَحِقُوا بِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَمَّنَهُمْ مِنَ الْحَجَّاجِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَجَّاجَ كَانَ قَدْ احْتَاطَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَعَاقَبَهُمْ عُقُوبَةً عَظِيمَةً، وَأَخَذَ مِنْهُمْ سِتَّةَ آلَافِ أَلْفٍ، وَكَانَ أَصْبَرَهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، كَانَ لَا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتُ، وَلَوْ فَعَلُوا بِهِ مَا فَعَلُوا، فَكَانَ ذَلِكَ يَغِيظُ الْحَجَّاجَ، حَتَّى قَالَ قَائِلٌ لِلْحَجَّاجِ: إِنَّ فِي سَاقِهِ أَثَرَ نُشَابَةِ بَقِيٍّ نَصَلَهَا فِيهِ، وَإِنَّهُ مَتَى أَصَابَهَا شَيْءٌ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ أَنْ يَصْرُخَ، فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ أَنْ يُنَالَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مِنْهُ بِعَدَابٍ،

فَصَاحَ، فَلَمَّا سَمِعَتْ أُخْتُهُ هِنْدُ بِنْتُ الْمُهَلَّبِ وَكَانَتْ تَحْتَ الْحَجَّاجِ صَوْتَهُ
بَكَتْ وَنَاحَتْ عَلَيْهِ فَطَلَّقَهَا الْحَجَّاجُ، ثُمَّ أَوْدَعَهُمُ السِّجْنَ، ثُمَّ خَرَجَ الْحَجَّاجُ
إِلَى بَعْضِ الْمَحَالِّ لِيُنْفِذَ جَيْشًا إِلَى الْأَنْكُرَادِ، وَاسْتَصْحَبَهُمْ مَعَهُ، فَخُنْدَقَ
حَوْلَهُمْ، وَوَكَّلَ بِهِمُ الْحَرَسَ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي أَمَرَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ
بِطَعَامٍ كَثِيرٍ فَصُنِعَ لِلْحَرَسِ، فَاسْتَعْلَوْا بِهِ، ثُمَّ تَنَكَّرَ فِي هَيْئَةِ بَعْضِ الطَّبَاخِينَ،
وَجَعَلَ لِحِيَّتَهُ لِحْيَةً بَيْضَاءَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَرَأَهُ بَعْضُ الْحَرَسِ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مِشِيَّةً
أَشْبَهَ بِمِشِيَّةِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ مِنْ هَذَا. ثُمَّ اتَّبَعَهُ يَتَحَقَّقُهُ، فَلَمَّا رَأَى بَيَاضَ
لِحِيَّتِهِ انْصَرَفَ عَنْهُ، ثُمَّ لَحِقَهُ أَحْوَاهُ، فَرَكِبُوا السُّفْنَ، وَسَارُوا نَحْوَ الشَّامِ، فَلَمَّا
بَلَغَ الْحَجَّاجُ هَرَمُهُمْ انْزَعَجَ لِذَلِكَ، وَذَهَبَ وَهَمُهُ أَنَّهُمْ سَارُوا إِلَى حُرَّاسَانَ، فَكَتَبَ
إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يُحَدِّثُهُ قُدُومَهُمْ، وَيَأْمُرُهُ بِالْإِسْتِعْدَادِ لَهُمْ، وَأَنْ يَرْصُدَهُمْ فِي
كُلِّ مَكَانٍ، وَيَكْتُبَ إِلَى أَمْرَاءِ الثُّغُورِ وَالْكَوْرِ بِتَحْصِيلِهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يُخْبِرُهُ بِهَرَجِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَرَاهُمْ هَرَبُوا إِلَّا إِلَى
حُرَّاسَانَ، وَخَافَ الْحَجَّاجُ مِنْ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، أَنْ يَصْنَعَ كَمَا صَنَعَ عَبْدُ
الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ، وَجَمَعَ النَّاسَ لَهُ. وَأَمَّا يَزِيدُ بْنُ
الْمُهَلَّبِ فَإِنَّهُ سَلَكَ عَلَى الْبَطَائِحِ، وَجَاءَتْهُ خِيُولٌ كَانَتْ قَدْ أَعَدَّهَا لَهُ أَخُوهُ
مَرْوَانَ بْنُ الْمُهَلَّبِ لِهَذَا الْيَوْمِ، فَرَكِبَهَا، وَسَلَكَ بِهِ دَلِيلًا مِنْ بَنِي كَلْبٍ يُقَالُ لَهُ
عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ يَزِيدَ. فَأَخَذَ بِهِمْ عَلَى السَّمَاوَةِ. وَجَاءَ الْخَبْرُ إِلَى الْحَجَّاجِ بَعْدَ
يَوْمَيْنِ أَنَّ يَزِيدَ قَدْ سَلَكَ نَحْوَ الشَّامِ، فَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ، وَسَارَ

يَزِيدُ حَتَّى نَزَلَ الْأُرْدُنَّ، عَلَى وَهَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَزْدِيِّ وَكَانَ كَرِيمًا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ؛ فَسَارَ وَهَيْبٌ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ وَأَخُوهُ فِي مَنْزِلِي، قَدْ جَاءُوا مُسْتَعِيدِينَ بِكَ مِنَ الْحَجَّاجِ. قَالَ: فَادْهَبْ فَاتَّبِعْنِي بِهِمْ، فَهُمْ آمِنُونَ مَا دُمْتُ حَيًّا. فَجَاءَهُمْ، فَذَهَبَ بِهِمْ حَتَّى أَدْخَلَهُمْ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَمَّنَهُمْ سُلَيْمَانٌ، وَكَتَبَ إِلَى أَخِيهِ الْوَلِيدِ: إِنَّ آلَ الْمُهَلَّبِ قَدْ أَمَّنْتُهُمْ، وَإِنَّمَا بَقِيَ لِلْحَجَّاجِ عِنْدَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ أَلْفٍ، وَهِيَ عِنْدِي. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: لَا وَاللَّهِ لَا أُؤْمِنُهُ حَتَّى تَبْعَثَ بِهِ إِلَيَّ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: لَا وَاللَّهِ لَا أَبْعَثُهُ حَتَّى أَجِيءَ مَعَهُ، فَأَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَفْضَحَنِي أَوْ تَخْفِرَنِي فِي جَوَارِي. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: لَا وَاللَّهِ لَا تَجِيءُ مَعَهُ وَابْعَثْ بِهِ إِلَيَّ فِي وَثَاقٍ. فَقَالَ يَزِيدُ: ابْعَثْنِي إِلَيْهِ، فَمَا أَحْبُّ أَنْ أُوقَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عِدَاوَةً وَحَرْبًا، فَابْعَثْنِي إِلَيْهِ، وَابْعَثْ مَعِيَ ابْنَكَ، وَاكْتُبْ إِلَيْهِ بِاللِّطْفِ عِبَارَةً تَقْدِرُ عَلَيْهَا. فَبَعَثَهُ وَبَعَثَ مَعَهُ ابْنَهُ أَيُّوبَ، وَقَالَ لِابْنِهِ: إِذَا دَخَلْتَ فِي الدَّهْلِيْزِ فَادْخُلْ مَعَ يَزِيدَ فِي السِّلْسِلَةِ، وَادْخُلَا عَلَيْهِ كَذَلِكَ.

فَلَمَّا رَأَى الْوَلِيدُ ابْنَ أَخِيهِ فِي السِّلْسِلَةِ، قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَعْنَا مِنْ سُلَيْمَانَ. وَدَفَعَ أَيُّوبُ كِتَابَ أَبِيهِ إِلَى عَمِّهِ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَا تَخْفِرْ ذِمَّةَ أَبِي، وَأَنْتَ أَحَقُّ مَنْ مَنَعَهَا، وَلَا تَقْطَعْ مِنَّا رَجَاءَ مَنْ رَجَا السَّلَامَةَ فِي جَوَارِنَا لِمَكَانِنَا مِنْكَ، وَلَا تُذِلَّ مَنْ رَجَا الْعِزَّ فِي الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْنَا لِعِزِّنَا بِكَ.

ثُمَّ قَرَأَ الْوَلِيدُ كِتَابَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،
فَوَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لِأَطْنُ لَوْ اسْتَجَارَ بِي عَدُوٌّ قَدْ نَابَكَ وَجَاهَدَكَ فَأَنْزَلْتَهُ وَأَجْرْتَهُ،
أَنْتَ لَا تُنْذِلُ جَارِي، وَلَا تَخْفِرُ جَوَارِي، بَلْ لَمْ أُجْرِ إِلَّا سَامِعًا مُطِيعًا، حَسَنَ
الْبَلَاءِ وَالْأَثَرِ فِي الْإِسْلَامِ، هُوَ وَأَبُوهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَقَدْ بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْكَ، فَإِنْ كُنْتُ
إِنَّمَا تُعَدُّ قَطِيعِي وَالْإِخْفَارَ بِذِمَّتِي وَالْإِبْلَاحَ فِي مَسَاءَتِي، فَقَدْ قَدَرْتَ إِنْ أَنْتَ
فَعَلْتَ، وَأَنَا أُعِيدُكَ بِاللَّهِ مِنْ احْتِرَادِ قَطِيعِي، وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِي، وَتَرْكِ بَرِّي
وَصِلَّتِي، فَوَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَدْرِي مَا بَقَائِي وَبَقَاؤُكَ، وَلَا مَتَى يُفْرِقُ
الْمَوْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَدَامَ اللَّهُ سُورَهُ إِلَّا يَأْتِي أَجْلُ
الْوَفَاةِ عَلَيْنَا إِلَّا وَهُوَ لِي وَاصِلٌ، وَلِحَقِّي مُؤَدِّ، وَعَنْ مَسَاءَتِي نَارِعٌ، فَلْيَفْعَلْ،
وَوَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَصْبَحْتُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ بِأَسْرَ
مِ بَرِّضَاكَ وَسُرُورِكَ، وَإِنْ رِضَاكَ وَسُرُورَكَ مِمَّا أَلْتَمِسُ بِهِ رِضْوَانَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
وَإِنْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ تُرِيدُ مَسْرَّتِي وَصِلَّتِي وَكَرَامَتِي وَإِعْظَامَ
حَقِّي فَتَجَاوَزْ لِي عَنْ يَزِيدَ، وَكُلُّ مَا طَلَبْتَهُ بِهِ فَهُوَ عَلَيَّ. فَلَمَّا قَرَأَ الْوَلِيدُ كِتَابَهُ
قَالَ: لَقَدْ أَشْفَقْنَا عَلَى سُلَيْمَانَ. ثُمَّ دَعَا ابْنَ أَخِيهِ، فَأَذْنَاهُ مِنْهُ، وَتَكَلَّمَ يَزِيدُ
بُنُ الْمُهَلَّبِ فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ إِنْ بَلَاءُكُمْ عِنْدَنَا أَحْسَنُ الْبَلَاءِ، فَمَنْ يَنْسَى ذَلِكَ فَلَسْنَا نَاسِيهِ،
وَمَنْ يَكْفُرُهُ فَلَسْنَا بِكَافِرِيهِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ بَلَائِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي طَاعَتِكُمْ وَالطَّعْنَ
فِي أَعْيُنِ أَعْدَائِكُمْ فِي الْمَوَاطِنِ الْعِظَامِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَعَارِبِ مَا إِنَّ الْمِنَّةَ

عَلَيْنَا فِيهِ عَظِيمَةٌ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. فَجَلَسَ، فَأَمَّتَهُ، وَكَفَّ عَنْهُ، وَرَدَّهُ إِلَى سُلَيْمَانَ، فَكَانَ عِنْدَهُ يُعَلِّمُهُ الْهَيْئَةَ، وَيَصِفُ لَهُ أَلْوَانَ الْأَطْعِمَةِ الطَّيِّبَةِ، وَكَانَ حَظِيًّا عِنْدَهُ لَا يُهْدَى إِلَيْهِ هَدِيَّةٌ إِلَّا بَعَثَ إِلَيْهِ بِنِصْفِهَا، وَتَقَرَّبَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ إِلَى سُلَيْمَانَ بِأَنْوَاعِ الْهَدَايَا وَالتُّحَفِ وَالتَّقَادُمِ^١.

وَكَتَبَ الْوَلِيدُ إِلَى الْحَجَّاجِ: إِنِّي لَمْ أَصِلْ إِلَى يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَعَ أَخِي سُلَيْمَانَ، فَاكْفُفْ عَنْهُمْ، وَالْهَ عَنِ الْكِتَابِ إِلَيَّ فِيهِمْ. فَكَفَّ الْحَجَّاجُ عَنِ آلِ الْمُهَلَّبِ، وَتَرَكَ مَا كَانَ يُطَالِبُهُمْ بِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ، حَتَّى تَرَكَ لِأَبِي عُمَيْيَةَ بْنِ الْمُهَلَّبِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَلَمْ يَزَلْ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ عِنْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حَتَّى هَلَكَ الْحَجَّاجُ فِي سَنَةِ حَمْسٍ وَتِسْعِينَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ. ثُمَّ وُلِيَ يَزِيدُ بِلَادَ الْعِرَاقِ بَعْدَ الْحَجَّاجِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا غَزَا الصَّائِفَةَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَابْنُ أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْوَلِيدِ.

وَفِيهَا غَزَا مَسْلَمَةُ بِلَادَ التُّرْكِ حَتَّى بَلَغَ الْبَابَ مِنْ نَاحِيَةِ أَدْرَبِجَانَ، فَفَتَحَ مَدَائِنَ وَخُصُونًا كَثِيرَةً أَيْضًا، وَكَانَ الْوَلِيدُ قَدْ عَزَلَ عَمَّهُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ عَنِ الْجَزِيرَةِ وَأَدْرَبِجَانَ، وَوَلَّاهُمَا أَخَاهُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ.

^١ التقادم: الهدايا تتقدم صاحبها.

وَفِيهَا غَزَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ بِلَادَ الْمَغْرِبِ، فَفَتَحَ مُدُنًا كَثِيرَةً، وَدَخَلَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَوَجَّحَ فِيهَا حَتَّى دَخَلَ أَرْضِي غَابِرَةَ قَاصِيَةً، فِيهَا آثَارُ قُصُورٍ وَيُيُوتَ لَيْسَ بِهَا سَاكِنٌ، وَوَجَدَ هُنَاكَ مِنْ آثَارِ نِعْمَةِ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ مَا يَلُوحُ عَلَى سِمَاتِهَا أَنَّ أَهْلَهَا كَانُوا أَصْحَابَ أَمْوَالٍ وَنِعْمَةٍ دَارَةٍ سَابِعَةٍ، فَبَادُوا جَمِيعًا فَلَا مُحْزِرَ بَهَا. وَفِيهَا مَهَّدَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِلَادَ التُّرْكِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ نَقَضُوا مَا كَانُوا عَاهَدُوهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَالِحَةِ، وَذَلِكَ بَعْدَ قِتَالٍ شَدِيدٍ، وَحَرْبٍ يَشِيبُ لَهَا الْوَلِيدُ، وَذَلِكَ أَنَّ مُلُوكَهُمْ كَانُوا قَدْ اتَّعَدُوا فِي الْعَامِ الْمَاضِي فِي أَوَانِ الرَّبِيعِ أَنْ يَجْتَمِعُوا، وَيُقَاتِلُوا قُتَيْبَةَ، وَأَلَّا يُؤْلُوا عَنِ الْقِتَالِ حَتَّى يُخْرِجُوا الْعَرَبَ مِنْ بِلَادِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا اجْتِمَاعًا هَائِلًا لَمْ يَجْتَمِعُوا مِثْلَهُ فِي مَوْقِفٍ، فَكَسَرَهُمْ قُتَيْبَةُ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ أُمَّمًا كَثِيرَةً، وَرَدَّ الْأُمُورَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ صَلْبَ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْ جُمَّلَةٍ مَنْ أَحَدَ مِنَ الْأَسَارَى سِمَاطِينَ طُولُهُمَا أَرْبَعَةُ فَرَاسِحَ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا، وَاتَّبَعَ نَيْرُكَ حَانَ مَلِكِ التُّرْكِ الْأَعْظَمَ مِنْ إِقْلِيمِ إِلَى إِقْلِيمٍ، وَمِنْ كُورَةٍ إِلَى كُورَةٍ، وَمِنْ رُسْتَاقٍ إِلَى رُسْتَاقٍ، وَمَنْ يَزِلْ ذَلِكَ دَأْبُهُ وَدَأْبُهُ حَتَّى حَصَرَهُ فِي قَلْعَةٍ هُنَالِكَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَ نَيْرُكَ حَانَ مِنَ الْأَطْعَمَةِ، وَأَشْرَفَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ عَلَى الْهَلَاكِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ قُتَيْبَةُ مَنْ جَاءَ بِهِ مُسْتَأْمَنًا مَذْمُومًا مَحْدُولًا، فَسَجَنَهُ عِنْدَهُ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ فِي أَمْرِهِ، فَجَاءَ الْكِتَابُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِقَتْلِهِ، فَجَمَعَ قُتَيْبَةُ الْأُمَرَاءَ، فَاسْتَشَارَهُمْ فِيهِ فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ؛ فَقَائِلٌ يَقُولُ: اقْتُلْهُ. وَقَائِلٌ يَقُولُ: لَا تَقْتُلْهُ. فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ:

إِنَّكَ أَعْطَيْتَ اللَّهَ عَهْدًا أَنْكَ إِنْ ظَفِرْتَ بِهِ لَتَقْتُلَنَّهُ، وَقَدْ أَمَكَّنَكَ اللَّهُ مِنْهُ. فَقَالَ قُتَيْبَةُ: وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي إِلَّا مَا يَسَعُ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ لَقَتَلْتُهُ. ثُمَّ قَالَ: اقْتُلُوهُ اقْتُلُوهُ اقْتُلُوهُ، فَقُتِلَ هُوَ وَسَبْعُمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي عِدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَخَذَ قُتَيْبَةُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَحُيُولِهِمْ وَثِيَابِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ شَيْئًا كَثِيرًا، وَفَتَحَ فِي هَذَا الْعَامِ مُدُنًا كَثِيرَةً، وَفَرَّرَ مَمَالِكَ كَثِيرَةً. وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنَ الْمَدِينَةِ أَمَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ نَائِبَ الْمَدِينَةِ أَشْرَافَ الْمَدِينَةِ فَتَلَقَّوهُ، فَرَحَّبَ بِهِمْ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ، فَأَحْلَى لَهُ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ، فَلَمْ يَبْقَ بِهِ أَحَدٌ سِوَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، لَمْ يَتَجَسَّرَ أَحَدٌ أَنْ يُخْرِجَهُ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ ثِيَابٌ لَا تُسَاوِي خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ، فَقَالُوا لَهُ: تَنَحَّ عَنِ الْمَسْجِدِ أَيُّهَا الشَّيْخُ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَادِمٌ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْهُ. فَدَخَلَ الْوَلِيدُ الْمَسْجِدَ فَجَعَلَ يَدُورُ فِيهِ يُصَلِّي هَهُنَا وَهَهُنَا، وَيَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: وَجَعَلْتُ أَعْدِلُ بِهِ عَنْ مَوْضِعِ سَعِيدِ حَشِيَّةٍ أَنْ يَرَاهُ، فَحَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ أَهْوَى سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ عَلِمَ بِمَكَانِكَ لَقَامَ إِلَيْكَ وَسَلَّمَ عَلَيْكَ. فَقَالَ الْوَلِيدُ: قَدْ عَلِمْتُ حَالَهُ. وَجَعَلَ يَدُورُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَتَفَرَّجُ فِي عِمَارَتِهِ، وَيَسْأَلُنِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ وَإِنَّهُ، وَقَصَدْتُ مُوَافَقَتَهُ فِي ذَلِكَ، فَشَرَعَ الْوَلِيدُ يُثْنِي عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ وَالِدِّينِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ ضَعِيفُ الْبَصَرِ؛ وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ

لِأَعْتَدِرَ لَهُ، فَقَالَ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالسَّعْيِ إِلَيْهِ. فَجَاءَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَفْعَمْ لَهُ سَعِيدٌ، ثُمَّ قَالَ الْوَلِيدُ: كَيْفَ الشَّيْخُ؟ فَقَالَ: بِحَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، كَيْفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ الْوَلِيدُ: بِحَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ. ثُمَّ انصَرَفَ، وَهُوَ يَقُولُ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: هَذَا بَقِيَّةُ النَّاسِ. فَقَالَ: أَجَلٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

ثُمَّ حَطَبَ الْوَلِيدُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ فِي الْخُطْبَةِ الْأُولَى، وَانْتَصَبَ قَائِمًا فِي الثَّانِيَةِ، وَقَالَ: هَكَذَا حَطَبَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ. ثُمَّ انصَرَفَ، فَصَرَفَ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَهَبًا كَثِيرًا وَفِضَّةً كَثِيرَةً، ثُمَّ كَسَا الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ كُسْوَةً مِنْ كُسْوَةِ الْكَعْبَةِ الَّتِي مَعَهُ، وَهِيَ مِنْ دِيبَاجِ غَلِيظٍ.

فتح طارق بن زياد بلاد الأندلس

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثِنْتَيْنِ وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا غَزَا مَسْلَمَةٌ، وَابْنُ أَخِيهِ عُمَرُ بْنُ الْوَلِيدِ بِلَادَ الرُّومِ، فَفَتَحَا حُصُونًا كَثِيرَةً، وَغَنِمَا شَيْئًا كَثِيرًا، وَهَرَبَتْ مِنْهُمْ الرُّومُ إِلَى أَقْصَى بِلَادِهِمْ.

وَفِيهَا غَزَا طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ مَوْلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مَلِكُهَا أَدْرِينُوقُ فِي جَحَافِلِهِ، وَعَلَيْهِ تَاجُهُ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مُلْكِيهِ، فَقَاتَلَهُ طَارِقٌ فَهَزَمَهُ، وَغَنِمَ مَا فِي مُعَسْكَرِهِ، فَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ السَّرِيرِ، وَتَمَلَّكَ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ بِكَمَالِهَا.

كَانَ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ أَمِيرَ طَنْجَةَ، وَهِيَ أَقْصَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَكَانَ نَائِبًا لِمَوْلَاهُ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْجَزِيرَةِ الْخُضْرَاءِ يَسْتَنْجِدُ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، فَدَخَلَ طَارِقٌ إِلَى جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ زُقَاقِ سَبْتَةَ، وَانْتَهَرَ الْفُرْصَةَ لِكَوْنِ الْفَرَنْجِ قَدْ اقْتَتَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَأَمَعَنَ طَارِقٌ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ فَانْفَتَحَ قُرْطُبَةَ، وَقَتَلَ مَلِكَهَا أَدْرِينُوقَ، وَكَتَبَ إِلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ بِالْفَتْحِ، فَحَسَدَهُ مُوسَى عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِهَذَا الْفَتْحِ، وَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ يُبَشِّرُهُ بِالْفَتْحِ، وَيُنَسِّبُهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَكَتَبَ إِلَى طَارِقٍ يَتَوَعَّدُهُ لِكَوْنِهِ دَخَلَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، وَيَأْمُرُهُ أَلَّا يَتَجَاوَزَ مَكَانَهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ، ثُمَّ سَارَ إِلَيْهِ مُسْرِعًا بِجُيُوشِهِ، فَدَخَلَ الْأَنْدَلُسَ وَمَعَهُ حَبِيبُ بْنُ أَبِي عُبَيْدَةَ الْفَهْرِيُّ، فَأَقَامَ سِنِينَ يَفْتَحُ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَيَأْخُذُ الْمُدْنَ وَالْأَمْوَالَ، وَيَقْتُلُ الرِّجَالَ، وَيَأْسِرُ النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ، فَغَنِمَ شَيْئًا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ وَلَا يُعَدُّ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالْيَوَاقِيتِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمِنْ آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَثَاثِ وَالْحَيُولِ وَالْبَعَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا، وَفَتَحَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْكِبَارِ وَالْمُدْنَ شَيْئًا كَثِيرًا.

وَكَانَ مِمَّا فَتَحَ مَسْلَمَةُ وَابْنُ أَخِيهِ عُمَرُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ حُصُونِ بِلَادِ الرُّومِ حِصْنَ سَوْسَنَةَ، وَبَلَغَا إِلَى خَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.

وَفِيهَا فَتَحَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ شُومَانَ، وَكَسَّ، وَنَسَفَ، وَامْتَنَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ فِرْيَابَ فَأَحْرَقَهَا، وَجَهَّزَ أَخَاهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِلَى الصُّعْدِ إِلَى طَرْحُونَ حَانَ مَلِكِ تَلَكِ الْبِلَادِ، فَصَالِحَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَعْطَاهُ طَرْحُونَ حَانَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً، وَقَدِمَ عَلَى أَخِيهِ وَهُوَ بِبُخَارَى فَرَجَعَ إِلَى مَرَوْ، وَلَمَّا صَالَحَ طَرْحُونَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَرَحَلَ عَنْهُ، اجْتَمَعَتِ الصُّعْدُ وَقَالُوا لَطَرْحُونَ: إِنَّكَ قَدْ بُؤِتَ بِالذَّلِّ وَأَدْبِتَ الْجَزِيَةَ، وَأَنْتَ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيكَ، ثُمَّ عَزَلُوهُ وَوَلَّوْا عَلَيْهِمْ غَوَزَكَ حَانَ أَخَا طَرْحُونَ حَانَ، ثُمَّ إِهْمَ عَصَوْا وَنَقَضُوا الْعَهْدَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا سَيَأْتِي.

وَفِيهَا غَزَا قُتَيْبَةُ سِحْسِنَانَ يُرِيدُ رُبَيْلَ مَلِكِ التُّرْكِ الْأَعْظَمِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى أَوَّلِ مَمْلَكَةِ رُبَيْلَ تَلَقَّتْهُ رُسُلُهُ يُرِيدُونَ مِنْهُ الصُّلْحَ عَلَى أَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ؛ حُيُولٍ وَرَقِيقٍ وَنِسَاءٍ مِنْ بَنَاتِ الْمُلُوكِ يُحْمَلُ ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَصَالِحَهُ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ نَائِبُ الْمَدِينَةِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا افْتَتَحَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ حُصُونًا كَثِيرَةً مِنْ بِلَادِ الرُّومِ؛ مِنْهَا حِصْنُ الْحَدِيدِ، وَغَزَالَةُ، وَمَاسَةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَفِيهَا غَزَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ فَفَتَحَ سَبَسْطِيَةَ.

وَفِيهَا غَزَا مَرْوَانَ بْنَ الْوَلِيدِ الرُّومَ حَتَّى بَلَغَ حَنْجَرَةَ.

وَفِيهَا كَتَبَ حَوَارِزُ شَاهٍ إِلَى قُتَيْبَةَ يَدْعُوهُ إِلَى الصُّلْحِ، وَأَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ بِلَادِهِ مَدَائِنَ، وَأَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ أَمْوَالًا وَرَقِيقًا كَثِيرًا عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ أَخَاهُ، وَيُسَلِّمَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَبَعَى عَلَى النَّاسِ، وَعَسَفَهُمْ، وَكَانَ أَخُوهُ هَذَا لَا يَسْمَعُ بِشَيْءٍ حَسَنٍ عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا بَعَثَ إِلَيْهِ فَأَخَذَهُ مِنْهُ، سَوَاءٌ كَانَ مَالًا أَوْ نِسَاءً أَوْ صَبِيانًا أَوْ دَوَابَّ أَوْ غَيْرَهُ، فَأَقْبَلَ قُتَيْبَةُ نَصْرَهُ اللَّهُ فِي الْجَبُوشِ فَسَلَّمَ إِلَيْهِ حَوَارِزُ شَاهٍ مَا صَالِحُهُ عَلَيْهِ، وَبَعَثَ قُتَيْبَةُ إِلَى بِلَادِ أَخِي حَوَارِزُ شَاهٍ جَيْشًا، فَفَقْتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا وَأَسْرُوا أَخَاهُ وَمَعَهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ أَسِيرٍ، فَدَفَعَ أَخَاهُ إِلَيْهِ وَأَمَرَ قُتَيْبَةُ بِالْأَسَارِ فَضْرِبَتْ أَعْنَاقَهُمْ بِحَضْرَتِهِ؛ قَتَلَ أَلْفًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَلْفًا عَنِ يَمِينِهِ، وَأَلْفًا عَنِ شِمَالِهِ، وَأَلْفًا مِنْ وِرَاءِ ظَهْرِهِ؛ لِيُرْهَبَ بِذَلِكَ الْأَعْدَاءَ مِنَ الْأَنْرَاكِ وَغَيْرِهِمْ.

فَتْحُ سَمَرْقَنْدَ

وَذَلِكَ أَنَّ قُتَيْبَةَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، وَعَزَمَ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى بِلَادِهِ، قَالَ لَهُ بَعْضُ الْأَمْرَاءِ: إِنَّ أَهْلَ الصُّعْدِ قَدْ أَمْنُوكَ عَامَكَ هَذَا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَعْدِلَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَإِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ ذَلِكَ أَخَذْتَهَا إِنْ كُنْتَ تُرِيدُهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ. فَقَالَ قُتَيْبَةُ لِذَلِكَ الْأَمِيرِ: هَلْ قُلْتَ هَذَا لِأَحَدٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَلَمَّا يَسْمَعُهُ مِنْكَ أَحَدٌ أَضْرِبَ عُنُقَكَ.

ثُمَّ بَعَثَ قُتَيْبَةُ أَخَاهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مُسْلِمٍ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي عِشْرِينَ أَلْفًا، فَسَبَقَهُ إِلَى سَمَرْقَنْدَ، وَلَحِقَهُ قُتَيْبَةُ فِي بَقِيَّةِ الْجَيْشِ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْأَتْرَاكُ بِقُدُومِهِمْ إِلَيْهِمْ انْتَحَبُوا مِنْ بَيْنِهِمْ كُلَّ شَدِيدِ السَّطْوَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ، وَأَمَرُوهُمْ أَنْ يَسِيرُوا إِلَى قُتَيْبَةَ فِي اللَّيْلِ، فَيَكْسِبُوا جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ، وَجَاءَتِ الْأَحْبَارُ إِلَى قُتَيْبَةَ بِذَلِكَ، فَجَرَّدَ أَخَاهُ صَاحِبًا فِي سِتِّمِائَةِ فَارِسٍ مِنَ الْأَبْطَالِ الَّذِينَ لَا يُطَافُونَ، وَقَالَ: حُدُوا عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ. فَسَارُوا فَوْقَهُمْ هُمْ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، وَتَفَرَّقُوا ثَلَاثَ فُرُقٍ، فَلَمَّا اجْتَاؤُوا بِهِمْ فِي اللَّيْلِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَمْرِهِمْ تَارُوا عَلَيْهِمْ، فَأَقْتَتَلُوا هُمْ وَإِيَّاهُمْ، فَلَمْ يُفَلِتْ مِنْ أَوْلِيكَ الْأَتْرَاكِ إِلَّا النَّفْرُ الْيَسِيرُ، وَاحْتَنَزُوا رُءُوسَهُمْ، وَعَنِمُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ مِنَ الْأَسْلِحَةِ الْمُحَلَّلَةِ بِالذَّهَبِ وَالْأَمْتِعَةِ، وَقَالَ هُمْ بَعْضُ أَوْلِيكَ: تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ لَمْ تَقْتُلُوا فِي مَقَامِكُمْ هَذَا إِلَّا ابْنَ مَلِكٍ، أَوْ بَطَلًا مِنَ الْأَبْطَالِ الْمَعْدُودِينَ بِمِائَةِ فَارِسٍ، أَوْ بِأَلْفِ فَارِسٍ، فَتَفَلَّهْمُ قُتَيْبَةُ جَمِيعَ مَا عَنِمُوهُ مِنْهُمْ مِنْ ذَهَبٍ وَسِلَاحٍ.

وَأَقْتَرَبَ فُتَيْبَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ الْعُظْمَى الَّتِي بِالصُّعْدِ، وَهِيَ سَمَرْقَنْدُ، فَنَصَبَ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقَ، فَرَمَاهَا بِهَا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُقَاتِلُهُمْ لَا يُفْلِحُ عَنْهُمْ، وَنَاصِحَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ بُخَارَى وَخَوَارِزْمَ، فَقَاتَلُوا أَهْلَ الصُّعْدِ قِتَالًا شَدِيدًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ غَوَزُكَ مَلِكُ الصُّعْدِ: إِنَّمَا تُقَاتِلُنِي بِأَخَوْتِي وَأَهْلِ بَيْتِي، فَأَخْرِجْ إِلَيَّ الْعَرَبَ. فَعَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ فُتَيْبَةُ، وَمَيَّرَ الْعَرَبَ مِنَ الْعَجَمِ وَأَمَرَ الْعَجَمَ بِاعْتِزَالِهِمْ، وَقَدَّمَ الشُّجْعَانَ مِنَ الْعَرَبِ، وَأَعْطَاهُمْ حَيْدَ السِّلَاحِ، وَأَنْتَزَعَهُ مِنْ أَيْدِي الْجُبْنَاءِ، وَزَحَفَ بِالْأَبْطَالِ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَرَمَاهَا بِالْمَجَانِيقِ فَتَلَمَّ فِيهَا ثُلْمَةً، فَسَدَّهَا التُّرْكُ بِعَرَائِرِ الدُّخَنِ، وَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَوْقَهَا، فَجَعَلَ يَشْتُمُ فُتَيْبَةَ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِسَهْمٍ فَقَلَعَ عَيْنَهُ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ قَفَاهُ، فَلَمَّ يَلْبَثُ أَنْ مَاتَ قَبْحَهُ اللَّهُ، فَأَعْطَى فُتَيْبَةَ الَّذِي رَمَاهُ عَشْرَةَ آلَافٍ، ثُمَّ دَخَلَ اللَّيْلُ فَلَمَّا أَصْبَحُوا رَمَاهُمْ بِالْمَجَانِيقِ فَتَلَمَّ أَيْضًا ثُلْمَةً، وَصَعِدَ الْمُسْلِمُونَ فَوْقَهَا، وَتَرَامَوْا هُمْ وَأَهْلُ الْبَلَدِ بِالنُّشَابِ، فَقَالَتِ التُّرْكُ لِفُتَيْبَةَ: ازْجِعِ عَنَّا يَوْمَكَ هَذَا، وَنَحْنُ نُصَالِحُكَ عَدَا. فَرَجَعَ عَنْهُمْ، وَصَالِحُوهُ مِنَ الْعَدِ عَلَى أَلْفِي أَلْفٍ وَمِائَةِ أَلْفٍ يَحْمِلُوهَا إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ، وَعَلَى أَنْ يُعْطُوهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ الرَّقِيقِ، لَيْسَ فِيهِمْ صَغِيرٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَيْبٌ، وَفِي رِوَايَةٍ: مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ رَقِيقٍ، وَعَلَى أَنْ يَأْخُذَ حِلْيَةَ الْأَصْنَامِ، وَمَا فِي بَيْتِ النَّبِيرَانِ، وَعَلَى أَنْ يُخْلُوا الْمَدِينَةَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ حَتَّى يَبْنِي فِيهَا فُتَيْبَةُ مَسْجِدًا، وَيُوضِعَ لَهُ فِيهِ مِنْبَرًا يَخْطُبُ عَلَيْهِ، وَيَتَعَدَّى وَيَخْرُجُ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا دَخَلَهَا فُتَيْبَةُ دَخَلَهَا وَمَعَهُ أَرْبَعَةٌ

آلَافٍ مِنَ الْأَبْطَالِ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ بُنِيَ الْمَسْجِدُ، وَوُضِعَ فِيهِ الْمِنْبَرُ، فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ وَخَطَبَ وَتَعَدَّى، وَأُتِيَ بِالْأَصْنَامِ الَّتِي لَهُمْ فَسَلَبَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَلْقَيْتَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، حَتَّى صَارَتْ كَالْقَصْرِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ أَمَرَ بِتَحْرِيقِهَا، وَقَالَ الْمَجُوسُ: إِنَّ فِيهَا أَصْنَامًا قَدِيمَةً مِنْ أَحْرَقَهَا هَلَكَ. وَجَاءَ الْمَلِكُ غُزُوكَ فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ لِقُتَيْبَةَ: إِنِّي لَكَ نَاصِحٌ. فَقَالَ: أَنَا أَحْرَقْتُهَا بِيَدِي، ثُمَّ أَخَذَ شُعْلَةً مِنْ نَارٍ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، وَهُوَ يُكَبِّرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَلْقَى فِيهَا النَّارَ فَاحْتَرَقَتْ، فَوَجَدَ مِنْ بَقَايَا مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الذَّهَبِ خَمْسِينَ أَلْفَ مِثْقَالٍ مِنْ ذَهَبٍ.

وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَا أَصَابَ قُتَيْبَةَ فِي السَّبْيِ جَارِيَةٌ مِنْ وَلَدِ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَهْدَاهَا إِلَى الْحِجَاجِ، فَأَهْدَاهَا إِلَى الْوَلِيدِ، فَوَلَدَتْ لَهُ يَزِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، ثُمَّ اسْتَدْعَى قُتَيْبَةَ بِأَهْلِ سَمَرْقَنْدَ فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا صَالِحْتُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ جُنْدٍ يُقِيمُونَ عِنْدَكُمْ مِنْ جِهَتِنَا، فَاثْتَقِلْ عَنْهَا مَلِكُهَا غُزُوكَ حَانَ فَتَلَا قُتَيْبَةَ: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثُمُودَ فَمَا أَبْقَى}، ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهَا قُتَيْبَةَ إِلَى بِلَادِ مَرُوءَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى سَمَرْقَنْدَ أَخَاهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُسْلِمٍ، وَقَالَ لَهُ: لَا تَدْعَنَّ مُشْرِكًا يَدْخُلُ بَابَ سَمَرْقَنْدَ إِلَّا مَخْتُومَ الْيَدِ، ثُمَّ لَا تَدْعُهُ بِهَا إِلَّا مِقْدَارَ مَا تَجِفُّ طِينُهُ حَتْمِهِ، فَإِنْ جَفَّتْ وَهُوَ بِهَا فَاقْتُلْهُ، وَمَنْ رَأَيْتَهُ مِنْهُمْ وَمَعَهُ حَدِيدَةٌ أَوْ سِكِّينَةٌ فَاقْتُلْهُ بِهَا، وَإِذَا أَغْلَقْتَ الْبَابَ فَوَجَدْتَ بِهَا أَحَدًا مِنْهُمْ فَاقْتُلْهُ.

فَقَالَ فِي ذَلِكَ كَعْبُ الْأَشْقَرِيِّ، وَيُقَالُ: هِيَ لِرَجُلٍ مِنْ جُعْفِيٍّ:

كُلَّ يَوْمٍ يَحْوِي قُتَيْبَهُ هَبًّا وَيَزِيدُ الْأَمْوَالَ مَالًا جَدِيدًا
 بَاهِلِيٍّ قَدْ أُلْبَسَ التَّاجَ حَتَّى شَابَ مِنْهُ مَفَارِقُ كُنَّ سُوْدَا
 دَوَّخَ الصُّعْدَ بِالْكَتَائِبِ حَتَّى تَرَكَ الصُّعْدَ بِالْعِرَاءِ قُعودًا
 قَوْلِيْدُ يَبْكِي لِفَقْدِ أَبِيهِ وَأَبٌ مُوجِعٌ يُبْكِي الْوَلِيدَا
 كُلَّمَا حَلَ بِلَدَّةٍ أَوْ أَتَاهَا تَرَكَتْ حَيْلُهُ بِهَا أُخْدُوْدَا

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَزَلَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ نَائِبَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ مَوْلَاهُ طَارِقًا عَنِ الْأَنْدَلُسِ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَى مَدِينَةِ طَلِيْطَلَةَ فَفَتَحَهَا، فَوَجَدَ فِيهَا مَائِدَةً سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِيهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ شَيْءٌ كَثِيرٌ جَدًّا، فَبَعَثُوا بِهَا إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ حَتَّى مَاتَ فِيمَا قَبِيلَ، فَقَدِمَ بِهَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ.

وَفِيهَا فَحَطَ أَهْلُ إِفْرِيقِيَّةَ وَأَجْدَبُوا جَدْبًا شَدِيدًا، فَخَرَجَ بِهِمْ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ يَسْتَسْقِي بِهِمْ، فَمَا زَالَ يَدْعُو حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَنْزَلَ عَنِ الْمَنْبَرِ قِيلَ لَهُ: أَلَا تَدْعُو لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: لَيْسَ هَذَا الْمَوْضِعُ مَوْضِعَ ذَلِكَ. فَسَقَاهُمُ اللَّهُ مَطَرًا غَزِيرًا.

وَفِيهَا ضَرَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حُبَيْبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ حَمْسِينَ سَوْطًا بِأَمْرِ الْوَلِيدِ لَهُ بِذَلِكَ^١، وَصَبَّ فَوْقَ رَأْسِهِ قِرْبَةً مِنْ مَاءٍ بَارِدٍ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، وَأَقَامَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَوْمَهُ ذَلِكَ فَمَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْدَ مَوْتِ حُبَيْبٍ شَدِيدَ الْخَوْفِ لَا يَأْمَنُ، وَكَانَ إِذَا بُشِّرَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْأَحْرَةِ يَقُولُ: وَكَيْفَ وَحُبَيْبٌ لِي بِالطَّرِيقِ؟ وَفِي رِوَايَةٍ يَقُولُ: هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ حُبَيْبٌ بِالطَّرِيقِ، ثُمَّ يَصِيحُ صِيَاخَ الْمَرْأَةِ التَّكَلَّى، وَكَانَ إِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ يَقُولُ: حُبَيْبٌ وَمَا حُبَيْبٌ! إِنْ نَجَوْتُ مِنْهُ فَأَنَا بِحَيْرٍ. وَمَا زَالَ عَلَى الْمَدِينَةِ إِلَى أَنْ ضَرَبَ حُبَيْبًا فَمَاتَ، فَاسْتَقَالَ^٢ وَرَكِبَهُ الْحَزْنُ وَالْخَوْفُ مِنْ حَيْثُ ذَلِكَ، وَأَخَذَ فِي الاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ وَالْبُكَاءِ، وَكَانَتْ تِلْكَ هَفْوَةً مِنْهُ وَزَلَّةً، وَلَكِنْ حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ؛ مِنْ عِبَادَةٍ وَبُكَاءٍ وَحُزْنٍ وَخَوْفٍ وَإِحْسَانٍ وَعَدْلٍ وَصَدَقَةٍ وَبِرٍّ وَعِتْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

^١ كان حبيب من رواة الحديث ، وفي أحد الأيام روى حبيب عن الرسول حديث ” إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً” وهو حديث ضعيف. ولما سمع الوليد بن عبد الملك هذا الحديث أرسل إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بجلد حبيب مائة جلدة ثم حبسه، فنفذ عمر أوامر الخليفة.

^٢ بعد تلك الحادثة استعفى عمر بن عبد العزيز من إمارة المدينة، ورفض أن يتولى أي إمارة أخرى. حتى جاءته الخلافة.

فتح بلاد الهند

وَفِيهَا افْتَتَحَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ^١، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، مَدِينَةَ الدَّبِيلِ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ، وَكَانَ قَدْ وُلَّاهُ الْحَجَّاجُ عَزْرَ الْهِنْدِ، وَعُمَرُهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَسَارَ فِي الْجَيْوشِ فَلَقُوا الْمَلِكَ دَاهِرَ وَهُوَ مَلِكُ الْهِنْدِ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، وَمَعَهُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ فَيَلًا مُنْتَحَبَةً، فَاقْتَتَلُوا فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ، وَهَرَبَ الْمَلِكُ دَاهِرُ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَقْبَلَ الْمَلِكُ وَمَعَهُ حَلْقٌ كَثِيرٌ، فَأَحَاطُوا بِالْمُسْلِمِينَ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَقُتِلَ الْمَلِكُ دَاهِرُ وَعَالِبٌ مِنْ مَعَهُ، وَتَبَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْرَمَ مِنَ الْهُنُودِ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ سَارَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ فَافْتَتَحَ مَدِينَةَ الْكَبْرِجِ وَبَرَّهَا، وَرَجَعَ بِعَنَائِمٍ كَثِيرَةٍ وَأَمْوَالٍ لَا تُحْصَى كَثْرَةً مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالذَّهَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

عزل عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ الْمَدِينَةِ

وَفِيهَا عَزَلَ الْوَلِيدُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ يُخْبِرُهُ عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ أَنَّهُمْ فِي ضَيْمٍ وَضَيْقٍ مَعَ الْحَجَّاجِ مِنْ ظُلْمِهِ وَعَشْمِهِ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ الْحَجَّاجُ فَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ: إِنَّ عُمَرَ ضَعِيفٌ عَنِ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَدْ

^١ محمد بن القاسم الثقفي قائد في جيوش الفتح الأموي، واشتهر بكونه فاتح بلاد السند. كان والده «القاسم الثقفي» واليًا على البصرة، وهو ابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي.

لَجَأُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، وَهَذَا وَهَنْ وَضَعْفٌ فِي الْوَلَايَةِ، فَاجْعَلْ عَلَى الْحَرَمَيْنِ مَنْ يَضْبِطُ أَمْرَهُمَا. قَوْلٌ عَلَى الْمَدِينَةِ عَثْمَانُ بْنُ حَيَّانَ، وَعَلَى مَكَّةَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ، فَفَعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ الْحَجَّاجُ، فَخَرَجَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي شَوَّالٍ فَزَلَّ السُّوَيْدَاءَ، وَقَدِمَ عَثْمَانُ بْنُ حَيَّانَ الْمَدِينَةَ لِلْيَلْتِنِ بَقِيَّتَنَا مِنْ شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ أَرْبَعٌ وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا غَزَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ أَرْضَ الرُّومِ، فَقِيلَ: إِنَّهُ فَتَحَ أَنْطَالِيَةَ.

وَعَزَا أَحْوَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَلَغَ غَزَاةً، وَبَلَغَ الْوَلِيدُ بْنُ هِشَامِ الْمُعِطِيَّ أَرْضَ بُرْجِ الْحَمَامِ، وَبَلَغَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ أَرْضَ سُورِيَةَ. وَفِيهَا كَانَتْ الرَّجْفَةُ بِالشَّامِ.

وَفِيهَا افْتَتَحَ مَسَلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ سِنْدَرََةَ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ.

وَفِيهَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ فُتُوحَاتٍ عَظِيمَةً فِي دَوْلَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَلَى يَدَيْ أَوْلَادِهِ وَأَقْرَبَائِهِ وَأَمْرَائِهِ، حَتَّى عَادَ الْجِهَادُ شَبِيهَا بِأَيَّامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِيهَا افْتَتَحَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ التَّفَقِيَّ أَرْضَ الْهِنْدِ، وَغَنِمَ أَمْوَالًا لَا تُعَدُّ وَلَا تُوصَفُ.

وَفِيهَا عَزَا فُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمِ الشَّاشِ وَفَرَعَانَةَ حَتَّى بَلَغَ حُجَنْدَةَ، وَكَاشَانَ مَدِينَتَيْ
 فَرَعَانَةَ، وَذَلِكَ بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنَ الصُّعْدِ، وَفَتَحَ سَمَرْقَنْدَ، ثُمَّ حَاضَ تِلْكَ الْبِلَادَ
 يَفْتَحُ فِيهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى كَابُلَ، فَحَاصَرَهَا وَافْتَتَحَهَا، وَقَدْ لَقِيَهِ الْمُشْرِكُونَ فِي
 جُمُوعِ هَائِلَةٍ مِنَ التُّرْكِ فَقَاتَلَهُمْ فُتَيْبَةُ عِنْدَ حُجَنْدَةَ مِرَارًا.
 كُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ الظَّفَرُ لَهُ.

مَقْتَلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قَتَلَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ
 أَنَّ الْحَجَّاجَ كَانَ قَدْ جَعَلَهُ عَلَى نَفَقَاتِ الْجُنْدِ حِينَ بَعَثَهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
 مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ إِلَى قِتَالِ رُبَيْلٍ، فَلَمَّا حَلَعَهُ ابْنُ الْأَشْعَثِ حَلَعَهُ مَعَهُ سَعِيدُ
 بْنُ جُبَيْرٍ، فَلَمَّا ظَفَرَ الْحَجَّاجُ بِابْنِ الْأَشْعَثِ وَأَصْحَابِهِ هَرَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ
 إِلَى أَصْبَهَانَ، فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى نَائِبِهَا أَنْ يَبْعَثَهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ سَعِيدُ
 هَرَبَ مِنْهَا، ثُمَّ كَانَ يَعْتَمِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَيُحُجُّ، ثُمَّ إِنَّهُ لَجَأَ إِلَى مَكَّةَ فَأَقَامَ بِهَا
 إِلَى أَنْ وَلِيَهَا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ، فَأَشَارَ مَنْ أَشَارَ عَلَى سَعِيدٍ بِالْهَرَبِ
 مِنْهَا، فَقَالَ سَعِيدُ: وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنَ اللَّهِ، مِمَّ أَفْرُ وَلَا مَفَرَّ مِنْ قَدَرِهِ؟!
 وَتَوَلَّى عَلَى الْمَدِينَةِ عُمَانُ بْنُ حَيَّانَ بَدَلَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَجَعَلَ يَبْعَثُ
 مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الْأَشْعَثِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ إِلَى الْحَجَّاجِ فِي الْفَيْوَدِ،
 فَتَعَلَّمَ مِنْهُ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ، فَعَيَّنَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ مَكَّةَ: سَعِيدَ بْنَ

جُبَيْرٌ، وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رِبَاحٍ، وَمُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَطَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ.

وَيُقَالُ: إِنَّ الْحَجَّاجَ كَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ يُخْبِرُهُ أَنَّ مَكَّةَ أَقْوَامًا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاقِ، فَبَعَثَ خَالِدَ بَهْرُؤَلَاءَ إِلَيْهِ، ثُمَّ عَفَا عَنْ عَطَاءٍ، وَعَمْرُو بْنِ دِينَارٍ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَبَعَثَ بِأَوْلَادِكَ الثَّلَاثَةِ، فَأَمَّا طَلْقُ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ، وَأَمَّا مُجَاهِدٌ فَحُجِسَ حَتَّى مَاتَ الْحَجَّاجُ.

وَأَمَّا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ الْحَجَّاجِ قَالَ لَهُ: يَا سَعِيدُ، أَلَمْ أُشْرِكْ فِي أَمَانَتِي؟ أَلَمْ أَسْتَعْمِلْكَ؟ أَلَمْ أَفْعَلْ، أَلَمْ أَفْعَلْ؟ كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: نَعَمْ. حَتَّى ظَنَّ مَنْ عِنْدَهُ أَنَّهُ سَيُحْلِي سَبِيلَهُ حَتَّى قَالَ لَهُ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَخْرُجَ عَلَيَّ، وَخَلَعْتَ بَيْعَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ سَعِيدُ: إِنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ أَخَذَ مِنِّي الْبَيْعَةَ عَلَى ذَلِكَ، وَعَزَمَ عَلَيَّ. فَعَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَجَّاجُ غَضَبًا شَدِيدًا، وَانْتَفَحَ حَتَّى سَقَطَ أَحَدُ طَرَفَيْ رِدَائِهِ عَنْ مَنْكِبِهِ، وَقَالَ لَهُ: وَجْحُكَ، أَلَمْ أَقْدِمَ مَكَّةَ فَفَقَتَلْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَأَخَذْتُ بَيْعَةَ أَهْلِهَا، وَأَخَذْتُ بَيْعَتَكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: ثُمَّ قَدِمْتُ الْكُوفَةَ وَالْيَا عَلَى الْعِرَاقِ فَجَدَدْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَيْعَةَ، فَأَخَذْتُ بَيْعَتَكَ لَهُ ثَانِيَةً؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ:

فَتَنَكْتُ بَيْعَتَيْنِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَفِي بِوَاحِدَةٍ لِلْحَائِكِ ابْنِ الْحَائِكِ؟ يَا حَرَسِي
اضْرِبْ عُنُقَهُ. فَضْرِبْتَ عُنُقَهُ، فَندَرَ رَأْسَهُ^١، عَلَيْهِ لَاطِئَةٌ صَغِيرَةٌ بَيْضَاءُ^٢.

وَلَمَّا أُوقِفَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قُدَّامَ الْحَجَّاجِ، قَالَ: يَا شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ، أَمَا قَدِمْتُ
الْكُوفَةَ فَجَعَلْتِكَ إِمَامًا؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَمَا وَلَّيْتِكَ الْقَضَاءَ، فَضَجَّ أَهْلُ
الْكُوفَةِ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلْقَضَاءِ إِلَّا عَرَبِيٌّ؛ فَجَعَلْتُ أَبَا بُرْدَةَ، وَأَمَرْتُهُ أَلَّا يَطْغَعَ
أَمْرًا دُونَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَمَا أُعْطَيْتِكَ مِائَةَ أَلْفٍ تُفَرِّقُهَا عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ؟
قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَمَا أَخْرَجَكَ عَلَيَّ؟ قَالَ: بَيْعَةٌ كَانَتْ فِي عُنُقِي لِابْنِ
الْأَشْعَثِ. فَغَضِبَ الْحَجَّاجُ، وَقَالَ: أَمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي عُنُقِكَ
مِنْ قَبْلُ؟ ثُمَّ قَالَ: أَكْفَرْتَ إِذْ حَرَجْتَ عَلَيَّ؟ قَالَ: مَا كَفَرْتُ مُنْذُ أَمَنْتُ.
فَقَالَ: احْتَرِ أَيَّ قِتْلَةٍ أَقْتُلُكَ. فَقَالَ: احْتَرِ أَنْتَ، فَإِنَّ الْقِصَاصَ أَمَامَكَ. فَقَالَ
الْحَجَّاجُ: يَا حَرَسِي، اضْرِبْ عُنُقَهُ. وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ
بِوَاسِطٍ، وَقَبْرُهُ ظَاهِرٌ يُرَارُ.

وَلَمَّا قَتَلَهُ حَرَجَ مِنْهُ دَمٌ كَثِيرٌ حَتَّى رَاعَ الْحَجَّاجُ، فَدَعَا طَبِيبًا، فَسَأَلَهُ عَنِ ذَلِكَ،
فَقَالَ: إِنَّكَ قَتَلْتَهُ وَنَفْسُهُ مَعَهُ، وَقَلْبُهُ حَاضِرٌ.

^١ سقط.

^٢ اللأطئة: قلنسوة صغيرة تُلصق بالرأس، وهي ما تسمى بالطاقيّة.

وَقِيلَ: إِنَّ الْحَجَّاجَ رُمِيَ فِي الْمَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: قَتَلَنِي بِكُلِّ رَجُلٍ قَتَلْتُهُ قَتْلَةً، وَقَتَلَنِي بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ قَتْلَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ الْحَجَّاجُ لَمَّا أُتِيَ بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: لُعِنَ ابْنُ النَّصْرَانِيَّةِ؛ يَعْنِي خَالِدًا الْقَسْرِيَّ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ مِنْ مَكَّةَ؛ أَمَا كُنْتُ أَعْرِفُ مَكَانَهُ؟! بَلَى وَاللَّهِ، وَالْبَيْتَ الَّذِي هُوَ فِيهِ بِمَكَّةَ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا سَعِيدُ، مَا أَحْرَجَكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، أَنَا أَمْرُؤُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُخْطِئُ مَرَّةً، وَيُصِيبُ أُخْرَى. فَطَابَتْ نَفْسُ الْحَجَّاجِ، وَأَنْطَلَقَ وَجْهَهُ، وَرَجَا الْحَجَّاجُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ أَمْرِهِ، ثُمَّ عَاوَدَهُ فِي شَيْءٍ فَقَالَ سَعِيدٌ: إِذَا كَانَتْ بَيْعَةٌ فِي عُنُقِي. فَعَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَجَّاجُ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ قَتْلِهِ.

وَأُتِيَ الْحَجَّاجُ بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَهُوَ يُرِيدُ الرُّكُوبَ، وَقَدْ وَضَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ فِي الْعَرْزِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَزْكُبُ حَتَّى تَتَبَوَّأَ مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ، اضْرِبُوا عُنُقَهُ. فَضْرِبَتْ عُنُقَهُ.

وَجِيءَ بِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ إِلَى الْحَجَّاجِ فَقَالَ: كَتَبْتَ إِلَيَّ مُصْعَبَ بْنِ الرُّبَيْرِ؟ فَقَالَ: بَلْ كَتَبَ إِلَيَّ مُصْعَبٌ. قَالَ: وَاللَّهِ لَأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ: إِنِّي إِذْ لَسَعِيدٌ كَمَا سَمَّيْتَنِي أُمِّي. فَقَتَلَهُ. فَلَمْ يَلْبَثِ الْحَجَّاجُ بَعْدَهُ إِلَّا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَكَانَ إِذَا نَامَ يَرَاهُ فِي الْمَنَامِ يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ، وَيَقُولُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ فِيمَ قَتَلْتَنِي؟ فَيَقُولُ الْحَجَّاجُ: مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؟!

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ هِشَامِ الْأَسَدِيِّ، مَوْلَى بَنِي وَالِيَّةِ كُوفِيًّا، أَحَدَ الْأَعْلَامِ مِنَ التَّابِعِينَ، وَكَانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ، وَكَانَ لَا يَكْتُبُ عَلَى الْفُتْيَا، فَلَمَّا عَمِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَتَبَ، فَعَضِبَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ قَالَ: قُتِلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ أَوْ قَالَ: مُفْتَقِرٌ إِلَى عِلْمِهِ. وَيُقَالُ إِنَّ الْحَجَّاجَ لَمْ يُسَلِّطْ بَعْدَهُ عَلَى أَحَدٍ. وَسَيَأْتِي فِي تَرْجَمَةِ الْحَجَّاجِ أَيْضًا شَيْءٌ مِنْ هَذَا.

سَنَةُ الْفُقَهَاءِ

وَكَانَ يُقَالُ لِهَذِهِ السَّنَةِ: سَنَةُ الْفُقَهَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَاتَ فِيهَا عَامَةٌ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ؛ مَاتَ فِي أَوْلَاهَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ، ثُمَّ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَأَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا تَرَاجِمَ هَؤُلَاءِ فِي كِتَابِنَا "التَّكْمِيلِ"، وَسَنَذْكُرُ طَرَفًا صَالِحًا هَهُنَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَاسْتَفْضَى الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَلَى الشَّامِ سُلَيْمَانَ بْنَ حَبِيبٍ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ أَخُوهُ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ.

وَكَانَ عَلَى نِيَابَةِ مَكَّةَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ، وَعَلَى الْمَدِينَةِ عُثْمَانُ بْنُ حَيَّانَ، وَعَلَى الْمَشْرِقِ بِكَمَالِهِ الْحَجَّاجُ، وَعَلَى خُرَاسَانَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَعَلَى الْكُوفَةِ مِنْ جِهَةِ الْحَجَّاجِ زِيَادُ بْنُ جَرِيرٍ، وَعَلَى قَضَائِهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي مُوسَى، وَعَلَى إِمْرَةِ الْبَصْرَةِ مِنْ جِهَةِ الْحَجَّاجِ الْجَرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيُّ، وَعَلَى قَضَائِهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُذَيْنَةَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ذَكَرَ مَنْ تُوفِّيَ فِيهَا مِنَ الْمَشَاهِيرِ وَالْأَعْيَانِ:

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرِ الْأَسَدِيِّ الْوَالِيِّ

مَوْلَاهُمْ، أَبُو مُحَمَّدٍ، وَيُقَالُ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، الْكُوفِيُّ الْمَكِّيُّ، مِنْ أَكَابِرِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ، كَانَ مِنْ أئِمَّةِ الْإِسْلَامِ فِي التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَأَنْوَاعِ الْعُلُومِ، وَكَثْرَةَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَدْ رَأَى حَلْفًا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَرَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ، وَعَنْهُ حَلْقٌ مِنَ التَّابِعِينَ، يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِيمَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ حَتْمَةً تَامَةً، وَكَانَ يَفْعُدُ فِي الْكَعْبَةِ الْقَعْدَةَ فَيَقْرَأُ فِيهَا الْحَتْمَةَ، وَرُبَّمَا قَرَأَهَا فِي رَكْعَةٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَدْ أَتَاهُ أَهْلُ الْكُوفَةِ يَسْأَلُونَهُ: أَلَيْسَ فِيكُمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ؟

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَقَدْ مَاتَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى عِلْمِهِ.

وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ حَرَجٍ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ عَلَى الْحَجَّاجِ، فَلَمَّا ظَفَرَ الْحَجَّاجُ هَرَبَ سَعِيدٌ إِلَى أَصْبَهَانَ، ثُمَّ كَانَ يَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ سَنَةٍ إِلَى مَكَّةَ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً لِلْعُمْرَةِ وَمَرَّةً لِلْحَجِّ، وَرُبَّمَا دَخَلَ الْكُوفَةَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَحَدَّثَ بِهَا، وَكَانَ بِحُرَّاسَانَ يَتَحَرَّنُ؛ لِإِنَّهُ كَانَ لَا يَسْأَلُهُ أَحَدٌ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ هُنَاكَ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِمَّا يُهْمُنِي مَا عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ، وَوَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ أَخَذُوهُ. وَاسْتَمَرَ فِي هَذَا الْحَالِ مُخْتَفِيًا مِنَ الْحَجَّاجِ قَرِيبًا مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أَرْسَلَهُ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْحَجَّاجِ، فَكَانَ مِنْ مُحَاطَبِيهِ لَهُ مَا ذَكَرْنَاهُ قَرِيبًا.

وَقَدْ عُوِقِبَ الْحَجَّاجُ بَعْدَهُ وَعُوِجِلَ بِالْعُقُوبَةِ، فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَهُ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ أَخَذَهُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُفْتَدِرٍ كَمَا سَنَدُّكُرُ وَفَاتَهُ فِي السَّنَةِ الْأَتِيَةِ فَقِيلَ: إِنَّهُ مَكَتَ بَعْدَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا. وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ يَوْمًا. وَقِيلَ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَاحْتَلَفُوا فِي عُمَرِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، حِينَ قُبِلَ، فَقِيلَ: كَانَ عُمُرُهُ تِسْعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: سَبْعًا وَخَمْسِينَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ

أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَدِينِيُّ الْمَحْزُومِيُّ، سَيِّدُ التَّابِعِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَوُلِدَ لِسِنَتَيْنِ مَضَتْمَا - وَقِيلَ: بَقِيَّتَا - مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. وَرَوَى عَنْ عُمَرَ كَثِيرًا، فَقِيلَ: سَمِعَ مِنْهُ. وَقِيلَ: لَمْ يَسْمَعْ. وَعَنْ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَسَعْدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَكَانَ زَوْجَ ابْنَتِهِ وَأَعْلَمَ النَّاسِ بِحَدِيثِهِ، وَرَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَحَدَّثَ عَنْ جَمَاعَةٍ

مِنَ التَّابِعِينَ، وَخَلَقَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَانَ سَعِيدٌ أَحَدَ الْمُفْتِينَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: جَالَسْتُهُ سَبْعَ حَجَجٍ، وَأَنَا لَا أَظُنُّ عِنْدَ أَحَدٍ عِلْمًا غَيْرَهُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ مَكْحُولٍ قَالَ: طُفْتُ الْأَرْضَ كُلَّهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَمَا لَقَيْتُ أَعْلَمَ مِنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: سُئِلَ الزُّهْرِيُّ وَمَكْحُولٌ: مَنْ أَفْقَهُ مِنْ لَقَيْتُمَا؟ قَالَ: سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: مَا رَأَيْتُ أَعْلَمَ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مِنْهُ. وَكَانَ الْحَسَنُ إِذَا أَشْهَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ^١ كَتَبَ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ. وَقَالَ غَيْرُهُ كَانَ يُقَالُ لَهُ: فَقِيهِ الْفُقَهَاءِ. وَقَالَ مَالِكٌ، عَنِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: كُنْتُ أَرْحَلُ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ.

قَالَ مَالِكٌ: وَبَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ يُرْسَلُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ يَسْأَلُهُ عَنْ قَضَايَا عُمَرَ وَأَحْكَامِهِ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ عَنِ الشَّافِعِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: إِرْسَالُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عِنْدَنَا حَسَنٌ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هِيَ صِحَاحٌ. قَالَ: وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَفْضَلُ التَّابِعِينَ.

^١ اختلط عليه شيء.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: لَا أَعْلَمُ فِي التَّابِعِينَ أَوْسَعَ عِلْمًا مِنْهُ. وَإِذَا قَالَ سَعِيدٌ: مَضَتِ السَّنَةُ. فَحَسْبُكَ بِهِ، وَهُوَ عِنْدِي أَجَلُ التَّابِعِينَ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعِجْلِيُّ: كَانَ سَعِيدٌ رَجُلًا صَالِحًا فَقِيهًا، كَانَ لَا يَأْخُذُ الْعَطَاءَ، وَكَانَتْ لَهُ بِضَاعَةٌ، أَرْبَعُمِائَةِ دِينَارٍ، وَكَانَ يَتَّجِرُ فِي الرِّبْتِ، وَكَانَ أَعْوَرَ. وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: مَدَنِيٌّ ثِقَةٌ إِمَامٌ.

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: لَيْسَ فِي التَّابِعِينَ أَنْبَلُ مِنْهُ، وَهُوَ أَثْبَتُهُمْ فِي أَبِي هُرَيْرَةَ. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: تُؤَيَّبُ فِي سَنَةِ الْمُفْهَاءِ، وَهِيَ سَنَةُ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ، عَنْ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً. رَحِمَهُ اللَّهُ.

عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ

الْقُرَشِيُّ الْأَسَدِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَدَنِيُّ، تَابِعِيٌّ جَلِيلٌ، رَوَى عَنْ أَبِيهِ، وَعَنْ الْعَبَادِلَةِ، وَمُعَاوِيَةَ، وَالْمُعِيرَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأُمِّهِ أَسْمَاءَ، وَخَالَتِهِ عَائِشَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ، وَعَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ، وَخَلَقَ مِنْ سِوَاهُمْ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ: كَانَ عُرْوَةُ ثِقَةً، كَثِيرَ الْحَدِيثِ، عَالِمًا مَأْمُونًا ثَبَتًا.

وَقَالَ الْعِجْلِيُّ: مَدَنِيٌّ، تَابِعِيٌّ، رَجُلٌ صَالِحٌ، لَمْ يَدْخُلْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْفِتَنِ.

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَ فَقِيهًا، عَالِمًا، حَافِظًا، ثَبَتًا، حُجَّةً، عَالِمًا بِالسِّيَرِ، وَهُوَ
 أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ الْمَعَازِي، وَكَانَ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ الْمَعْدُودِينَ، وَلَقَدْ كَانَ
 أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ، وَكَانَ أَرْوَى النَّاسِ لِلشَّعْرِ.
 وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ: الْعِلْمُ لِوَاحِدٍ مِنْ ثَلَاثَةٍ: لِذِي
 حَسَبٍ يَزِينُهُ بِهِ، أَوْ ذِي دِينٍ يَسُوسُ بِهِ دِينَهُ، أَوْ مُحْتَطِطٍ بِسُلْطَانٍ يُتَحَفُّهُ
 بِعِلْمِهِ. وَقَالَ: وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَشْرَطَ لِهَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ إِلَّا عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ،
 وَعُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَكَانَ عُرْوَةُ يُفْرَأُ كُلَّ يَوْمٍ رُبْعَ الْقُرْآنِ، وَيُفُومُ بِهِ فِي اللَّيْلِ. وَكَانَ أَيَّامَ الرُّطْبِ
 يَنْلِمُ حَائِطَهُ، ثُمَّ يَأْذُنُ لِلنَّاسِ، فَيَدْخُلُونَ فَيَأْكُلُونَ وَيَحْمِلُونَ، فَإِذَا ذَهَبَ الرُّطْبُ
 أَعَادَهُ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانَ عُرْوَةُ بَحْرًا لَا يُنْزَفُ، وَقَالَ مَرَّةً: كَانَ بَحْرًا لَا تُكْدِرُهُ
 الدَّلَاءُ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَا أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْ عُرْوَةَ، وَمَا أَعْلَمُهُ يَعْلَمُ شَيْئًا
 أَجْهَلُهُ.

وَقَدْ ذَكَرَهُ عَيْرٌ وَاحِدٍ فِي فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُنْتَهَى إِلَى قَوْلِهِمْ. وَكَانَ
 مِنْ جُمْلَةِ الْفُقَهَاءِ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَرْجِعُ إِلَى قَوْلِهِمْ فِي
 زَمَنِ وَلَا يَتِيهِ عَلَى الْمَدِينَةِ.

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ وَقَدَ عَلَى الْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ، فَلَمَّا رَجَعَ أَصَابَتْهُ فِي رِجْلِهِ الْأَكِلَةُ، فَأَرَادُوا قَطْعَهَا، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يَشْرَبَ شَيْئًا يُغَيِّبُ عَقْلَهُ، حَتَّى لَا يَحْسَ بِالْأَلَمِ، وَيَتَمَكَّنُوا مِنْ قَطْعِهَا، فَقَالَ: مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحَدًا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَشْرَبُ شَيْئًا يُغَيِّبُ عَقْلَهُ حَتَّى لَا يَعْرِفَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ هَلُمُّوا فَاقْطَعُوهَا. فَاقْطَعُوهَا مِنْ رُكْبَتَيْهِ وَهُوَ صَامِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يُسْمَعُ لَهُ حِسٌّ. وَرَوَى أَنَّهُمْ قَطَعُوهَا وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَلَمْ يَشْعُرْ لِشَعْلِهِ بِالصَّلَاةِ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَوَقَعَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الَّتِي قُطِعَتْ فِيهَا رِجْلُهُ وَلَدٌ لَهُ يُسَمَّى مُحَمَّدًا، كَانَ أَحَبَّ أَوْلَادِهِ، مِنْ سَطْحِ فَمَاتَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَزَّوهُ فِيهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، كَانُوا سَبْعَةً فَأَخَذَتْ وَاحِدًا، وَأَبْقَيْتِ سِتَّةً، وَكُنَّ أَطْرَافًا أَرْبَعًا، فَأَخَذَتْ وَاحِدَةً، وَأَبْقَيْتِ ثَلَاثًا، فَلَمَّا كُنْتُ قَدْ أَخَذْتُ فَلَقَدْ أُعْطِيتِ، وَلَمَّا كُنْتُ قَدْ ابْتَلَيْتِ فَلَقَدْ عَافَيْتِ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا رَأَى الْمَقْطُوعَةَ فِي الطَّسْتِ، قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا مَشَيْتُ بِهَا إِلَى مَعْصِيَةِ قَطُّ.

عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ

ابْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، الْقُرَشِيُّ الْهَاشِمِيُّ، الْمَشْهُورُ بِرَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ اسْمُهَا سَلَامَةٌ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ أَكْبَرُ مِنْهُ يُقَالُ لَهُ: عَلِيُّ أَيُّضًا، فُتِلَ مَعَ أَبِيهِ، رَوَى عَلِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ أَبِيهِ، وَعَمَّهُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَجَابِرٍ، وَابْنَ عَبَّاسٍ،

وَالْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَصَفِيَّةَ، وَعَائِشَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ، أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَرَوَى عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ بَنُوهُ: زَيْدٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَعُمَرُ، وَأَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ الْبَاقِرِ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَطَاوُسٌ وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِهِ، وَالزُّهْرِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْأَنْصَارِيِّ، وَأَبُو سَلَمَةَ، وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِهِ، وَحَلَقُوا.

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ حَلِّكَانَ: كَانَتْ أُمُّهُ سَلَامَةَ بِنْتُ يَزْدَجِرْدَ آخِرِ مُلُوكِ الْفُرسِ. وَذَكَرَ الزُّخَشَرِيُّ فِي "رَبِيعِ الْأَبْرَارِ": أَنَّ يَزْدَجِرْدَ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ سُبَيْنَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَحَصَلَتْ وَاحِدَةٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فَأَوْلَدَهَا سَالِمًا، وَالْأُخْرَى لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَأَوْلَدَهَا الْقَاسِمَ، وَالْأُخْرَى لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فَأَوْلَدَهَا عَلِيًّا زَيْنَ الْعَابِدِينَ هَذَا، فَكُلُّهُمْ بَنُو خَالَةٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِ "الْمَعَارِفِ" أَنَّ زَيْنَ الْعَابِدِينَ هَذَا كَانَتْ أُمُّهُ سِنْدِيَّةً، يُقَالُ لَهَا: سَلَامَةُ. وَيُقَالُ: غَزَالَةٌ.

وَكَانَ مَعَ أَبِيهِ بِكَرْبَلَاءَ، فَاسْتَبْقَى لِصِغَرِهِ، وَقِيلَ: لِمَرَضِهِ. فَإِنَّهُ كَانَ ابْنًا ثَلَاثَ وَعِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ هَمَّ بِقَتْلِهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ، ثُمَّ صَرَفَهُ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَشَارَ بَعْضُ الْفَجَرَةِ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بِقَتْلِهِ أَيْضًا، فَمَنَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، ثُمَّ كَانَ يَزِيدٌ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْرِمُهُ وَيُعْظِمُهُ،

وَيُجْلِسُهُ مَعَهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا وَهُوَ عِنْدَهُ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ مُكْرَمِينَ، وَكَانَ عَلِيٌّ بِالْمَدِينَةِ مُحْتَرَمًا مُعْظَمًا.

وَمَسْجِدُهُ بِدِمَشْقَ الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ. قُلْتُ: وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: مَشْهَدٌ عَلِيٌّ شَرْقِيٌّ جَامِعِ دِمَشْقَ. وَقَدْ اسْتَفْدَمَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى دِمَشْقَ فَاسْتَشَارَهُ فِي جَوَابِ مَلِكِ الرُّومِ عَنْ بَعْضِ مَا كَتَبَ إِلَيْهِ فِيهِ مِنْ أَمْرِ السَّكَّةِ وَطِرَازِ الْقِرَاطِيسِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: مَا رَأَيْتُ قُرَشِيًّا أَفْضَلَ مِنْهُ، وَكَانَ مَعَ أَبِيهِ يَوْمَ قُتِلَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ: لَا تَعْرَضُوا لِهَذَا الْمَرِيضِ.

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ، وَأَعْبَدِهِمْ، وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ إِذَا مَشَى لَا يَخْطُرُ بِيَدِهِ^١، وَكَانَ يَعْتَمُّ بِعِمَامَةٍ بَيْضَاءَ يُرْخِيهَا مِنْ وَرَائِهِ، وَكَانَ كُنْيَتُهُ أَبُو الْحَسَنِ، وَقِيلَ: أَبُو مُحَمَّدٍ. وَقِيلَ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ: كَانَ ثِقَةً مَأْمُونًا، كَثِيرَ الْحَدِيثِ، عَالِيًا، رَفِيعًا وَرِعًا. وَأُمُّهُ غَزَالَةٌ خَلَفَ عَلَيْهَا بَعْدَ الْحُسَيْنِ مَوْلَاهُ زُبَيْدٌ، فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زُبَيْدٍ.

وَهُوَ عَلِيٌّ الْأَصْغَرُ، فَأَمَّا عَلِيٌّ الْأَكْبَرُ فَقُتِلَ مَعَ أَبِيهِ، وَكَذَا قَالَ عُبَيْرٌ وَاحِدٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَمَالِكُ، وَأَبُو حَازِمٍ: لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مِثْلَهُ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْأَنْصَارِيِّ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ

^١ خَطَرَ: تَبَخَّرَ وَاهْتَرَّ، وَتَمَائِلٌ وَتَهَادَى فِي مَشِيهِ.

وَهُوَ أَفْضَلُ هَاشِمِيٍّ أَدْرَكْتُهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَحِبُّونَا حُبَّ الْإِسْلَامِ، فَمَا بَرِحَ بِنَا حُبُّكُمْ حَتَّى صَارَ عَلَيْنَا عَارًا. وَبِی رَوَايَةٍ: حَتَّى بَعَّضْتُمُونَا إِلَى النَّاسِ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمْ يَكُنْ لِلْحُسَيْنِ عَقِبٌ إِلَّا مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ نَسْلٌ إِلَّا مِنْ ابْنَةِ عَمِّهِ الْحَسَنِ، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ: لَوْ اتَّخَذْتَ السَّرَارِيَّ حَتَّى يَكْتَثِرَ أَوْلَادُكَ. فَقَالَ: لَيْسَ لِي مَا أُنْسَرَى بِهِ. فَأَقْرَضَهُ مِائَةَ أَلْفٍ، فَاشْتَرَى لَهُ السَّرَارِيَّ، فَوَلَدَنَ لَهُ، وَكَثُرَ نَسْلُهُ، ثُمَّ لَمَّا مَرَضَ مَرْوَانُ أَوْصَى أَلَّا يُؤَخِّدَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ مَا كَانَ أَقْرَضَهُ، فَجَمِيعَ الْحُسَيْنِيِّينَ مِنْ نَسْلِهِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: أَصَحُّ الْأَسَانِيدِ كُلِّهَا الرَّهْرِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ.

وَدَكَرُوا أَنَّهُ احْتَرَقَ الْبَيْتُ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا انصَرَفَ قَالُوا لَهُ: مَا لَكَ لَمْ تَنْصَرِفْ؟ فَقَالَ: إِنِّي اشْتَعَلْتُ عَنْ هَذِهِ النَّارِ بِالنَّارِ الْأُخْرَى.

وَكَانَ إِذَا تَوَضَّأَ يَصْفُرُ لَوْنُهُ، فَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ ارْتَعَدَ مِنَ الْفَرَقِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: أَلَا تَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ وَلِمَنْ أَنَا حَيٌّ؟

وَلَمَّا حَجَّ أَرَادَ أَنْ يُلْبِسَ، فَارْتَعَدَ وَقَالَ: أَحْشَى أَنْ أَقُولَ لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ فَيَقُولَ لِي: لَا لَبَيْكَ. فَشَجَّهوهُ، وَقَالُوا: لَا بُدَّ مِنَ التَّلْبِيَةِ؟ فَلَمَّا لَبَّى عُشِيَ عَلَيْهِ حَتَّى سَقَطَ عَنِ الرَّاحِلَةِ، وَأَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ.

وَقَالَ طَاوُسٌ: سَمِعْتُهُ وَهُوَ سَاجِدٌ عِنْدَ الْحِجْرِ يَقُولُ: عُبَيْدُكَ بِفَنَائِكَ،
مَسْكِينُكَ بِفَنَائِكَ، سَائِلُكَ بِفَنَائِكَ، فَقِيرُكَ بِفَنَائِكَ. قَالَ طَاوُسٌ: فَوَاللَّهِ مَا
دَعَوْتُ بِهَا فِي كَرْبٍ قَطُّ إِلَّا كُشِفَ عَنِّي.

وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الصَّدَقَةِ بِاللَّيْلِ، وَكَانَ يَقُولُ: صَدَقَةُ اللَّيْلِ تُطْفِئُ غَضَبَ
الرَّبِّ.

وَأَنَّهُ قَاسَمَ اللَّهَ تَعَالَى مَالَهُ مَرَّتَيْنِ.

وَكَانَ نَاسٌ بِالْمَدِينَةِ يَعِيشُونَ، لَا يَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ يَعْيشُونَ وَمَنْ يُعْطِيهِمْ، فَلَمَّا
مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ فَقَدُوا ذَلِكَ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَأْتِيهِمْ فِي اللَّيْلِ
بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ.

وَلَمَّا مَاتَ وَجَدُوا فِي ظَهْرِهِ وَأَكْتَفَاهِ أَثَرَ حَمْلِ الْجُرْبِ إِلَى بُيُوتِ الْأَرَامِلِ
وَالْمَسَاكِينِ فِي اللَّيْلِ.

وَكَانَ يَعُولُ مِائَةَ أَهْلِ بَيْتِ بِالْمَدِينَةِ، وَلَا يَدْرُونَ بِذَلِكَ حَتَّى مَاتَ.

وَدَخَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَعُودُهُ، فَبَكَى ابْنُ
أُسَامَةَ، فَقَالَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: عَلِيٌّ دِينَ. قَالَ: وَكَمْ هُوَ؟ قَالَ: خَمْسَةَ
عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ. وَفِي رِوَايَةٍ سَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ: هِيَ عَلَيٌّ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي حَيَاتِهِ بِمَنْزِلَتِهِمَا مِنْهُ بَعْدَ وَقَاتِهِ.

وَنَالَ مِنْهُ رَجُلٌ يَوْمًا فَجَعَلَ يَتَعَاوَلُ عَنْهُ يُرِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعُهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ:
إِيَّاكَ أَعْزِي. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: وَعَنْكَ أَعْزِي.

وَخَرَجَ يَوْمًا مِنَ الْمَسْجِدِ، فَسَبَّهُ رَجُلٌ، فَأَبْتَدَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَقَالَ: دَعُوهُ. ثُمَّ
أَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا سَبَّتَ عَنْكَ مِنْ أَمْرِنَا أَكْثَرَ، أَلَمْ حَاجَةٌ نُعِينِكَ عَلَيْهَا؟
فَاسْتَحْيَا الرَّجُلُ، فَأَلْفَى إِلَيْهِ خَمِيصَةً كَانَتْ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِالْفِ دِرْهَمٍ، فَكَانَ
الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَاحْتَصَمَ عَلِيٌّ بِنُ الْحُسَيْنِ وَحَسَنُ بْنُ حَسَنِ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا مُنَافَسَةٌ، فَنَالَ مِنْهُ
حَسَنُ بْنُ حَسَنِ، وَهُوَ سَاكِتٌ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ عَلِيٌّ بِنُ الْحُسَيْنِ إِلَى
مَنْزِلِهِ، فَقَالَ: يَا بَنَ عَمِّ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا يَغْفِرُ اللَّهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا يَغْفِرُ
اللَّهُ لَكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ. ثُمَّ رَجَعَ، فَلَحِقَهُ فَصَالِحُهُ.

وَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَطْرًا؟ فَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْضَ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِ حَطْرًا.
وَقَالَ أَيْضًا: الْفِكْرَةُ مِرَاةٌ تُرِي الْمُؤْمِنَ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ.
وَقَالَ: فَقَدْ الْأَحِبَّةُ عُزْبَةٌ.

وَكَانَ يَقُولُ: إِنْ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَهْبَةً، فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَآخَرُونَ عَبَدُوهُ
رَغْبَةً، فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَآخَرُونَ عَبَدُوهُ مَحَبَّةً وَشُكْرًا، فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ
الْأَخْيَارِ.

وَقَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، لَا تَصْحَبْ فَاسِقًا؛ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِأَكْلَةٍ وَأَقَلِّ مِنْهَا، يَطْمَعُ فِيهَا ثُمَّ لَا يَنَالُهَا، وَلَا بَخِيلًا؛ فَإِنَّهُ يَخْذُلُكَ فِي مَالِهِ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَلَا كَذَّابًا؛ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ مِنْكَ الْبَعِيدَ وَيُبَاعِدُ عَنْكَ الْقَرِيبَ، وَلَا أَحْمَقَ؛ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ، وَلَا قَاطِعَ رَحِمٍ؛ فَإِنَّهُ مَلْعُونٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ }.

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ تَخَطَّى النَّاسَ حَتَّى يَجْلِسَ فِي حَلْقَةٍ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ نَافِعُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، أَنْتَ سَيِّدُ النَّاسِ تَأْتِي تَخَطَّى حَتَّى يَجْلِسَ مَعَ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ؟ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: إِنَّمَا يَجْلِسُ الرَّجُلُ حَيْثُ يَنْتَفِعُ، وَإِنَّ الْعِلْمَ يُبْتِغَى وَيُؤْتَى، وَيُطَلَّبُ مِنْ حَيْثُ كَانَ.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ مَسْعُودِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: أَشْيَاءُ يَنْفَعُنَا اللَّهُ بِهَا، إِنَّهُ لَيْسَ عِنْدَنَا مَا يَرْمِينَا بِهِ هَؤُلَاءِ. وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْعِرَاقِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ رَزِينِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَأَتَى عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَرْحَبًا بِالْحَبِيبِ ابْنِ الْحَبِيبِ.

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانَ أَكْثَرُ مُجَالَسَتِي مَعَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَمَا رَأَيْتُ أَفْقَهَ مِنْهُ، وَكَانَ قَلِيلَ الْحَدِيثِ، وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَحْسَنِهِمْ طَاعَةً، وَأَحَبَّهُمْ إِلَى مَرْوَانَ، وَابْنِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ يُسَمِّيهِ: زَيْنَ الْعَابِدِينَ.

وَقَالَ جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ أَسْمَاءَ: مَا أَكَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْهَمًا قَطُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ.

وَعَنِ الْمُقْبَرِيِّ، قَالَ: بَعَثَ الْمُخْتَارُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بِمِائَةِ أَلْفِ، فَكَرِهَ أَنْ يَقْبَلَهَا، وَخَافَ أَنْ يَرُدَّهَا، فَاحْتَبَسَهَا عِنْدَهُ، فَلَمَّا قُتِلَ الْمُخْتَارُ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ: إِنَّ الْمُخْتَارَ بَعَثَ إِلَيَّ بِمِائَةِ أَلْفِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْبَلَهَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَرُدَّهَا، فَأَبْعَثْ مَنْ يَقْبِضُهَا. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ: يَا بَنَ عَمِّ، خُذْهَا فَقَدْ طَيَّبْتُهَا لَكَ. فَاقْبَلَهَا.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: سَادَةُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الْأَسْحَبَاءُ الْأَتْقِيَاءُ، وَفِي الْآخِرَةِ أَهْلُ الدِّينِ وَأَهْلُ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ.

وَقَالَ أَيْضًا: إِنِّي لِأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَرَى الْأَخَ مِنْ إِخْوَانِي، فَأَسْأَلَ اللَّهَ لَهُ الْجَنَّةَ، وَأَجْلَلَ عَلَيْهِ بِالدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِيلَ لِي: لَوْ كَانَتْ الْجَنَّةُ بِيَدِكَ لَكُنْتَ بِهَا أَجْلَلُ وَأَجْلَلُ.

وَذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْبُكَاءِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَكَى حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ عَلَى يُوسُفَ، وَمَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَاتَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ بِضْعَةَ

عَشْرَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُدْبِحُونَ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، أَفْتَرُونَ حُزْهْمَ يَدْهَبُ مِنْ قَلْبِي
أَبَدًا؟!}

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: سَكَبَتْ جَارِيَةٌ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ مَاءٌ لِيَتَوَضَّأَ، فَسَقَطَ
الْإِبْرِيْقُ مِنْ يَدِهَا عَلَى وَجْهِهِ فَشَجَّهَهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: إِنَّ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ} فَقَالَ: قَدْ كَظَمْتُ غَيْظِي. قَالَتْ:
{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}. فَقَالَ: قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ. فَقَالَتْ: {وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ} قَالَ: فَادْهَبِي، أَنْتِ حُرَّةٌ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جَلَسَ إِلَيَّ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَذَكَرُوا أَبَا
بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَتَالُوا مِنْهُمَا، ثُمَّ ابْتَدَأُوا فِي عَثْمَانَ، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَحْبِرُونِي، أَنْتُمْ
مِنْ {الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُحْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} وَإِلَى قَوْلِهِ: {أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ}؟ قَالُوا: لَا، لَسْنَا مِنْهُمْ. قُلْتُ: فَأَنْتُمْ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:
{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} إِلَى قَوْلِهِ:
{فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}؟ قَالُوا: لَا، لَسْنَا مِنْهُمْ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا أَنْتُمْ
فَقَدْ تَبَرَّأْتُمْ وَأَفْرَزْتُمْ وَشَهِدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْفِرْقَةِ
الثَّالِثَةِ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا
رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} فُؤِمُوا عَنِّي، لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ، وَلَا قَرَّبَ دُورَكُمْ، أَنْتُمْ
مُسْتَهْزِئُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَلَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهِ.

وَجَاءَ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ: مَتَى يُبْعَثُ عَلِيٌّ؟ فَقَالَ: يُبْعَثُ وَاللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَمُّهُ نَفْسُهُ.

وَكَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَصَدَّقُ الْيَوْمَ - أَوْ أَهْبُ عَرَضِي الْيَوْمَ - مِنْ اسْتَحَلَّهُ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا أَنَّ عَلَامًا سَقَطَ مِنْ يَدِهِ سَقُودٌ، وَهُوَ يَشْوِي شَيْئًا فِي التَّنُورِ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ فَقَتَلَهُ، فَنَهَضَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ مُسْرِعًا، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ قَالَ لِلْعَلَامِ: يَا بُعِيَّ، إِنَّكَ لَمْ تَتَعَمَّدَ؛ أَنْتَ حُرٌّ. ثُمَّ شَرَعَ فِي جَهَازِ ابْنِهِ.

وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ يَقُولُ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: مَا يَسْرُنِي أَنَّ لِي بِنَصِيبِي مِنَ الدَّلِّ حُمْرَ النَّعَمِ.

وَمَاتَ لِرَجُلٍ وَلَدٌ مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَجَزَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ إِسْرَافِهِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: إِنَّ مِنْ وِرَاءِ ابْنِكَ خِلَالًا ثَلَاثًا: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَشَفَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ: قَارَفَ الزُّهْرِيُّ ذَنْبًا، فَاسْتَوْحَشَ مِنْهُ، وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ، وَتَرَكَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَ لَهُ: يَا زُهْرِيُّ، قُنُوطُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَنْبِكَ. فَقَالَ الزُّهْرِيُّ: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ كَانَ أَصَابَ دَمًا حَطًّا، فَأَمَرَهُ عَلِيُّ بِالتَّوْبَةِ

وَالِاسْتِعْفَارِ، وَأَنْ يَبْعَثَ الدِّيَةَ إِلَى أَهْلِهِ. وَكَانَ الزُّهْرِيُّ يَقُولُ: عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ
أَعْظَمُ النَّاسِ عَلَيَّ مِنْنَةً.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: لَا يَقُولُ رَجُلٌ فِي رَجُلٍ
مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يَعْلَمُ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَقُولَ فِيهِ مِنَ الشَّرِّ مَا لَا يَعْلَمُ، وَمَا
اصْطَحَبَ اثْنَانِ عَلَى مَعْصِيَةٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَفْتَرِقَا عَلَى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ.

وَدَكَرُوا أَنَّهُ زَوْجُ ابْنَةٍ مِنْ مَوْلَى لَهُ، وَأَعْتَقَ أُمَّةً فَتَزَوَّجَهَا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ
يُلُومُهُ فِي ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ} وَقَدْ أَعْتَقَ
صَفِيَّةَ فَتَزَوَّجَهَا، وَزَوْجَ مَوْلَاهُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مِنْ ابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ.

وَكَانَ يَلْبَسُ فِي الشِّتَاءِ حَمِيصَةً مِنْ حَزْرٍ بِخَمْسِينَ دِينَارًا، فَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ
تَصَدَّقَ بِهَا، وَيَلْبَسُ فِي الصَّيْفِ الثِّيَابَ الْمُرْقَعَةَ وَدُوْنَهَا، وَيَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى:
{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}.

وَقَدْ حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي خِلَافَةِ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ الْوَلِيدِ فَطَافَ بِالْبَيْتِ،
فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَلِمَ الْحَجَرَ لَمْ يَتِمَّكَزْ حَتَّى نُصِبَ لَهُ مِنْبَرٌ، فَاسْتَلَمَ وَجَلَسَ
عَلَيْهِ، وَقَامَ أَهْلُ الشَّامِ حَوْلَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ،
فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْحَجْرِ لِيَسْتَلِمَهُ تَنَحَّى عَنْهُ النَّاسُ إِجْلَالًا لَهُ وَهَيْبَةً وَاحْتِرَامًا، وَهُوَ
فِي بِرَّةٍ حَسَنَةٍ، وَشَكْلِ مَلِيحٍ، فَقَالَ أَهْلُ الشَّامِ لَهُشَامٍ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لَا

أَعْرِفُهُ. لِئَلَّا يَرِغَبَ فِيهِ أَهْلُ الشَّامِ. فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ وَكَانَ حَاضِرًا: أَنَا أَعْرِفُهُ.
فَقَالُوا: وَمَنْ هُوَ؟ فَأَنْشَأَ الْفَرَزْدَقُ يَقُولُ:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفُهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ التَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكِرْمُ
يُنْمَى إِلَى ذُرُوقِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الْإِسْلَامِ وَالْعَجَمُ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانٌ رَاحَتِهِ رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
بِكَفِّهِ حَيْرَانٌ رِيحُهَا عَبِقُ مِنْ كَفِّ أَرْوَعٍ فِي عَرِينِهِ شَمَمُ
مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ طَابَتْ عَنَاصِرُهَا وَالْحَنِيمُ وَالشَّيْمُ
يَنْجَابُ نُورُ الْهُدَى مِنْ نُورِ عَرَّتِهِ كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الْقَتَمُ
حَمَلُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا فُدِحُوا حُلُوُ الشَّمَائِلِ تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ بِجِدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ حُتِمُوا
اللَّهُ فَضَّلَهُ قَدَمًا وَشَرَّفَهُ جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ هَا الْأُمَمُ
عَمَّ الْبَرِّيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَاَنْفَشَعَتْ عَنْهَا الْغِيَابَةُ وَالْإِمْلَاقُ وَالظُّلْمُ
كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا يَسْتَوْكِفَانِ وَلَا يَعْرُوهُمَا الْعَدَمُ

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ
لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُهُ
مِنْ مَعْشَرِ حُبُّهُمْ دِينَ وَبُغْضُهُمْ
يُسْتَدْفَعُ السُّوءُ وَالْبَلْوَى بِحُبِّهِمْ
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمْ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كَانُوا أَيْمَتَهُمْ
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ بَعْدَ غَايَتِهِمْ
هُمُ الْعُيُوثُ إِذَا مَا أَزَمَتْ أَزَمَتْ
يَأْتِي لَهُمْ أَنْ يَحِلَّ الدَّمُ سَاحَتَهُمْ
لَا يَنْقُصُ الْعُسْرُ بَسْطًا مِنْ أَكْفِهِمْ
أَيُّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ
فَلَيْسَ قَوْلُكَ "مَنْ هَذَا؟" بِضَائِرِهِ
مَنْ يَعْرِفِ اللَّهَ يَعْرِفِ أَوْلِيَّةَ دَا

فَعَضِبَ هِشَامٌ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِحَبْسِ الْفَرَزْدَقِ بِعُسْفَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ،
فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بَعَثَ إِلَى الْفَرَزْدَقِ بِأَثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ،
وَأَرْسَلَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ أَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ الْيَوْمَ غَيْرُهَا، فَرَدَّهَا الْفَرَزْدَقُ، وَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ
مَا قُلْتُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنُصْرَةً لِلْحَقِّ، وَقِيَامًا بِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فِي دُرَيْبِهِ، وَلَسْتُ أَعْتَاضُ عَنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ
يَقُولُ: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ نَيْبِكَ فِي ذَلِكَ، وَأَقْسَمْتُ لَتَقْبَلَنَّهَا. فَقَبِلَهَا مِنْهُ ثُمَّ
جَعَلَ يَهْجُو هِشَامًا، فَكَانَ مِمَّا قَالَ فِيهِ:

يُحْسِنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالَّتِي إِلَيْهَا قُلُوبُ النَّاسِ يَهْوِي مُنِيبُهَا
يُقَلِّبُ رَأْسًا لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ وَعَيْنَيْنِ حَوْلًا وَبَيْنَ بَادِ عَيْبُهَا
وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّتْ بِهِ الْجِنَازَةُ يَقُولُ:
نُرَاعُ إِذَا الْجَنَائِزُ قَابَلَتْنَا وَنَلْهُو حِينَ تَمْضِي ذَاهِبَاتِ
كَرُوعَةٍ ثَلَاثَةٍ لِمَعَارِ سَبْعٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتِ

موت الحجاج الثقفي

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ حُمُسٍ وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا غَزَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بِلَادَ الرُّومِ، وَافْتَتَحَ
خُصُونًا كَثِيرَةً.

وَفِيهَا افْتَتَحَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَدِينَةَ الْبَابِ مِنْ إِرْمِينِيَّةَ، وَحَرَّبَهَا، ثُمَّ بَنَاهَا
مَسْلَمَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتِسْعِ سِنِينَ.

وَفِيهَا افْتَتَحَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الثَّقَفِيُّ مَدِينَةَ الْمُؤَلَّتَانِ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ، وَأَخَذَ
مِنْهَا أَمْوَالًا جَزِيلَةً.

وَفِيهَا قَدِمَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ، وَمَعَهُ الْأَمْوَالُ عَلَى الْعَجَلِ تُحْمَلُ مِنْ كَنْزِهَا، وَمَعَهُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ السَّبِي.

وَفِيهَا غَزَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بِلَادَ الشَّاشِ فَفَتَحَ مُدُنًا وَأَقَالِيمَ كَثِيرَةً، فَلَمَّا كَانَ هُنَاكَ جَاءَهُ الْخَبْرُ بِمَوْتِ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوْسُفَ، فَقَمَعَهُ ذَلِكَ، وَرَجَعَ بِالنَّاسِ إِلَى مَدِينَةِ مَرْو.

وَفِيهَا كَتَبَ الْوَلِيدُ إِلَى قُتَيْبَةَ بِأَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ، وَيَعِدُّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَجْزِيهِ خَيْرًا، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا صَنَعَ مِنَ الْجِهَادِ، وَفَتْحِ الْبِلَادِ، وَقِتَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ.

وَقَدْ كَانَ الْحَجَّاجُ اسْتَخْلَفَ عَلَى الصَّلَاةِ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ، فَوَلَّى الْوَلِيدَ الصَّلَاةَ وَالْحَرْبَ بِالْمَصْرَيْنِ الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ يَزِيدَ بْنَ أَبِي كَبْشَةَ، وَوَلَّى خَرَاجَهُمَا يَزِيدَ بْنَ مُسْلِمٍ، وَقِيلَ: إِنَّ الْحَجَّاجَ كَانَ يَسْتَخْلِفُهُمَا عَلَى ذَلِكَ، فَأَقْرَهُمَا الْوَلِيدُ. وَاسْتَمَرَ سَائِرُ نَوَابِ الْحَجَّاجِ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَكَانَتْ وَفَاةُ الْحَجَّاجِ لِحُمْسٍ، وَقِيلَ: لِثَلَاثِ بَقِيَرٍ مِنْ رَمَضَانَ. وَقِيلَ: مَاتَ فِي شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا بِشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَفِيهَا قُتِلَ الْوَضَّاحِيُّ^١ بِأَرْضِ الرُّومِ، وَمَعَهُ أَلْفٌ مِنْ أَصْحَابِهِ.

^١ عبدالله البطال.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَ مَوْلِدُ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ.

تَرْجَمَةُ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ

وَهَذِهِ تَرْجَمَةُ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ وَذِكْرُ وَفَاتِهِ: هُوَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي عَقِيلِ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ عَامِرِ بْنِ مُعْتَبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ سَعْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفِ، وَهُوَ قَسِيٌّ بْنُ مُنَبِّهِ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ أَبُو مُحَمَّدٍ الثَّقَفِيِّ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَرَوَى عَنْ أَنَسٍ، وَسَمْرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، وَعَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَأَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى. وَرَوَى عَنْهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَثَابِتُ الْبُنَائِي، وَحُمَيْدُ الطَّوِيلِ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، وَجَرَادُ بْنُ مُجَالِدٍ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ.

وَكَانَتْ لَهُ بِدِمَشْقَ أَدْوَارٌ^١، مِنْهَا دَارُ الرَّأْيَةِ بِقُرْبِ قَصْرِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ، وَوَلَّاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ الْحِجَازَ، فَقَتَلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ عَزَلَهُ عَنْهَا وَوَلَّاهُ الْعِرَاقَ، وَقَدِمَ دِمَشْقَ وَافِدًا عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ.

قَالَ سَالِمُ بْنُ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: حَاطَبْنَا الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ، فَذَكَرَ الْقَبْرَ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: إِنَّهُ بَيْتُ الْوَحْدَةِ، وَبَيْتُ الْعُرْبَةِ. حَتَّى بَكَى وَبَكَى مِنْ حَوْلِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ

^١ جمع دار.

مَرَوَانَ يَقُولُ فِي حُطْبَتِهِ: حَطَبْنَا عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَقَالَ فِي حُطْبَتِهِ: «مَا نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَبْرِ أَوْ ذَكَرَهُ إِلَّا بَكَى».

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْحَجَّاجِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا يَحْيَى، أَلَا أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ حَسَنٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ فَلْيَدْعُ بِهَا فِي ذُبُرِ صَلَاةٍ مَقْرُوضَةٍ".

وَأَسْمُ أُمِّهِ الْفَارَعَةُ بِنْتُ هَمَّامِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ، وَكَانَ زَوْجَهَا الْحَارِثُ بْنُ كَلْدَةَ الثَّقَفِيِّ طَيْبُ الْعَرَبِ.

وَبَنَى وَاسِطَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ، وَفَرَعَ مِنْهَا فِي سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ. وَفِي أَيَّامِهِ نَقَطَتِ الْمَصَاحِفُ.

وَكَانَتْ فِيهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي سَيْفِهِ رَهَقٌ، وَكَانَ كَثِيرَ قَتْلِ النَّفُوسِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ بِأَدْنَى شُبْهَةٍ، وَكَانَ يَعْضِبُ عَضَبَ الْمُلُوكِ، وَكَانَ فِيمَا يَزْعُمُ يَتَشَبَّهُ بِزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ، وَكَانَ زِيَادٌ يَتَشَبَّهُ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فِيمَا يَزْعُمُ أَيْضًا. وَلَا سَوَاءٌ وَلَا قَرِيبٌ.

وَكَانَ مَوْلِدُ الْحَجَّاجِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ. ثُمَّ نَشَأَ شَابًّا لَبِيًّا فَصِيحًا بَلِيغًا حَافِظًا لِلْقُرْآنِ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانَ الْحَجَّاجُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ.

وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ: مَا رَأَيْتُ أَفْصَحَ مِنْهُ وَمِنَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وَكَانَ الْحَسَنُ أَفْصَحَ مِنْهُ.

قَالَ عُتْبَةُ بْنُ عَمْرٍو: مَا رَأَيْتُ عُقُولَ النَّاسِ إِلَّا قَرِيبًا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، إِلَّا الْحَجَّاجَ وَإِيَّاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ، فَإِنَّ عُقُولَهُمَا كَانَتْ تَرْجُحُ عَلَى عُقُولِ النَّاسِ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا قَتَلَ مُصْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ بَعَثَ الْحَجَّاجَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بِمَكَّةَ فَحَاصِرَهُ بِهَا، وَأَقَامَ لِلنَّاسِ الْحَجَّ عَامِيذٍ، وَلَمْ يَتِمَّكَنِ الْحَجَّاجُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الطَّوَّافِ بِالْبَيْتِ، وَلَا تَمَكَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْوُفُوفِ بِعَرَفَةَ، وَلَمْ يَزَلْ مُحَاصِرَهُ حَتَّى ظَفَرَ بِهِ فِي جُمَادَى سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، ثُمَّ اسْتَنَابَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ عَلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ وَالْيَمَنَ، ثُمَّ وُلَّاهُ عَبْدَ الْمَلِكِ الْعِرَاقَ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ بِشَرٍّ، فَدَخَلَ الْكُوفَةَ كَمَا ذَكَرْنَا، وَقَالَ لَهُمْ وَفَعَلَ بِهِمْ مَا تَقَدَّمَ إِيرَادُهُ مُفَصَّلًا، فَأَقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ عِشْرِينَ سَنَةً كَامِلَةً.

وَفَتَحَ فِيهَا فُتُوحَاتٍ كَثِيرَةً هَائِلَةً مُنْتَشِرَةً، حَتَّى وَصَلَتْ حُدُودَهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ وَالسِّنْدِ، فَفَتَحَ فِيهَا جُمْلَةَ مُدُنٍ وَأَقَالِيمٍ، وَوَصَلَتْ حُدُودُهُ أَيْضًا إِلَى قَرِيبٍ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ، وَجَرَتْ لَهُ فُصُولٌ قَدْ ذَكَرْنَاهَا. وَنَحْنُ نُورِدُ هُنَا أَشْيَاءَ أُخَرَ بِمَا وَقَعَ لَهُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْجَرَائِةِ وَالْإِقْدَامِ، وَالتَّهَوُّرِ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ، مِمَّا يُمْدَحُ عَلَى مِثْلِهِ، وَمِمَّا يُذَمُّ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، مِمَّا سَأَفَهُ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ وَغَيْرُهُ:

صَلَّى الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ مَرَّةً بِجَنْبِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلِيَّ
 شَيْئًا، فَجَعَلَ يَرْفَعُ قَبْلَ الْإِمَامِ وَيَقَعُ قَبْلَهُ فِي السُّجُودِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخَذَ سَعِيدٌ
 بِطَرْفِ رِدَائِهِ وَكَانَ لَهُ ذِكْرٌ يَقُولُهُ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَمَا زَالَ الْحَجَّاجُ يُنَارِعُهُ رِدَاءَهُ
 حَتَّى قَضَى سَعِيدٌ ذِكْرَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ سَعِيدٌ فَقَالَ لَهُ: يَا سَارِقُ يَا خَائِنُ،
 تُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَاةَ! لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَ بِهَذَا النُّعْلِ وَجْهَكَ. فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ،
 ثُمَّ مَضَى الْحَجَّاجُ إِلَى الْحَجِّ، ثُمَّ رَجَعَ فَعَادَ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ جَاءَ نَائِبًا عَلَى
 الْحِجَازِ، فَلَمَّا قَتَلَ ابْنَ الرُّبَيْرِ كَرَّرَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ نَائِبًا عَلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَ
 الْمَسْجِدَ إِذَا بِمَجْلِسِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ فَقَصَدَهُ الْحَجَّاجُ فَخَشِيَ النَّاسُ عَلَى
 سَعِيدٍ مِنْهُ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ صَاحِبُ الْكَلِمَاتِ؟
 فَضْرَبَ سَعِيدٌ صَدْرَهُ بِيَدِهِ وَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ مُعَلِّمٍ وَمُؤَدِّبٍ
 خَيْرًا، مَا صَلَّيْتُ بَعْدَكَ صَلَاةً إِلَّا وَأَنَا أَدُكِّرُ قَوْلَكَ. ثُمَّ قَامَ وَمَضَى.

وَلَمَّا قَتَلَ الْحَجَّاجُ ابْنَ الرُّبَيْرِ ارْتَجَّتْ مَكَّةُ بِالْبُكَاءِ، فَأَمَرَ بِالنَّاسِ فَجُمِعُوا فِي
 الْمَسْجِدِ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالشَّانِ عَلَيْهِ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ،
 بَلَّغْنِي إِكْبَارِكُمْ قَتَلَ ابْنَ الرُّبَيْرِ، أَلَا وَإِنَّ ابْنَ الرُّبَيْرِ كَانَ مِنْ خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ،
 حَتَّى رَغِبَ فِي الْخِلَافَةِ وَنَارَعَ فِيهَا أَهْلَهَا، فَنَزَعَ طَاعَةَ اللَّهِ وَاسْتَكَنَّ بِحَرَمِ اللَّهِ،
 وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ مَانِعَ الْعِصَاةَ لَمَنَعَتْ آدَمَ حُرْمَةُ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ
 فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ، وَأَبَاحَ لَهُ كَرَامَتَهُ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، فَلَمَّا

أَخْطَأَ أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ بِخَطِيئَتِهِ، وَأَدَمُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ابْنِ الرَّبِيرِ، وَالْجَنَّةُ أَعْظَمُ حُرْمَةً.

دَخَلَ الْحَجَّاجُ عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَمَا قَتَلَ ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَكَ أَلْحَدَ فِي هَذَا الْبَيْتِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَذَاقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، وَفَعَلَ بِهِ وَفَعَلَ. فَقَالَتْ: كَذَبْتَ، كَانَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ، صَوَامًا قَوَامًا، وَاللَّهِ لَقَدْ أَحْبَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يُخْرِجُ مِنْ تَقِيفٍ كَذَابَانِ: الْآخِرُ مِنْهُمَا شَرٌّ مِنَ الْأَوَّلِ، وَهُوَ مُبِيرٌ.

وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَمَى عَنِ الْمُثَلَّةِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يُخْرِجُ مِنْ تَقِيفٍ رَجُلَانِ كَذَابٌ وَمُبِيرٌ». قَالَتْ: فَقُلْتُ لِلْحَجَّاجِ: أَمَّا الْكَذَابُ فَقَدْ رَأَيْنَاهُ، وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَأَنْتَ هُوَ يَا حَجَّاجُ.

وَأَطَالَ الْحَجَّاجُ الْخُطْبَةَ، فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، مِرَارًا، ثُمَّ قَامَ فَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَقَامَ النَّاسُ، فَصَلَّى الْحَجَّاجُ بِالنَّاسِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لِابْنِ عُمَرَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا نَجِيءُ لِلصَّلَاةِ، فَصَلِّ الصَّلَاةَ لَوْقَتِهَا، ثُمَّ بَقِيقٌ مَا شِئْتَ بَعْدُ مِنْ بَقِيقَةٍ^١.

^١ قال ابن كثير: وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْهُ، أَنَّهُ كَانَ يَتَدَيَّنُ بِتَرْكِ الْمُسْكِرِ، وَكَانَ يُكْتَرُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، وَيَتَجَنَّبُ الْمَحَارِمَ، وَمَنْ يَشْتَهَرُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ التَّلَطُّحِ بِالْفُرُوجِ، وَإِنْ كَانَ مُتَسَرِّعًا فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ. فَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَسَائِرِهَا، وَخَفِيَّاتِ الصُّدُورِ وَصَمَائِرِهَا.

وَعَنِ الرَّبِيزِ بْنِ عَبْدِ قَالَ: «شَكُونَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مَا نَلَقَى مِنَ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ عَامٌ أَوْ يَوْمٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقُوا رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُصَلُّونَ فِيهِ عَلَى الْحَجَّاجِ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: وَاللَّهِ لَئِنْ بَقِيتُمْ لَتَمَوَّنَّ الْحَجَّاجِ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قِيلَ لِلْحَسَنِ: إِنَّكَ تَقُولُ: الْآخِرُ شَرٌّ مِنَ الْأَوَّلِ. وَهَذَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْدَ الْحَجَّاجِ. فَقَالَ الْحَسَنُ: لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ تَنْفِيسَاتٍ.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: بَعَثَ الْحَجَّاجُ إِلَى الْحَسَنِ وَقَدْ هَمَّ بِهِ، فَلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: يَا حَجَّاجُ، كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ آدَمَ مِنْ أَبِي؟ قَالَ: كَثِيرٌ. قَالَ: فَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: مَاتُوا. قَالَ: فَكَسَّ الْحَجَّاجُ رَأْسَهُ، وَخَرَجَ الْحَسَنُ.

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: إِنَّ الْحَجَّاجَ أَرَادَ قَتْلَ الْحَسَنِ مِرَارًا، فَعَصَمَهُ اللَّهُ مِنْهُ. وَقَدْ ذَكَرَ لَهُ مَعَهُ مُنَاطِرَاتٍ، عَلَى أَنَّ الْحَسَنَ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَرَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَنْهَى أَصْحَابَ ابْنِ الْأَشْعَثِ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا خَرَجَ مَعَهُمْ مُكْرَهًا، كَمَا قَدَّمْنَا، وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ نِقْمَةٌ، فَلَا تُقَابِلُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِالسَّيْفِ، وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ وَالسَّكِينَةِ وَالتَّضَرُّعِ.

وَعَنِ ابْنِ عَائِشَةَ قَالَ: أُتِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِرَجُلٍ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ؟ فَأَتْنِي خَيْرًا، قَالَ: فَعُمَمَانُ؟ فَأَتْنِي خَيْرًا، حَتَّى قِيلَ

لَهُ: فَمَا تَقُولُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ؟ فَقَالَ: الْآنَ جَاءَتِ الْمَسْأَلَةُ، مَا أَقُولُ فِي رَجُلِ الْحَجَّاجِ حَاطِيَّةً مِنْ حَطَايَاهُ؟

وَأَيُّ الْحَجَّاجِ بِامْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُهَا وَهِيَ لَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَلَا تَرُدُّ عَلَيْهِ كَلَامًا، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ الشُّرَطِ: يُكَلِّمُكَ الْأَمِيرُ وَأَنْتِ مُعْرِضَةٌ عَنْهُ؟ فَقَالَتْ: إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ. فَأَمَرَ بِهَا فُقُتِلَتْ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ كَيْفِيَّةَ مَقْتَلِ الْحَجَّاجِ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمَا دَارَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُرَاجَعَةِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قِيلَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: خَرَجْتَ عَلَى الْحَجَّاجِ؟ قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا خَرَجْتُ عَلَيْهِ حَتَّى كَفَرُ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ بَعْدَهُ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا اسْمُهُ مَاهَانُ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ قَبْلَهُ خَلْقًا كَثِيرًا، أَكْثَرُهُمْ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ.

وَعَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانٍ، قَالَ: أَحْصَوْا مَا قَتَلَ الْحَجَّاجُ صَبْرًا فَبَلَغَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا.

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: ثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ عَبْدِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ قَحْذَمٍ، قَالَ: أَطْلَقَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي عِدَاةٍ وَاحِدَةٍ أَحَدًا وَثَمَانِينَ أَلْفَ أُسَيْرٍ، وَعُرِضَتْ

السُّجُونُ بَعْدَ الْحَجَّاجِ فَوَجَدُوا فِيهَا ثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا، لَمْ يَجِبْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ قَطْعٌ وَلَا صَلْبٌ.

وَقَدْ كَانَ الْحَجَّاجُ مَعَ هَذَا الْعُنْفِ الشَّدِيدِ لَا يَسْتَخْرِجُ مِنْ خَرَاجِ الْعِرَاقِ كَبِيرَ أَمْرٍ. قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَوْ تَخَابَتِ الْأُمَمُ وَجِئْنَا بِالْحَجَّاجِ لَعَلَبْنَاهُمْ، وَمَا كَانَ يَصْلُحُ لِدُنْيَا وَلَا لِآخِرَةٍ، لَقَدْ وَلِيَ الْعِرَاقَ وَهُوَ أَوْفَرُ مَا يَكُونُ فِي الْعِمَارَةِ، فَأَحَسَّ بِهِ حَتَّى صَبَّرَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ أَلْفٍ، وَلَقَدْ أُدِّيَ إِلَيَّ فِي عَامِي هَذَا ثَمَانُونَ أَلْفَ أَلْفٍ، وَإِنْ بَقِيَتْ إِلَى قَابِلِ رَجَوْتُ أَنْ يُؤَدَّى إِلَيَّ مَا أُدِّيَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: مِائَةُ أَلْفِ أَلْفٍ وَعِشْرَةُ آلَافِ أَلْفٍ.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ: بَلَعْنِي أَنْتَ تَسْتَنُّ بِسَنَنِ الْحَجَّاجِ فَلَا تَسْتَنُّ بِسَنَنِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي الصَّلَاةَ لِعَيْرٍ وَقِفْهَا، وَيَأْخُذُ الزَّكَاةَ مِنْ غَيْرِ حَقِّهَا، وَكَانَ لِمَا سِوَى ذَلِكَ أَضْيَعُ.

مَاتَ الْحَجَّاجُ بِوَأَسِطٍ، وَعُفِّي قَبْرُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الْمَاءُ لِكَيْلَا يُنْبَسَ وَيُحْرَقَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: مَا كَانَ أَعْجَبَ الْحَجَّاجِ، مَا تَرَكَ إِلَّا ثَلَاثِمِائَةَ دِرْهَمٍ.

وَزَعَمُوا أَنَّ الْحَجَّاجَ مَاتَ وَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا ثَلَاثِمِائَةَ دِرْهَمٍ، وَمُضْحَقًا، وَسَيْفًا، وَسَرْجًا، وَرَحْلًا، وَمِائَةَ دِرْعٍ مَوْقُوفَةٍ.

وَقَالَ شَهَابُ بْنُ خِرَاشٍ: حَدَّثَنِي عَمِّي يَزِيدُ بْنُ حَوْشَبٍ قَالَ: بَعَثَ إِلَيَّ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورُ فَقَالَ: حَدَّثَنِي بِوَصِيَّةِ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ. فَقُلْتُ: اغْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: حَدَّثَنِي بِهَا. فَقُلْتُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّهُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ إِلَّا طَاعَةَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَيْهَا يَحْيَا، وَعَلَيْهَا يَمُوتُ، وَعَلَيْهَا يُبْعَثُ، وَأَوْصَى بِتِسْعِمَائَةِ دِرْعٍ حَدِيدٍ: سِتْمَائَةٍ مِنْهَا لِمُنَافِقِي أَهْلِ الْعِرَاقِ يَعْزُونَ بِهَا، وَثَلَاثِمَائَةٍ لِلتُّرِكِ. قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو جَعْفَرٍ رَأْسَهُ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ الطُّوسِيِّ وَكَانَ قَائِمًا عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ: هَذِهِ وَاللَّهِ الشَّيْعَةُ لَا شَيْعَتُكُمْ.

فتح بلاد الصين

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سِتٌّ وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا فَتَحَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَاشِعَرًا مِنْ أَرْضِ الصِّينِ، وَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الصِّينِ رُسُلًا يَتَهَدَّدُهُ وَيَتَوَعَّدُهُ، وَيُثَسِّمُ بِاللَّهِ لَا يَرْجِعُ حَتَّى يَطَأَ بِلَادَهُ، وَيَخْتِمَ مُلُوكَهُمْ وَأَشْرَافَهُمْ، وَيَأْخُذَ الْجَزِيَّةَ مِنْهُمْ، أَوْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَدَخَلَ الرُّسُلُ عَلَى الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ فِيهَا وَهُوَ فِي مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ يُقَالُ إِنَّ عَلَيْهَا تِسْعِينَ بَابًا فِي سُورِهَا الْمُحِيطِ بِهَا يُقَالُ لَهَا حَانَ بِالِقِ، مِنْ أَعْظَمِ الْمُدُنِ، وَأَكْثَرِهَا رِبْعًا، وَمُعَامَلَاتٍ وَأَمْوَالًا، حَتَّى قِيلَ إِنَّ بِلَادَ الْهِنْدِ مَعَ اتِّسَاعِهَا كَالشَّامَةِ فِي مَلِكِ الصِّينِ. وَالصِّينُ لَا يَخْتَاجُونَ إِلَى أَنْ

يُسَافِرُوا فِي مَلِكٍ غَيْرِهِمْ؛ لِكثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ، وَغَيْرُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ؛ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَتَاعِ وَالذَّنْيَا الْمُتَسَعَّةِ، وَسَائِرِ مُلُوكِ تِلْكَ الْبِلَادِ تُؤَدِّي إِلَى مَلِكِ الصِّينِ الْحِرَاجِ؛ لِقَهْرِهِ وَكثْرَةِ جُنْدِهِ وَعُدَدِهِ.

وَكَانَ قَدْ انْتَهَى إِلَى قُتَيْبَةَ خَبْرَ مَوْتِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَنْكَسَرَتْ هِمَّتُهُ لِذَلِكَ، وَقَدْ عَزَمَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيُّ عَلَى عَدَمِ مَبَايَعَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَأَرَادَ الدَّعْوَةَ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِمَا تَحْتِ يَدِهِ مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَلِمَا فَتَحَ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ، فَلَمْ يُمَكِّنْهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قُتِلَ فِي آخِرِ هَذِهِ السَّنَةِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ مَا كُسِرَتْ لَهُ رَايَةٌ. وَكَانَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِغَيْرِهِ.

وَفِيهَا عَزَا مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الصَّائِفَةَ، وَعَزَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ الرُّومَ، فَفَتَحَ طُولَسَ وَالْمَرْزُبَانِينَ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ.

وَفِيهَا تَكَامَلَ بِنَاءُ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ بِدِمَشْقَ عَلَى يَدِ بَانِيهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، جَزَاهُ اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَكَانَ أَصْلُ مَوْضِعِ هَذَا الْجَامِعِ قَدِيمًا مَعْبَدًا بَنَتْهُ الْيُونَانُ الْكَلْدَانِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمُرُونَ دِمَشْقَ، وَهُمْ الَّذِينَ وَضَعُوهَا وَعَمَرُوهَا أَوْلًا؛ فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَاهَا، وَقَدْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ السَّبْعَةَ الْمُتَحَيِّرَةَ: وَهِيَ الْقَمَرُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَعُطَارِدُ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، وَالرُّهْرَةُ فِي السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَالشَّمْسُ فِي الرَّابِعَةِ، وَالْمَرِيحُ فِي الْخَامِسَةِ، وَالْمُشْتَرِي فِي السَّادِسَةِ، وَرُحْلُ فِي السَّابِعَةِ. وَكَانُوا قَدْ صَوَّرُوا عَلَى

كُلِّ بابٍ مِنْ أَبْوابِ دِمَشقَ هَيْكَلًا لِكوكِبٍ مِنْ هَذِهِ الكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ، وَكَانَتْ أَبْوابُ دِمَشقَ سَبْعَةً، وَضَعُوهَا قَصْدًا لِذَلِكَ، فَنَصَبُوا هَيْكَلًا سَبْعَةً لِكُلِّ كوكِبٍ هَيْكَلًا، وَكَانَ لَهُمْ عِنْدَ كُلِّ بابٍ مِنْ أَبْوابِ دِمَشقَ عِيدٌ فِي السَّنَةِ، وَهؤلاءِ هُمُ الَّذِينَ وَضَعُوا الأَرْضَ، وَتَكَلَّمُوا عَلَى حَرَكَاتِ الكَوَاكِبِ وَاتِّصَالَاتِهَا وَمُقَارَنَتِهَا، وَبَنَوْا دِمَشقَ، وَاخْتَارُوا لَهَا هَذِهِ البُقْعَةَ إِلَى جَانِبِ المَاءِ الوَارِدِ مِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ الجَبَلَيْنِ، وَصَرَّفُوهُ أَهَارًا تَجْرِي إِلَى الأَمَاكِنِ المُرْتَفِعَةِ وَالمُنْحَفِضَةِ، وَسَلَكُوا المَاءَ فِي أَفْنَاءِ أُبْنِيَةِ الدُّورِ بِدِمَشقَ، فَكَانَتْ دِمَشقُ فِي أَيَّامِهِمْ مِنْ أَحْسَنِ المُدُنِ، بَلْ هِيَ أَحْسَنُهَا لِمَا فِيهَا مِنَ التَّصَارِيفِ العَجِيبَةِ.

وَبَنَوْا هَذَا المَعْبَدَ وَهُوَ الجَامِعُ اليَوْمَ إِلَى جِهَةِ القُطْبِ، وَكَانُوا يُصَلُّونَ إِلَى القُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَكَانَتْ مَحَارِبُهُ بُحَاةَ الشَّمَالِ، وَكَانَ بابُ مَعْبَدِهِمْ يُفْتَحُ إِلَى جِهَةِ القِبْلَةِ، حَلَفَ المَحْرَابِ اليَوْمَ، كَمَا شَاهَدْنَا ذَلِكَ عَيَانًا، وَرَأَيْنَا مَحَارِبَهُمْ إِلَى جِهَةِ القُطْبِ، وَرَأَيْنَا البَابَ، وَهُوَ بابٌ حَسَنٌ، مَبْنِيٌّ بِحِجَارَةٍ مَنْقُوشَةٍ، وَعَلَيْهِ كِتَابٌ بِحِطِّهِمْ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ بابَانِ صَغِيرَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَكَانَ غَرْبِيٌّ المَعْبَدِ قَصْرٌ مُنِيفٌ، تَحْمِلُهُ هَذِهِ الأَعْمَدَةُ الَّتِي بِبابِ البَرِيدِ، وَشَرْقِيٌّ المَعْبَدِ قَصْرٌ جَيْرُونَ المَلِكِ الَّذِي كَانَ مَلِكُهُمْ، وَكَانَ هُنَاكَ ذَارَانِ عَظِيمَتَانِ مُعَدَّتَانِ لِمَنْ يَتَمَلَّكُ دِمَشقَ قَدِيمًا مِنْهُم.

وَكَانَ مَعَ الْمَعْبَدِ ثَلَاثُ دُورٍ عَظِيمَةٍ لِلْمُلُوكِ، وَيُحِيطُ بِهَذِهِ الدُّورِ وَالْمَعْبَدِ سُورٌ
وَاحِدٌ عَالٍ مُنِيفٌ، بِحِجَارَةٍ كِبَارٍ مَنْحُوتَةٍ؛ وَهِنَّ دَارُ الْمُطْبِقِ، وَدَارُ الْحَيْلِ، وَدَارُ
كَانَتْ تَكُونُ مَكَانَ الْخِضْرَاءِ الَّتِي بَنَاهَا مُعَاوِيَةُ.

وَعَنْ كُتُبِ بَعْضِ الْأَوَائِلِ: إِنَّهُمْ مَكَّثُوا يَأْخُذُونَ الطَّلَعَ لِبِنَاءِ دِمَشْقَ، وَهَذِهِ
الْأَمَاكِنَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَدْ حَفَرُوا أَسَاسَ الْجُدْرَانِ حَتَّى وَافَاهُمُ الْوَقْتُ الَّذِي
طَلَعَ فِيهِ الْكَوْكَبَانِ اللَّذَانِ أَرَادُوا أَنَّ هَذَا الْمَعْبَدَ لَا يَجْرُبُ أَبَدًا وَلَا تَخْلُو مِنْهُ
الْعِبَادَةُ، وَأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ إِذَا بُنِيَتْ لَا تَخْلُو مِنْ أَنَّ تَكُونَ دَارَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَنَةِ.
قُلْتُ: أَمَّا الْمَعْبَدُ فَلَمْ يَخْلُ مِنْ الْعِبَادَةِ. قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: لَا يَخْلُو مِنْهَا حَتَّى
تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَأَمَّا دَارُ الْمَلِكِ الَّتِي هِيَ الْخِضْرَاءُ فَقَدْ جَدَّدَ بِنَاءَهَا مُعَاوِيَةُ، ثُمَّ أُحْرِقَتْ فِي
سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ كَمَا سَنَدُكُرُهُ فَبَادَتْ وَصَارَتْ مَسَاكِنَ ضِعْفَاءِ
النَّاسِ وَأَرَادَهُمْ فِي الْعَالِبِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْيُونَانَ اسْتَمَرُّوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا بِدِمَشْقَ مُدَدًا
طَوِيلَةً، تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ، حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى جُدْرَانَ
هَذَا الْمَعْبَدِ الْأَرْبَعَةَ هُوْدُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ كَانَ هُوْدُ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ
الْحَلِيلِ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ.

وَقَدْ وَرَدَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، دِمَشْقَ وَنَزَلَ شِمَالِيَّهَا عِنْدَ بَرْزَةَ، وَقَاتَلَ هُنَاكَ قَوْمًا مِنْ أَعْدَائِهِ فَظَفَرَ بِهِمْ، وَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ مَقَامُهُ لِمُقَاتَلَتِهِمْ عِنْدَ بَرْزَةَ. فَهَذَا الْمَكَانُ الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ بِهَا مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ يَأْتِرُونَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَإِلَى زَمَانِنَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَتْ دِمَشْقُ إِذْ ذَاكَ عَامِرَةً أَهْلَةً بَيْنَ فِيهَا مِنَ الْيُونَانِ، وَكَانُوا خَلْقًا لَا يُخَصِّمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ؛ وَهُمْ خُصَمَاءُ الْخَلِيلِ، وَقَدْ نَاطَرَهُمُ الْخَلِيلُ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْكَوَاكِبَ وَغَيْرَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَمَا قَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي التَّفْسِيرِ، وَفِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ كِتَابِنَا هَذَا "الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ"، وَاللَّهُ الْحَمْدُ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْيُونَانَ لَمْ يَزَالُوا يَعْمُرُونَ دِمَشْقَ وَيَبْنُونَ فِيهَا وَفِي مُعَامَلَاتِهَا مِنْ أَرْضِ حَوْرَانَ وَالْبِقَاعِ وَبَعْلَبَكَّ وَغَيْرِهَا الْبِنَايَاتِ الْهَائِلَةَ الْغَرِيبَةَ الْعَجِيبَةَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْدَ الْمَسِيحِ بِمُدَّةٍ نَحْوِ مَنْ ثَلَاثِمِائَةٍ سَنَةٍ تَنَصَّرَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينِ بْنِ قُسْطَنْطِينِ، الَّذِي بَنَى الْمَدِينَةَ الْمَشْهُورَةَ فِي بِلَادِ الرُّومِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ، وَهِيَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الْقَوَانِينَ، وَقَدْ كَانَ أَوْلًا هُوَ وَقَوْمُهُ وَغَالِبُ أَهْلِ الْأَرْضِ يُونَانًا، وَوَضَعَتْ لَهُ بَطَارِكَةَ النَّصَارَى دِينًا مُخْتَرَعًا مُرَكَّبًا مِنْ أَصْلِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ مُزْجًا بِشَيْءٍ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَصَلُّوا بِهِ إِلَى

الشَّرْقِ، وَزَادُوا فِي الصِّيَامِ، وَأَحْلَوْا الخَزِيرَ، وَعَلَّمُوا أَوْلَادَهُمُ الأَمَانَةَ الكَبِيرَةَ^١ فِيمَا يَزْعُمُونَ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الحَقِيقَةِ خِيَانَةٌ كَبِيرَةٌ، وَجِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ حَقِيرَةٌ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ فِي الحُجْمِ صَغِيرَةٌ حَقِيرَةٌ نَقِيرَةٌ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى ذَلِكَ فِيمَا سَلَفَ وَبَيَّنَّاهُ. فَبَنَى لَهُمُ هَذَا المَلِكُ، الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ الطَّائِفَةُ المَلَكِيَّةُ مِنَ النَّصَارَى كَنَائِسَ كَثِيرَةً فِي دِمَشقَ وَفِي غَيْرِهَا، حَتَّى يُقَالَ إِنَّهُ بُنِيَ فِي زَمَانِهِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أَلْفَ كَنِيسَةٍ، وَأَوْقَفَ عَلَيْهَا أَوْقَافًا دَارَةً، مِنْ ذَلِكَ كَنِيسَةُ بَيْتِ لَحْمٍ وَقُمَّامَةَ بِالْقُدْسِ، بَنَتْهَا أُمُّهُ هَيْلَانَةُ الفُنْدُقَانِيَّةُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمُ يَعْنِي النَّصَارَى حَوْلُوا بِنَاءَ هَذَا المَعْبَدِ الَّذِي هُوَ بِدِمَشقَ مُعْظَمًا عِنْدَ اليُونَانِ، فَجَعَلُوهُ كَنِيسَةً، وَبَنَوْا لَهُ المَذَابِحَ فِي شَرْقِيَّهِ، وَسَمَّوْهُ كَنِيسَةَ مَرْيَحْنَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كَنِيسَةُ يُوْحَنَّا. وَبَنَوْا بِدِمَشقَ كَنَائِسَ كَثِيرَةً غَيْرَهَا مُسْتَأْنَفَةً.

١ الأمانة الكبيرة وهذا نصها: {نؤمن بالله الواحد الأب ضابط الكل مالك كل شيء مانع ما يرى وما لا يرى وبالرب الواحد يسوع ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وصلب أيام (بيلاطس الملك) ودفن وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات. ونؤمن بروح القدس المحيي المنبثق من أبيه الذي بموقع الأب والابن يسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء وبكنيسة واحدة مقدسة رسولية ومعبودية واحدة لمغفرة الخطايا وترجى قيامة الموتى والحياة والدهر العتيد آمين}.

وَاسْتَمَرَ النَّصَارَى عَلَى دِينِهِمْ هَذَا بِدِمَشْقَ وَعَظِيمًا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مَا ذَكَرْنَا بَعْضَهُ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ، مِنْ هَذَا الْكِتَابِ. وَقَدْ بَعَثَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ فِي زَمَانِهِ وَهُوَ قَيْصَرُ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَاسْمُهُ هِرْقُلُ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ مِنْ مُرَاجَعَتِهِ وَمُخَاطَبَتِهِ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ مَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ بَعَثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرَاءَهُ الثَّلَاثَةَ: زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَاهُ، وَجَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ، إِلَى الْبَلْقَاءِ مِنْ نُحُومِ الشَّامِ فَبَعَثَ الرُّومُ إِلَيْهِمْ جَيْشًا كَثِيرًا، فَقَاتَلُوا هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءَ وَجَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَهُمْ مِنَ الْجَيْشِ فَعَزَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قِتَالِ الرُّومِ وَدُحُولِ الشَّامِ عَامَ تَبُوكَ، ثُمَّ رَجَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَامَ ذَلِكَ لِشِدَّةِ الْحَرِّ وَضَعْفِ الْحَالِ وَضَيْقِهِ عَلَى النَّاسِ. ثُمَّ لَمَّا تُوِّفِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ الصِّدِّيقُ الْجُيُوشَ إِلَى الشَّامِ وَإِلَى الْعِرَاقِ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي كِتَابِنَا هَذَا، وَاللَّهُ الْحَمْدُ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الشَّامَ بِكَمَالِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ مَدِينَةُ دِمَشْقَ بِأَعْمَالِهَا، وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ فَتْحِهَا. فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ أَيْدِي الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَيْهَا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ رَحْمَتَهُ فِيهَا، وَسَاقَ بَرُّهُ إِلَيْهَا، وَكَتَبَ أَمِيرُ الْحَرْبِ إِذْ ذَاكَ، وَهُوَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَقِيلَ: خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ لِأَهْلِ دِمَشْقَ كِتَابَ أَمَانٍ، وَأَقْرَأُوا أَيْدِي النَّصَارَى عَلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ كَنِيسَةً، وَأَخَذُوا مِنْهُمْ نِصْفَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي كَانُوا يُسْتَوُهَا كَنِيسَةَ مَرِيْحَنَّا،

بِحُكْمِ أَنَّ الْبَلَدَ فَتَحَهُ خَالِدٌ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذَتِ النَّصَارَى الْأَمَانَ مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ وَكَانَ عَلَى بَابِ الْجَائِيَةِ الصُّلْحُ، فَاحْتَلَفُوا، ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ جَعَلُوا نِصْفَ الْبَلَدِ صُلْحًا، وَنِصْفَهُ عُنُوتًا، فَأَخَذُوا نِصْفَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ الشَّرْقِيَّةِ، فَجَعَلَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ مَسْجِدًا وَكَانَ قَدْ صَارَتْ إِلَيْهِ إِمْرَةُ الشَّامِ؛ لِعَزْلِ عُمَرَ خَالِدًا وَتَوَلِيَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى فِي هَذَا الْمَسْجِدِ أَبُو عُبَيْدَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ الصَّحَابَةُ بَعْدَهُ فِي الْبُقْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ؛ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: مِحْرَابُ الصَّحَابَةِ. وَلَكِنْ لَمْ يَكُنِ الْجِدَارُ مَفْتُوحًا بِمِحْرَابِ مَحْيِيٍّ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ عِنْدَ هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْوَلِيدَ هُوَ الَّذِي فَتَقَ الْمَحَارِبَ فِي الْجِدَارِ الْقِبْلِيِّ.

وَقَدْ كَرِهَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّلَاةَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَحَارِبِ، وَجَعَلُوهُ مِنَ الْبِدْعِ الْمُحَدَّثَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ وَالنَّصَارَى يَدْخُلُونَ هَذَا الْمَعْبَدَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ بَابُ الْمَعْبَدِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي كَانَ مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ، مَكَانَ الْمِحْرَابِ الْكَبِيرِ الَّذِي فِي الْمَقْصُورَةِ الْيَوْمَ، فَيَنْصَرِفُ النَّصَارَى إِلَى جِهَةِ الْعَرَبِ إِلَى كَنِيسَتِهِمْ، وَيَأْخُذُ الْمُسْلِمُونَ يَمَنَةً إِلَى مَسْجِدِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ النَّصَارَى أَنْ يَجْهَرُوا بِقِرَاءَةِ كِتَابِهِمْ، وَلَا يَضْرِبُوا بِنَافُوسِهِمْ؛ إِجْلَالًا لِلصَّحَابَةِ وَمَهَابَةً وَخَوْفًا.

وَقَدْ بَنَى مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَيَّامِ وَلَايَتِهِ عَلَى الشَّامِ دَارَ الْإِمَارَةِ قِبْلِيًّا الْمَسْجِدَ الَّذِي كَانَ لِلصَّحَابَةِ، وَبَنَى فِيهَا قُبَّةً حَضْرَاءَ، فَعُرِفَتِ الدَّارُ بِكَمَالِهَا بِهَا، فَسَكَنَهَا مُعَاوِيَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قَدَّمْنَا.

ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ شَطْرَيْنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى، مِنْ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ إِلَى سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْهَا، وَقَدْ صَارَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي شَوَّالٍ مِنْهَا، فَعَزَمَ الْوَلِيدُ عَلَى أَخْذِ بَقِيَّةِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ وَإِضَافَتِهَا إِلَى مَا بَأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا، وَجَعَلَ الْجَمِيعَ مَسْجِدًا وَاحِدًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ كَانَ يَتَأَذَى بِسَمَاعِ قِرَاءَةِ النَّصَارَى لِلْإِنْجِيلِ، وَرَفَعَ أَصْوَاتِهِمْ فِي صَلَوَاتِهِمْ، فَأَحَبَّ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُضَيَّفَ ذَلِكَ الْمَكَانَ إِلَى هَذَا، فَيَكْبُرَ بِهِ الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ، فَطَلَبَ النَّصَارَى، وَسَأَلَ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا لَهُ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَيُعَوِّضَهُمْ إِقْطَاعَاتٍ كَثِيرَةً، وَعَرْضَهَا عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَقْرَأَ لَهُمْ أَرْبَعَ كَنَائِسٍ لَمْ تَدْخُلْ فِي الْعَهْدِ؛ وَهِيَ كَنِيسَةُ مَرْيَمَ، وَكَنِيسَةُ الْمُصَلَّبَةِ دَاخِلَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ، وَكَنِيسَةُ تَلِّ الْجُبْنِ، وَكَنِيسَةُ حُمَيْدِ بْنِ دُرَّةَ الَّتِي بِدَرْبِ الصَّقِيلِ، فَأَبَوْا ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِعَهْدِكُمْ. فَأَتَوْا بِعَهْدِهِمُ الَّذِي بَأَيْدِيهِمْ مِنْ زَمَنِ الصَّحَابَةِ، فَفَرِيَ بِحَضْرَةِ الْوَلِيدِ، فَإِذَا كَنِيسَةُ ثُومَا الَّتِي كَانَتْ خَارِجَ بَابِ ثُومَا عِنْدَ النَّهْرِ لَمْ تَدْخُلْ فِي الْعَهْدِ، وَكَانَتْ فِيمَا يُقَالُ أَكْبَرُ مِنْ كَنِيسَةِ مَرْيَحْنَا، فَقَالَ الْوَلِيدُ: أَنَا أَهْدُمُهَا وَأَجْعَلُهَا مَسْجِدًا. فَقَالُوا: بَلَى يَتْرُكُهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا ذَكَرَ مِنَ الْكَنَائِسِ، وَنَحْنُ نَرْضَى بِأَخْذِ بَقِيَّةِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ فَأَقْرَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْكَنَائِسِ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ بَقِيَّةَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ. هَذَا قَوْلٌ.

وَيُقَالُ: إِنَّ الْوَلِيدَ لَمَّا أَهَمَّهُ ذَلِكَ وَعَرَضَ مَا عَرَضَ عَلَى النَّصَارَى فَأَبَوْا مِنْ قَبُولِهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ، فَأَرَشَدَهُ إِلَى أَنْ يَقِيسَ مِنْ بَابِ الشَّرْقِيِّ وَمِنْ بَابِ الْجَائِيَةِ، فَوَجَدَ مُنْتَصِفَ ذَلِكَ عِنْدَ سُوقِ الرَّيْحَانِ تَقْرِيبًا؛ فَإِذَا الْكَنِيسَةُ الْمَنَارِعُ فِيهَا قَدْ دَخَلَتْ فِي الْعَنُوتِ، فَأَخَذَهَا.

وَحُكِيَ عَنِ الْمُغِيرَةَ مَوْلَى الْوَلِيدِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الْوَلِيدِ فَوَجَدْتُهُ مَهْمُومًا، فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَهْمُومًا؟ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَدْ ضَاقَ بِهِمُ الْمَسْجِدُ، فَأَحْضَرْتُ النَّصَارَى وَبَدَلْتُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ فِي بَقِيَّةِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ؛ لِأُضِيفَهَا إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَسَّعَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَأَبَوْا. فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، عِنْدِي مَا يُرِيْلُ هَمَّكَ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قُلْتُ: إِنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا أَحَدُوا دِمَشْقَ دَخَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ بَابِ الشَّرْقِيِّ بِالسَّيْفِ، فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلَ الْبَلَدِ بِذَلِكَ فَرَعُوا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْأَمَانَ فَأَمَنَهُمْ، وَفَتَحُوا لَهُ بَابَ الْجَائِيَةِ، فَدَخَلَ مِنْهُ أَبُو عُبَيْدَةَ بِالصُّلْحِ، فَنَحْنُ نُمَاسِحُهُمْ إِلَى أَيِّ مَوْضِعٍ بَلَغَ السَّيْفُ أَحَدَنَاهُ، وَمَا بِالصُّلْحِ تَرَكْنَاهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَأَرْجُو أَنْ تُدْخَلَ الْكَنِيسَةُ كُلُّهَا فِي الْعَنُوتِ، فَتَدْخُلَ فِي الْمَسْجِدِ. فَقَالَ الْوَلِيدُ: فَرَجَّتْ عَنِّي، فَتَوَلَّ أَنْتَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ. فَتَوَلَّاهُ الْمُغِيرَةُ وَمَسَحَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ إِلَى نَحْوِ بَابِ الْجَائِيَةِ إِلَى سُوقِ الرَّيْحَانِ؛ فَوَجَدَ السَّيْفَ لَمْ يَزَلْ عَمَّالًا حَتَّى جَاوَزَ الْقَنْطَرَةَ الْكَبِيرَةَ بِأَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ وَكَسَّرَ، فَدَخَلَتِ الْكَنِيسَةُ فِي الْمَسْجِدِ. فَأَرْسَلَ الْوَلِيدُ إِلَى النَّصَارَى فَأَخْبَرَهُمْ، وَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْكَنِيسَةَ كُلُّهَا دَخَلَتْ فِي الْعَنُوتِ فَهِيَ لَنَا دُونَكُمْ.

فَقَالُوا: إِنَّكَ أَوْلَى دَفَعْتَ إِلَيْنَا الْأَمْوَالَ وَأَقْطَعْتَنَا الْإِقْطَاعَاتِ فَأَبَيْنَا، فَمِنْ إِحْسَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُصَالِحَنَا فَيُبْقِيَ لَنَا هَذِهِ الْكَنَائِسَ الْأَرْبَعَةَ بِأَيْدِينَا، وَنَحْنُ نَتْرُكُ لَهُ بَقِيَّةَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ. فَصَالِحَهُمْ عَلَى إِبْقَاءِ هَذِهِ الْأَرْبَعِ كَنَائِسَ بِأَيْدِيهِمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ عَوَّضَهُمْ مِنْهَا كَنِيسَةً عِنْدَ حَمَامِ الْقَاسِمِ عِنْدَ بَابِ الْفَرَادِيسِ، فَسَمَّوْهَا مَرْيُحَنَا بِاسْمِ تِلْكَ الْكَنِيسَةِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهُمْ، وَأَخَذُوا شَاهِدَهَا فَوَضَعُوهُ فَوْقَ الَّتِي أَخَذُوهَا بَدَلَهَا. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَمَرَ الْوَلِيدُ بِإِحْضَارِ آلَاتِ الْهَدْمِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْأَمْرَاءُ وَالْكَبْرَاءُ مِنْ رُؤَسَاءِ النَّاسِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ أَسَاقِفَةُ النَّصَارَى وَقَسَاوِسْتُهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا نَحْدُ فِي كُتُبِنَا أَنَّ مَنْ يَهْدِمُ هَذِهِ الْكَنِيسَةَ يُجْنُ. فَقَالَ: أَنَا أَحِبُّ أَنْ أُجَنَّ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَاللَّهِ لَا يَهْدِمُ فِيهَا أَحَدٌ شَيْئًا قَبْلِي، ثُمَّ صَعِدَ الْمَنَارَةَ الشَّرْقِيَّةَ ذَاتِ الْأَضَالِعِ الْمَعْرُوفَةَ بِالسَّاعَاتِ وَكَانَتْ صَوْمَعَةً هَائِلَةً فِيهَا رَاهِبٌ مُعْظَمٌ عِنْدَهُمْ، فَأَمَرَهُ الْوَلِيدُ بِالنُّزُولِ مِنْهَا، فَأَكْبَرَ الرَّاهِبُ ذَلِكَ، فَأَخَذَ الْوَلِيدُ بِقَفَاهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَدْفَعُهُ حَتَّى أَحْدَرَهُ مِنْهَا، ثُمَّ صَعِدَ الْوَلِيدُ عَلَى أَعْلَى مَكَانٍ فِي الْكَنِيسَةِ؛ فَوْقَ الْمَذْبَحِ الْأَكْبَرِ مِنْهَا الَّذِي يُسَمُّونَهُ الشَّاهِدَ؛ وَهُوَ تَمَثُّالٌ فِي أَعْلَى الْكَنِيسَةِ، فَقَالَ لَهُ الرَّهْبَانُ: اخْدِرِ الشَّاهِدَ. فَقَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَا أَضَعُ فَأُسِي فِي رَأْسِ الشَّاهِدِ. ثُمَّ كَبَّرَ وَضَرَبَهُ فَهَدَمَهُ، وَكَانَ عَلَى الْوَلِيدِ قَبَاءٌ لَوْنُهُ أَصْفَرُ سَفْرَجَلِيٍّ، قَدْ عَرَزَ أَدْيَالَهُ فِي الْمِنْطَقَةِ، ثُمَّ أَخَذَ فَأَسَا فِي يَدِهِ فَضْرَبَ بِهَا

فِي أَعْلَى حَجْرٍ فَأَلْقَاهُ، فَتَبَادَرَ الْأَمْرَاءُ إِلَى الْهَدْمِ، وَكَثُرَ الْمُسْلِمُونَ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، وَصَرَخَتِ النَّصَارَى بِالْعَوِيلِ عَلَى دَرَجِ جَيْرُونَ، وَكَانُوا قَدْ اجْتَمَعُوا هُنَالِكَ، فَأَمَرَ الْوَلِيدُ أَمِيرَ الشُّرْطَةِ وَهُوَ أَبُو نَاتِلٍ رِيَاخَ الْعَسَائِيَّ أَنْ يَضْرِبَهُمْ حَتَّى يَذْهَبُوا مِنَ الْمَذَابِحِ وَالْأَبْنِيَةِ وَالْحَنَايَا، حَتَّى بَقِيَ صِرْحَةً مُرْبَعَةً، ثُمَّ شَرَعَ فِي بِنَائِهِ بِفِكْرَةٍ جَيِّدَةٍ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْحَسَنَةِ الْأَنْبِيَعَةِ، الَّتِي لَمْ يَشْتَهَرْ مِثْلَهَا قَبْلَهَا، عَلَى مَا سَنَدُّكُرُهُ وَنُشِيرُ إِلَيْهِ.

وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْوَلِيدُ فِي بِنَاءِ هَذَا الْمَسْجِدِ حَلْفًا كَثِيرًا مِنَ الصُّنَّاعِ وَالْمُهَنْدِسِينَ وَالْفَعْلَةَ، وَكَانَ الْمُسْتَحْتُ عَلَى عِمَارَتِهِ أَحُوهُ وَوَلِيُّ عَهْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَيُقَالُ: إِنَّ الْوَلِيدَ بَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ يَطْلُبُ مِنْهُ صُنَاعًا فِي الرُّحَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِيَسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى عِمَارَةِ هَذَا الْمَسْجِدِ عَلَى مَا يُرِيدُ، وَأَرْسَلَ يَتَوَعَّدُهُ؛ لَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ لِيَعْزُونَ بِلَادَهُ بِالْجَيْوشِ، وَلِيَحْرَبْنَ كُلَّ كَنِيسَةٍ فِي بِلَادِهِ، حَتَّى كَنِيسَةَ الْقُدْسِ، وَكَنِيسَةَ الرُّهَا، وَسَائِرِ آثَارِ الرُّومِ، فَبَعَثَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَيْهِ صُنَاعًا كَثِيرَةً: مَائَتِي صَانِعٍ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَقُولُ: إِنْ كَانَ أَبُوكَ فَهَمَ هَذَا الَّذِي تَصْنَعُهُ وَتَرَكَهُ، فَإِنَّهُ لَوْصَمَةٌ عَلَيْكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَهَمُهُ وَفَهْمَتُهُ أَنْتَ، فَإِنَّهُ لَوْصَمَةٌ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ الْكِتَابُ إِلَى الْوَلِيدِ أَرَادَ أَنْ يُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عِنْدَهُ لِذَلِكَ، وَكَانَ فِيهِمْ الْفَرَزْدَقُ الشَّاعِرُ، فَقَالَ: أَنَا أَجِيبُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ الْوَلِيدُ: وَمَا هُوَ وَيُحْك؟ فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

{ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا }، وَسُلَيْمَانُ هُوَ ابْنُ دَاوُدَ، فَفَهَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ أَبُوهُ. فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْوَلِيدَ، فَأَرْسَلَ بِهِ جَوَابًا إِلَى مَلِكِ الرُّومِ. وَقَدْ قَالَ الْفَرَزْدَقُ فِي ذَلِكَ:

فَرَقَّتْ بَيْنَ النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهِمْ وَالْعَابِدِينَ مَعَ الْأَسْحَارِ وَالْعَنَمِ
وَهُمْ جَمِيعًا إِذَا صَلَّوْا وَأَوْجَهَهُمْ شَيْءٌ إِذَا سَجَدُوا لِلَّهِ وَالصَّنَمِ
وَكَيفَ يَجْتَمِعُ النَّافِسُ يَضْرِبُهُ أَهْلُ الصَّلِيبِ مَعَ الْفُرَّاءِ لَمْ تَنَمِ
فُهَمَّتْ تَحْوِيلَهَا عَنْهُمْ كَمَا فَهَمَا إِذْ يَحْكُمَانِ لَهُمْ فِي الْحَرْثِ وَالْعَنَمِ
دَاوُدُ وَالْمَلِكُ الْمَهْدِيُّ إِذْ جَزَا أَوْلَادَهَا وَاجْتَزَا الصُّوفِ بِالْجَلَمِ
فَهَمَّكَ اللَّهُ تَحْوِيلًا لِيَبْعِيَهُمْ عَن مَسْجِدٍ فِيهِ يُتْلَى طَيْبُ الْكَلِمِ
مَا مِنْ أَبٍ حَمَلَتْهُ الْأَرْضُ نَعْلَمُهُ حَيْرٌ بَيْنَ وَلَا حَيْرٌ مِنَ الْحَكَمِ

قَالَ الْحَافِظُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ دُحَيْمِ الدِّمَشْقِيِّ: بَنَى الْوَلِيدُ مَا كَانَ دَاخِلَ حَيْطَانِ الْمَسْجِدِ، وَزَادَ فِي سَمَكِ الْحَيْطَانِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى الْحُشَيْبِيُّ: إِنَّ هُوْدًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُوَ الَّذِي بَنَى الْحَائِطَ الْقِبْلِيَّ مِنْ مَسْجِدِ دِمَشَقَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: لَمَّا أَرَادَ الْوَلِيدُ بِنَاءَ الْقُبَّةِ الَّتِي وَسَطَ الرِّوَاqَاتِ وَهِيَ قُبَّةُ النَّسْرِ، وَهُوَ اسْمُ حَادِثُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا شَبَّهُوهَا بِالنَّسْرِ فِي شَكْلِهِ؛ لِأَنَّ الرِّوَاqَاتِ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا كَأَلَا جَنِيحَةِ لَهَا حَفَرُوا لِأَرْكَانِهَا، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْمَاءِ وَشَرَبُوا مِنْهُ

مَاءً عَذْبًا زُلَالًا، ثُمَّ إِتَمَّ وَضَعُوا فِيهِ جِرَارَ الْكُرْمِ، وَبَنَوْا فَوْقَهَا بِالْحِجَارَةِ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْأَرْكَانُ بَنَوْا عَلَيْهَا الْقُبَّةَ فَسَقَطَتْ، فَقَالَ الْوَلِيدُ لِبَعْضِ الْمُهَنْدِسِينَ: أُرِيدُ أَنْ تَبْنِيَ لِي أَنْتَ هَذِهِ الْقُبَّةَ. فَقَالَ: عَلَى أَنْ تُعْطِيَنِي عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ إِلَّا يَبْنِيهَا أَحَدٌ غَيْرِي. فَفَعَلَ، فَبَنَى الْأَرْكَانَ ثُمَّ غَلَّفَهَا بِالْبُورِي، وَغَابَ عَنْهَا سَنَةً كَامِلَةً لَا يَدْرِي الْوَلِيدُ أَيْنَ ذَهَبَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ السَّنَةِ حَضَرَ، فَهَمَّ بِهِ الْوَلِيدُ، فَأَحَذَهُ وَمَعَهُ رُءُوسُ النَّاسِ، فَكَشَفَ الْبُورِيَّ عَنِ الْأَرْكَانِ؛ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَبَطَتْ بَعْدَ ارْتِفَاعِهَا حَتَّى سَاوَتْ الْأَرْضَ، فَقَالَ لَهُ: مِنْ هَذَا أُتَيْتَ. ثُمَّ بَنَاهَا فَاثَقَّتْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ الْوَلِيدُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْضَةَ الْقُبَّةِ مِنْ ذَهَبٍ خَالِصٍ؛ لِيُعْظِمَ بِذَلِكَ شَأْنَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ لَهُ الْمِعْمَارُ: إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟ فَضَرَبَهُ حَمْسِينَ سَوْطًا وَقَالَ لَهُ: وَبِئْسَ مَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَتَزْعُمُ أَنِّي أَعْجَزُ عَنْهُ، وَخَرَّاجُ الْأَرْضِ وَأَمْوَالُهَا تُجْبَى إِلَيَّ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنَا أُبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ. قَالَ: فَبَيَّنْ ذَلِكَ. قَالَ: اضْرِبْ لَبَنَةً وَاحِدَةً مِنَ الذَّهَبِ وَقِسْ عَلَيْهَا مَا تُرِيدُ هَذِهِ الْقُبَّةَ مِنْ ذَلِكَ. فَأَمَرَ الْوَلِيدُ، فَأَحْضَرَ مِنَ الذَّهَبِ مَا سُبِكَ بِهِ لَبَنَةٌ؛ فَإِذَا هِيَ قَدْ دَخَلَهَا أُلُوفٌ مِنَ الذَّهَبِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّا نُرِيدُ مِنْ هَذِهِ كَذَا وَكَذَا أَلْفِ لَبَنَةٍ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَا يَكْفِي مِنْ ذَلِكَ عَمَلْنَاهُ. فَلَمَّا تَحَقَّقَ الْوَلِيدُ صِحَّةَ قَوْلِهِ أَطْلَقَ لَهُ حَمْسِينَ دِينَارًا، ثُمَّ عَقَدَهَا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ الْمِعْمَارُ.

وَلَمَّا سَقَفَ الْوَلِيدُ الْجَامِعَ جَعَلُوا سَقْفَهُ جَمْلُونَاتٍ، وَبَاطِنَهَا مُسَطَّحًا مُقَرَّنَصًا بِالذَّهَبِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ: أَتَعَبْتَ النَّاسَ بَعْدَكَ فِي تَطْيِينِ أَسْطِحَةِ هَذَا الْمَسْجِدِ فِي كُلِّ عَامٍ. فَأَمَرَ الْوَلِيدُ أَنْ يُجْمَعَ مَا فِي بِلَادِهِ مِنَ الرِّصَاصِ؛ لِيَجْعَلَهُ عِوَضَ الطِّينِ، وَيَكُونَ أَحْفَ عَلَى السُّفُوفِ، فَجَمَعَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ الشَّامِ وَعَبْرِهِ مِنَ الْأَقَالِيمِ، فَعَاذُوا، فَإِذَا عِنْدَ امْرَأَةٍ مِنْهُ فَنَاطِيزٌ مُقَنْطَرَةٌ، فَسَاوَمُوهَا فِيهِ، فَأَبَتْ أَنْ تَبِيعَهُ إِلَّا بِوِزْنِهِ فِضَّةً، فَكَتَبُوا إِلَى الْوَلِيدِ فَقَالَ: اشْتَرُوهُ مِنْهَا، وَلَوْ بِوِزْنِهِ فِضَّةً. فَلَمَّا بَدَلُوا لَهَا ذَلِكَ قَالَتْ: أَمَا إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ لِلَّهِ يَكُونُ فِي سَقْفِ هَذَا الْمَسْجِدِ. فَكَتَبُوا عَلَى الْأَوْحِهَا بِطَابَعِ: "لِلَّهِ". وَيُقَالُ: إِهْمَا كَانَتْ إِسْرَائِيلِيَّةً، وَإِنَّهُ كُتِبَ عَلَى الْأَوْحِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْهَا: هَذَا مَا أَعْطَتْهُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَائِدٍ: سَمِعْتُ الْمَشَائِخَ يَقُولُونَ: مَا تَمَّ بِنَاءُ مَسْجِدِ دِمَشْقَ إِلَّا بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، لَقَدْ كَانَ يُفْضَلُ عِنْدَ الرَّجُلِ مِنَ الْقَوْمَةِ - يَعْنُونَ الْفَعْلَةَ الْفَأْسَ وَرَأْسَ الْمِسْمَارِ، فَيَجِيءُ حَتَّى يَضَعَهُ فِي الْحِزَانَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ مَشَائِخِ الدَّمَشَقِيَّةِ: لَيْسَ فِي الْجَامِعِ مِنَ الرُّحَامِ شَيْءٌ إِلَّا الرُّحَامَتَانِ اللَّتَانِ فِي الْمَقَامِ مِنْ عَرْشِ بَلْقَيْسَ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ مَرْمَرٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اشْتَرَى الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْعُمَوْدَيْنِ الْأَخْضَرَيْنِ اللَّذَيْنِ تَحْتَ النَّسْرِ، مِنْ حَرَبِ بْنِ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بِأَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ.
وَقَالَ مَرْوَانُ بْنُ جِنَاحٍ، عَنْ أَبِيهِ: كَانَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَرَحِمٍ.
وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ الْأَنْصَارِيُّ: إِهْمَّ حَسَبُوا مَا أَنْفَقَهُ الْوَلِيدُ عَلَى الْكَرْمَةِ الَّتِي فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ؛ فَإِذَا هُوَ سَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ.

وَقَالَ أَبُو قُصَيِّ: أَنْفَقَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ أَرْبَعِمِائَةَ صُنْدُوقٍ، فِي كُلِّ صُنْدُوقٍ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ. وَفِي رِوَايَةٍ: فِي كُلِّ صُنْدُوقٍ ثَمَانِيَةً وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ.
قُلْتُ: فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ ذَلِكَ خَمْسَةَ آلَافِ دِينَارٍ، وَسِتِّمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ الْمَصْرُوفُ فِي عِمَارَةِ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَمِائَتَيْ أَلْفِ دِينَارٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ أَبُو قُصَيِّ: وَأَتَى الْحَرْسِيُّ إِلَى الْوَلِيدِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَنْفَقَ الْوَلِيدُ أَمْوَالَ بَيْتِ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهَا. فَتُودِي فِي النَّاسِ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَصَعِدَ الْوَلِيدُ الْمِنْبَرَ، وَقَالَ: إِنَّهُ بَلَّغَنِي عَنْكُمْ أَنْكُمْ قُلْتُمْ: أَنْفَقَ الْوَلِيدُ بُيُوتَ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهَا. ثُمَّ قَالَ: يَا عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ، ثُمَّ فَأَخْضَرَ أَمْوَالَ بَيْتِ الْمَالِ. فَحُمِلَتْ عَلَى الْبِعَالِ إِلَى الْجَامِعِ، وَبُسِطَتْ لَهَا الْأَنْطَاعُ تَحْتَ الْقُبَّةِ، ثُمَّ أُفْرِغَ عَلَيْهَا الْمَالُ ذَهَبًا صَبِيبًا، وَفِضَّةً خَالِصَةً حَتَّى صَارَتْ كَوْمًا، حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ لَا يَرَى الرَّجُلَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ،

وَهَذَا شَيْءٌ كَثِيرٌ، ثُمَّ جِيءَ بِالْقَبَائِنِ فَوَزِنَتِ الْأَمْوَالُ؛ فَإِذَا هِيَ تَكْفِي النَّاسَ
ثَلَاثَ سِنِينَ مُسْتَقْبَلَةً، وَفِي رَوَايَةٍ: سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً مُسْتَقْبَلَةً لَوْ لَمْ يُدْخَلَنَّ
لِلنَّاسِ شَيْءٌ بِالْكَلْبِيِّ، فَفَرِحَ النَّاسُ وَكَبَّرُوا، وَحَمِدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ
قَالَ الْوَلِيدُ: يَا أَهْلَ دِمَشْقَ، إِنَّكُمْ تَفْخَرُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعٍ: بِهَوَائِكُمْ،
وَمَائِكُمْ، وَفَاكِهَتِكُمْ، وَحَمَامَاتِكُمْ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَزِيدَكُمْ حَامِسَةً، وَهِيَ هَذَا
الْجَامِعُ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ تَعَالَى وَانصَرَفُوا شَاكِرِينَ دَاعِينَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ فِي قِبَلَةِ جَامِعِ دِمَشْقَ ثَلَاثُ صَفَائِحَ مُذَهَبَةٍ بِلَازُورَدَ، فِي
كُلِّ مِنْهَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ
سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، رَبُّنَا اللَّهُ
وَحْدَهُ، وَدِينُنَا الْإِسْلَامُ، وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَمَرَ بَيْنِيَانَ هَذَا
الْمَسْجِدِ، وَهَدَمَ الْكَنِيسَةَ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ، عَبْدُ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدُ، فِي
ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سِتِّ وَثَمَانِينَ. وَفِي صَفِيحَةٍ أُخْرَى رَابِعَةٌ مِنْ تِلْكَ الصَّفَائِحِ:
{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

ثُمَّ مَحِيَتْ بَعْدَ مَحْيِيءِ الْمَأْمُونِ إِلَى دِمَشْقَ. وَذَكَرُوا أَنَّ أَرْضَهُ كَانَتْ مُفَضَّضَةً
كُلَّهَا، وَأَنَّ الرُّحَامَ كَانَ فِي جُدْرَانِهِ إِلَى قَامَاتٍ، وَفَوْقَ الرُّحَامِ كَرَمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ
دَهَبٍ، وَفَوْقَ الْكَرَمَةِ الْفُصُوصُ الْمُدْهَبَةُ وَالْحُضْرُ وَالْحُمْرُ وَالزُّرْقُ وَالْبَيْضُ، قَدْ
صَوَّرُوا بِهَا سَائِرَ الْبُلْدَانِ الْمَشْهُورَةِ: الْكَعْبَةَ فَوْقَ الْمِحْرَابِ، وَسَائِرَ الْأَقَالِيمِ
بِمَنَّةٍ وَيَسْرَةً، وَصَوَّرُوا مَا فِي الْبُلْدَانِ مِنَ الْأَشْجَارِ الْحَسَنَةِ الْمُثْمِرَةِ وَالْمُزْهَرَةِ،

وَعَبَّرَ ذَلِكَ، وَسَقَفُهُ مُقَرَّنُ بِالذَّهَبِ، وَالسَّلَاسِلُ الْمُعَلَّقَةُ فِيهِ جَمِيعُهَا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَأَنْوَارُ الشُّمُوعِ فِي أَمَاكِنِهِ مُفَرَّقَةٌ.

وَكَانَ فِي مِحْرَابِ الصَّحَابَةِ بَرِّيَّةٌ: حَجْرٌ مِنْ بَلُورٍ. وَيُقَالُ: بَلٌ كَانَتْ حَجْرًا مِنْ جَوْهَرٍ، وَهِيَ الدُّرَّةُ، وَكَانَتْ تُسَمَّى الْقَلِيلَةَ، وَكَانَتْ إِذَا طَفَعَتِ الْقَنَادِيلُ تُضِيءُ لِمَنْ هُنَاكَ بِنُورِهَا، فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ الْأَمِينِ بْنِ الرَّشِيدِ وَكَانَ يُحِبُّ الْبُلُورَ، وَقِيلَ: الْجَوْهَرَ بَعَثَ إِلَى سُلَيْمَانَ وَإِلَى شُرْطَةِ دِمَشْقَ أَنْ يَبْعَثَ بِهَا إِلَيْهِ، فَسَرَفَهَا، وَسَيَّرَهَا إِلَى الْأَمِينِ، فَلَمَّا وَلِيَ الْمَأْمُونُ رَدَّهَا إِلَى دِمَشْقَ؛ لِيُسَبِّحَ بِذَلِكَ عَلَى الْأَمِينِ.

ثُمَّ ذَهَبَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَجُعِلَ مَكَانُهَا بَرِّيَّةٌ مِنْ رُجَاجٍ. ثُمَّ انْكَسَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَمْ يُجْعَلْ مَكَانُهَا شَيْءً.

وَكَانَتْ الْأَبْوَابُ الشَّارِعَةُ مِنْ دَاخِلِ الصَّخْرِ لَيْسَ عَلَيْهَا أَغْلَاقٌ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَيْهَا السُّتُورُ مُرَخَّاةً، وَكَذَلِكَ السُّتُورُ عَلَى سَائِرِ جُدْرَانِهِ إِلَى حَدِّ الْكَرْمَةِ الَّتِي فَوْقَهَا الْفُصُوصُ الْمُدَهَّبَةُ، وَرُءُوسُ الْأَعْمِدَةِ مَطْلِيَّةٌ بِالذَّهَبِ الْخَالِصِ الْكَثِيرِ، وَعَمِلُوا لَهُ شُرْفَاتٍ تُحِيطُ بِهِ، وَبَنَى الْوَلِيدُ الْمَنَارَةَ الشَّمَالِيَّةَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مِئْدَنَةُ الْعُرُوسِ. فَأَمَّا الشَّرْقِيَّةُ وَالْعَرَبِيَّةُ فَكَانَتَا فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِدُهُورٍ مُتَطَاوِلَةٍ، وَقَدْ كَانَ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْ هَذَا الْمَعْبَدِ صَوْمَعَةٌ شَاهِقَةٌ جَدًّا، بَنَتْهَا الْيُونَانُ لِلرَّصَدِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ سَقَطَتِ الشَّمَالِيَّتَانِ وَبَقِيَتِ الْقِبْلِيَّتَانِ إِلَى الْآنَ، وَقَدْ أُحْرِقَ بَعْضُ الشَّرْقِيَّةِ بَعْدَ فَقَامَتِ عَلَى أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ بِيضَاءَ بَدَاتِهَا وَهِيَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ،

الْمَنَارَةُ الشَّرْفِيَّةُ الَّتِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بَعْدَ خُرُوجِ الدَّجَالِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي "صَحِيحِ مُسْلِمٍ"، عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ.

قُلْتُ: ثُمَّ أُحْرِقَ أَعْلَى هَذِهِ الْمَنَارَةِ وَجُدِّدَتْ، وَكَانَ أَعْلَاهَا مِنْ حَشَبٍ، فُبَيِّتَتْ بِحِجَارَةٍ كُلِّهَا فِي آخِرِ السَّبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، فَصَارَتْ كُلُّهَا مَبْنِيَّةً بِالْحِجَارَةِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْجَمَاعَةَ الْأُمَوِيَّةَ لَمَّا كَمَلَتْ بِنَاؤَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِنَاءٌ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلَا أَجْمَلَ وَلَا أَجَلَّ مِنْهُ، بِحَيْثُ إِنَّهُ إِذَا نَظَرَ النَّاطِرُ إِلَيْهِ، أَوْ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ مِنْهُ أَوْ إِلَى أَيِّ بُقْعَةٍ أَوْ مَكَانٍ مِنْهُ، تَحَيَّرَ فِيمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ؛ لِحُسْنِهِ جَمِيعِهِ، وَلَا يَمَلُّ نَاطِرُهُ، بَلْ كُلَّمَا أَدْمَنَ النَّظَرَ، بَانَتَ لَهُ أَعْجُوبَةٌ لَيْسَتْ كَالْآخَرَى.

وَمَا زَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَعْمَلُ فِي تَكْمِلَةِ الْجَمَاعَةِ الْأُمَوِيَّةِ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ مُدَّةَ وَلَايَتِهِ، وَجُدِّدَتْ لَهُ فِيهِ الْمَقْصُورَةُ، فَلَمَّا وُلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَزَمَ عَلَى أَنْ يُجَرِّدَ مَا فِيهِ مِنَ الذَّهَبِ، وَيَقْلَعَ السَّلَاسِلَ وَالرَّحَامَ وَالْفَسِينَفِيسَاءَ، وَيُرَدِّدَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ، وَيُطَيِّبَهُ مَكَانَ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْبَلَدِ، وَاجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ: أَنَا أَكَلِمُهُ لَكُمْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ خَالِدٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بَلَعْنَا أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ خَالِدٌ: لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عُمَرُ: وَلِمَ يَا بَنَ الْكَافِرَةِ؟ وَكَانَتْ أُمُّهُ نَصْرَانِيَّةً رُومِيَّةً أُمَّمٌ وَوَلَدٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، فَقَدْ وُلِدَتْ رَجُلًا مُؤْمِنًا. فَقَالَ: صَدَقْتَ. وَاسْتَحْيَا عُمَرُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: فَلِمَ قُلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ غَالِبَ مَا فِيهِ

مِنَ الرَّحَامِ إِثْمًا حَمَلَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ، وَلَيْسَ هُوَ لِيَبْتَ الْمَالِ. فَأَطْرَقَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ قُدُومُ جَمَاعَةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ رُسُلًا مِنْ عِنْدِ مَلِكِهِمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ بَابِ الْبَرِيدِ، وَانْتَهَوْا إِلَى الْبَابِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَحْتَ النَّسْرِ، وَرَأَوْا مَا بَهَرَ عُقُوبَهُمْ مِنْ حُسْنِ ذَلِكَ الْجَامِعِ الْبَاهِرِ، وَالزَّخْرَفَةِ الَّتِي لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهَا صَعَقَ كَبِيرُهُمْ، وَحَرَّ مَعْشِيًّا عَلَيْهِ، فَحَمَلُوهُ إِلَى مَنْزِلِهِمْ، فَبَقِيَ أَيَّامًا مُدْنِفًا، فَلَمَّا تَمَّائِلَ سَأَلُوهُ عَمَّا عَرَضَ لَهُ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَبْنِي الْمُسْلِمُونَ مِثْلَ هَذَا الْبِنَاءِ، وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ مَدَّتَّهُمْ تَكُونُ أَقْصَرَ مِنْ هَذَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: أَوْ إِنَّ هَذَا لَعَيْظُ الْكُفَّارِ؟ دَعُوهُ.

وَسَأَلَتِ النَّصَارَى فِي أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ يَعْقِدَ لَهُمْ مَجْلِسًا فِي شَأْنِ مَا كَانَ أَحْذَهُ الْوَلِيدُ مِنْهُمْ، وَكَانَ عُمَرُ عَادِلًا، فَأَرَادَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ أَحْذَهُ الْوَلِيدُ مِنْهُمْ فَأَدْخَلَهُ فِي الْجَامِعِ، ثُمَّ حَقَّقَ عُمَرُ الْقَضِيَّةَ، ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا الْكِنَائِسُ الَّتِي هِيَ خَارِجُ الْبَلَدِ لَمْ تَدْخُلْ فِي الصُّلْحِ الَّذِي كَتَبَهُ لَهُمُ الصَّحَابَةُ؛ مِثْلَ كَنِيسَةِ دَيْرِ مُرَّانَ، وَكَنِيسَةِ الرَّاهِبِ، وَكَنِيسَةِ ثُومَا، خَارِجَ بَابِ ثُومَا، وَسَائِرِ الْكِنَائِسِ الَّتِي بِقُرَى الْحَوَاجِرِ، فَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ رَدِّ مَا سَأَلُوهُ، وَتَخْرِيْبِ هَذِهِ الْكِنَائِسِ كُلِّهَا، أَوْ تَبْقَى تِلْكَ الْكِنَائِسُ وَيَطْبِئُوا نَفْسًا لِلْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ، فَاتَّفَقَتْ آرَاؤُهُمْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ عَلَى إِبْقَاءِ تِلْكَ الْكِنَائِسِ، وَيَكْتُبُ لَهُمْ كِتَابَ أَمَانٍ بِهَا، وَيَطْبِئُوا نَفْسًا بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ، فَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابَ أَمَانٍ بِهَا.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْجَامِعَ الْأُمَوِيَّ كَانَ حِينَ تَكَامَلَ بِنَاؤُهُ لَيْسَ لَهُ فِي الدُّنْيَا نَظِيرٌ فِي حُسْنِهِ وَبَهْجَتِهِ.

قَالَ الْفَرَزْدَقُ: أَهْلُ دِمَشْقَ فِي بَلَدِهِمْ قَصْرٌ مِنْ قُصُورِ الْجَنَّةِ، يَعْنِي بِهِ الْجَامِعَ الْأُمَوِيَّ.

وَقَالَ ابْنُ ثَوْبَانَ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَشَدَّ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ حُسْنِ مَسْجِدِهَا.

وَلَمَّا دَخَلَ الْمَهْدِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَبَّاسِيُّ دِمَشْقَ يُرِيدُ زِيَارَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، نَظَرَ إِلَى جَامِعِ دِمَشْقَ فَقَالَ لِكَاتِبِهِ أَبِي عُبَيْدِ اللَّهِ الْأَشْعَرِيِّ: سَبَقْنَا بَنُو أُمَّيَّةَ بِثَلَاثٍ: بِهَذَا الْمَسْجِدِ، لَا أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلَهُ، وَبُنَيْلِ الْمَوَالِي، وَبِعَمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، لَا يَكُونُ وَاللَّهِ فِينَا مِثْلُهُ أَبَدًا. ثُمَّ لَمَّا أَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَنَظَرَ إِلَى الصَّحْرَةِ وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ هُوَ الَّذِي بَنَاهَا قَالَ لِكَاتِبِهِ: وَهَذِهِ رَابِعَةٌ.

وَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ دِمَشْقَ فَنَظَرَ إِلَى جَامِعِهَا، وَكَانَ مَعَهُ أَحْوَهُ الْمُعْتَصِمُ، وَقَاضِيهِ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، قَالَ: مَا أَعْجَبُ مَا فِيهِ؟ فَقَالَ أَحْوَهُ: هَذِهِ الْأَذْهَابُ الَّتِي فِيهِ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: هَذَا الرَّحَامُ، وَهَذِهِ الْعُقْدُ. فَقَالَ الْمَأْمُونُ: إِتْمَا أَعْجَبُ مِنْ حُسْنِ بُنْيَانِهِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ مُتَقَدِّمٍ. ثُمَّ قَالَ الْمَأْمُونُ لِقَاسِمِ

التَّمَارِ: أَخْبَرَنِي بِاسْمِ حَسَنِ أُسْمِي بِهِ جَارِيَّتِي هَذِهِ. فَقَالَ: سَمَّيْتُهَا مَسْجِدَ دِمَشْقَ؛ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ شَيْءٍ.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ قَالَ: عَجَائِبُ الدُّنْيَا خَمْسَةٌ: أَحَدُهَا مَنَارَتُكُمْ هَذِهِ يَعْنِي مَنَارَةَ ذِي الْقُرْنَيْنِ الَّتِي بِإِسْكَندَرِيَّةَ، وَالثَّانِيَةُ أَصْحَابُ الرَّقِيمِ؛ وَهُمْ بِالرُّومِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَالثَّلَاثَةُ مِرَاةُ بَابِ الْأَنْدَلُسِ عَلَى بَابِ مَدِينَتِهَا، يَجْلِسُ الرَّجُلُ تَحْتَهَا، فَيَنْظُرُ فِيهَا صَاحِبَهُ مِنْ مَسَافَةِ مِائَةِ فَرَسَخٍ، وَالرَّابِعُ مَسْجِدُ دِمَشْقَ وَمَا يُوصَفُ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ، وَالخَامِسُ الرَّحَامُ وَالْفُسَيْفِسَاءُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْرَى لهُمَا مَوْضِعٌ، وَيُقَالُ: إِنَّ الرَّحَامَ مَعْجُونٌ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يُدَوِّبُ عَلَى النَّارِ.

تَرْجَمَةُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

وَهَذِهِ تَرْجَمَةُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بَابِي جَامِعِ دِمَشْقَ، وَذَكَرُ وَفَاتِهِ فِي هَذَا الْعَامِ:

هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، أَبُو الْعَبَّاسِ الْأُمَوِيُّ، بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ أَبِيهِ بَعْدَهُ مِنْهُ فِي شَوَّالِ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ، وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ وَالْوَلِيَّ مِنْ بَعْدِهِ، وَأُمُّهُ وَوَلَادَةٌ بِنْتُ الْعَبَّاسِ بْنِ جُزَيْيِّ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرِ الْعَبْسِيِّ. وَكَانَ مَوْلَدُهُ سَنَةَ خَمْسِينَ، وَكَانَ أَبَوَاهُ يُثْرِفَانِهِ، فَشَبَّ بِلَا أَدَبٍ، وَكَانَ لَا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ، وَكَانَ طَوِيلًا أَسْمَرَ،

بِهِ أَثَرُ جُدْرِيٍّ، أَفْطَسَ الْأَنْفِ سَائِلُهُ، وَكَانَ إِذَا مَشَى يَتَوَكَّفُ فِي الْمِشْيَةِ، أَيُّ
يَتَبَخَّرُ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ أَرَادَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ ثُمَّ تَوَقَّفَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ،
فَجَمَعَ الْوَلِيدُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ النَّحْوِ عِنْدَهُ فَأَقَامُوا سَنَةً، وَقِيلَ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ.
فَخَرَجَ يَوْمَ خَرَجَ أَجْهَلٌ مِمَّا كَانَ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: قَدْ أَجْهَدَ وَأَعْدَرَ.

وَقِيلَ إِنَّ أَبَاهُ عَبْدَ الْمَلِكِ أَوْصَاهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقَالَ لَهُ: لَا أَلْفِينَكَ إِذَا مِتُّ،
بَجَلْسُ تَعَصُرُ عَيْنَيْكَ، وَتَحْنُ حَيْنِ الْأَمَةِ، وَلَكِنْ شِمْرٌ وَائْتَرَزُ وَدَلِّي فِي حُفْرَتِي
وَخَلِّي وَسَائِي، وَادْعُ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ؛ فَمَنْ قَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا فَقُلْ بِسَيْفِكَ
هَكَذَا.

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ غَزَا الْوَلِيدُ بِلَادَ الرُّومِ، وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ أَيْضًا.

وَقَالَ غَيْرُهُ: غَزَا فِي الَّتِي قَبْلَهَا، وَفِي الَّتِي بَعْدَهَا بِلَادَ مَلْطِيَّةَ وَعَيْرَهَا.

وَكَانَ نَفْسُ خَاتَمِهِ: أُوْمِنُ بِاللَّهِ مُخْلِصًا. وَقِيلَ: كَانَ نَفْسُهُ: يَا وَلِيدُ إِنَّكَ مَيِّتٌ.

وَيُقَالُ: إِنَّ آخِرَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عَبْلَةَ: قَالَ لِي الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمًا: فِي كَمْ تَحْتِمُ

الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: فِي كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى شُغْلِهِ يَحْتِمُهُ فِي كُلِّ

ثَلَاثٍ. وَقِيلَ: فِي كُلِّ سَبْعٍ. قَالَ: وَكَانَ يَثْرَأُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَبْعَ عَشْرَةَ

حَتْمَةً. قَالَ إِبْرَاهِيمُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: الْوَلِيدُ! وَأَيْنَ مِثْلُهُ؟ بَنَى مَسْجِدَ دِمَشْقَ وَكَانَ يُعْطِينِي قِصَاعَ الْفِضَّةِ، فَأَقْسَمُهَا عَلَى قُرَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

خَرَجَ الْوَلِيدُ يَوْمًا مِنَ الْبَابِ الْأَصْغَرِ، فَرَأَى رَجُلًا عِنْدَ الْمِئْدَنَةِ الشَّرْقِيَّةِ يَأْكُلُ شَيْئًا، فَأَتَاهُ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ يَأْكُلُ حُبْزًا وَتُرَابًا، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: الْفُنُوعُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَذَهَبَ إِلَى مَجْلِسِهِ، ثُمَّ اسْتَدْعَى بِهِ، فَقَالَ: إِنَّ لَكَ لَشَأْنًا، فَأَخْبِرْنِي بِهِ وَإِلَّا ضَرَبْتُ فِيهِ عَيْنَاكَ. فَقَالَ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنْتُ رَجُلًا جَمَّالًا، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مِنْ مَرْجِ الصُّفْرِ قَاصِدًا إِلَى الْكُسُوةِ إِذْ زَرْتَنِي الْبُؤْلُ، فَعَدَلْتُ إِلَى حَرَبَةِ لِأَبُولَ، فَإِذَا سَرَبُ فَحَفَرْتُهُ فَإِذَا مَالٌ صَبِيبٌ، فَمَلَأْتُ مِنْهُ غَرَائِرِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَقُودُ بِرِوَاحِلِي، وَإِذَا بِمِخْلَافَةٍ مَعِي فِيهَا طَعَامٌ فَأَلْفَيْتُهُ مِنْهَا، وَقُلْتُ: لِي سَاتِي الْكُسُوةُ، وَرَجَعْتُ إِلَى الْحَرَبَةِ، لِأَمْلَأُ تِلْكَ الْمِخْلَافَةَ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ، فَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى الْمَكَانِ بَعْدَ الْجُهْدِ فِي الطَّلَبِ، فَلَمَّا أَيْسْتُ رَجَعْتُ إِلَى الرِّوَاحِلِ فَلَمْ أَجِدْهَا وَلَمْ أَجِدِ الطَّعَامَ، فَأَلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَبِي لَا آكُلُ إِلَّا حُبْزًا وَتُرَابًا. قَالَ: فَهَلْ لَكَ عِيَالٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَفَرَضَ لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ.

وَقَالَ ثُمَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّمْعَانِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ قَوْمَ لُوطٍ فِي الْقُرْآنِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا يَفْعَلُ هَذَا.

وَكَانَ الْوَلِيدُ لِحَانًا. كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ أَنَّ الْوَلِيدَ حَطَبَ يَوْمًا، فَقَرَأَ فِي حُطْبَتِهِ: { يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ } فَصَمَّ النَّاءَ مِنْ لَيْتَهَا؛ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَا لَيْتَهَا كَانَتْ عَلَيْكَ وَأَرَاخَنَا اللَّهُ مِنْكَ. وَكَانَ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ. وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَوْمًا لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ: إِنَّكَ لِرَجُلٍ لَوْلَا أَنَّكَ تَلْحَنُ. فَقَالَ: وَهَذَا ابْنُكَ الْوَلِيدُ يَلْحَنُ. فَقَالَ: لَكِنَّ ابْنِي سُلَيْمَانَ لَا يَلْحَنُ. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَأَخِي أَبُو فَلَانٍ لَا يَلْحَنُ.

كَانَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عِنْدَ أَهْلِ الشَّامِ أَفْضَلَ خَلَائِفِهِمْ، بَنَى الْمَسَاجِدَ بِدِمَشْقَ، وَوَضَعَ الْمَنَارَ، وَأَعْطَى النَّاسَ وَأَعْطَى الْمَجْدُومِينَ، وَقَالَ لَهُمْ: لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ، وَأَعْطَى كُلَّ مُقْعَدٍ خَادِمًا، وَكُلَّ ضَرِيرٍ قَائِدًا، وَفَتَحَ فِي وِلَايَتِهِ فُتُوحَاتٍ كَثِيرَةً عِظَامًا، فَفَتَحَ الْهِنْدَ وَالسِّنْدَ وَالْأَنْدَلُسَ، وَعَبَّرَ ذَلِكَ. وَكَانَ مَعَ هَذَا يَمُرُّ بِالْبَقَالِ فَيَأْخُذُ حُزْمَةَ الْبَقْلِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: بِكُمْ تَبِيعَ هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بَقْلَسِ. فَيَقُولُ: زِدْ فِيهَا فَإِنَّكَ تَرْبِحُ.

وَدَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ يَبْرُ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ وَيُكْرِمُهُمْ، وَيَقْضِي عَنْهُمْ دُيُوهَهُمْ.

وَكَانَتْ هِمَّةُ الْوَلِيدِ فِي الْبِنَاءِ وَكَانَ النَّاسُ كَذَلِكَ؛ يَلْقَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: مَاذَا بَنَيْتَ؟ مَاذَا عَمَّرْتَ؟ وَكَانَتْ هِمَّةُ أَخِيهِ سُلَيْمَانَ فِي النِّسَاءِ، فَكَانَ النَّاسُ كَذَلِكَ؛ يَلْقَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: كَمْ تَزَوَّجْتَ؟ مَاذَا عِنْدَكَ مِنَ السَّرَارِيِّ؟ وَكَانَتْ هِمَّةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ، فَكَانَ

النَّاسُ كَذَلِكَ؛ يَلْقَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: كَمْ وَرَدُكَ؟ كَمْ تَقْرَأُ كُلَّ يَوْمٍ؟ مَاذَا صَلَّيْتَ الْبَارِحَةَ؟

وَبَنَى الْوَلِيدُ الْجَامِعَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الدُّنْيَا نَظِيرٌ، وَبَنَى صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَقَدَ عَلَيْهَا الْقُبَّةَ، وَبَنَى مَسْجِدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَسَّعَهُ، حَتَّى دَخَلَتْ الْحُجْرَةُ الَّتِي فِيهَا الْقَبْرُ فِيهِ، وَلَهُ آثَارٌ حَسَنَانُ كَثِيرَةٌ.

ثُمَّ كَانَتْ وَقَاتُهُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ. وَكَانَتْ وَقَاتُهُ بِدَيْرِ مُرَّانَ، فَحَمِلَ عَلَى أَعْنَاقِ الرَّجَالِ حَتَّى دُفِنَ بِمَقَابِرِ بَابِ الصَّغِيرِ.

وَكَانَ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّ أَخَاهُ سُلَيْمَانَ كَانَ بِالْمَقْدِسِ الشَّرِيفِ، وَقِيلَ: صَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَى قَبْرِهِ، وَقَالَ حِينَ أَنْزَلَهُ: لَتَنْزَلَنَّهُ غَيْرَ مُوسِدٍ وَلَا مُمَهَّدٍ، فَدَخَلَتْ الْأَسْبَابُ، وَفَارَقَتْ الْأَحْبَابَ، وَسَكَنْتِ التُّرَابَ، وَوَاجَهَتْ الْحِسَابَ، فَقَبِيرًا إِلَى مَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ، غَنِيًّا عَمَّا تُخَلِّفُ.

وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ تِسْعَ سِنِينَ وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ لَهُ مِنَ الْوُلَدِ تِسْعَةَ عَشَرَ وَلَدًا ذَكَرْنَا: وَهُمْ عَبْدُ الْعَزِيزِ، وَمُحَمَّدُ، وَالْعَبَّاسُ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَتَمَّامٌ، وَخَالِدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَمُبَشِّرٌ، وَمَسْرُورٌ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ،

وَصَدَقَةٌ، وَمَنْصُورٌ، وَمَرْوَانٌ، وَعَنْبَسَةٌ، وَعُمَرُ، وَرَوْحٌ، وَبِشْرٌ، وَيَزِيدٌ، وَيَحْيَى، فَأُمُّ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمُحَمَّدِ أُمُّ الْبَيْنِ بِنْتُ عَمِّهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ، وَأُمُّ أَبِي عُبَيْدَةَ فَرَزِيرِيَّةٌ، وَسَائِرُهُمْ مِنْ أُمَّهَاتِ أَوْلَادِ شَتَّى.

خِلاَفَةُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

بُويعَ لَهُ بِالْخِلاَفَةِ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ الْوَلِيدِ يَوْمَ مَاتَ، وَكَانَ يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ سِتِّ وَتِسْعِينَ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ بِالرَّمْلَةِ، وَكَانَ وِلِيَّ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِ أَخِيهِ عَنِ وَصِيَّةِ أَبِيهِمَا عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ قَدْ عَزَمَ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلَى خَلْعِ أَخِيهِ سُلَيْمَانَ، وَأَنْ يَجْعَلَ وِلايَةَ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ لِوَلَدِهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَقَدْ كَانَ الْحُجَّاجُ طَاوَعَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ فُتِيْبَةُ بِنْتُ مُسْلِمٍ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَقَدْ أَنْشَدَ فِي ذَلِكَ جَرِيرٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ قِصَائِدَ، فَلَمْ يَنْتَظِمِ ذَلِكَ لَهُ حَتَّى مَاتَ، وَانْعَقَدَتِ الْبَيْعَةُ إِلَى سُلَيْمَانَ، فَخَافَهُ فُتِيْبَةُ بِنْتُ مُسْلِمٍ وَعَزَمَ عَلَى أَلَّا يُبَايِعَهُ، فَعَزَلَهُ سُلَيْمَانُ، وَوَلَّى عَلَى إِمْرَةِ الْعِرَاقِ ثُمَّ حُرَّاسَانَ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ؛ فَأَعَادَهُ إِلَى إِمْرَتِهَا بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ، وَأَمْرَهُ بِمُعَاقِبَةِ آلِ الْحُجَّاجِ بْنِ يُوْسُفَ، وَكَانَ الْحُجَّاجِ هُوَ الَّذِي عَزَلَ يَزِيدَ عَنِ حُرَّاسَانَ. وَلَسَبِعَ بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ عَزَلَ سُلَيْمَانُ عَنِ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ عُثْمَانَ بْنَ حَيَّانَ، وَوَلَّى عَلَيْهَا أَبَا بَكْرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ، وَكَانَ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ.

وَقَدْ كَانَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ حِينَ بَلَغَهُ وِلَايَةُ سُلَيْمَانَ الْخِلَافَةَ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يُعَرِّبُهُ فِي أَحْيِهِ، وَيُهَيِّئُهُ بِوِلَايَتِهِ، وَيَذَكِّرُهُ فِيهِ بِبَلَاءِهِ وَعَنَاءِهِ وَقِتَالِهِ وَهَيْبَتِهِ فِي صُدُورِ الْأَعْدَاءِ، وَمَا فَتَحَ اللَّهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْمُدُنِ وَالْأَقَالِيمِ الْكِبَارِ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّ لَهُ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ لِلْوَلِيدِ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ، إِنْ لَمْ يَعْزَلْهُ عَنْ حُرَّاسَانَ. وَنَالَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، ثُمَّ كَتَبَ كِتَابًا ثَانِيًا يَذَكِّرُهُ فِيهِ مَا فَعَلَ مِنَ الْقِتَالِ وَالْفَتْوحَاتِ وَهَيْبَتِهِ فِي صُدُورِ الْمُلُوكِ وَالْأَعَاجِمِ، وَيَذَكِّرُهُ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ أَيْضًا، وَيُقَسِّمُ فِيهِ لِعَيْنِ عَزَلَهُ وَوَلَّى يَزِيدَ لِيُخْلَعَنَّ سُلَيْمَانَ عَنِ الْخِلَافَةِ، وَكَتَبَ كِتَابًا ثَالِثًا فِيهِ حَلَعَ سُلَيْمَانَ بِالْكُلَيْبَةِ، وَبَعَثَ بِهَا مَعَ الْبَرِيدِ، وَقَالَ لَهُ: ادْفَعْ إِلَيْهِ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ فَإِنْ قَرَأَهُ وَدَفَعَهُ إِلَى يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ فَادْفَعْ إِلَيْهِ الثَّانِي، فَإِنْ قَرَأَهُ وَدَفَعَهُ إِلَى يَزِيدَ، فَادْفَعْ إِلَيْهِ الثَّلَاثَ، فَلَمَّا قَرَأَ سُلَيْمَانُ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ وَاتَّفَقَ حُضُورُ يَزِيدَ عِنْدَ سُلَيْمَانَ دَفَعَهُ إِلَى يَزِيدَ، فَقَرَأَهُ، فَنَاوَلَهُ الْبَرِيدُ الْكِتَابَ الثَّانِي، فَقَرَأَهُ وَدَفَعَهُ إِلَى يَزِيدَ، فَنَاوَلَهُ الْبَرِيدُ الْكِتَابَ الثَّلَاثَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ التَّصْرِيحُ بِعَزَلِهِ وَخُلْعِهِ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ثُمَّ حَتَمَهُ وَأَمْسَكَهُ بِيَدِهِ وَلَمْ يَدْفَعْهُ إِلَى يَزِيدَ، وَأَمَرَ بِإِنْزَالِ الْبَرِيدِ فِي دَارِ الضِّيَافَةِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ بَعَثَ إِلَى الْبَرِيدِ فَأَحْضَرَهُ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ ذَهَبًا وَكِتَابًا فِيهِ وِلَايَةُ قُتَيْبَةَ عَلَى حُرَّاسَانَ، وَأَرْسَلَ مَعَ ذَلِكَ الْبَرِيدِ بَرِيدًا آخَرَ مِنْ جِهَتِهِ لِيُقَرَّرَهُ عَلَيْهَا، فَلَمَّا وَصَلَ بِبِلَادِ حُرَّاسَانَ بَلَغَهُمَا أَنَّ قُتَيْبَةَ قَدْ حَلَعَ الْخَلِيفَةَ، فَدَفَعَ بَرِيدُ سُلَيْمَانَ الْكِتَابَ الَّذِي مَعَهُ إِلَى بَرِيدِ قُتَيْبَةَ، ثُمَّ بَلَغَهُمَا مَقْتُلُ قُتَيْبَةَ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ بَرِيدُ سُلَيْمَانَ.

سَبَبِ مَقْتَلِ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ

وَذَلِكَ أَنَّهُ جَمَعَ الْجُنْدَ وَالْجِيُوشَ، وَعَزَمَ عَلَى خَلْعِ سُلَيْمَانَ وَتَرَكَ طَاعَتِهِ، وَذَكَرَ لَهُمْ هِمَّتَهُ وَفَتْوحَهُ وَعَدْلَهُ فِيهِمْ، وَدَفَعَهُ الْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ مَقَالَتِهِ، لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى مَقَالَتِهِ، فَشَرَعَ فِي تَأْنِيهِمْ وَدَمِهِمْ، قَبِيلَةَ قَبِيلَةً، وَطَائِفَةً طَائِفَةً، فَغَضِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ وَنَفَرُوا عَنْهُ وَتَفَرَّقُوا، وَعَمِلُوا عَلَى مُحَالَفَتِهِ وَسَعَوْا فِي قَتْلِهِ، وَكَانَ الْقَائِمَ بِأَعْبَاءِ ذَلِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سُودٍ، فَجَمَعَ جُمُوعًا كَثِيرَةً ثُمَّ نَاهَضَهُ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى قَتَلَهُ فِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَقَتَلَ مَعَهُ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ إِخْوَتِهِ وَأَبْنَاءِ إِخْوَتِهِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سِوَى ضِرَارِ بْنِ مُسْلِمٍ وَكَانَتْ أُمُّهُ الْعَرَاءُ بِنْتُ ضِرَارِ بْنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ مَعْبُدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زُرَّارَةَ، فَحَمَتُهُ أَحْوَالُهُ وَعَمَرُوهُ بْنُ مُسْلِمٍ، وَكَانَ عَامِلَ الْجُوزْجَانِ. وَقُتِلَ قُتَيْبَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعَبْدُ اللَّهِ وَعَبِيدُ اللَّهِ وَصَالِحٌ وَبَشَارٌ، وَهَؤُلَاءِ أَبْنَاءُ مُسْلِمٍ، وَأَرْبَعَةٌ مِنْ أَبْنَائِهِمْ فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ وَكَيْعُ بْنُ سُودٍ.

ترجمة قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ

وَقَدْ كَانَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ حُصَيْنِ بْنِ رَبِيعَةَ أَبُو حَفْصِ الْبَاهِلِيِّ، مِنْ سَادَاتِ الْأَمْرَاءِ وَخِيَارِهِمْ، وَكَانَ مِنَ الْقَادَةِ التُّجَبَاءِ الْكِبَرَاءِ، وَالشُّجْعَانَ وَذَوِي الْحُرُوبِ وَالْفَتْوحَاتِ السَّعِيدَةِ، وَالْأَرَاءِ الْحَمِيدَةِ، وَقَدْ هَدَى اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ خَلْقًا لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ، فَأَسْلَمُوا وَدَانُوا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَتَحَ مِنَ الْبِلَادِ

وَالْأَقَالِيمِ الْكِبَارِ وَالْمُدُنِ الْعِظَامِ شَيْئًا كَثِيرًا، كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ مُفَصَّلًا مُبَيَّنًا،
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُضِيعُ سَعْيَهُ، وَلَا يُحِبُّ تَعَبَهُ وَجِهَادَهُ.

وَلَكِنْ زَلَّ زَلَّةً كَانَ فِيهَا حَتْفُهُ، وَفَعَلَ فَعْلَةً رَغِمَ فِيهَا أَنْفُهُ، وَخَلَعَ الطَّاعَةَ
فَبَادَرَتْ إِلَيْهِ الْمَنِيَّةُ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، لَكِنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ
الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا قَدْ يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ، وَيَمْحُو بِهَا عَنْهُ مِنَ
حَطِيئَاتِهِ، وَاللَّهُ يُسَاحِجُهُ وَيَعْفُو عَنْهُ، وَيَتَقَبَّلُ مِنْهُ مَا كَانَ يُكَابِدُهُ مِنْ مُنَاجِرَةِ
الْأَعْدَاءِ.

وَكَانَتْ وَقَاتُهُ بِفِرْعَانَةَ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ حُرَّاسَانَ فِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ،
وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَكَانَ أَبُوهُ أَبُو صَالِحٍ مِمَّنْ قُتِلَ مَعَ مُصْعَبِ
بْنِ الزُّبَيْرِ، وَكَانَتْ وِلَايَتُهُ عَلَى حُرَّاسَانَ عَشْرَ سِنِينَ، وَاسْتَفَادَ وَأَفَادَ فِيهَا خَيْرًا
كَثِيرًا.

وَقَدْ وُلِيَ مِنْ أَوْلَادِهِ وَذُرِّيَّتِهِ جَمَاعَةٌ الْإِمْرَةَ فِي الْبُلْدَانِ، فَمِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ
بْنِ سَلَمٍ بِنِ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، وَكَانَ جَوَادًا مُمَدِّحًا.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بِنِ عَمْرُو بْنِ حَزْمٍ، وَكَانَ هُوَ الْأَمِيرَ عَلَى
الْمَدِينَةِ، وَعَلَى مَكَّةَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدٍ، وَعَلَى حَرْبِ
الْعِرَاقِ وَصَلَاتَهَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، وَعَلَى خِرَاجِهَا صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،
وَعَلَى نِيَابَةِ الْبَصْرَةِ لِيَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكِنْدِيُّ، وَعَلَى

قَضَائِهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أُدَيْنَةَ، وَعَلَى قَضَاءِ الْكُوفَةِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي مُوسَى،
وَعَلَى حَرْبِ خُرَّاسَانَ وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سُودٍ.

سُلَيْمَانَ يَوْمَ نِيَابَةِ خُرَّاسَانَ لِيَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا جَهَّزَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْجَيْوشَ
إِلَى الْفُسْطَاطِيْنِيَّةِ.

وَفِيهَا أَمَرَ ابْنَهُ دَاوُدَ عَلَى الصَّائِفَةِ، فَفَتَحَ حِصْنَ الْمَرْوَةِ.

وَفِيهَا غَزَا مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرْضَ الْوَضَّاحِيَّةِ فَافْتَتَحَ الْحِصْنَ الَّذِي فَتَحَهُ
الْوَضَّاحُ صَاحِبُ الْوَضَّاحِيَّةِ.

وَفِيهَا غَزَا مَسْلَمَةُ أَيْضًا بَرْجَمَةَ، فَفَتَحَ حُصُونًا، وَبَرْجَمَةَ، وَحِصْنَ الْحَدِيدِ
وَسَرْدَوْسَلَ، وَشَتَّى بِأَرْضِ الرُّومِ.

وَفِيهَا غَزَا عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ فِي الْبَحْرِ أَرْضِ الرُّومِ وَشَتَّى بِهَا.

وَفِيهَا قُتِلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، وَقَدِمَ بِرَأْسِهِ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ حَبِيبُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الْفَهْرِيُّ.

وَفِيهَا وَلَّى سُلَيْمَانُ نِيَابَةَ خُرَّاسَانَ لِيَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، مُضَافًا إِلَى مَا بِيَدِهِ مِنْ
إِمْرَةِ الْعِرَاقِ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي سُودٍ لَمَّا قَتَلَ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمِ
وَدُرَيْتَةَ، بَعَثَ بِرَأْسِ قُتَيْبَةَ إِلَى سُلَيْمَانَ؛ فَحَظِيَ عِنْدَهُ، وَكَتَبَ لَهُ بِإِمْرَةِ

حُرَّاسَانَ، فَبَعَثَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَهْتَمِ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ؛ لِيُحَسِّنَ عِنْدَهُ أَمْرَ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ فِي إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ وَيَنْتَقِصَ عِنْدَهُ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي سُودٍ، فَسَارَ ابْنُ الْأَهْتَمِ - وَكَانَ ذَا دَهَاءٍ وَمَكْرٍ - إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى عَزَلَ وَكَيْعًا عَنْ حُرَّاسَانَ وَوَلَّى عَلَيْهَا يَزِيدَ مَعَ إِمْرَةِ الْعِرَاقِ، وَبَعَثَ بَعْهَدِهِ مَعَ ابْنِ الْأَهْتَمِ، فَسَارَ فِي سَبْعٍ حَتَّى جَاءَ يَزِيدَ، فَأَعْطَاهُ عَهْدَ حُرَّاسَانَ مَعَ الْعِرَاقِ، وَكَانَ يَزِيدُ وَعَدَهُ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَلَمْ يَفِ لَهُ بِهَا، وَبَعَثَ يَزِيدُ ابْنَهُ مَخْلَدًا بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى حُرَّاسَانَ وَمَعَهُ كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَضْمُونُهُ أَنَّ قَيْسًا زَعَمُوا أَنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ لَمْ يَكُنْ خَلَعَ الطَّاعَةَ، فَإِنْ كَانَ وَكَيْعٌ قَدْ تَعَرَّضَ لَهُ وَثَارَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ أَنَّهُ خَلَعَ وَمَا يَكُنْ خَلَعَ فَقَيْدُهُ، وَابْعَثْ بِهِ إِلَيَّ. فَتَقَدَّمَ مَخْلَدٌ فَأَخَذَ وَكَيْعًا فَعَاقَبَهُ، وَحَبَسَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ أَبُوهُ، فَكَانَتْ إِمْرَةُ وَكَيْعِ بْنِ أَبِي سُودٍ عَلَى حُرَّاسَانَ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ أَوْ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ قَدِمَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ فَتَسَلَّمَ حُرَّاسَانَ وَأَقَامَ بِهَا، وَاسْتَنْابَ فِي الْبِلَادِ نُوَابًا.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ. وَنُوَابُ الْبِلَادِ هُمْ الْمَدْكُورُونَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا، غَيْرَ أَنَّ حُرَّاسَانَ عَزَلَ عَنْهَا وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سُودٍ، وَوَلِيَهَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ مَعَ الْعِرَاقِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ، فَفِي هَذِهِ السَّنَةِ جَهَّزَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَاهُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لِعَزْوِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَرَاءَ الْجَيْشِ الَّذِينَ هُمْ بِهَا، فَسَارَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ جَيْشٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ التَفَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْجَيْشُ

الَّذِينَ هُمْ هُنَاكَ، وَقَدْ أَمَرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنَ الْجَيْشِ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ مُدَّيْنٍ مِنْ طَعَامٍ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا جَمَعُوا ذَلِكَ، فَإِذَا هُوَ أَمْثَالُ الْجِبَالِ فَقَالَ لَهُمْ مَسْلَمَةُ: اتْرُكُوا هَذَا الطَّعَامَ وَكُلُوا مِمَّا تَجِدُونَهُ فِي بِلَادِهِمْ، وَازْرِعُوا فِي أَمَاكِنِ الزَّرْعِ وَاسْتَعْلُواهُ، وَابْنُوا لَكُمْ بُيُوتًا مِنْ خَشَبٍ، فَإِنَّا لَا نَرْجِعُ عَنْ هَذِهِ الْبَلَدِ حَتَّى نَقْتَحَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَقَدْ دَاخَلَ مَسْلَمَةَ رَجُلٌ مِنَ النَّصَارَى يُقَالُ لَهُ: الْيُونُ. وَوِطَاطُهُ فِي الْبَاطِنِ لِيَأْخُذَ لَهُ بِبِلَادِ الرُّومِ، فَظَهَرَ مِنْهُ نُصْحٌ فِي بَادِي الْأَمْرِ، ثُمَّ إِنَّهُ تُوَفِّيَ مَلِكُ الْفُسْطَاطِيْنِيَّةِ فَدَخَلَ الْيُونُ فِي رِسَالَةٍ مِنْ مَسْلَمَةَ، وَقَدْ خَافَتْهُ الرُّومُ خَوْفًا شَدِيدًا، فَلَمَّا دَخَلَ إِلَيْهِمْ الْيُونُ قَالُوا لَهُ: رُدَّهُ عَنَّا وَنَحْنُ مُمْلِكُكَ عَلَيْنَا. فَخَرَجَ فَأَعْمَلَ الْحِيَلَةَ فِي الْعَدْرِ وَالْمَكْرِ، وَلَمْ يَزَلْ فَبَحَهُ اللَّهُ حَتَّى أَحْرَقَ ذَلِكَ الطَّعَامَ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَ لِمَسْلَمَةَ: إِنَّهُمْ مَا دَامُوا يَرُونَ هَذَا الطَّعَامَ عِنْدَكَ يَظُنُّونَ أَنَّكَ تُطَاوَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَلَوْ أَحْرَقْتَهُ لَتَحَقَّقُوا مِنْكَ الْعَزْمَ، وَسَلَّمُوا لَكَ الْبَلَدَ سَرِيعًا، فَأَمَرَ مَسْلَمَةَ بِالطَّعَامِ فَأُحْرِقَ، ثُمَّ انشَمَرَ الْيُونُ فِي السُّفُنِ وَأَخَذَ مَا أَمَكَّنَهُ مِنْ أَمْتَعَةِ الْجَيْشِ فِي اللَّيْلِ، وَأَصْبَحَ وَهُوَ بِالْبَلَدِ مُحَارِبًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَظْهَرَ الْعِدَاوَةَ الْأَكِيدَةَ، وَتَحَصَّنَ بِالْبَلَدِ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الرُّومُ، وَضَاقَ الْحَالُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى أَكَلُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا التُّرَابَ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ وَفَاةُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَتَوَلِيَّةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَلَى مَا سَيَأْتِي، فَكُتِبَ رَاجِعِينَ إِلَى الشَّامِ وَقَدْ جَاهَدُوا جَهْدًا شَدِيدًا، لَكِنْ لَمْ

يَرْجِعُ مَسْلَمَةً حَتَّى بَنَى مَسْجِدًا بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ شَدِيدَ الْبِنَاءِ مُحْكَمًا، رَحِبَ الْفِنَاءِ، شَاهِقًا فِي السَّمَاءِ.

وَلَمَّا وَلِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرَادَ الْإِقَامَةَ بِنَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ أَرْسَلَ الْعَسَاكِرَ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ بِأَنْ يَفْتَحَ مَا دُوْهَا مِنْ الْمُدُنِ وَالرَّسَاتِيْقِ وَالْحُصُونِ، حَتَّى يَبْلُغَ الْمَدِينَةَ فَلَا يَأْتِيَهَا إِلَّا وَقَدْ هُدِمَتْ حُصُوتُهَا وَوَهَنْتْ قُوَّتُهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمْ يَبْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا مَانِعٌ، فَيُعْطُوا بِأَيْدِيهِمْ وَيُسَلِّمُوا لَكَ الْبَلَدَ، ثُمَّ اسْتَشَارَ أَحَاهُ مَسْلَمَةَ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَدَعَ مَا دُوْهَا مِنَ الْبِلَادِ وَيَفْتَحَهَا عَنَوَةً، فَمَتَى مَا فُتِحَتْ فَإِنَّ بَاقِيَّ مَا دُوْهَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْحُصُونِ بِيَدِكَ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: هَذَا هُوَ الرَّأْيُ. ثُمَّ أَخَذَ فِي تَجْهِيزِ الْجِيُوشِ مِنَ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ فَجَهَّزَ فِي الْبَرِّ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا، وَفِي الْبَحْرِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَأَخْرَجَ لَهُمُ الْأَعْطِيَةَ وَأَنْفَقَ فِيهِمُ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ وَأَعْلَمَهُمْ بَعَزُو الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَالْإِقَامَةَ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ يَفْتَحُوهَا، ثُمَّ سَارَ سُلَيْمَانُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَدَخَلَ دِمَشْقَ وَقَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ الْعَسَاكِرُ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحَاهُ مَسْلَمَةَ، ثُمَّ قَالَ: سِيرُوا عَلَيَّ بِرَكَّةِ اللَّهِ، وَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ وَالتَّنَاصُحِ وَالتَّنَاصُفِ.

ثُمَّ سَارَ سُلَيْمَانُ حَتَّى نَزَلَ مَرْجَ دَابِقٍ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ أَيْضًا مِنَ الْمُطَوَّعَةِ الْمُحْتَسِبِينَ أَجُورَهُمْ عَلَى اللَّهِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، ثُمَّ أَمَرَ مَسْلَمَةَ أَنْ يَرْحَلَ بِالْجِيُوشِ، وَأَخَذَ مَعَهُ الْيُونَانَ الرَّومِيَّ الْمَرْعَشِيَّ، ثُمَّ سَارُوا حَتَّى

نَزَلُوا عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فَحَاصَرَهَا إِلَى أَنْ بَرَّحَ بِهِمْ، وَعَرَضَ أَهْلُهَا الْجُزْيَةَ عَلَى مَسْلَمَةَ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَفْتَحَهَا عَنْوَةً، قَالُوا: فَأَبَعْتَ إِلَيْنَا الْيُونَ نُشَاوِرُهُ. فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: رُدْ هَذِهِ الْعَسَاكِرَ عَنَّا وَنَحْنُ نُعْطِيكَ وَمُلْكُكَ عَلَيْنَا. فَرَجَعَ إِلَى مَسْلَمَةَ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ أَجَابُوا إِلَى فَتْحِهَا غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَفْتَحُونَهَا مَا لَمْ تَنْحَ عَنْهُمْ. فَقَالَ مَسْلَمَةُ: إِنِّي أَحْشَى عَدْرَكَ، فَحَلَفَ لَهُ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ مَفَاتِيحَهَا وَمَا فِيهَا، فَلَمَّا تَنَحَّى عَنْهُمْ أَخَذُوا فِي تَرْمِيمِ مَا تَهَدَّمَ مِنْ أَسْوَارِهَا وَاسْتَعَدُّوا لِلْحِصَارِ. وَغَدَرَ الْيُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَبَحَهُ اللَّهُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَخَذَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْعَهْدَ لَوْلَدِهِ أَيُّوبَ أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ مَرْوَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فَعَدَلَ عَنْ وِلَايَةِ أَخِيهِ يَزِيدَ إِلَى وِلَايَةِ وَلَدِهِ أَيُّوبَ، وَتَرْتَّصَ بِأَخِيهِ الدَّوَائِرَ فَمَاتَ أَيُّوبُ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ، فَبَايَعَ سُلَيْمَانُ لِابْنِ عَمِّهِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ، وَلِنَعْمَ مَا فَعَلَ.

وَفِيهَا فُتِحَتْ مَدِينَةُ الصَّقَالِبَةِ.

وَقَدْ أَغَارَتِ الْبُرْجَانُ عَلَى جَيْشِ مَسْلَمَةَ وَهُوَ فِي قِلَّةٍ مِنَ النَّاسِ، فِي هَذِهِ السَّنَةِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ جَيْشًا فَقَاتَلَ الْبُرْجَانَ حَتَّى هَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ دِهِسْتَانَ مِنْ أَرْضِ الصِّينِ فَحَاصَرَهَا وَقَاتَلَ عِنْدَهَا قِتَالًا شَدِيدًا، وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى تَسَلَّمَهَا، وَقَتَلَ مِنَ التُّرُكِ الَّذِينَ بِهَا

أَرْبَعَةَ آلَافٍ صَبْرًا، وَأَخَذَ مِنْهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَثَاثِ وَالْأَمْنِيَةِ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ كَثْرَةً وَقِيمَةً وَحُسْنًا، ثُمَّ سَارَ مِنْهَا إِلَى جُرْجَانَ فَاسْتَجَاشَ صَاحِبَهَا بِالدَّيْلَمِ، فَقَدِمُوا لِنَجْدَتِهِ فَقَاتَلَهُمْ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ وَقَاتَلُوهُ، فَحَمَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَبْرَةَ الْجُعْفِيَّ - وَكَانَ فَارِسًا شَجَاعًا بَاهِرًا - عَلَى مَلِكِ الدَّيْلَمِ فَقَتَلَهُ وَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَقَدْ بَارَزَ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ هَذَا يَوْمًا بَعْضَ فُرْسَانَ التُّرُكِ، فَضَرَبَهُ التُّرْكِيُّ بِالسَّيْفِ عَلَى الْبَيْضَةِ فَنَشِبَ فِيهَا، وَضَرَبَهُ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَسَيْفُهُ يَفْطُرُ دَمًا وَسَيْفُ التُّرْكِيِّ نَاشِبٌ فِي حَوْدَتِهِ، فَنظَرَ إِلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ قَالُوا: ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ. فَقَالَ: نِعَمَ الرَّجُلُ لَوْلَا انْهَمَاكُهُ فِي الشَّرَابِ.

ثُمَّ صَمَّمَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ عَلَى مُحَاصِرَةِ جُرْجَانَ وَمَا زَالَ يُضَيِّقُ عَلَى صَاحِبِهَا حَتَّى صَاحَلَهُ عَلَى سَبْعِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَمِائَتِي أَلْفِ ثَوْبٍ، وَأَرْبَعِمِائَةِ حِمَارٍ مُوقَّرَةٍ زَعْفَرَانًا، وَأَرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ تُرْسٌ، عَلَى التُّرْسِ طَيْلَسَانٌ، وَجَامٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَسَرْقَةٌ مِنْ حَرِيرٍ.

وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ قَدْ افْتَتَحَهَا صُلْحًا عَلَى أَنْ يُؤَدُّوا الْخَرَاجَ فِي كُلِّ سَنَةٍ، فَكَانُوا يَحْمِلُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَةَ أَلْفٍ، وَفِي سَنَةِ مِائَتِي أَلْفٍ، وَفِي بَعْضِ السِّنِينَ ثَلَاثِمِائَةِ أَلْفٍ، وَمَنَعُونَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ السِّنِينَ، ثُمَّ امْتَنَعُوا جَمَلَةً

وَكَفَرُوا، فَغَزَاهُمْ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ وَرَدَّهَا صُلْحًا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ.

وَأَصَابَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ مِنْ جُرْجَانَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً جِدًّا، فَكَانَ مِنْ جُمْلَتِهَا تَاجٌ فِيهِ جَوَاهِرٌ نَفِيسَةٌ، فَقَالَ: أَتَرُونَ أَحَدًا يَرْهَدُ فِي هَذَا؟ قَالُوا: لَا. فَدَعَا بِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ^١ وَكَانَ فِي الْجَيْشِ مُعَازِيًا فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَخَذَ التَّاجَ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَتَأْخُذْتَهُ. فَأَخَذَهُ وَخَرَجَ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ، فَأَمَرَ يَزِيدُ رَجُلًا أَنْ يَتَّبِعَهُ فَيَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ بِالتَّاجِ؟ فَمَرَّ بِسَائِلٍ، فَطَلَبَ مِنْهُ شَيْئًا، فَأَعْطَاهُ التَّاجَ بِكَمَالِهِ وَأَنْصَرَفَ. فَبَعَثَ يَزِيدُ إِلَى ذَلِكَ السَّائِلِ فَأَخَذَ مِنْهُ التَّاجَ وَعَوَّضَهُ عَنْهُ مَالًا كَثِيرًا.

^١ محمد بن واسع الأزدي (٤٠ - ١٢٣ هـ): تابعي، فقيه، من الزهاد. من أهل البصرة، عرض عليه ابن الجارود مالك بن المنذر قضاؤها، فأبى. ولكنه بعد ذلك قبل شرطة البصرة أيام هشام بن عبد الملك، قال المدائني: «وَلَى أَبُو الْعَاجِ شَرْطَتَهُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعِ الْعَابِدِ». وقد عد المدائني محمد بن واسع في أمراء العرب بالبصرة، وله بها دار مشهورة. شهد محمد بن واسع حرب الخوارج مع المهلب بن أبي صفرة، وذلك أيام دولة ابن الزبير سنة ٦٥ هـ. وكان قد خرج مع قتيبة بن مسلم إلى خراسان غازياً، كما كان في فتح ما وراء النهر، قال الأصمعي: «لما صافَّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة يصبص بإصبعه نحو السماء، قال: تلك الإصبع أحب إليَّ من مئة ألف سيف.»

وَكَانَ شَهْرُ بَنِي حَوْشِبٍ عَلَى حَزَائِنِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، فَرَفَعُوا إِلَيْهِ أَنَّهُ أَخَذَ خَرِيطَةً فِيهَا مِائَةٌ دِينَارٍ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ: نَعَمْ. وَأَحْضَرَهَا، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: هِيَ لَكَ. ثُمَّ اسْتَدْعَى الَّذِي وَشَى بِهِ فَشَتَّمَهُ.

وَيُقَالُ إِنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ كَانَ فِي غَزْوَةِ جُرْجَانَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا، مِنْهُمْ سِتُونَ أَلْفًا مِنْ جَيْشِ الشَّامِ أَتَاهُمُ اللَّهُ، وَقَدْ تَمَهَّدَتْ تِلْكَ الْبِلَادُ بِفَتْحِ جُرْجَانَ وَسَلَكَتِ الطَّرِيقُ، وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ مَخُوفَةً جِدًّا، ثُمَّ عَزَمَ يَزِيدُ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى طَبْرِسْتَانَ وَقَدِمَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَرِيَّةٌ هِيَ أَرْبَعَةُ أَلْفٍ مِنْ سُرَاةِ النَّاسِ، فَلَمَّا التَقُوا اقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَقُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ أَرْبَعَةُ أَلْفٍ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. ثُمَّ عَزَمَ يَزِيدُ عَلَى فَتْحِ الْبِلَادِ لَا مَحَالَةَ، وَمَا زَالَ حَتَّى صَالَحَهُ صَاحِبُهَا وَهُوَ الْإِصْبَهَنْدُ بِمَالٍ كَثِيرٍ; سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ فِي كُلِّ عَامٍ، وَعَبَّرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَتَاعِ وَالرَّقِيقِ.

وَفَاةُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعٌ وَتِسْعِينَ، وَفِيهَا كَانَتْ وَفَاةُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِعِشْرِ مَضِيٍّ عَنِ حَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ سِتِّينَ وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ.

وَهُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ الْقُرَشِيِّ الْأُمَوِيِّ أَبُو أَيُّوبَ.

كَانَ مَوْلَدُهُ بِالْمَدِينَةِ فِي بَنِي جَزِيلَةَ، وَنَشَأَ بِالشَّامِ عِنْدَ أَبِيهِ، وَرَوَى الْحَدِيثَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ. وَرَوَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُنَيْدَةَ أَنَّهُ صَحَبَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ إِلَى الْعَابَةِ، قَالَ: فَسَكَتُ، فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ: مَا لَكَ؟ فَقُلْتُ: كُنْتُ أَتَمَنَّى، فَهَلْ تَتَمَنَّى يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ فَقَالَ: لَوْ أَنَّ لِي أَحَدًا هَذَا ذَهَبًا أَعْلَمُ عَدَدَهُ وَأُخْرِجُ زَكَاتَهُ مَا كَرِهْتُ ذَلِكَ، أَوْ قَالَ: مَا حَشَيْتُ أَنْ يَضُرَّنِي.

وَكَانَتْ دَارُهُ بِدِمَشْقَ مَوْضِعَ مَيْضَاةٍ جَيْرُونَ الْآنَ فِي تِلْكَ السَّاحَةِ جَمِيعَهَا، وَبَنَى دَارًا كَبِيرَةً مِمَّا يَلِي بَابَ الصَّغِيرِ مَوْضِعَ الدَّرْبِ الْمَعْرُوفِ بِدَرْبِ مُحَرِّزٍ، وَجَعَلَهَا دَارَ الْإِمَارَةِ وَعَمِلَ فِيهَا فُبَّةً صَفْرَاءَ تَشْبِيهَا بِالْفُبَّةِ الْحَضْرَاءِ.

وَكَانَ فَصِيحًا مُؤَثِّرًا لِلْعَدْلِ مُحِبًّا لِلْعَزْوِ، وَقَدْ أَنْفَقَ الْجَيْشَ لِحِصَارِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ حَتَّى صَاحُوهُمْ عَلَى بِنَاءِ الْجَامِعِ بِهَا.

جَمَعَ عَبْدُ الْمَلِكِ بَنِيهِ الْوَلِيدَ وَسُلَيْمَانَ وَمَسْلَمَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاسْتَفْرَأَهُمُ الْقُرْآنَ فَأَجَادُوا الْقِرَاءَةَ، ثُمَّ اسْتَنْشَدَهُمُ الشَّعْرَ فَأَجَادُوا، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُكْمِلُوا أَوْ يُحْكِمُوا شَعْرَ الْأَعَشَى، فَلَامَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: لِيُنْشِدْنِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أَرْقَ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ وَلَا يُفْحِشُ، هَاتِ يَا وَلِيدُ: فَقَالَ الْوَلِيدُ:

مَا مَرَكَبٌ وَرُكُوبُ الْخَيْلِ يُعْجِبُنِي ... كَمَرَكَبٍ بَيْنَ دُمُلُوجٍ وَخَلْحَالِ

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: وَهَلْ يَكُونُ مِنَ الشَّعْرِ أَرَفْتُ مِنْ هَذَا؟ هَاتِ يَا سُلَيْمَانَ،
فَقَالَ:

حَبْدًا رَجَعَهَا يَدَيْهَا إِلَيْهَا فِي يَدِي دِرْعَهَا تَحُلُّ الْإِرَارَا

فَقَالَ: لَمْ تُصِبْ، هَاتِ يَا مَسْلَمَةَ، فَأَنْشَدَهُ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ:

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلٍ

فَقَالَ: كَذَبَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَلَمْ يُصِبْ، إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنَاهَا بِالْوَجْدِ فَمَا بَقِيَ إِلَّا
الِلِقَاءِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِلْعَاشِقِ أَنْ يَفْتَضِي مِنْهَا الْجَفَاءَ وَيَكْسُوهَا الْمَوَدَّةَ. ثُمَّ قَالَ:
أَنَا مُوَجِّلُكُمْ فِي هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَمَنْ أَتَانِي بِهِ فَلَهُ حُكْمُهُ، أَيُّ مَهْمَا
طَلَبَ أُعْطِيْتُهُ، فَنَهَضُوا مِنْ عِنْدِهِ، فَبَيْنَمَا سُلَيْمَانُ فِي مَوْكِبٍ إِذَا هُوَ بِأَعْرَابِيٍّ
يَسُوقُ إِبِلَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

لَوْ حَزَّ بِالسَّيْفِ رَأْسِي فِي مَوَدَّتِهَا لَمَالَ يَهُوي سَرِيعًا نَحْوَهَا رَأْسِي

فَأَمَرَ سُلَيْمَانُ بِالْأَعْرَابِيِّ فَاعْتَقَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى أَبِيهِ فَقَالَ: قَدْ جِئْتُكَ بِمَا سَأَلْتَ.
فَقَالَ: هَاتِ. فَأَنْشَدَهُ الْبَيْتَ، فَقَالَ: أَحْسَنْتَ، وَأَلَيْ لَكَ هَذَا؟ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ
الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ: سَلْ حَاجَتَكَ وَلَا تَنْسَ صَاحِبَكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،
إِنَّكَ قَدْ عَهَدْتَ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِكَ لِلْوَلِيدِ، وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ وَوَلِيَّ الْعَهْدِ
مِنْ بَعْدِهِ. فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَبَعَثَهُ عَلَى الْحَجِّ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ، وَأَطْلَقَ
لَهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَأَعْطَاهَا سُلَيْمَانُ لِذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ الْبَيْتَ

مِنَ الشَّعْرِ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ سَنَةَ سِتِّ وَثَمَانِينَ، وَصَارَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى أَحِيهِ الْوَلِيدِ، كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْوَزِيرِ وَالْمُشِيرِ، وَكَانَ هُوَ الْمُسْتَحْتَّ عَلَى عِمَارَةَ جَامِعِ دِمَشْقَ، فَلَمَّا تُوفِّيَ أَحُوهُ الْوَلِيدُ يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ سِتِّ وَتَسْعِينَ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ بِالرَّمْلَةِ، فَلَمَّا أَقْبَلَ تَلَقَّاهُ الْأَمْرَاءُ وَوُجُوهُ النَّاسِ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ سَارُوا إِلَيْهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَبَايَعُوهُ هُنَاكَ. وَعَزَمَ عَلَى الْإِقَامَةِ بِالْقُدْسِ، وَأَتَتْهُ الْوُفُودُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَلَمْ يَرَوْا وَفَادَةً، فَكَانَ يَجْلِسُ فِي قُبَّةٍ فِي صَحْنِ الْمَسْجِدِ مِمَّا يَلِي الصَّخْرَةَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، وَيَجْلِسُ أَكْبَرُ النَّاسِ عَلَى الْكِرَاسِيِّ وَتُقَسَّمُ فِيهِمُ الْأَمْوَالُ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى الْمَجِيءِ إِلَى دِمَشْقَ فَدَخَلَهَا وَكَمَّلَ عِمَارَةَ الْجَامِعِ.

وَفِي أَيَّامِهِ جُدِدَتِ الْمَقْصُورَةُ، وَاتَّخَذَ ابْنُ عَمِّهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُسْتَشَارًا وَوَزِيرًا، وَقَالَ لَهُ: إِنَّا قَدْ وُلِينَا مَا تَرَى، وَلَيْسَ لَنَا عِلْمٌ بِتَدْيِيرِهِ، فَمَا رَأَيْتَ مِنْ مَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ فَمُرْ بِهِ فَلْيُكْتَبْ. وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ عَزْلُ نَوَّابِ الْحَجَّاجِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِ السُّجُونِ مِنْهَا، وَإِطْلَاقُ الْأَسْرَاءِ، وَبَدْلُ الْأَعْطِيَةِ بِالْعِرَاقِ، وَرُدُّ الصَّلَاةِ إِلَى مِيقَاتِهَا الْأَوَّلِ، بَعْدَ مَا كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ يُؤَخِّرُوهَا إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا، مَعَ أُمُورٍ حَسَنَةٍ كَانَ يَسْمَعُهَا مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

وَأَمَرَ بِعَزْوِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فَبَعَثَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ فِي الْبَرِّ نَحْوًا مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، وَبَعَثَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَإِفْرِيْقِيَّةِ أَلْفَ مَرْكَبٍ فِي الْبَحْرِ، عَلَيْهِمُ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ، وَعَلَى جَمَاعَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَحُوهُ

مَسْلَمَةٌ، وَمَعَهُ ابْنُهُ دَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ،
وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنِ مَشُورَةِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ.
وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ قَدِمَ فِي أَيَّامِ أَحِيهِ الْوَلِيدِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَوَّلُ كَلَامٍ تَكَلَّمَ بِهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ وُلِيَ الْخِلَافَةَ أَنْ قَالَ: الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي مَا شَاءَ صَنَعَ، وَمَا شَاءَ رَفَعَ، وَمَا شَاءَ وَضَعَ، وَمَنْ شَاءَ أَعْطَى، وَمَنْ
شَاءَ مَنَعَ، إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ غُرُورٍ، وَمَنْزِلٌ بَاطِلٌ، وَزِينَةٌ تَقْلُبُ، تُضْحِكُ بَاطِلًا،
وَتُبْكِي ضَاحِكًا، وَتُخِيفُ آمِنًا، وَتُؤَمِّنُ حَاقِمًا، تُفْقِرُ مُثْرِبَهَا، وَتُثْرِي فَقِيرَهَا،
مِيَالَةً لِأَعْبَةِ بِأَهْلِهَا، يَا عِبَادَ اللَّهِ، اتَّخَذُوا كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا وَارْضُوا بِهِ حَكْمًا
وَاجْعَلُوهُ لَكُمْ قَائِدًا؛ فَإِنَّهُ نَاسِحٌ لِمَا قَبْلَهُ وَلَنْ يَنْسَحَهُ كِتَابٌ بَعْدَهُ؛ اَعْلَمُوا
عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَجْلُو كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَضَعَائِنَهُ كَمَا يَجْلُو ضَوْءُ الصُّبْحِ
إِذَا تَنَقَّسَ إِدْبَارَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَعَسَ.

وَقَالَ فِي حُطْبَتِهِ: فَضُلُّ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ.

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَازِمٍ قَالَ: كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ
يَخْطُبُنَا كُلَّ جُمُعَةٍ لَا يَدْعُ أَنْ يَقُولَ فِي حُطْبَتِهِ: وَإِنَّمَا أَهْلُ الدُّنْيَا عَلَى رَحِيلٍ، لَمْ
تَمُضِ بِهِمْ نِيَّةٌ، وَلَمْ تَطْمَئِنَّ لَهُمْ دَارٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرٌ وَعَدِ اللَّهُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ،
كَذَلِكَ لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجَائِعُهَا، وَلَا يُتَّقَى مِنْ شَرِّ أَهْلِهَا، ثُمَّ
يَتَلَوُ: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَعْنَى عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ}.

وَرَوَى الْأَصْمَعِيُّ أَنَّ نَفْسَ حَاتِمِهِ: آمَنَتْ بِاللَّهِ مُخْلِصًا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: يَرْحَمُ اللَّهُ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، افْتَتَحَ خِلَافَتَهُ بِحَيْرٍ، وَحَتَمَهَا بِحَيْرٍ؛ افْتَتَحَهَا بِأَحْيَائِهِ الصَّلَاةَ لِمَوَاقِفِهَا، وَحَتَمَهَا بِاسْتِخْلَافِهِ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ عُلَمَاءُ السِّيَرِ وَالتَّوَارِيخِ أَنَّهُ حَجَّ بِالنَّاسِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَهُوَ حَلِيفَةٌ.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: حَجَّ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا رَأَى النَّاسَ بِالمَوْسِمِ، قَالَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَلَا تَرَى هَذَا الخَلْقَ الَّذِي لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَسَعُ رِزْقُهُمْ غَيْرُهُ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَؤُلَاءِ رَعِيَّتُكَ اليَوْمَ وَهُمْ عَدَا حُصَمَاؤُكَ. فَبَكَى سُلَيْمَانُ بُكَاءً شَدِيدًا ثُمَّ قَالَ: بِاللَّهِ أَسْتَعِينُ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي سَفَرٍ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَصَابَتْهُمُ السَّمَاءُ بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ وَظُلْمَةٍ وَرِيحٍ شَدِيدَةٍ، حَتَّى فَرَعُوا لِذَلِكَ، وَجَعَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَضْحَكُ فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: مَا أَضْحَكَكَ يَا عُمَرُ؟ أَمَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ آثَارُ رَحْمَتِهِ فِيهِ شَدَائِدٌ مَا تَرَى، فَكَيْفَ بِآثَارِ سَخَطِهِ وَغَضَبِهِ!؟

وَمِنْ كَلَامِهِ الحَسَنِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، قَوْلُهُ: الصَّمْتُ مَنَامُ العَقْلِ، وَالنُّطْقُ يَفْطَنُهُ، وَلَا يَنْبَغُ هَذَا إِلَّا بِهَذَا.

وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَأَعْجَبَهُ مَنْطِقُهُ، ثُمَّ فَتَشَهُ فَلَمْ يَحْمَدْ عَقْلَهُ، فَقَالَ:
فَضْلُ مَنْطِقِ الرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ خُدْعَةٌ، وَفَضْلُ عَقْلِهِ عَلَى مَنْطِقِهِ هُجْنَةٌ، وَخَيْرُ
ذَلِكَ مَا أَشْبَهَ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَقَالَ: الْعَاقِلُ أَحْرَصُ عَلَى إِقَامَةِ لِسَانِهِ مِنْهُ عَلَى طَلَبِ مَعَاشِهِ.

وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ، وَلَيْسَ كُلُّ
مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ.

وَمِنْ شِعْرِهِ يَتَسَلَّى عَنْ صَدِيقٍ لَهُ مَاتَ:

وَهَوَّ وَجَدِي فِي شَرَا حِيلٍ أَنِّي مَتَى شِئْتُ لَأَقِيَتْ أَمْرًا مَاتَ صَاحِبُهُ

وَمِنْ شِعْرِهِ أَيْضًا:

وَمِنْ شِيْمَتِي أَلَّا أَفَارِقَ صَاحِبِي وَإِنْ مَلَّيْ إِلاَّ سَأَلْتُ لَهُ رُشْدًا

وَإِنْ دَامَ لِي بِالْوَدِّ دُمْتُ وَلَمْ أَكُنْ كَأَخْرٍ لَا يَرَعَى ذِمَامًا وَلَا عَهْدًا

وَسَمِعَ سُلَيْمَانَ لَيْلَةً صَوْتَ غِنَاءٍ فِي مَعْسَكَرِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْحَصُ حَتَّى أَتَى بِهِمْ،
فَقَالَ سُلَيْمَانُ: إِنَّ الْفَرَسَ لَيَصْهَلُ فَتَسْتَوْدِقُ لَهُ الرَّمَكَةَ، وَإِنَّ الْجَمَلَ لَيَخْطِرُ
فَتَضْبَعُ لَهُ النَّاقَةَ، وَإِنَّ التَّيْسَ لَيَنْبُ، فَكَشَرْتَ لَهُ الْعَنْزُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَعَنَّ
فَتَشْتَاقُ لَهُ الْمَرْأَةُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ لِيُخْصَوْهُمْ. فَيُقَالُ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ:
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهَا مُثَلَّةٌ. فَتَرَكَهُمْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ حَصَى أَحَدَهُمْ ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَصْلِ الْعِنَاءِ فَقِيلَ: إِنَّهُ بِالْمَدِينَةِ. فَكَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ بِهَا وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ يَأْمُرُهُ أَنْ يَحْصِيَ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُعْنِيِّينَ الْمُحْتَشِينَ^١.

وَدَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى سُلَيْمَانَ، فَدَعَاهُ إِلَى أَكْلِ الْفَالُودَجِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَكْلَهَا يَزِيدُ فِي الدِّمَاغِ. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَأْسُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلَ رَأْسِ الْبُغْلِ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ عَرَضَتْ لَهُ حُمَّى أَذْنُهُ إِلَى الْمَوْتِ.

وَلَمَّا حُمَّ شَرَعَ يَتَوَضَّأُ، فَدَعَا بِجَارِيَةٍ، وَيُرْوَى أَنَّ الْجَارِيَةَ لَمَّا جَاءَتْهُ بِالطَّسْتِ، جَعَلَتْ تَضْطَرِبُ مِنَ الْحُمَّى فَقَالَ: أَيْنَ فُلَانَةٌ؟ فَقَالَتْ: مَحْمُومَةٌ. قَالَ: فُلَانَةٌ؟ قَالَتْ: مَحْمُومَةٌ. وَكَانَ بِمَرْجٍ دَابِقٍ مِنْ أَرْضِ فَنَسْرِينَ فَأَمَرَ خَالَهُ فَوَضَّأَهُ، ثُمَّ خَرَجَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ فِي الْخُطْبَةِ، ثُمَّ نَزَلَ وَقَدْ أَصَابَتْهُ الْحُمَّى، فَاسْتَمَرَ فِيهَا حَتَّى مَاتَ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ أَصَابَهُ ذَاتُ الْجَنْبِ، فَمَاتَ بِهَا، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَكَانَ قَدْ أَقْسَمَ أَنَّهُ لَا يَبْرُحُ دَابِقًا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ الْخَبْرُ بِفَتْحِ الْفُسْطَنْطِينِيَّةِ أَوْ يَمُوتَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَمَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ.

^١ وفي كتب الأدب أنه أمره بأن يحصيهم، فقرأها: يحصيهم، بالخاء، فخصاهم.

وَجَعَلَ يَلْهَجُ فِي مَرَضِهِ وَيَقُولُ:

إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صِغَارُ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ كِبَارُ

فَيَقُولُ لَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ يَقُولُ:

إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صِنْفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ شِنُوِيُّونَ

وَيُرْوَى أَنَّ هَذَا آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ آخِرَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ:
أَسْأَلُكَ مُنْقَلَبًا كَرِيمًا. ثُمَّ قَضَى.

وَعَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ^١ وَكَانَ وَزِيرَ صِدْقٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ قَالَ: اسْتَشَارَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُوَ مَرِيضٌ أَنْ يُؤَيِّ ابْنًا لَهُ صَغِيرًا لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ، فَقُلْتُ: إِنَّ مِمَّا يَحْفَظُ الْخَلِيفَةَ فِي قَبْرِهِ أَنْ يُؤَيِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ، ثُمَّ شَاوَرَنِي فِي وِلَايَةِ ابْنِهِ دَاوُدَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ غَائِبٌ عَنْكَ بِالْقُسْطَانِطِينِيَّةِ، وَلَا تَدْرِي أَحَى هُوَ أَمْ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: فَمَنْ تَرَى؟ فَقُلْتُ: رَأَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: كَيْفَ تَرَى فِي عَمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ؟ فَقُلْتُ: أَعْلَمُهُ وَاللَّهِ خَيْرًا فَاضِلًا

^١ رجاء بن حيوة الكندي الفقيه: من جلة التابعين، فقيه وخطاط اشتهر بأنه أحد المهندسين الاثنين الذين أشرفا على تفاصيل الزخارف والنقوش الإسلامية داخل قبة الصخرة في القدس. ولد رجاء في بيسان في فلسطين وعاش فيها. كان ملازماً للخليفة عمر بن عبد العزيز، ولم يصاحب خليفة بعد وفاته. مشير الخلفاء والأمراء، عينه عبد الملك بن مروان وزيراً ومستشاراً بعد أن ذاع صيته بين العلماء، وكان من مستشاري سليمان بن عبد الملك ومن أشار عليه بتولية عمر بن عبد العزيز من بعده.

مُسْلِمًا. فَقَالَ: هُوَ وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكِ، وَلَكِنْ أَتَخَوَّفُ إِحْوِي لَا يَرْضُونَ بِذَلِكَ. فَأَشَارَ رَجَاءٌ أَنْ يَجْعَلَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبِئِ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِيَرْضِيَ بِذَلِكَ بَنِي مَرْوَانَ، فَكَتَبَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، إِنِّي قَدْ وَلَيْتُكَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي، وَمِنْ بَعْدِهِ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيُطَمَعَ فِيكُمْ.

وَحَتَمَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ حَامِدِ الْعَبْسِيِّ صَاحِبِ الشَّرْطَةِ، فَقَالَ لَهُ: اجْمَعْ أَهْلَ بَيْتِي، فَمُرَّهُمْ فَلْيَبَايِعُوا عَلِيَّ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مَحْتَمًا، فَمَنْ أَبِي مِنْهُمْ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، فَاجْتَمَعُوا وَدَخَلَ رِجَالٌ مِنْهُمْ فَسَلَّمُوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا الْكِتَابُ عَهْدِي إِلَيْكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا وَبَايِعُوا مَنْ وَلَيْتُ فِيهِ. فَبَايَعُوا رِجَالًا رِجَالًا.

قَالَ رَجَاءٌ: فَلَمَّا تَفَرَّقُوا جَاءَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ: أَنْشُدْكَ اللَّهَ وَحُرْمَتِي وَمَوَدَّتِي إِلَّا أَعْلَمْتَنِي إِنْ كَانَ كَتَبَ لِي ذَلِكِ حَتَّى أَسْتَعْفِيَهُ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ حَالَ لَا أَقْدِرُ فِيهَا عَلَى مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ السَّاعَةَ! فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أُحْبِرُكَ حَرْفًا وَاحِدًا. قَالَ: وَلَقَبَنِي هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ: يَا رَجَاءُ، إِنَّ لِي بِكَ حُرْمَةً وَمَوَدَّةً قَدِيمَةً، فَأَحْبِرْنِي هَذَا الْأَمْرَ، فَإِنْ كَانَ إِلَيَّ عَلِمْتُ، وَإِنْ كَانَ إِلَى غَيْرِي تَكَلَّمْتُ، فَمَا مِثْلِي قُصِّرَ بِهِ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أُحْبِرُكَ حَرْفًا وَاحِدًا مِمَّا أَسْرَّ إِلَيَّ.

قَالَ رَجَاءٌ: وَدَخَلْتُ عَلَى سُلَيْمَانَ، فَإِذَا هُوَ يَمُوتُ، فَجَعَلْتُ إِذَا أَخَذْتُهُ السَّكْرَةَ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ أُحْرِفُهُ إِلَى الْقِبْلَةِ، فَإِذَا أَفَاقَ يَقُولُ: لَمْ يَأْنِ لَذَلِكَ بَعْدُ يَا رَجَاءُ. فَفَعَلْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتِ الثَّالِثَةَ قَالَ: مَنْ الْآنَ يَا رَجَاءُ إِنْ كُنْتُ تُرِيدُ شَيْئًا، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَحَرَفْتُهُ إِلَى الْقِبْلَةِ وَمَاتَ، فَعَطَّيْتُهُ بِقَطِيفَةٍ حَضْرَاءَ، وَأَعْلَقْتُ الْبَابَ عَلَيْهِ، وَأَرْسَلْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ حَامِدٍ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي مَسْجِدِ دَابِيقٍ فَقُلْتُ: بَايَعُوا لِمَنْ فِي هَذَا الْكِتَابِ. فَقَالُوا: قَدْ بَايَعْنَا. فَقُلْتُ: بَايَعُوا ثَانِيَةً. فَفَعَلُوا، ثُمَّ قُلْتُ: قُومُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ فَقَدْ مَاتَ. وَقَرَأْتُ الْكِتَابَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى ذِكْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، تَغَيَّرَتْ وُجُوهُ بَنِي مَرْوَانَ، فَلَمَّا قَرَأْتُ: وَإِنَّ يَرِيدَ بَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ بَعْدِهِ، تَرَاجَعُوا بَعْضَ الشَّيْءِ، وَنَادَى هِشَامٌ: لَا تُبَايِعُهُ أَبَدًا. فَقُلْتُ: أَضْرِبُ وَاللَّهِ عُنُقَكَ، فَمَ فَبَايَعِ.

وَهَضَّ النَّاسَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ فِي مَوْحَرِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ ذَلِكَ قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَلَمْ تَحْمَلْهُ رِجْلَاهُ حَتَّى أَخَذُوا بِضَبْعَيْهِ، فَأَصْعَدُوهُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَسَكَتَ حِينًا، فَقَالَ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ: أَلَا تَقُومُونَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَتُبَايِعُوهُ! فَهَضَّ الْقَوْمُ فَبَايَعُوهُ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ هِشَامٌ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ لِيُبَايِعَ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. فَقَالَ عُمَرُ: نَعَمْ! إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، الَّذِي صِرْتُ أَنَا وَأَنْتَ نَتَنَارَعُ هَذَا الْأَمْرَ.

ثُمَّ قَامَ فَحَطَبَ النَّاسَ حُطْبَةً بَلِيغَةً وَبَايَعُوهُ، فَكَانَ بِمَا قَالَ فِي حُطْبَتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ: لَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ، وَإِنَّ مَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ إِنْ هُمْ أَطَاعُوا كَمَا أَطَعْتُمْ فَأَنَا وَالْيَوْمُ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَلَسْتُ لَكُمْ بِوَالٍ. ثُمَّ نَزَلَ فَشَرَعُوا فِي جِهَارِ سُلَيْمَانَ.

فَلَمْ يَفْرَعُوا مِنْهُ حَتَّى دَخَلَ وَقْتُ الْمَغْرِبِ، فَصَلَّى عُمَرُ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ ثُمَّ صَلَّى عَلَى سُلَيْمَانَ وَدُفِنَ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ عُمَرُ أَتَى بِمَرَكَبِ الْخِلَافَةِ فَلَمْ يَرْكَبْهَا، وَرَكِبَ دَابَّتَهُ، ثُمَّ سَارَ مَعَ النَّاسِ حَتَّى أَتَوْا دِمَشْقَ فَمَالُوا بِهِ نَحْوَ دَارِ الْخِلَافَةِ فَقَالَ: لَا أَنْزِلُ إِلَّا فِي مَنْزِلِي حَتَّى تَفْرُعَ دَارُ أَبِي أَيُّوبَ، فَاسْتُحْسِنَ ذَلِكَ مِنْهُ، ثُمَّ اسْتَدْعَى بِالْكَاتِبِ، فَجَعَلَ يُمْلِي عَلَيْهِ نُسخَةَ الْكِتَابِ الَّذِي يُبَايِعُ عَلَيْهِ الْأَمْصَارَ قَالَ رَجَاءٌ: فَمَا رَأَيْتُ أَفْصَحَ مِنْهُ.

وَكَانَ وَفَاةُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدَائِقٍ مِنْ أَرْضِ قَنْسَرِينَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِعَاشِرِ لِيَالٍ حَلَّتْ مِنْ صَفْرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، عَلَى رَأْسِ سَنَتَيْنِ وَتِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ مُتَوَفَى الْوَلِيدِ. كَانَتْ وَلَايَتُهُ سَنَتَيْنِ وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ طَوِيلًا جَمِيلًا أَبْيَضَ نَحِيفًا، حَسَنَ الْوَجْهِ، مَقْرُونَ الْحَاجِبَيْنِ، وَكَانَ فَصِيحًا بَلِيغًا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ، وَيَرْجِعُ إِلَى دِينٍ وَخَيْرٍ وَحَبَّةٍ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَإِظْهَارِ الشَّرَائِعِ الْإِسْلَامِيَّةِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى عَلَى نَفْسِهِ حِينَ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى مَرَجٍ دَابِقٍ وَدَابِقٍ قَرِيبَةٌ مِنْ بِلَادِ حَلَبٍ وَقَدْ جُهِّزَتِ الْجِيُوشُ إِلَى مَدِينَةِ الرُّومِ الْعُظْمَى الْمُسَمَّاةِ بِالْمُسْتَنْطِيبِيَّةِ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَى دِمَشْقَ حَتَّى تُفْتَحَ أَوْ يَمُوتَ. فَمَاتَ هُنَالِكَ كَمَا ذَكَرْنَا، فَحَصَلَ لَهُ بِهَذِهِ النِّيَّةِ أَجْرُ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، مِمَّنْ يُجْرَى لَهُ ثَوَابُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

خِلاَفَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ بُويعَ لَهُ بِالْخِلاَفَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِعَشْرِ مَضِينَ وَقِيلَ: بَقِيْنَ مِنْ صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ أَعْنِي سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ يَوْمَ مَاتَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ عَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْ عُمَرَ كَمَا قَدَّمْنَا.

وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَخَايِلُ الْوَرَعِ وَالِدِّينِ وَالتَّقَشُّفِ وَالصِّيَانَةِ وَالتَّزَاهَةِ مِنْ أَوَّلِ حَرَكَةٍ بَدَتْ مِنْهُ؛ حَيْثُ أَعْرَضَ عَنْ رُكُوبِ مَرَاقِبِ الْخِلاَفَةِ، وَهِيَ الْخَيُْولُ الْحِسَانُ الْجَيَادُ الْمُعَدَّةُ هَا، وَالْإِجْتِرَاءُ بِمَرْكُوبِهِ الَّذِي كَانَ يَرْكَبُهُ، وَسَكَنَى مَنْزِلَهُ رَغْبَةً عَنْ مَنْزِلِ الْخِلاَفَةِ.

وَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ فِي حُطْبَتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً لَا تُعْطَى شَيْئًا إِلَّا تَأَقَّتْ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، وَإِنِّي لَمَّا أُعْطِيتُ الْخِلاَفَةَ تَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهَا وَهِيَ الْجَنَّةُ؛ فَأَعِينُونِي عَلَيْهَا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ. وَسَتَأْتِي تَرْجَمَتُهُ عِنْدَ وَفَاتِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَكَانَ مِمَّا بَادَرَ إِلَيْهِ عُمَرُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَنْ بَعَثَ إِلَى مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ بِأَرْضِ الرُّومِ مُحَاصِرُوا الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْحَالُ وَضَاقَ عَلَيْهِمُ الْمَجَالُ؛ لِأَنََّّهُمْ عَسَكَرَ كَثِيرٌ فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ بِأَمْرِهِمْ بِالرُّجُوعِ إِلَى الشَّامِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ بِطَعَامٍ كَثِيرٍ وَحِيُولٍ كَثِيرَةٍ عَتَاقٍ يُقَالُ: حَمْسُمَائَةٌ فَرَسٍ. فَفَرِحَ النَّاسُ بِذَلِكَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَغَارَتِ التُّرُكُ عَلَى أَدْرِيَجَانَ فَقَتَلُوا خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَاتِمَ بْنَ النُّعْمَانَ الْبَاهِلِيَّ، فَقَتَلَ أَوْلَيْكَ الْأَتْرَاقَ، وَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا الْيَسِيرُ، وَبَعَثَ مِنْهُمْ أُسَارَى إِلَى عُمَرَ وَهُوَ بِمُخَاصِرَةٍ.

وَقَدْ كَانَ الْمُؤَدِّبُونَ يُذَكِّرُونَهُ بَعْدَ آذَانِهِمْ بِاقْتِرَابِ الْوَقْتِ وَضَيْقِهِ؛ لِأَنَّهَا يُؤَخَّرُهَا كَمَا كَانَ يُؤَخَّرُهَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُ لِكثْرَةِ الْأَشْغَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِهِ لَهُمْ بِذَلِكَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي تَرْجَمَةِ حَرِيْزِ بْنِ عُثْمَانَ الرَّحِيِّيِّ الْحِمِصِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ مُؤَدِّبِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، الصَّلَاةُ قَدْ قَارَبَتْ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَزَلَ عُمَرُ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ عَنْ إِمْرَةِ الْعِرَاقِ، وَبَعَثَ عَدِيَّ بْنَ أَرْطَاةَ الْفُزَارِيَّ عَلَى إِمْرَةِ الْبَصْرَةِ، فَاسْتَقْضَى عَلَيْهَا الْحُسْنَ الْبَصْرِيَّ، فَاسْتَعْفَاهُ

فَأَعْفَاهُ، وَاسْتَفْضَى مَكَانَهُ إِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ^١ الدُّكَيْيَ الْمَشْهُورَ، وَبَعَثَ عَلَى
إِمْرَةَ الْكُوفَةِ وَأَرْضَهَا عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ^٢، وَضَمَّ
إِلَيْهِ أَبَا الزِّنَادِ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاسْتَفْضَى عَلَيْهَا عَامِرًا الشَّعْبِيَّ. فَلَمْ يَزَلْ قَاضِيًا
عَلَيْهَا مُدَّةَ خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَجَعَلَ عَلَى إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ الْجُرَّاحَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيِّ. وَكَانَ نَائِبَ مَكَّةَ عَبْدَ
الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدٍ. وَعَلَى إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ

^١ إياس بن معاوية بن قرة المزني: كان قاضياً في البصرة وهو من التابعين، وُلِدَ سنة ٤٦ للهجرة في منطقة اليمامة في نجد، وانتقل مع أسرته إلى البصرة، وبها نشأ وتعلّم، وتردّد على دمشق في يفاعته، وأخذ عن أدركهم من بقايا الصحابة الكرام وجلة التابعين، ولقد ظهرت عليه أمارات الذكاء منذ نعومة أظفاره، وأكبّ هذا الفتى على العلم، ونهل منه ما شاء الله أن ينهل، حتى بلغ منه مبلغاً جعل الشيوخ يخضعون له، ويأتمون به، ويتلمذون على يديه على الرغم من صغر سنه، وذات مرة زار عبد الملك بن مروان البصرة قبل أن يلي الخلافة، فرأى إياساً وكان يومئذٍ فتى يافعاً، لم ينبت شاربه بعد، ورأى خلفه أربعة من القراء من ذوي اللحى بطيالستهم الخضر، وهو يتقدّمهم، فقال عبد الملك: أفي لأصحاب هذه اللحى، أما فيهم شيخ يتقدّمهم، فقدّموا هذا الغلام، ثم التفت إلى إياس، وقال: يا غلام كم سنك؟ - أي ازدرأ له - فقال: أيها الأمير سني أطال بقاء الأمير كسرت أسامة بن زيد حين ولأه رسول الله جيشاً فيهم أبو بكر وعمر، فقال له عبد الملك: تقدّم يا فتى تقدّم - أي علمك قدّمك - بارك الله فيك.

^٢ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، أبو عمر العدوي الخطابي المدني الأعرج: من الأئمة الثقات، وهو قليل الرواية، كان أمير الكوفة للخليفة عمر بن عبد العزيز، توفي بحران في سنة نيف عشرة ومائة.

بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرْمٍ، وَهُوَ الَّذِي حَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ. وَعَزَلَ عَنِ إِمْرَةِ مِصْرَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ رِفَاعَةَ وَوَلَّى عَلَيْهَا أَيُّوبَ بْنَ شَرْحِبِيلَ، وَجَعَلَ الْفُتَيْبَا إِلَى جَعْفَرِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَيَرِيدَ بْنَ أَبِي حَبِيبٍ وَعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُفْتُونَ النَّاسَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى إِفْرِيقِيَّةَ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَحْزُومِيِّ، وَكَانَ حَسَنَ السِّيَرَةِ وَأَسْلَمَ فِي وَلَايَتِهِ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْبَرَبْرِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

شبهة دس السَّم إلى عمر بن عبدالعزيز

ثم دخلت سنة مائة من الهجرة النبوية، وفيها خرجت خارجة من الحزورية بالعراق، فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد نائب الكوفة يأمره بأن يدعوهم إلى الحق، ويتلطّف بهم، ولا يُقاتلهم حتى يُفسدوا في الأرض، فلما فعلوا ذلك بعث إليهم جيشًا فكسرهم الحزورية، فبعث عمر إليه يلوّمه على جيشه، وأرسل عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم، فأظفره الله بهم، وقد أرسل عمر إلى كبير الخوارج وكان يُقال له: بسطام يقول له: ما أخرجك عليّ؟ فإن كنت خرجت غضبًا لله فأنا أحقّ بذلك منك، ولست أولى بذلك مني، وهلمّ أناظرك؛ فإن رأيت حقًا اتبعتّه، وإن أبديت حقًا نظرنا فيه.

فَبَعَثَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَيْهِ فَاخْتَارَ مِنْهُمْ عُمَرَ رَجُلَيْنِ فَسَأَلَهُمَا: مَاذَا تَنْقُمُونَ؟ فَقَالَا: جَعَلَكَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ بَعْدِكَ. فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَجْعَلْهُ أَبَدًا، وَإِنَّمَا جَعَلْتُهُ غَيْرِي. قَالَا: فَكَيْفَ تَرْضَى بِهِ أَمِينًا لِلْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِكَ؟ فَقَالَ: أَنْظِرْنِي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. فَيُقَالُ: إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ دَسَّتْ إِلَيْهِ سُمًّا فَفَقَتَلُوهُ؛ حَشِيَّةٌ أَنْ يَخْرُجَ الْأَمْرُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَيَمْنَعَهُمُ الْأَمْوَالَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَزَا عُمَرُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ هِشَامِ الْمُعِطِيُّ، وَعَمَرُوهُ بْنُ قَيْسِ الْكِنْدِيِّ مِنْ أَهْلِ جَمْعِ الصَّائِفَةِ.

وَفِيهَا وَلَّى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ الْجَزِيرَةَ، فَسَارَ إِلَيْهَا. وَفِيهَا حُمِلَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنَ الْعِرَاقِ؛ أَرْسَلَهُ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ نَائِبُ الْبَصْرَةِ وَقَدْ كَانَ أَظْهَرَ الْإِمْتِنَاعَ مَعَ مُوسَى بْنِ وَجِيهِ، وَكَانَ عُمَرُ يُبْغِضُ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَيَقُولُ: هَؤُلَاءِ جَبَابِرَةٌ وَلَا أَحِبُّ مِنْهُمْ.

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى عُمَرَ طَالَبَهُ بِمَا قَبِلَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي كَانَ قَدْ كَتَبَ إِلَى سُلَيْمَانَ أَنَّهَا حَاصِلَةٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ إِنَّمَا كَتَبْتُ ذَلِكَ لِأَرْهَبَ الْأَعْدَاءَ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ بَنِي وَبَيْنَ سُلَيْمَانَ شَيْءٌ، وَقَدْ عَرَفْتُ مَكَانَتِي عِنْدَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَا أَسْمَعُ مِنْكَ هَذَا، وَلَسْتُ أُطْلِقُكَ حَتَّى تُؤَدِّيَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَمَرَ بِسَجْنِهِ.

وَكَانَ عُمَرُ قَدْ بَعَثَ عَلَى إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ الْجُرَّاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيِّ عِوَضَهُ، وَقَدِمَ وَلَدُ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِوَلَاتِكَ عَلَيْهَا فَلَا نَكُونَنَّ أَشَقَى النَّاسِ بِكَ، فَعَلَامَ تَحْسِبُ هَذَا الشَّيْخَ وَأَنَا أَقَوْمٌ بِمَا تُصَالِحُنِي عَنْهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَا أَصَالِحُكَ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَقُومَ بِجَمِيعِ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ كَانَتْ لَكَ بَيِّنَةٌ عَلَيْهِ بِمَا تَقُولُ وَإِلَّا فَاقْبَلْ يَمِينَهُ أَوْ فَصَالِحِنِي عَنْهُ. فَقَالَ: لَا أَحْذُ مِنْهُ إِلَّا جَمِيعَ مَا عِنْدَهُ، فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْ عِنْدِ عُمَرَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ مُحَمَّدٌ، فَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: هُوَ خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ.

ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ أَمَرَ بِأَنْ يَلْبَسَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ جُبَّةً مِنْ صُوفٍ، وَيَرْكَبَ عَلَى بَعِيرٍ وَيَذْهَبُوا إِلَى جَزِيرَةِ دَهْلِكَ الَّتِي كَانَ يُنْفَى إِلَيْهَا الْفُسَّاقُ، فَشَفَعُوا فِيهِ، فَرَدَّهُ إِلَى السِّجْنِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى مَرِضَ عُمَرُ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَهَرَبَ مِنَ السِّجْنِ وَهُوَ مَرِيضٌ، وَعَلِمَ أَنَّهُ يَمُوتُ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ، وَبَدَلَكَ كَتَبَ إِلَيْهِ، كَمَا سَيَأْتِي، وَأَطْنَهُ كَانَ عَالِمًا أَنَّ عُمَرَ قَدْ سَقَى سُمًّا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي رَمَضَانَ مِنْهَا عَزَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرَّاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيِّ عَنِ إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ بَعْدَ سَنَةٍ وَخَمْسَةِ أَشْهُرٍ؛ وَإِنَّمَا عَزَلَهُ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ الْجَزِيرَةَ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنَ الْكُفَّارِ وَيَقُولُ: أَنْتُمْ إِنَّمَا تُسَلِّمُونَ فِرَارًا مِنْهَا. فَأَمْتَنَعُوا مِنَ الْإِسْلَامِ وَتَبَتُّوا عَلَى دِينِهِمْ وَأَدَّوْا الْجَزِيرَةَ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: إِنَّ اللَّهَ إِثْمًا بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَاعِيًا وَلَمْ يَبْعَثْهُ جَائِيًا. وَعَزَلَهُ وَوَلَّى بَدَلَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ نَعِيمِ الْفُشَيْرِيِّ عَلَى الْحَرْبِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الْحَرَاجِ.

وَفِيهَا كَتَبَ عُمَرُ إِلَى عُمَالِهِ يَأْمُرُهُمْ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقَّ، وَيُوضِّحُهُ لَهُمْ، وَيَعْظُمُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَيُخَوِّفُهُمْ بِأَسْرِ اللَّهِ وَانْتِقَامِهِ فَكَانَ فِيمَا كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَعِيمِ الْفُشَيْرِيِّ:

أَمَّا بَعْدُ، فَكُنْ عَبْدًا لِلَّهِ نَاصِحًا لِلَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِكَ مِنَ النَّاسِ، وَحَقُّهُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ، وَلَا تُؤَلِّينَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا الْمَعْرُوفَ بِالنَّصِيحَةِ لَهُمْ، وَالتَّوْفِيرَ عَلَيْهِمْ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ فِيمَا اسْتُرْعِيَ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مَيْلُكَ مَيْلًا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَا تَذْهَبُ عَنِ اللَّهِ مَذْهَبًا؛ فَإِنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ. وَكَتَبَ مِثْلَ ذَلِكَ مَوَاعِظَ كَثِيرَةً إِلَى الْعُمَّالِ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي "صَحِيحِهِ": وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَخُدُودًا وَسُنَنًا، مَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشَ فَسَأَبَيْتُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتَ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ.

بداية دَعْوَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَ بُدُو دَعْوَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - وَكَانَ مُقِيمًا بِأَرْضِ الشَّرَاةِ^١ - بَعَثَ مِنْ جِهَتِهِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ مَيْسَرَةٌ، إِلَى الْعِرَاقِ، وَأَرْسَلَ طَائِفَةً أُخْرَى وَهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ حُنَيْسٍ وَأَبُو عِكْرِمَةَ السَّرَّاجَ وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ، وَحَيَّانُ الْعَطَّارُ خَالَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَلَمَةَ إِلَى حُرَّاسَانَ وَعَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ الْجِرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيُّ قَبْلَ أَنْ يُعْزَلَ فِي رَمَضَانَ، وَأَمَرَهُمْ بِالذُّعَاءِ إِلَيْهِ، وَإِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، فَلَقُوا مَنْ لَقُوا ثُمَّ انْصَرَفُوا بِكُتُبٍ مِّنْ اسْتِجَابِ مِنْهُمْ إِلَى مَيْسَرَةَ، الَّذِي بِالْعِرَاقِ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ فَفَرِحَ بِهَا وَاسْتَبَشَّرَ وَسَرَّهُ، وَكَانَ مَبَادِيءَ أَمْرٍ قَدْ كَتَبَ اللَّهُ إِتْمَامَهُ وَأَوَّلَ رَأْيٍ قَدْ أَحْكَمَ اللَّهُ إِبْرَاهِمَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةٍ قَدْ بَانَ عَلَيْهَا مَخَايِلُ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ، وَلَا سِيَّمًا بَعْدَ مَوْتِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

وَقَدْ اخْتَارَ أَبُو مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَهُمْ: سُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ الْخُرَاعِيُّ، وَلَاهِزُ بْنُ قُرَيْظٍ التَّمِيمِيُّ، وَقَحْطَبَةُ بْنُ شَيْبِ الطَّائِيِّ، وَمُوسَى بْنُ كَعْبٍ التَّمِيمِيُّ، وَخَالِدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَبُو دَاوُدَ مِنْ بَنِي عَمْرٍو بْنِ شَيْبَانَ بْنِ ذَهَبٍ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُجَاشِعٍ التَّمِيمِيُّ، وَعِمْرَانُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَبُو النَّجْمِ

^١ الشَّرَاةُ: جبل شامخٌ من دون عُسْفَانَ، وَصُفِّعَ بِالشَّامِ قَرِيبَ مِنْ دِمَشْقَ، كَانَ يَسْكُنُهُ عَلِيٌّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْلَادُهُ إِلَى أَنْ أَتَتْهُمْ الْخِلَافَةُ.

مَوْلى لآلِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَمَالِكُ بْنُ أَهْيَمِ الخَزَاعِي، وَطَلْحَةُ بْنُ زُرَيْقِ الخَزَاعِي، وَعَمْرُو بْنُ أَعْيَنَ أَبُو حَمْرَةَ مَوْلى الخَزَاعَةَ، وَشَبْلُ بْنُ طَهْمَانَ أَبُو عَلِيٍّ الهَرَوِيُّ مَوْلى لِبَنِي حَنِيفَةَ، وَعَيْسَى بْنُ أَعْيَنَ مَوْلى خَزَاعَةَ أَيضًا.

وَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا أَيضًا. وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ كِتَابًا يَكُونُ مِثْلًا وَسِيرَةً يَقْتَدُونَ بِهَا وَيَسِيرُونَ بِهَا.

وَقَدْ حَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمِ نَائِبِ الْمَدِينَةِ. وَالثَّوَابُ عَلَى الْأَمْصَارِ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا سِوَى مَنْ ذَكَرْنَا مِنْ عَزَلٍ وَتَوَلَّى غَيْرُهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَمْ يَحْجِ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي أَيَّامِ خِلَافَتِهِ لِشُغْلِهِ بِالْأُمُورِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُبْرِدُ الْبَرِيدَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَيَقُولُ لَهُ: سَلِّمْ عَلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِّي. وَسَيَأْتِي بِإِسْنَادِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَمِائَةٍ، وَفِيهَا كَانَ هَرَبُ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ مِنَ السَّجْنِ حِينَ بَلَغَهُ مَرَضُ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ فَوَاعَدَ غِلْمَانَهُ يَلْقَوْنَهُ بِالْحَيْلِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ، ثُمَّ نَزَلَ مِنْ مَحَبْسِهِ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ وَامْرَأَتُهُ عَاتِكَةُ بِنْتُ الْفُرَاتِ الْعَامِرِيَّةُ، فَلَمَّا جَاءَهُ غِلْمَانُهُ رَكِبَ رَوَاحِلَهُ وَسَارَ، وَكَتَبَ إِلَى عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِنِّي وَاللَّهِ مَا خَرَجْتُ مِنْ سَجْنِكَ إِلَّا حِينَ بَلَغَنِي مَرَضُكَ وَلَوْ رَجَوْتُ حَيَاتِكَ مَا خَرَجْتُ وَلَكِنِّي حَشِيتُ مِنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ؛ فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدُنِي بِالْقَتْلِ. وَكَانَ

يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ: لَيْتَ لَأَقْطَعَنَّ مِنْ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ طَائِفَةً. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا وَلى الْعِرَاقَ عَاقَبَ أَصْهَارَهُ آلَ أَبِي عَقِيلٍ، وَهُمْ بَيْتُ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ، وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مُزَوَّجًا بِبِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ أَخِي الْحَجَّاجِ، وَلَهُ مِنْهَا ابْنُهُ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ الْفَاسِقِ الْمَقْتُولِ، كَمَا سَيَأْتِي. وَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ هَرَبَ مِنَ السِّجْنِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ يُرِيدُ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ سُوءًا فَافْكَفِهِمْ شَرَّهُ، وَارْذُدْ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ.

ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْمَرَضُ يَتَزَايِدُ بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ بِمُخَنَّاصِرَةَ مِنْ دَيْرِ سَمْعَانَ بَيْنَ حِمَاةٍ وَحَلَبَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ بِأَشْهُرٍ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ فِيمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ سَنَتَيْنِ وَخَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَأَرْبَعَةَ أَيَّامٍ، وَكَانَ حَكَمًا مُقْسِطًا وَإِمَامًا عَادِلًا وَرِعًا دِينًا، لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

تَرْجَمَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ

وَهَذِهِ تَرْجَمَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأُمَوِيِّ الْإِمَامِ الْمَشْهُورِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ: هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةِ أَبُو حَفْصِ الْفُرَشِيِّ الْأُمَوِيِّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأُمُّهُ أُمُّ عَاصِمِ لَيْلَى بِنْتُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَيُقَالُ لَهُ: أَشْجُ بَنِي مَرْوَانَ. وَكَانَ

يُقَالُ: الْأَشْجُ وَالنَّاقِصُ أَعْدَلَا بَنِي مَرْوَانَ. فَهَذَا هُوَ الْأَشْجُ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ النَّاقِصِ.

كَانَ عُمَرُ تَابِعِيًّا جَلِيلًا، رَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَالسَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، وَيُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَيُوسُفَ صَحَابِيٍّ صَغِيرٍ. وَرَوَى عَنْ خَلْقٍ مِنَ التَّابِعِينَ. وَعَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: لَا أَرَى قَوْلَ أَحَدٍ مِنَ التَّابِعِينَ حُجَّةً إِلَّا قَوْلَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

بُويِعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ ابْنِ عَمِّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ عَهْدٍ مِنْهُ لَهُ بِذَلِكَ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَيُقَالُ: كَانَ مَوْلِدُهُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِمِصْرَ.

وَكَانَ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْإِخْوَةِ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَبَوَيْهِ: أَبُو بَكْرٍ وَعَاصِمٌ وَمُحَمَّدٌ.

دَخَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى إِصْطَبَلِ أَبِيهِ وَهُوَ غُلَامٌ، فَضَرَبَهُ فَرَسٌ فَشَجَّهُ، فَجَعَلَ أَبُوهُ يَمْسُخُ عَنْهُ الدَّمَ، وَيَقُولُ: إِنْ كُنْتَ أَشَجَّ بَنِي أُمَيَّةَ إِنَّكَ إِذَنْ لَسَعِيدٌ. وَبَكَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ غُلَامٌ صَغِيرٌ، فَلَبَّغَ ذَلِكَ أُمَّهُ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ الْمَوْتَ. فَبَكَتْ أُمَّهُ. وَكَانَ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَهُوَ غُلَامٌ صَغِيرٌ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ الحِزَامِيُّ: كَانَ أَبُوهُ قَدْ جَعَلَهُ عِنْدَ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ يُؤَدِّبُهُ، فَلَمَّا حَجَّ أَبُوهُ اجْتَاَزَ بِهِ فِي المَدِينَةِ فَسَأَلَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: مَا خَبَرْتُ أَحَدًا اللهُ أَعْظَمَ فِي صَدْرِهِ مِنْ هَذَا العَلَامِ.

وَرَوَى يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ تَأَخَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ مَعَ الجَمَاعَةِ يَوْمًا، فَقَالَ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ مَا شَعَلَكَ؟ فَقَالَ: كَانَتْ مُرَجِّلِي تُسَكِّنُ شَعْرِي. فَقَالَ لَهُ: أَقَدِمْتَ ذَلِكَ عَلَى الصَّلَاةِ؟ وَكَتَبَ إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ عَلَى مِصْرَ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ، فَبَعَثَ أَبُوهُ رَسُولًا فَلَمْ يُكَلِّمَهُ حَتَّى حَلَقَ رَأْسَهُ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ يَخْتَلِفُ إِلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ يَسْمَعُ مِنْهُ، فَبَلَغَ عُبَيْدَ اللهِ أَنَّ عُمَرَ يَنْتَقِصُ عَلَيَّأ، فَلَمَّا أَتَاهُ عُمَرُ أَعْرَضَ عُبَيْدُ اللهِ عَنْهُ، وَقَامَ يُصَلِّي فَجَلَسَ عُمَرُ يَنْتَظِرُهُ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَى عُمَرَ مُغْضِبًا، وَقَالَ لَهُ: مَتَى بَلَغَكَ أَنَّ اللهُ سَخَطَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ بَعْدَ أَنْ رَضِيَ عَنْهُمْ؟ قَالَ: فَفَهَمَهَا عُمَرُ، وَقَالَ: مَعْدِرَةٌ إِلَى اللهِ ثُمَّ إِلَيْكَ، وَاللهِ لَا أَعُودُ. فَمَا سَمِعَ بَعْدَ ذَلِكَ يَذْكُرُ عَلَيًّا إِلَّا بِخَيْرٍ.

وَعَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ قَالَ: دَخَلَ عَلَيْنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ مِنْ هَذَا البَابِ يَعْنِي بَابًا مِنْ أَبْوَابِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: بَعَثَ إِلَيْنَا الفَاسِقُ بِابْنِهِ هَذَا يَتَعَلَّمُ الفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَكُونَ خَلِيفَةً وَيَسِيرُ بِسِيرَةِ عُمَرَ بْنِ الحَطَّابِ. قَالَ دَاوُدُ: فَوَاللهِ مَا مَاتَ حَتَّى رَأَيْنَا ذَلِكَ فِيهِ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَا اسْتُبِينَ مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حِرْصُهُ عَلَى الْعِلْمِ وَرَغْبَتُهُ فِي
الْأَدَبِ - أَنَّ أَبَاهُ وَلِيَّ مِصْرَ وَهُوَ حَدِيثُ السِّنِّ، يُشْكُ فِي بُلُوغِهِ، فَأَرَادَ
إِخْرَاجَهُ مَعَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَتِي، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ لَعَلَّهُ يَكُونُ أَنْفَعَ لِي وَلكَ؟ تُرْجَلِي
إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَقْعُدْ إِلَى فُقَهَاءِ أَهْلِهَا وَأَتَادَّبْ بِأَدَابِهِمْ. فَوَجَّهَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ،
فَقَعَدَ مَعَ مَشَايخِ قُرَيْشٍ، وَتَجَنَّبَ شَبَابَهُمْ، وَمَا زَالَ ذَلِكَ دَأْبَهُ حَتَّى اشْتَهَرَ
ذِكْرُهُ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ أَخَذَهُ عَمُّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فَحَلَطَهُ
بَوْلِدِهِ، وَقَدَّمَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَزَوَّجَهُ بِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ.

وَلَمْ يَكُنْ حَاسِدُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَنْقِمُ عَلَيْهِ شَيْئًا سِوَى مُتَابَعَتِهِ فِي التَّعَمَّةِ،
وَالِاخْتِيَالِ فِي الْمِشِيَّةِ. وَقَدْ قَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: الْكَامِلُ مَنْ عُدَّتْ هَفْوَاتُهُ،
وَلَا تُعَدُّ إِلَّا مِنْ قَلَّةٍ.

وَدَخَلَ يَوْمًا عَلَى عَمِّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَهُوَ يَتَجَانَفُ فِي مِشِيَّتِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا
عُمَرُ، مَا لَكَ تَمَشِي غَيْرَ مِشِيَّتِكَ؟ قَالَ: إِنَّ فِيَّ جُرْحًا. فَقَالَ: وَأَيْنَ هُوَ مِنْ
جَسَدِكَ؟ قَالَ: بَيْنَ الرَّانِفَةِ وَالصَّفَنِ، يَعْنِي بَيْنَ طَرْفِ الْأَلْيَةِ وَجِلْدَةِ الْحِصْيَةِ،
فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِرُوحِ بْنِ زَيْنَاعٍ: بِاللَّهِ لَوْ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِكَ سُئِلَ عَنْ هَذَا مَا
أَجَابَ هَذَا الْجَوَابَ.

وَلَمَّا مَاتَ عَمُّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ حَزَنَ عَلَيْهِ، وَلَبَسَ الْمُسْوَحَ تَحْتَ ثِيَابِهِ سَبْعِينَ
يَوْمًا.

وَلَمَّا وَلى الْوَلِيدُ عَامَلَهُ بِمَا كَانَ أَبُوهُ يُعَامِلُهُ بِهِ، وَوَلَاهُ الْمَدِينَةَ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفَ مِنْ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ إِلَى سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ، وَأَقَامَ لِلنَّاسِ الْحُجَّ سَنَةً تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَسَنَةً تِسْعِينَ، وَحَجَّ بِالنَّاسِ الْوَلِيدُ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ، ثُمَّ حَجَّ بِالنَّاسِ عُمُرَ سَنَةٍ ثِنْتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ. وَبَنَى فِي مُدَّةِ وِلَايَتِهِ هَذِهِ مَسْجِدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَسَّعَهُ عَنِ أَمْرِ الْوَلِيدِ لَهُ بِذَلِكَ، فَدَخَلَ فِيهِ قَبْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ كَانَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ مُعَاشِرَةً، وَأَعَدَلِهِمْ سِيرَةً؛ كَانَ إِذَا وَقَعَ لَهُ أَمْرٌ مُشْكِلٌ جَمَعَ فُقَهَاءَ الْمَدِينَةِ عَلَيْهِ، وَقَدْ عَيَّنَ عَشْرَةً مِنْهُمْ، وَكَانَ لَا يَقْطَعُ أَمْرًا بِدُونِهِمْ أَوْ مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ، وَهُمْ: عُرْوَةُ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْبَةَ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ وَسُلَيْمَانَ بْنَ يَسَارٍ وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَسَلَامُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ.

وَكَانَ لَا يَخْرُجُ عَنْ قَوْلِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَقَدْ كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ لَا يَأْتِي أَحَدًا مِنَ الْخُلَفَاءِ وَكَانَ يَأْتِي إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ.

وَقَالَ قَادِمُ الْبَرْبَرِيِّ، إِنَّهُ ذَاكَرَ رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ شَيْئًا مِنْ قَضَايَا عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِذْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَبِيعَةُ: كَأَنَّكَ تَقُولُ: أخطأ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أخطأ قط.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَامٍ أَشْبَهَ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْفَتَى، يَعْنِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ حِينَ كَانَ عَلَى الْمَدِينَةِ.

وَكَانَ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ وَيُخَفِّفُ الْقِيَامَ وَالْقُعُودَ، وَفِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ: أَنَّهُ كَانَ يُسَبِّحُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ عَشْرًا عَشْرًا.

وَعَنْ أَبِي النَّضْرِ الْمَدِينِيِّ، قَالَ: لَقِيتُ سُلَيْمَانَ بْنَ يَسَارٍ حَارِجًا مِنْ عِنْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقُلْتُ لَهُ: مِنْ عِنْدِ عُمَرَ خَرَجْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: تُعَلِّمُونَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: هُوَ وَاللَّهِ أَعْلَمُكُمْ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَتَيْنَاهُ نُعَلِّمُهُ فَمَا بَرِحْنَا حَتَّى تَعَلَّمْنَا مِنْهُ.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: كَانَتْ الْعُلَمَاءُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ تَلَامِيذَةً. وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ مَيْمُونٌ: كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مُعَلِّمَ الْعُلَمَاءِ.

وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ كَانَ قَدْ صَحَبَ ابْنَ عُمَرَ وَابْنَ عَبَّاسٍ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الْجَزِيرَةِ قَالَ: مَا التَّمَسْنَا عِلْمَ شَيْءٍ إِلَّا وَجَدْنَا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَعْلَمَ النَّاسِ بِأَصْلِهِ وَفَرْعِهِ، وَمَا كَانَ الْعُلَمَاءُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَّا تَلَامِيذَةً.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاوُسٍ: رَأَيْتُ أَبِي تَوَاقَفَ هُوَ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا افْتَرَقَا قُلْتُ: يَا أَبَهْ، مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ قَالَ: هَذَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ مِنْ صَالِحِي هَذَا الْبَيْتِ، يَعْنِي بَنِي أُمَيَّةَ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَا كَانَ بَدَأُ إِيَّاكَ؟^١ قَالَ: أَرَدْتُ ضَرْبَ غُلَامٍ لِي فَقَالَ لِي: اذْكُرْ لَيْلَةَ صَبِيحَتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: لَمَّا غَزَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ الْمَدِينَةِ يَعْنِي فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَخَرَجَ مِنْهَا التَّفَتَ إِلَيْهَا وَبَكَى، وَقَالَ لِمَوْلَاهُ: يَا مُرَاحِمُ، نَحْشَى أَنْ نَكُونَ مِمَّنْ نَفَتِ الْمَدِينَةَ. يَعْنِي أَنَّ الْمَدِينَةَ تَنْفِي حَبَّتَهَا كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَّتَ الْحَدِيدِ، وَتَنْصَعُ طَبِيهَا.

قُلْتُ: خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ فَنَزَلَ بِمَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهُ: السُّوَيْدَاءُ حِينًا، ثُمَّ قَدِمَ دِمَشْقَ عَلَى بَنِي عَمِّهِ.

وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ: خَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَا مِنْ رَجُلٍ أَعْلَمَ مِنِّي، فَلَمَّا قَدِمْتُ الشَّامَ نَسِيتُ.

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: سَهَرْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ: كُلُّ مَا حَدَّثْتَ فَقَدْ سَمِعْتُهُ، وَلَكِنْ حَفِظْتَ وَنَسِيتُ.

^١ الإِنَابَةُ: التَّوْبَةُ وَالتَّرَامُ الْحَقِّ.

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعَثَ إِلَيَّ الْوَلِيدُ ذَاتَ سَاعَةٍ مِنْ الظَّهْرِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ عَابِسٌ، فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ اجْلِسْ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ يَسُبُّ الْخُلَفَاءَ أَيُقْتَلُ؟ فَسَكَتُ ثُمَّ عَادَ فَسَكَتُ ثُمَّ عَادَ، فَقُلْتُ: أَقْتَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ سَبَّ. فَقُلْتُ: يُنَكَّلُ بِهِ. فَغَضِبَ وَانصَرَفَ إِلَى أَهْلِهِ، وَقَالَ لِي ابْنُ الرَّيَّانِ السَّيِّفُ: اذْهَبْ. قَالَ: فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ وَمَا تَهَبُّ رِيحٌ إِلَّا وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ رَسُولٌ يُرُدُّنِي إِلَيْهِ.

وَقَالَ عُمَثَانُ بْنُ زُفَرَ: أَقْبَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى مُعَسْكَرِ سُلَيْمَانَ وَفِيهِ تِلْكَ الْخَيُْولُ وَالْجِمَالُ وَالْبِعَالُ وَالْأَنْثَقَالُ وَالرِّجَالُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: مَا تَقُولُ يَا عُمَرُ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: أَرَى دُنْيَا يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَأَنْتَ الْمَسْتُورُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. فَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنَ الْمُعَسْكَرِ إِذَا عُرَابٌ قَدْ أَحَدَ لُقْمَةً فِي فِيهِ مِنْ فُسْطَاطِ سُلَيْمَانَ وَهُوَ طَائِرٌ بِهَا وَنَعَبَ نَعْبَةً، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي. فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ أَنَّهُ يَقُولُ؟ قَالَ: كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَنْ أَيْنَ جَاءَتْ؟ وَأَيْنَ يَذْهَبُ بِهَا؟ فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: مَا أَعْجَبَكَ! فَقَالَ عُمَرُ: أَعْجَبُ مِنِّي مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَعَصَاهُ، وَمَنْ عَرَفَ الشَّيْطَانَ فَأَطَاعَهُ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ لَمَّا وَقَفَ سُلَيْمَانُ وَعُمَرُ بِعَرَفَةَ، وَجَعَلَ سُلَيْمَانُ يَعْجَبُ مِنْ كَثْرَةِ النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: هَؤُلَاءِ رَعِيَّتُكَ الْيَوْمَ وَأَنْتَ مَسْتُورٌ عَنْهُمْ غَدًا. وَفِي رِوَايَةٍ: وَهُمْ حُصَمَاؤُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَبَكَى سُلَيْمَانُ وَقَالَ: بِاللَّهِ أَسْتَعِينُ.

وَتَقَدَّمَ أَهْمٌ لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ رَعْدٌ شَدِيدٌ وَرَيْقٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَعَلَ عُمَرُ يَضْحَكُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَتَضْحَكُ وَنَحْنُ فِيمَا تَرَى؟ فَقَالَ: نَعَمْ، هَذِهِ آثَارُ رَحْمَتِهِ وَنَحْنُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَكَيْفَ بَأَثَارِ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ؟ وَذَكَرَ الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّ سُلَيْمَانَ وَعُمَرَ تَقَاوَلَا مَرَّةً، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ فِي جُمْلَةٍ الْكَلَامَ: كَذَبْتَ. فَقَالَ: تَقُولُ لِي: كَذَبْتَ؟ وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ مُنْذُ عَرَفْتُ أَنَّ الْكَذِبَ يَضُرُّ أَهْلَهُ. ثُمَّ هَجَرَهُ عُمَرُ وَعَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ إِلَى مِصْرَ، فَلَمْ يُمَكِّنْهُ سُلَيْمَانُ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ فَصَالِحَهُ، وَقَالَ لَهُ: مَا عَرَضَ لِي أَمْرٌ يَهْتُمُّنِي إِلَّا حَطَرْتُ عَلَى بَالِي.

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ سُلَيْمَانَ بَنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْوَفَاةَ، أَوْصَى بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَانْتَضَمَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ وَاللَّهُ الْحَمْدُ.

مَنَاقِبُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: يَا عَجَبًا! يَزْعُمُ النَّاسُ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْقُضِي حَتَّى يَلِيَّ رَجُلٌ مِنْ آلِ عُمَرَ يَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِ عُمَرَ. فَكَانُوا يَرُونَهُ بِلَالِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَكَانَ بِوَجْهِهِ أَثَرٌ، فَلَمْ يَكُنْ هُوَ، وَإِذَا هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأُمُّهُ ابْنَتُهُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

وَعَنْ نَافِعٍ، قَالَ: بَلَّغْنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: إِنَّ مِنْ وَلَدِي رَجُلًا بِوَجْهِهِ شَجٌّ، يَلِيَّ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا. قَالَ نَافِعٌ: وَلَا أَحْسَبُهُ إِلَّا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَعَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: لَيْتَ شِعْرِي، مَنْ هَذَا الَّذِي مِنْ وَدَيْ عُمَرَ فِي وَجْهِهِ عَلَامَةٌ يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا؟

وَقَالَ وَهَيْبُ بْنُ الْوُرْدِ: بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ كَأَنَّ رَجُلًا دَخَلَ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، وُيِّ عَلَيْكُمْ كِتَابُ اللَّهِ. فَقُلْتُ: مَنْ؟ فَأَشَارَ إِلَى ظُفْرِهِ، فَإِذَا مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ: ع م ر. قَالَ: فَجَاءَتْ بَيْعَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي تَرْجَمَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ عَزَمَ أَنْ يَكْتُبَ الْعَهْدَ بِاسْمِ أَحَدِ أَوْلَادِهِ، فَمَا زَالَ بِهِ وَزِيرُهُ الصَّادِقُ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ حَتَّى صَرَفَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ لِأَصْلَحِ النَّاسِ هُمْ، فَأَلْهَمَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ رُشْدَهُ، فَعَيَّنَ لَهَا ابْنَ عَمِّهِ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَجَوَّدَ رَأْيَهُ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ وَصَوَّبَهُ، فَكَتَبَ سُلَيْمَانُ الْعَهْدَ فِي صَحِيفَةٍ، وَخَتَمَهَا، وَلَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ عُمَرُ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ سِوَى سُلَيْمَانَ وَرَجَاءٍ، ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ الشَّرْطَةِ بِإِحْضَارِ الْأَمْرَاءِ، وَرُءُوسِ النَّاسِ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ وَغَيْرِهِمْ، فَبَايَعُوا سُلَيْمَانَ عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ الْمُخْتَوِمَةِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ الْخَلِيفَةُ اسْتَدْعَاهُمْ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ فَبَايَعُوا ثَانِيَةً، قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا مَوْتَ الْخَلِيفَةِ، ثُمَّ فَتَحَهَا فَفَرَّاهَا عَلَيْهِمْ، فَإِذَا فِيهَا الْبَيْعَةُ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَأَخَذُوهُ فَأَجْلَسُوهُ عَلَى الْمِنْبَرِ وَبَايَعُوهُ، فَانْعَقَدَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ. وَتَقَدَّمَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا رَجَعَ مِنْ جِنَاةِ سُلَيْمَانَ أُتِيَ بِمَرَآكِبِ الْخِلَافَةِ لِيُرَكَّبَهَا، فَأَمْتَنَعَ مِنْ

ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَدَمِمُوا إِلَيَّ بَعْلَتِي. ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْعِ تِلْكَ الْمَرَائِبِ الْخَلِيفِيَّةِ فِي مَنْ يُرِيدُ، وَكَانَتْ مِنَ الْخَيُْولِ الْجِيَادِ الْمُتَمَنِّةِ، فَبَاعَهَا وَجَعَلَ أُمَّهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ.

فَلَمَّا رَجَعَ مِنَ الْجِنَازَةِ، وَقَدْ بَايَعَهُ النَّاسُ، وَاسْتَقَرَّتِ الْخِلَافَةُ بِاسْمِهِ، انْقَلَبَ وَهُوَ مُعْتَمِّمٌ مَهْمُومٌ، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: مَا لَكَ هَكَذَا مُعْتَمِّمًا مَهْمُومًا، وَلَيْسَ هَذَا بِوَقْتِ هَذَا؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ! وَمَا لِي لَا أَعْتَمُّ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا وَهُوَ يُطَالِبُنِي بِحَقِّهِ أَنْ أُؤَدِّيَهُ إِلَيْهِ، كَتَبَ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَكْتُبْ، طَلَبَهُ مِنِّي أَوْ لَمْ يَطْلُبْ.

ثُمَّ إِنَّهُ حَيَّرَ امْرَأَتَهُ فَاطِمَةَ بَيْنَ أَنْ تُقِيمَ مَعَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا فِرَاقَ لَهُ إِلَيْهَا، وَبَيْنَ أَنْ تَلْحَقَ بِأَهْلِهَا، فَبَكَتْ وَبَكَى جَوَارِيهَا لِبُكَائِهَا، فَسَمِعَتْ ضَجَّةً فِي دَارِهِ، ثُمَّ اخْتَارَتْ مُقَامَهَا مَعَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، رَحِمَهَا اللَّهُ.

عَنْ سَلَامِ بْنِ سُلَيْمٍ، قَالَ: لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، وَكَانَ أَوَّلَ حُطْبَةٍ حَطَبَهَا حَمْدُ اللَّهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ صَحَبَنَا فَلْيَصْحَبْنَا بِحَمْسٍ، وَإِلَّا فَلْيُفَارِقْنَا: يَرْفَعُ إِلَيْنَا حَاجَةً مِنْ لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا، وَيُعِينُنَا عَلَى الْخَيْرِ بِجُهْدِهِ، وَيَدُلُّنَا مِنَ الْخَيْرِ عَلَى مَا لَا نَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَلَا يَغْتَابُنَا عِنْدَنَا الرَّعِيَّةَ، وَلَا يَعْرِضُنَا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ. فَانْقَشَعَ عَنْهُ الشُّعْرَاءُ وَالْحُطْبَاءُ، وَثَبَّتْ مَعَهُ الْفُقَهَاءُ وَالرُّهَادُ، وَقَالُوا: مَا يَسْعُنَا أَنْ نُفَارِقَ هَذَا الرَّجُلَ حَتَّى يُخَالِفَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعَثَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَرَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ وَسَلِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ تَرَوْنَ مَا ابْتُلِيتُ بِهِ وَمَا قَدْ نَزَلَ بِي، فَمَا عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: اجْعَلِ الشَّيْخَ أَبَا، وَالشَّابَّ أَحَا، وَالصَّغِيرَ وَلَدًا، فَبِرَّ أَبَاكَ، وَصِلْ أَحَاكَ، وَتَعَطَّفْ عَلَيَّ وَلَدِكَ. وَقَالَ رَجَاءُ: ارْضَ لِلنَّاسِ مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ، وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ أَوَّلُ خَلِيفَةٍ تَمُوتُ. وَقَالَ سَالِمٌ: اجْعَلِ الْأَمْرَ يَوْمًا وَاحِدًا صُمْ فِيهِ عَنِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَاجْعَلِ آخِرَ فِطْرِكَ فِيهِ الْمَوْتَ، فَكَأَنَّ قَدْ. فَقَالَ عُمَرُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَخَطَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمًا النَّاسَ فَقَالَ، وَقَدْ خَنَقْتُهُ الْعَبْرَةُ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَصْلِحُوا آخِرَتَكُمْ تَصْلِحْ لَكُمْ دُنْيَاكُمْ، وَأَصْلِحُوا سَرَائِرَكُمْ تَصْلِحْ لَكُمْ عَلَانِيَتَكُمْ، وَاللَّهِ إِنَّ عَبْدًا لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ أَبٌ إِلَّا قَدْ مَاتَ، إِنَّهُ لَمُعْرَقٌ لَهُ فِي الْمَوْتِ.

وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ: كَمْ مِنْ عَامٍ مُؤْتَقٍ عَمَّا قَلِيلٍ يَخْرُبُ، وَكَمْ مِنْ مُقِيمٍ مُعْتَبِطٍ عَمَّا قَلِيلٍ يَظْعَنُ، فَأَحْسِنُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - مِنَ الدُّنْيَا الرِّحْلَةَ بِأَحْسَنِ مَا بَحَضَرْتَكُمْ مِنَ النُّقْلَةِ، بَيْنَمَا ابْنُ آدَمَ فِي الدُّنْيَا يُنَافِسُ فِيهَا قَرِيرَ الْعَيْنِ قَانِعًا، إِذْ دَعَاهُ اللَّهُ بِقَدْرِهِ وَرَمَاهُ بِيَوْمِ خَنْفِهِ، فَسَلَبَهُ آثَارَهُ وَدُنْيَاهُ، وَصَيَّرَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ مَصَانِعُهُ وَمَعْنَاهُ، إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَسُرُّ بِقَدْرِ مَا تَصُرُّ، تَسُرُّ قَلِيلًا، وَتُخْرِنُ طَوِيلًا.

وَعَنْ عَمْرٍو بْنِ مُهَاجِرٍ، قَالَ: لَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَامَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا كِتَابَ بَعْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا نَبِيٍّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنِّي لَسْتُ بِقَاضٍ وَلَكِنِّي مُنْفِذٌ، وَإِنِّي لَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ، إِنْ الرَّجُلُ الْهَارِبُ مِنَ الْإِمَامِ الظَّالِمِ لَيْسَ بِظَالِمٍ، أَلَا إِنَّ الْإِمَامَ الظَّالِمَ هُوَ الْعَاصِي، أَلَا لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ فِيهَا: وَإِنِّي لَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ وَلَكِنِّي أَنْتَقِلُكُمْ حِمْلًا، أَلَا لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، أَلَا هَلْ أَسْمَعْتُ؟

وَكَانَ آخِرُ حُطْبَةٍ حَطَبَهَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَمْدَ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلِفُوا عِبْتًا، وَلَنْ تُتْرَكُوا سُدىً، وَإِنَّ لَكُمْ مَعَادًا يَنْزِلُ اللَّهُ فِيهِ لِلْحُكْمِ فِيكُمْ وَالْفَصْلِ بَيْنَكُمْ، فَحَابَّ وَحَسِرَ مَنْ حَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَحُرِمَ جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَأْمُنُ عَدَا إِلَّا مَنْ حَذَرَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَخَافَهُ، وَبَاعَ نَافِذًا بِنَاقٍ، وَقَلِيلًا بِكَثِيرٍ، وَخَوْفًا بِأَمَانٍ؟ أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ فِي أَسْلَابِ الْهَالِكِينَ، وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِكُمْ لِلْبَاقِينَ، كَذَلِكَ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ؟ ثُمَّ إِنَّكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشَيِّعُونَ عَادِيًا وَرَائِحًا إِلَى اللَّهِ، قَدْ قَضَى نَحْبَهُ حَتَّى تُعَيَّبُوهُ فِي صَدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، فِي بَطْنِ صَدْعٍ غَيْرِ مُوسَدٍ وَلَا مُمَهَّدٍ، قَدْ فَارَقَ الْأَحْبَابَ، وَبَاشَرَ الثَّرَابَ، وَوَاجَهَ الْحِسَابَ، فَهُوَ مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ، غَنِيٌّ عَمَّا تَرَكَ، فَقَبِيرٌ إِلَى مَا قَدَّمَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ قَبْلَ انْقِضَاءِ مُرَاقَبَتِهِ وَنُزُولِ الْمَوْتِ بِكُمْ، أَمَّا إِنِّي أَقُولُ هَذَا. ثُمَّ وَضَعَ طَرْفَ رِدَائِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَبَكَى وَأَبَكَى مَنْ

حَوْلَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: وَابْنُ اللَّهِ، إِنِّي لَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَمَا أَعْلَمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي، وَلَكِنَّهَا سُنُّنٌ مِنَ اللَّهِ عَادِلَةٌ؛ أَمَرَ فِيهَا بِطَاعَتِهِ، وَهَى فِيهَا عَن مَعْصِيَتِهِ. وَاسْتَعْفَرَ اللَّهُ، وَوَضَعَ كُفَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فَبَكَى حَتَّى بَلَ حَيْثُتَهُ، فَمَا عَادَ لِمَجْلِسِهِ حَتَّى مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَكَانَ نَفْسَ حَاتِمِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: آمَنْتُ بِاللَّهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: الْوَفَاءُ عَزِيزٌ.

وَقَدْ جَمَعَ يَوْمًا رُءُوسَ النَّاسِ فَحَطَبَهُمْ، فَقَالَ: إِنَّ فَدَاكَ كَانَتْ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُهَا حَيْثُ أَرَاهُ اللَّهُ، ثُمَّ وَلِيَهَا أَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّرُ كَذَلِكَ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَمَا أَدْرِي مَا قَالَ فِي عُثْمَانَ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ مَرْوَانَ أَقْطَعَهَا فَحَصَلَ لِي مِنْهَا نَصِيبٌ، وَوَهَبَنِي الْوَلِيدُ وَسَلِيمَانُ نَصِيبَهُمَا، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَالِي شَيْءٌ أَرَدْتُ عَلَى مِنْهَا، وَقَدْ رَدَدْتُهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: فَيَبْسُ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمَظَالِمِ، ثُمَّ أَخَذَ أَمْوَالَ جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ فَرَدَّهَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ، وَسَمَّاهَا أَمْوَالَ الْمَظَالِمِ، فَاسْتَشْفَعُوا إِلَيْهِ بِالنَّاسِ، وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ بِعَمَّتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ مَرْوَانَ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِ وَلَمْ يَرُدَّهُ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ، وَقَالَ لَهُمْ: وَاللَّهِ لَتَدْعُنِي، وَإِلَّا ذَهَبْتُ إِلَى مَكَّةَ فَانزَلْتُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ لِأَحَقِّ النَّاسِ بِهِ.

وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَقَمْتُ فِيكُمْ خَمْسِينَ عَامًا مَا أَقَمْتُ فِيكُمْ مَا أُرِيدُ مِنَ الْعَدْلِ، وَإِنِّي لَأُرِيدُ الْأَمْرَ فَمَا أَنْفَعُهُ إِلَّا مَعَ طَمَعٍ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْكُنَ قُلُوبُهُمْ.

وَعَنْ وَهَبِ بْنِ مُنْبِهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ كَانَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَهْدِيٌّ فَهُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ. وَنَحْوُ هَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ طَاوُسٌ: هُوَ مَهْدِيٌّ وَلَيْسَ بِهِ، إِنَّهُ لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْعَدْلَ كُلَّهُ، إِذَا كَانَ الْمَهْدِيُّ تَيْبَ عَلَى الْمُسِيِّءِ مِنْ إِسَاءَتِهِ، وَزَيْدَ الْمُحْسِنِ فِي إِحْسَانِهِ، سَمَّحَ بِالْمَالِ، شَدِيدٌ عَلَى الْعَمَّالِ، رَحِيمٌ بِالْمَسَاكِينِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ أَشْحُجُ بَنِي مَرْوَانَ.

وَقَالَ عَبَادُ السَّمَاكِ وَكَانَ يُجَالِسُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ: سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ: الْخُلَفَاءُ حَمْسَةٌ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ فَاطِبَةً عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَيْمَةِ الْعَدْلِ، وَأَحَدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَيْمَةِ الْمَهْدِيِّينَ. وَذَكَرَهُ عَيْرُ وَاحِدٍ فِي الْأَيْمَةِ الْإِثْنِي عَشَرَ، الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

وَقَدْ اجْتَهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُدَّةٍ وَلَا يَتِيهِ مَعَ قِصْرِهَا حَتَّى رَدَّ الْمَظَالِمَ، وَصَرَفَ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَكَانَ مُنَادِيَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يُنَادِي: أَيُّنَ الْعَارِمُونَ؟ أَيُّنَ النَّاكِحُونَ؟ أَيُّنَ الْمَسَاكِينُ؟ أَيُّنَ الْيَتَامَى؟ حَتَّى أَعْنَى كُلًّا مِنْ هَؤُلَاءِ.

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ: هُوَ أَوْ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ؟ فَفَضَّلَ بَعْضُهُمْ عُمَرَ لِسِيرَتِهِ وَمَعْدَلَتِهِ وَرُزْهِدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَفَضَّلَ آخَرُونَ مُعَاوِيَةَ لِسَابِقَتِهِ

وَصُحْبَتِهِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: لَيَوْمَ شَهَدَهُ مُعَاوِيَةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَيَّامِهِ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

وَكَانَ يُعْجِبُهُ جَارِيَةٌ مِنْ جَوَارِي زَوْجَتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَكَانَ يَسْأَلُهَا إِيَّاهَا: إِمَّا بَيْعًا أَوْ هِبَةً، فَكَانَتْ تَأْتِي عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَلَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ أَلْبَسَتْهَا وَطَيَّبَتْهَا وَأَهْدَتْهَا إِلَيْهِ وَوَهَبَتْهَا لَهُ، فَلَمَّا أَحْلَتْهَا بِهِ أَعْرَضَ عَنْهَا، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَصَدَفَ عَنْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: يَا سَيِّدِي، فَأَيْنَ مَا كَانَ يَطْهُرُ لِي مِنْ مَحَبَّتِكَ إِيَّايَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ مَحَبَّتَكَ لِبَاقِيَةِ كَمَا هِيَ، وَلَكِنْ لَا حَاجَةَ لِي فِي النِّسَاءِ، فَقَدْ جَاءَنِي أَمْرٌ شَعَلَنِي عَنْكَ، وَعَنْ غَيْرِكَ. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ أَصْلِهَا، وَمِنْ أَيْنَ جَلَبُوهَا، فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ أَبِي أَصَابَ جِنَايَةَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، فَصَادَرَهُ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ فَأَخَذْتُ فِي الْجِنَايَةِ، وَبَعَثَ بِي إِلَى الْوَلِيدِ فَوَهَبَنِي الْوَلِيدُ لِأَخِيهِ فَاطِمَةَ زَوْجَتِكَ، فَأَهْدَنِي إِلَيْكَ. فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كِدْنَا وَاللَّهِ نَفْتَضِخُ وَنَهْلُكَ، ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّهَا مُكْرَمَةً إِلَى بِلَادِهَا وَأَهْلِهَا. وَقَالَتْ زَوْجَتُهُ فَاطِمَةُ: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي مُصَلَّاهُ وَاضِعًا حَدَّهُ عَلَى يَدِهِ، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى حَدِيدِهِ، فَعُلْتُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا فَاطِمَةُ، إِنِّي قَدْ وُلِيتُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا وُلِيتُ، فَتَفَكَّرْتُ فِي الْفَقِيرِ الْجَائِعِ، وَالْمَرِيضِ الضَّاعِ، وَالْعَارِي الْمَجْهُودِ، وَالْيَتِيمِ الْمَكْسُورِ، وَالْأَرْمَلَةَ الْوَحِيدَةَ، وَالْمَظْلُومَ الْمُقْهُورَ، وَالْعَرِيبَ، وَالْأَسِيرَ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَذِي الْعِيَالِ الْكَثِيرِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ، وَأَشْبَاهِهِمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَطْرَافِ الْبِلَادِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ رَبِّي

عَزَّ وَجَلَّ سَيَسْأَلُنِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ حَصْمِي ذُوهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَشِيتُ إِلَّا يَثْبُتَ لِي حُجَّةٌ عِنْدَ حُصُومَتِهِ، فَرَحِمْتُ نَفْسِي فَبَكَيْتُ.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: وَلَا بِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عِمَالَةً، ثُمَّ قَالَ لِي: إِذَا جَاءَكَ كِتَابٌ مِنِّي لِي غَيْرِ الْحَقِّ فَاضْرِبْ بِهِ الْأَرْضَ.

وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: إِذَا دَعَنْكَ فُذِرْتِكَ عَلَى النَّاسِ إِلَى ظَلْمِهِمْ، فَادْكُرْ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَنَفَادَ مَا تَأْتِي إِلَيْهِمْ، وَبَقَاءَ مَا يَأْتُونَ إِلَيْكَ.

وَعَنْ عَيْسَى بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيٍّ بْنِ عَدِيٍّ: إِنَّ لِلْإِسْلَامِ سُنَنًا وَشَرَائِعَ وَفَرَائِضَ، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعَشَ أُبَيِّنَهَا لَكُمْ لِتَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتَ فَوَاللَّهِ مَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ.

وَذَكَرَ الصُّوَيْبِيُّ أَنَّ عُمَرَ كَتَبَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي لَا يُقْبَلُ غَيْرُهَا، وَلَا يُرْحَمُ إِلَّا أَهْلُهَا، وَلَا يَثَابُ إِلَّا عَلَيْهَا، وَإِنَّ الْوَاعِظِينَ بِهَا كَثِيرٌ، وَالْعَامِلِينَ بِهَا قَلِيلٌ.

وَقَالَ أَيْضًا: مَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ أَقَلَّ مِنْهُ إِلَّا فِيمَا يَنْفَعُهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ الْمَوْتَ اجْتَرَأَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ.

وَقَالَ أَيضًا: مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ، وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ.

وَكَلَّمَهُ رَجُلٌ يَوْمًا حَتَّى أَغْضَبَهُ، فَهَمَّ بِهِ عُمَرُ ثُمَّ أَمْسَكَ نَفْسَهُ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: أَرَدْتَ أَنْ يَسْتَفْزِنِي الشَّيْطَانُ بِعِزَّةِ السُّلْطَانِ فَأَنَالَ مِنْكَ مَا تَنَالُهُ مِنِّي غَدًا! قُمْ عَافَاكَ اللَّهُ، لَا حَاجَةَ لَنَا فِي مُقَاوَلَتِكَ.

وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ الْقَصْدُ فِي الْجِدِّ، وَالْعَفْوُ فِي الْمَقْدِرَةِ، وَالرِّفْقُ فِي الْوِلَايَةِ، وَمَا رَفَقَ عَبْدٌ بِعَبْدٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَفَقَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَخَرَجَ ابْنُ لَهُ وَهُوَ صَغِيرٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَشَجَّهَ صَبِيٍّ مِنْهُمْ، فَاحْتَمَلُوا الصَّبِيَّ الَّذِي شَجَّ ابْنَهُ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى عُمَرَ، فَسَمِعَ الْجَلْبَةَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا مُرَبِّئَةٌ تَقُولُ: إِنَّهُ ابْنِي، وَإِنَّهُ يَتِيمٌ. فَقَالَ لَهَا عُمَرُ: أَلَهُ عَطَاءٌ فِي الدِّيَّانِ؟ قَالَتْ: لَا، قَالَ: فَارْتَبُوهُ فِي الدُّرِّيَّةِ. فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ فَاطِمَةُ: فَعَلَ اللَّهُ بِهِ وَفَعَلَ إِنْ لَمْ يَشُجَّ ابْنُكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ: وَيْحَكَ، إِنَّكُمْ أَفْرَعْتُمُوهُ.

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: يَقُولُونَ مَالِكٌ زَاهِدٌ! أَيُّ زَاهِدٍ عِنْدِي؛ إِنَّمَا الزَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ أَتَتْهُ الدُّنْيَا فَاعْرِزَ فَاهَا فَتَرَكَهَا.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى قَمِيصٍ وَاحِدٍ فَكَانَ إِذَا عَسَلُوهُ جَلَسَ فِي الْمَنْزِلِ حَتَّى يَبْسَسَ. وَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ يَوْمًا فَسَأَلَهَا أَنْ تُفْرِضَهُ دِرْهَمًا أَوْ فُلُوسًا يَشْتَرِي لَهُ بِهَا عِنَبًا، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهَا شَيْئًا، فَقَالَتْ لَهُ: أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ فِي خِزَانَتِكَ مَا

تَشْتَرِي بِهِ عِنَبًا؟! فَقَالَ: هَذَا أَيْسَرُ مِنْ مُعَالَجَةِ الْأَعْلَالِ وَالْأَنْكَالِ غَدًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَكَانَ سِرَاجَ بَيْتِهِ عَلَى ثَلَاثِ قَصَبَاتٍ فِي رَأْسِهِنَّ طِينٌ.

وَبَعَثَ يَوْمًا عَلَامَهُ لِيَشْوِي لَهُ لَحْمَةً فَجَاءَهُ بِهَا سَرِيعًا مَشْوِيَةً، فَقَالَ: أَيْنَ شَوَيْتَهَا؟ قَالَ: فِي الْمَطْبَخِ. فَقَالَ: فِي مَطْبَخِ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: كُلْهَا فَإِنِّي لَمْ أُرْزُقْهَا، هِيَ رِزْقُكَ.

وَسَخَّنُوا لَهُ مَاءً فِي الْمَطْبَخِ الْعَامِّ فَرَدَّ بَدَلِ ذَلِكَ بِدِرْهِمٍ حَطْبًا.

وَقَالَتْ زَوْجَتُهُ: مَا جَامِعٌ وَلَا اِحْتَلَمَ وَهُوَ خَلِيفَةٌ.

وَبَلَغَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ أَبِي سَلَامٍ الْأَسْوَدِ أَنَّهُ يُحَدِّثُ عَنْ ثَوْبَانَ فِي الْحَوْضِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَأَحْضَرَهُ عَلَى الْبَرِيدِ، وَقَالَ لَهُ كَأَلْمُتَوَجِّعٍ: مَا أَرَدْنَا الْمَشَقَّةَ عَلَيْكَ يَا أَبَا سَلَامٍ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تُشَافِهَنِي بِالْحَدِيثِ مُشَافِهَةً. فَقَالَ: سَمِعْتُ ثَوْبَانَ، يَقُولُ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ الْبُلْقَاءِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، أَكَاوِيْبُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَأَوَّلُ النَّاسِ وَرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الشُّعْتُ رُءُوسًا، الدُّنْسُ نِيَابًا، الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِمَاتِ، وَلَا تُفْتَحُ لَهُمُ السُّدُودُ». فَقَالَ عُمَرُ: لِكَيْ نَكْحُتْ

الْمُتَعَمَّاتِ، فَاطِمَةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَفُتِحَتْ لِي السُّدُودُ فَلَا جَرَمَ لَا أَعْسِلُ
رَأْسِي حَتَّى يَشَعْتَ، وَلَا أُلْقِي ثَوْبِي حَتَّى يَتَّسِحَ.

وَكَانَ لَهُ سِرَاجٌ يَكْتُبُ عَلَيْهِ حَوَائِجَهُ، وَسِرَاجٌ لِنَيْتِ الْمَالِ يَكْتُبُ عَلَيْهِ مَصَالِحَ
الْمُسْلِمِينَ، لَا يَكْتُبُ عَلَى ضَوْئِهِ لِنَفْسِهِ حَرْفًا.

وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْمُصْحَفِ كُلَّ يَوْمٍ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَلَا يُطِيلُ الْقِرَاءَةَ، وَكَانَ لَهُ
ثَلَاثُمِائَةِ شُرْطِيٍّ، وَثَلَاثُمِائَةِ حَرْسِيٍّ، وَأَهْدَى لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ نِقَاحًا فَاسْتَمَّهُ
ثُمَّ رَدَّهُ مَعَ الرَّسُولِ، وَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهُ: قَدْ بَلَغَتْ مَحَلَّهَا. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَهَذَا رَجُلٌ
مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ. فَقَالَ: إِنَّ الْهَدِيَّةَ كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
هَدِيَّةً، فَأَمَّا نَحْنُ فَهِيَ لَنَا رِشْوَةٌ.

وَكَانَ يُوسِعُ عَلَى عُمَّالِهِ فِي النِّفْقَةِ؛ يُعْطِي الرَّجُلَ مِنْهُمْ فِي الشَّهْرِ مِائَةَ دِينَارٍ،
وَمِائَتَيْ دِينَارٍ، وَكَانَ يَتَأَوَّلُ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا فِي كِفَايَةِ تَفَرُّعُوا لِأَشْغَالِ الْمُسْلِمِينَ،
فَقَالُوا لَهُ: لَوْ أَنْفَقْتَ عَلَى عِبَالِكَ كَمَا تُنْفِقُ عَلَى عُمَّالِكَ؟ فَقَالَ: لَا أَمْنَعُهُمْ
حَقًّا لَهُمْ، وَلَا أُعْطِيهِمْ حَقَّ غَيْرِهِمْ.

وَكَانَ أَهْلُهُ قَدْ بَقُوا فِي جَهْدٍ عَظِيمٍ فَاعْتَذَرَ بِأَنَّ مَعَهُمْ سَلَفًا كَثِيرًا مِنْ قَبْلِ
ذَلِكَ.

وَقَالَ يَوْمًا لِرَجُلٍ مِنْ وَلَدِ عَلِيٍّ: إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ تَقِفَ بِبَابِي وَلَا يُؤَدَّنَ لَكَ. وَقَالَ لِآخَرَ مِنْهُمْ: إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ وَأَرْعَبُ بِكَ أَنْ أُدْبِسَكَ بِالدُّنْيَا لِمَا أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بِهِ. وَقَالَ أَيْضًا: كُنَّا نَحْنُ وَبُنُو عَمِّنَا بَنُو هَاشِمٍ، مَرَّةً لَنَا وَمَرَّةً عَلَيْنَا، نَلْجَأُ إِلَيْهِمْ وَيَلْجَأُونَ إِلَيْنَا، حَتَّى طَلَعَتْ شَمْسُ الرِّسَالَةِ فَأَكْسَدَتْ كُلَّ نَافِقٍ، وَأَحْرَسَتْ كُلَّ مُنَافِقٍ، وَأَسَكَّتْ كُلَّ نَاطِقٍ.

وَعَنْ مُوسَى بْنِ أَعْيَنَ الرَّاعِي وَكَانَ يَزْعَى الْغَنَمَ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عُيَيْنَةَ قَالَ: كَانَتْ الْغَنَمُ وَالْأَسُدُّ وَالْوَحْشُ تَرَعَى فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، فَعَرَضَ لِشَاةٍ مِنْهَا ذِئْبٌ، فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ، مَا أَرَى الرَّجُلَ الصَّالِحَ إِلَّا قَدْ هَلَكَ. قَالَ: فَحَسْبُنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ قَدْ هَلَكَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

وَمِنْ دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنَّ رِجَالًا أَطَاعُوكَ فِيمَا أَمَرْتَهُمْ، وَأَنْتَهُوا عَمَّا هَيَّيْتَهُمْ، اللَّهُمَّ وَإِنَّ تَوْفِيقَكَ إِلَيْهِمْ كَانَ قَبْلَ طَاعَتِهِمْ إِيَّاكَ، فَوَقِّفْنِي. وَمِنْهُ: اللَّهُمَّ، إِنَّ عُمَرَ لَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ تَنَالَهُ رَحْمَتُكَ، وَلَكِنَّ رَحْمَتَكَ أَهْلٌ أَنْ تَنَالَ عُمَرَ.

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَبْغَاكَ اللَّهُ مَا كَانَ الْبَقَاءُ خَيْرًا لَكَ. فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ، وَلَكِنْ قُلْ: أَحْيَاكَ اللَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَتَوَفَّاكَ مَعَ الْأَبْرَارِ.

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: أَصْبَحْتُ بِطَيْبًا بَطِينًا، مُتَلَوِّثًا بِالْخَطَايَا، أَتَمَّتْ عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لَهُمْ زَيْنٌ، وَأَنْتَ زَيْنُ الْخِلَافَةِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ عُمَرُ.

وَقَالَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ: سَمَرْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَعَشِيَ السِّرَاجُ فَقُلْتُ: أَلَا أُنَبِّئُهُ هَذَا الْغُلَامَ يُصْلِحُهُ؟ فَقَالَ: لَا، دَعَهُ يَنَامُ. فَقُلْتُ: أَفَلَا أَقُومُ أُصْلِحُهُ؟ فَقَالَ: لَا، لَيْسَ مِنْ مُرْوَعَةِ الرَّجُلِ اسْتِحْدَامُ ضَيْفِهِ. ثُمَّ قَامَ بِنَفْسِهِ فَأَصْلَحَهُ وَصَبَّ فِيهِ زَيْتًا، ثُمَّ جَاءَ وَقَالَ: قُمْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَجِئْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَقَالَ: أَكْثَرُوا ذَكَرَ النِّعَمِ فَإِنَّ ذِكْرَهَا شُكْرُهَا.

وَقَالَ: إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي مِنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ مَخَافَةُ الْمُبَاهَاةِ.

وَبَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ تُوفِّيَ، فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ لِيُعَزِّبَهُمْ فِيهِ، فَصَرَخُوا فِي وَجْهِهِ بِالْبُكَاءِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَهْ، إِنَّ صَاحِبِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَزْرُقُكُمْ، وَإِنَّ الَّذِي يَزْرُقُكُمْ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَإِنَّ صَاحِبِكُمْ هَذَا لَمْ يَسُدِّ شَيْئًا مِنْ حُفْرِكُمْ، وَإِنَّمَا سَدَّ حُفْرَةَ نَفْسِهِ، وَإِنَّ لِكُلِّ امْرئٍ مِنْكُمْ حُفْرَةً لَا بُدَّ وَاللَّهِ أَنْ يَسُدَّهَا، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا خَلَقَ الدُّنْيَا حَكَمَ عَلَيْهَا بِالْحَرْابِ وَعَلَى أَهْلِهَا بِالْفَنَاءِ، وَمَا امْتَلَأَتْ دَارٌ حَبْرَةً إِلَّا امْتَلَأَتْ عَبْرَةً، وَلَا اجْتَمَعُوا إِلَّا تَفَرَّقُوا، حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ بَاكِيًّا فَلْيَبْكِ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ صَاحِبِكُمْ، كُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَيْهِ عَدَاً.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: حَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ إِلَى الْقُبُورِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا أَيُّوبَ، هَذِهِ قُبُورُ آبَائِي بَنِي أُمَّيَّةَ، كَأَبَائِهِمْ لَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي لَدَّتِهِمْ وَعَيْشِهِمْ، أَمَا تَرَاهُمْ صَرَغَى قَدْ حَلَّتْ فِيهِمُ الْمَثَلَاتُ، وَاسْتَحَكَمَ فِيهِمُ الْبَلَاءُ؟ ثُمَّ بَكَى حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا بِنَا فَوَاللَّهِ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَنْعَمَ مِمَّنْ صَارَ إِلَى هَذِهِ الْقُبُورِ، وَقَدْ أَمِنَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وَقَالَ مَرَّةً لِرَجُلٍ مِنْ جُلَسَائِهِ: لَقَدْ أَرِقْتُ اللَّيْلَةَ مُفَكِّرًا. قَالَ: وَفِيمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: فِي الْقَبْرِ وَسَاكِينِهِ، إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ الْمَيِّتَ بَعْدَ ثَالِثَةِ فِي قَبْرِهِ لَا اسْتَوْحَشْتَ مِنْ قُرْبِهِ بَعْدَ طُولِ الْأُنْسِ مِنْكَ بِنَاحِيَّتِهِ، وَلَرَأَيْتَ بَيْنًا جُحُولَ فِيهِ الْهُوَامُ، وَيَجْرِي فِيهِ الصَّدِيدُ، وَتَحْتَرِفُهُ الدِّيدَانُ، مَعَ تَغْيِيرِ الرِّيحِ، وَبَلَى الْأَكْفَانِ بَعْدَ حُسْنِ الْهَيْئَةِ، وَطِيبِ الرِّيحِ، وَنَقَاءِ الثَّوْبِ. قَالَ: ثُمَّ شَهَقَ شَهَقَةً حَرَّ مَعْشِيًّا عَلَيْهِ.

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَرَأَ { وَوَقَّوهُمْ إِهْمَمَ مَسْئُولُونَ } فَجَعَلَ يُكْرِرُهَا وَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجَاوِزَهَا.

وَقَالَتِ امْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ صَلَاةً وَصِيَامًا مِنْهُ، وَلَا أَحَدًا أَشَدَّ فَرَقًا مِنْ رَبِّهِ مِنْهُ، كَانَ يُصَلِّي الْعِشَاءَ ثُمَّ يَجْلِسُ يَبْكِي حَتَّى تَغْلِبَهُ عَيْنُهُ، ثُمَّ يَنْتَبِهُ فَلَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّى تَغْلِبَهُ عَيْنُهُ. قَالَتْ: وَلَقَدْ كَانَ يَكُونُ مَعِيَ فِي الْفِرَاشِ فَيَذُكُرُ الشَّيْءَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ؛ فَيَنْتَفِضُ كَمَا يَنْتَفِضُ الْعُصْفُورُ فِي الْمَاءِ،

وَيَجْلِسُ يَبْكِي، فَأَطْرَحُ عَلَيْهِ اللَّحَافَ رَحْمَةً لَهُ، وَأَنَا أَقُولُ: يَا لَيْتَ كَانَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا سُورًا مُنذُ دَخَلْنَا فِيهَا.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ: مَا رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ كَأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُمَا مِثْلَ الْحَسَنِ،
وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: رَأَيْتُهُ يَبْكِي حَتَّى بَكَى دَمًا.

قَالُوا: وَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَرَأَ {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}.

وَكَانَ يَجْتَمِعُ كُلُّ لَيْلَةٍ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ فَلَا يَذْكُرُونَ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْآخِرَةَ،
ثُمَّ يَبْكُونَ حَتَّى كَانَتْ بَيْنَهُمْ جِنَازَةٌ.

مَجْدِدُ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ

فَصَلِّ (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُهَا أَمْرَ
دِينِهَا) وَهُوَ ذِكْرُنَا فِي "دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ" الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ
كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُهَا أَمْرَ دِينِهَا». فَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ
أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرُهُ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ
عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الْأُولَى. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ مِنْ جُمَّلَةٍ مَنْ جَدَّدَ اللَّهُ بِهِ أَمْرَ
الدِّينِ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الْأُولَى، وَإِنْ كَانَ هُوَ أُولَى مَنْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ وَأَحَقُّ؛

لِإِمَامَتِهِ، وَعُمُومِ وَلَايَتِهِ، وَاجْتِهَادِهِ وَقِيَامِهِ فِي تَنْفِيدِ الْحَقِّ، فَقَدْ كَانَتْ سِيرَتُهُ شَبِيهَةً بِسِيرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَشَبَّهُ بِهِ.

وَقَدْ جَمَعَ الشَّيْخُ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ سِيرَةَ الْعُمَرَيْنِ: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ أَفْرَدْنَا سِيرَةَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي مُجَلِّدٍ عَلَى حِدَةٍ^١، وَمُسْنَدَهُ فِي مُجَلِّدٍ ضَخْمٍ، وَأَمَّا سِيرَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا طَرَفًا صَالِحًا هُنَا، يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَا لَمْ نَذْكُرْهُ.

وَقَدْ كَانَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُعْطِي مَنْ انْقَطَعَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، مِنْ بَلَدِهِ وَعَظِيرَتَيْهَا، لِلْفَقْرِ وَنَشْرِ الْعِلْمِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مِائَةً دِينَارٍ، وَكَانَ يَكْتُبُ إِلَى عُمَّالِهِ أَنْ يَأْخُذُوا النَّاسَ بِالسُّنَّةِ، وَيَقُولَ: إِنْ لَمْ تُصْلِحْهُمْ السُّنَّةُ فَلَا أَصْلَحْهُمْ اللَّهُ.

وَكَتَبَ إِلَى سَائِرِ الْبِلَادِ إِلَّا يَزَكَبُ ذِمِّيَّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعَظِيرَتِهِمْ عَلَى سَرَجٍ، وَلَا يَلْبَسُ قَبَاءً وَلَا طَيْلَسَانًا وَلَا السَّرَاوِيلَ، وَلَا يَمَشِيَنَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِزُنَّارٍ مِنْ جِلْدٍ، وَهُوَ مَقْرُونُ النَّاصِيَةِ، وَمَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ فِي مَنْزِلِهِ سِلَاحٌ أُخِذَ مِنْهُ.

وَكَتَبَ أَيْضًا إِلَّا يُسْتَعْمَلَ عَلَى الْأَعْمَالِ إِلَّا أَهْلُ الْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ خَيْرٌ فَعَيْرُهُمْ أَوْلَى إِلَّا يَكُونَ عِنْدَهُ خَيْرٌ.

^١ من مفقودات ابن كثير.

وَكَانَ يَكْتُبُ إِلَى عُمَّالِهِ: اجْتَنِبُوا الْأَشْعَالَ عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَوَاتِ، فَإِنَّ مَنْ أَضَاعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ أَشَدُّ تَضْيِيعًا.

وَقَدْ كَانَ يَكْتُبُ الْمَوْعِظَةَ إِلَى الْعَامِلِ مِنْ عُمَّالِهِ فَيَنْحَلِّعُ بِهَا قَلْبَهُ، وَرُبَّمَا عَزَلَ بَعْضُهُمْ نَفْسَهُ عَنِ الْعِمَالَةِ مِنْ شِدَّةِ مَا تَقَعُ مَوْعِظَتُهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْعِظَةَ إِذَا حَرَجَتْ مِنْ قَلْبِ الْوَاعِظِ دَخَلَتْ قَلْبَ الْمَوْعُوظِ.

وَقَدْ صَرَّحَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ثِقَةً، وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِمَوْاعِظِ حِسَانٍ، وَأَلُو تَقَصَّيْنَا ذَلِكَ لَطَالَ هَذَا الْفَصْلُ، وَلَكِنْ قَدْ ذَكَرْنَا مَا فِيهِ إِشَارَةً إِلَى ذَلِكَ.

وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُذَكِّرُكَ لَيْلَةً تَمَحَّضُ بِالسَّاعَةِ، فَصَبَّاحُهَا الْقِيَامَةُ، فَيَا هَا مِنْ لَيْلَةٍ وَيَا لَهُ مِنْ صَبَّاحٍ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا. وَكَتَبَ إِلَى آخَرَ: أُذَكِّرُكَ طُولَ سَهَرِ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ مَعَ حُلُودِ الْأَبَدِ، وَإِيَّاكَ أَنْ يُنْصَرَفَ بِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ، وَأَنْتِقِطَاعَ الرَّجَاءِ مِنْكَ. فَحَلَعَ هَذَا الْعَامِلُ نَفْسَهُ مِنَ الْعِمَالَةِ، وَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: حَلَعْتَ قَلْبِي بِكِتَابِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَى وِلَايَةِ أَبَدًا.

رَدُّ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِلْمَظَالِمِ

وَقَدْ رَدَّ جَمِيعَ الْمَظَالِمِ كَمَا قَدَّمْنَا، حَتَّى إِنَّهُ رَدَّ فَصَّ حَاتِمَ كَانَ فِي يَدِهِ؛ قَالَ: أَعْطَانِيهِ الْوَلِيدُ مِنْ غَيْرِ حَقِّهِ. وَخَرَجَ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ فِي الْمَلْبَسِ

وَالْمَأْكَلِ وَالْمَتَاعِ، حَتَّى إِنَّهُ تَرَكَ التَّمَتُّعَ بِرَوْجَتِهِ الْحُسْنَاءِ، فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ، يُقَالُ: كَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النِّسَاءِ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ رَدَّ جَهَازَهَا وَمَا كَانَ مِنْ أَمْوَالِهَا إِلَى بِنْتِ الْمَالِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ كَانَ دَخَلُهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَبْلَ أَنْ يَلِيَّ الْخِلَافَةَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَتَرَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ دَخْلٌ سِوَى أَرْبَعِمِائَةِ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَكَانَ حَاصِلُهُ فِي خِلَافَتِهِ ثَلَاثِمِائَةَ دِرْهَمٍ.

وَكَانَ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ جَمَاعَةٌ، وَكَانَ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ أَجَلَهُمْ، فَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ فِي زَمَنِ خِلَافَتِهِ، حَتَّى يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ خَيْرًا مِنْ أَبِيهِ. فَلَمَّا مَاتَ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ حُزْنٌ، وَقَالَ: أَمْرٌ رَضِيَهُ اللَّهُ فَلَا أَكْرَهُهُ.

وَكَانَ قَبْلَ الْخِلَافَةِ يُؤْتَى بِالْقَمِيصِ الرَّفِيعِ اللَّيِّنِ جَدًّا، فَيَقُولُ: مَا أَحْسَنَهُ لَوْلَا حُشُونَةٌ فِيهِ، فَلَمَّا وُلِيَ الْخِلَافَةَ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَلْبَسُ الْقَمِيصَ الْعَلِيظَ الْمَرْقُوعَ وَلَا يَغْسِلُهُ حَتَّى يَتَسَخَّ، وَيَقُولُ: مَا أَحْسَنَهُ لَوْلَا لِينُهُ. وَكَانَ يَلْبَسُ الْقُرُوءَ الْعَلِيظَةَ، وَكَانَ سِرَاجُهُ عَلَى ثَلَاثِ قَصَبَاتٍ فِي رَأْسِهِ طِينٌ، وَلَمْ يَبْنِ شَيْئًا فِي أَيَّامِ خِلَافَتِهِ. وَكَانَ يَخْدُمُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَقَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا عَوَّضَنِي اللَّهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. وَكَانَ يَأْكُلُ الْعَلِيظَ مِنَ الطَّعَامِ أَيْضًا، وَلَا يُبَالِي بِشَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ، وَلَا يُتْبِعُهُ نَفْسَهُ وَلَا يَوَدُّهُ، حَتَّى قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارِمِيُّ: كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَزْهَدَ مِنْ أُوَيْسِ الْقُرْنِيِّ؛ لِأَنَّ عُمَرَ مَلَكَ الدُّنْيَا

بِحَذَائِفِهَا وَزَهْدَ فِيهَا، وَلَا نَدْرِي حَالَ أُوَيْسٍ لَوْ مَلَكَ مَا مَلَكَهُ عُمَرُ كَيْفَ
يَكُونُ؟ لَيْسَ مَنْ جَرَّبَ كَمَنْ لَمْ يُجَرَّبْ.

وَتَقَدَّمَ قَوْلَ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: النَّاسُ يَقُولُونَ مَالِكٌ زَاهِدٌ! إِنَّمَا الزَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ أَتَتْهُ الدُّنْيَا فَاعْرَةً فَاهَا فَرَدَّهَا.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ: لَمْ يَكُنْ عُمَرُ يَزْتَرِقُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ شَيْئًا.

وَذَكَرُوا أَنَّهُ أَمَرَ جَارِيَةً تُرَوِّحُهُ حَتَّى يَنَامَ فَرَوَّحَتْهُ، فَنَامَتْ هِيَ، فَأَخَذَ الْمِرْوَحَةَ
مِنْ يَدِهَا وَجَعَلَ يُرَوِّحُهَا، وَيَقُولُ: أَصَابَكَ مِنَ الْحَرِّ مَا أَصَابَنِي.

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ حَيْرًا. فَقَالَ: بَلْ جَزَى اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَنِّي
حَيْرًا.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ تَحْتَ ثِيَابِهِ مِسْحًا غَلِيظًا مِنْ شَعْرِ، وَيَضَعُ فِي رَقَبَتِهِ
عُلاَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ إِذَا أَصْبَحَ وَضَعَهُ فِي مَكَانٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ فَلَا
يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ وَكَانُوا يَطْنُونَهُ مَالًا أَوْ جَوْهَرًا مِنْ حِرْصِهِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا مَاتَ فَتَحُوا
ذَلِكَ الْمَكَانَ فَإِذَا فِيهِ غُلٌّ وَمَسْحٌ.

وَكَانَ يَبْكِي حَتَّى يَبْكِيَ الدَّمُ مِنَ الدَّمُوعِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ بَكَى فَوْقَ سَطْحٍ حَتَّى
سَالَ دَمْعُهُ مِنَ الْمِيزَابِ. وَكَانَ يَأْكُلُ مِنَ الْعَدَسِ لِيَرِقَّ قَلْبُهُ وَتَعَزُّرُ دَمْعُهُ،
وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ اضْطَرَبَتْ أَوْصَالُهُ، وَقَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَهُ {وَإِذَا الْفُؤَا مِنْهَا

مَكَانًا ضَيْقًا مُفْرَنِينَ { فَبَكَى بُكَاءً شَدِيدًا ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ.

وَكَانَ يُكْتَبُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

وَكَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ مَنْ كَانَ فِي صَلَاحِهِ صَلَاحٌ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَهْلِكَ مَنْ كَانَ فِي هَلَاقِهِ صَلَاحٌ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ آدَاءُ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ.

وَقَالَ: لَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى يَحْكُمَ أَمْرَ نَفْسِهِ لَذَهَبَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَقَلَّ الْوَاعِظُونَ وَالسَّاعُونَ لِلَّهِ بِالنَّصِيحَةِ.

وَقَالَ: الدُّنْيَا عَدُوَّةٌ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ: أَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَعَمَّتْهُمْ، وَأَمَّا الْأَعْدَاءُ فَعَرَّثَتْهُمْ.

وَقَالَ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ عَصِمَ مِنَ الْمِرَاءِ وَالْعُضْبِ وَالطَّمَعِ.

وَقَالَ لِرَجُلٍ: مَنْ سَيِّدُ قَوْمِكَ؟ قَالَ: أَنَا. قَالَ: لَوْ كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ تَقُلْهُ.

وَقَالَ: أَرْهَدُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَيَّ بِنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ: لَقَدْ بُورِكَ لِعَبْدٍ فِي حَاجَةٍ أَكْثَرَ فِيهَا مِنَ الدُّعَاءِ، أُعْطِيَ أَوْ مُنِعَ.

وَقَالَ: قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ.

وَقَالَ لِرَجُلٍ: عَلِّمْ وَلَدَكَ الْفِقْهَ الْأَكْبَرَ: الْفَنَاعَةَ وَكَفَّ الْأَدَى.

وَتَكَلَّمَ رَجُلٌ عِنْدَهُ فَأَحْسَنَ، فَقَالَ: هَذَا هُوَ السِّحْرُ الْحَلَالُ.

وَقَصَّتْهُ مَعَ أَبِي حَازِمٍ مُطَوَّلَةً حِينَ رَأَاهُ خَلِيفَةً وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ مِنَ التَّقَشُّفِ، وَتَغَيَّرَ حَالُهُ، فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ يَكُنْ ثَوْبُكَ نَقِيًّا؟ وَوَجْهُكَ وَضِيًّا؟ وَطَعَامُكَ شَهِيًّا؟ وَمَرْكَبُكَ وَطِيًّا؟ فَقَالَ لَهُ: أَلَمْ تُخْبِرْنِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنْ وِرَائِكُمْ عَقَبَةٌ كَثُودًا لَا يَجُوزُهَا إِلَّا كُلُّ ضَامِرٍ مَهْزُولٍ»؟ ثُمَّ بَكَى حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ،

وَفَضَائِلُهُ وَمَاتْرُهُ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَفِيمَا ذَكَرْنَا كِفَايَةً، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

سَبَبُ وَفَاةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ

كَانَ سَبَبُهَا السُّلَّ، وَقِيلَ: سَبَبُهَا أَنَّ مَوْلَى لَهُ سَمَّهَ فِي طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ، وَأُعْطِيَ عَلَى ذَلِكَ أَلْفَ دِينَارٍ. فَحَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَرَضٌ، فَأُحْبِرَ أَنَّهُ مَسْمُومٌ، فَقَالَ: لَقَدْ عَلِمْتُ يَوْمَ سُقِيْتُ السَّمَّ. ثُمَّ اسْتَدْعَى مَوْلَاهُ الَّذِي سَقَاهُ، فَقَالَ لَهُ: وَيُحْكُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: أَلْفُ دِينَارٍ أُعْطِيْتُهَا. فَقَالَ: هَاتِهَا. فَأَحْضَرَهَا فَوَضَعَهَا فِي بَيْتِ الْمَالِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ حَيْثُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ فَتَهْلِكْ.

ثُمَّ قِيلَ لِعُمَرَ: تَدَارِكُ نَفْسَكَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ شِفَائِي أَنْ أُمْسَحَ شَحْمَةً أُذُنِي، أَوْ أُوتَى بِطِيبٍ فَأَسْتَمُّهُ مَا فَعَلْتُ. فَقِيلَ لَهُ: هَؤُلَاءِ بَنُوكَ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلَا تُوصِي هُمْ بِشَيْءٍ؟ فَأَجَبَهُمْ قُرَاءٌ؟ فَقَالَ { إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } وَاللَّهِ لَا أُعْطِيهِمْ حَقَّ أَحَدٍ، وَهُمْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ: إِمَّا صَالِحٌ فَاللَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَإِمَّا غَيْرُ صَالِحٍ فَمَا كُنْتُ لِأَعِينَهُ عَلَى فِسْقِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَا أَبَالِي فِي أَيِّ وادٍ هَلَكَ. وَفِي رِوَايَةٍ: أَفَادَعُ لَهُ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَأَكُونُ شَرِيكُهُ فِيمَا يَعْمَلُ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ.

ثُمَّ اسْتَدْعَى بِأَوْلَادِهِ فَوَدَّعَهُمْ وَعَزَّاهُمْ بِهَذَا، وَأَوْصَاهُمْ بِهَذَا الْكَلَامِ، ثُمَّ قَالَ: انصَرِفُوا عَصَمَكُمُ اللَّهُ، وَأَحْسِنَ الْخِلَافَةَ عَلَيْكُمْ. قَالُوا: فَلَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَحْمِلُ عَلَى ثَمَانِينَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَانَ بَعْضُ أَوْلَادِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ كَثْرَةِ مَا تَرَكَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ يَتَعَاطَى وَيَسْأَلُ مِنْ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِأَنَّ عُمَرَ وَكُلَّ وَلَدِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسُلَيْمَانَ وَعَزِيرَهُ إِتْمَا يَكْلُونُ أَوْلَادَهُمْ إِلَى مَا يَدْعُونَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الْفَنَائِيَةِ، فَيَضِيعُونَ وَتَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ فِي شَهَوَاتِ أَوْلَادِهِمْ.

وَقِيلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَتَيْتَ الْمَدِينَةَ فَإِنَّ قَضَى اللَّهِ مَوْتًا دُفِنْتَ فِي الْقَبْرِ الرَّابِعِ مَعَ رَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ يُعَذِّبَنَا اللَّهُ بِكُلِّ عَذَابٍ، إِلَّا النَّارَ فَإِنَّهُ لَا صَبْرَ لِي عَلَيْهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِي أَبِي لِدَلِكِ الْمَوْضِعِ أَهْلًا.

وَكَانَ مَرَضُهُ بِدَيْرِ سَمْعَانَ مِنْ فُرَى حِمصَ وَكَانَتْ مُدَّةُ مَرَضِهِ عِشْرِينَ يَوْمًا.
وَلَمَّا احْتَضَرَ قَالَ: أَجْلِسُونِي. فَأَجْلَسُوهُ، فَقَالَ: إِلَهِي، أَنَا الَّذِي أَمَرْتَنِي
فَقَصَّرْتُ، وَهَيَّيْتَنِي فَعَصَيْتُ - ثَلَاثًا - وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَحَدَّ
النَّظَرَ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَتَنْظُرُ نَظْرًا شَدِيدًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: إِنِّي لَأَرَى
حَضْرَةً مَا هُمْ بِإِنْسٍ وَلَا جَانٍّ. ثُمَّ قُبِضَ مِنْ سَاعَتِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ لِأَهْلِهِ:
اخْرُجُوا عَنِّي. فَخَرَجُوا وَجَلَسَ عَلَى الْبَابِ مَسْلَمَةً بِنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأُحْتَهُ
فَاطِمَةٌ، فَسَمِعُوهُ يَقُولُ: مَرْحَبًا بِهَذِهِ الْوُجُوهِ الَّتِي لَيْسَتْ بِوُجُوهِ إِنْسٍ وَلَا جَانٍّ،
ثُمَّ قَرَأَ { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } ثُمَّ هَدَأَ الصَّوْتُ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَوَجَدُوهُ قَدْ غَمِضَ، وَسَوَّيَ
إِلَى الْقِبْلَةِ، وَقُبِضَ.

وَقَالَ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ أَوْصَى إِلَيَّ أَنْ أُغْسِلَهُ
وَأُكْفِنَهُ، وَأَدْفِنَهُ، فَإِذَا حَلَلْتُ عُقْدَةَ الْكَفَنِ، أَنْ أَنْظُرَ فِي وَجْهِهِ، قَالَ: فَلَمَّا
فَعَلْتُ ذَلِكَ إِذَا وَجْهُهُ كَالْقَرَاتِيسِ بَيَاضًا، وَكَانَ قَدْ أَحْبَرَنِي أَنَّهُ دَفَنَ ثَلَاثَةً مِنْ
الْخُلَفَاءِ فَيَحُلُّ عَنْ وُجُوهِهِمْ فَإِذَا هِيَ مُسْوَدَّةٌ.

وَقَدْ رُبِّيتُ لَهُ مَنَامَاتٌ صَالِحَةٌ، وَتَأَسَّفَ عَلَيْهِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ، لَا سِيَّمَا الْعُلَمَاءُ
وَالرُّهَادُ وَالْعُبَّادُ.

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِدَيْرِ سَمْعَانَ مِنْ أَرْضِ حِمصَ يَوْمَ الْحَمِيسِ، تُوفِّيَ فِي جُمَادَى سَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَمِائَةٍ. وَصَلَّى عَلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ. وَكَانَ عُمُرُهُ يَوْمَ مَاتَ تِسْعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَشْهُرًا، وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ سَنَتَيْنِ وَحَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَأَرْبَعَةَ أَيَّامٍ. وَقِيلَ: وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا. وَقِيلَ: سَنَتَانِ وَنِصْفٌ.

وَكَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَسْمَرَ دَقِيقَ الْوَجْهِ حَسَنَهُ، نَحِيفَ الْجِسْمِ حَسَنَ اللَّحْيَةِ، غَائِرَ الْعَيْنَيْنِ، بِجَبْهَتِهِ أَثَرُ شَجَّةٍ، وَكَانَ قَدْ شَابَ وَخَضَبَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.

خِلَافَةُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

بُوِعَ لَهُ بِعَهْدٍ مِنْ أَخِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ وَلِيَّ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَلَمَّا تُوفِّيَ عُمَرُ فِي رَجَبٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، أَعْنَى سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَةٍ، بَايَعَهُ النَّاسُ الْبَيْعَةَ الْعَامَّةَ، وَعُمُرُهُ إِذْ ذَاكَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَعَزَلَ فِي رَمَضَانَ مِنْهَا عَنْ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ أَبَا بَكْرٍ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ، وَوَلَّى عَلَيْهَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ، فَجَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ بْنَ حَزْمٍ، مُنَافَسَاتٌ وَضَعَائِنٌ، حَتَّى آلَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ اسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ حُكُومَةً، فَحَدَّهُ حَدَّيْنِ فِيهَا.

وَفِيهَا كَانَتْ وَقْعَةٌ بَيْنَ الْخَوَارِجِ، وَهُمْ أَصْحَابُ بَسْطَامِ الْحَارِجِيِّ، وَبَيْنَ جُنْدِ الْكُوفَةِ، وَكَانَتْ الْخَوَارِجُ جَمَاعَةً قَلِيلَةً، وَكَانَ جَيْشُ الْكُوفَةِ نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ

فَارِسٍ وَكَادَتِ الْخَوَارِجُ أَنْ تَكْسِرَهُمْ، فَتَدَامَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَطَحَنُوا الْخَوَارِجَ طَحْنًا عَظِيمًا، وَقَتَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، فَلَمْ يُبْقُوا مِنْهُمْ نَائِرًا.

ثورة يزيد بن المهلب على بني أمية

وَفِيهَا حَرَجَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ فَخَلَعَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَاسْتَحْوَذَ عَلَى الْبَصْرَةِ وَذَلِكَ بَعْدَ مُحَاصَرَةِ طَوِيلَةٍ وَقِتَالٍ طَوِيلٍ، فَلَمَّا ظَهَرَ عَلَيْهَا بَسْطَ الْعَدْلَ فِي أَهْلِهَا، وَبَدَلَ الْأَمْوَالَ، وَحَبَسَ عَامِلَهَا عَدِيَّ بْنَ أَرْطَاةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ حَبَسَ آلَ الْمُهَلَّبِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْبَصْرَةِ، حِينَ هَرَبَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ مِنْ مَحْبَسِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَمَا ذَكَرْنَا، وَكَانَ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى قَصْرِ الْإِمَارَةِ أُبَيِّ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ أَرْطَاةَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ: إِنِّي لَأَتَعَجَّبُ مِنْ ضِحْكِكَ لِأَنَّكَ هَرَبْتَ مِنَ الْقِتَالِ كَمَا تَهْرُبُ النِّسَاءُ، وَإِنَّكَ جِئْتَنِي وَأَنْتَ تُتَلُّ كَمَا يُتَلُّ الْعَبْدُ. فَقَالَ عَدِيٌّ: إِنِّي لَأَضْحَكُ لِأَنَّ بَقَائِي بِقَاءَ لَكَ، وَإِنَّ مِنْ وَرَائِي طَالِبًا لَا يَتْرُكُنِي. قَالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: جُنُودُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالشَّامِ لَا يَتْرُكُونَكَ، فَتَدَارِكُ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ إِلَيْكَ الْبَحْرُ بِأَمْوَاجِهِ فَتَطْلُبُ الْإِقَالََةَ فَلَا تُقَالُ. فَرَدَّ عَلَيْهِ يَزِيدُ جَوَابَ مَا قَالَ، ثُمَّ سَجَنَهُ كَمَا سَجَنَ أَهْلَهُ.

وَاسْتَقَرَّ أَمْرُ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ بِالْبَصْرَةِ، وَبَعَثَ نُوَابَهُ فِي النُّوَاحِي وَالْجِهَاتِ، وَاسْتَنَابَ فِي الْأَهْوَاذِ، وَأَرْسَلَ أَحَاهُ مُدْرِكَ بْنَ الْمُهَلَّبِ عَلَى نِيَابَةِ حُرَّاسَانَ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ حَبْرَةَ الْخَلِيفَةَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ جَهَّزَ

ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة آلاف، مُقدّمةً بين يدي عمه مسلمة بن عبد الملك وهو في جنود الشام قاصدين البصرة لقتاله، ولما بلغ يزيد بن المهلب مخرج الجيوش قاصدةً إليه، خرج من البصرة واستناب عليها أخاه مروان بن المهلب، وجاء حتى نزل واسطاً، واستشار من معه من الأمراء في ماذا يعتمده؟ فاختلّفوا عليه في الرأي، فأشار عليه بعضهم بأن يسير إلى الأهواز ليتحصن في رؤوس الجبال، فقال: إنما تريدون أن تجعلوني طائرًا في رأس جبل. وأشار عليه رجال أهل العراق أن يسير إلى الجزيرة^١ فينزلها، ويتحصن بأجود حصن فيها، ويبعض عليه رجال أهل العراق، ويجمع عليه أهل الجزيرة فيقاتل بهم أهل الشام. وأنسلخت هذه السنة وهو نازل بواسط، وجيش الشام قاصده.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الرحمن بن الصّحّاك بن قيس أمير المدينة. وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعلى قضائها عامر الشعبي، وعلى البصرة يزيد بن المهلب قد استحوذ عليها وحلح أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك.

^١ الجزيرة الفراتية.

هَزِيمَةُ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثِنْتَيْنِ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا كَانَ اجْتِمَاعُ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَذَلِكَ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ رَكِبَ مِنْ وَاسِطٍ وَاسْتَحْلَفَ عَلَيْهَا ابْنَهُ مُعَاوِيَةَ، وَسَارَ هُوَ فِي جَيْشٍ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَحُوهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْمُهَلَّبِ، حَتَّى بَلَغَ مَكَانًا يُقَالُ لَهُ: الْعُزْرُ. وَانْتَهَى إِلَيْهِ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي جُنُودٍ لَا قِبَلَ لِيَزِيدَ بِهَا، وَقَدِ انْتَمَتِ الْمُقَدَّمَتَانِ أَوْلًا، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَهَزَمَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَهْلَ الشَّامِ. ثُمَّ تَذَامَرَ أَهْلُ الشَّامِ فَحَمَلُوا عَلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَكَشَفُوهُمْ، فَهَزَمُوهُمْ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الشُّجْعَانِ.

وَلَمَّا اقْتَرَبَ مَسْلَمَةُ، وَابْنُ أُخِيهِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ جَيْشِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ حَاطَبَ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ النَّاسَ، وَحَرَّضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ يَعْنِي عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ، وَكَانَ مَعَ يَزِيدَ نَحْوُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى أَلَّا تَطَّأَ الْجُنُودُ بِلَادَهُمْ، وَعَلَى أَلَّا تُعَادَ عَلَيْهِمْ سِيرَةُ الْفَاسِقِ الْحَجَّاجِ، وَمَنْ بَايَعَنَا عَلَى ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ، وَمَنْ خَالَفَنَا قَاتَلْنَاهُ.

وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يُحْرِضُ النَّاسَ عَلَى الْكُفِّ وَتَرْكِ الدُّحُولِ فِي الْفِتْنَةِ، وَيَنْهَاهُمْ أَشَدَّ النَّهْيِ، وَذَلِكَ لِمَا وَقَعَ مِنَ الشَّرِّ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ فِي أَيَّامِ ابْنِ الْأَشْعَثِ، وَمَا قُتِلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنَ النُّفُوسِ الْعَدِيدَةِ، وَجَعَلَ الْحَسَنُ يَخْطُبُ النَّاسَ، وَيَعْظُمُهُمْ فِي ذَلِكَ، وَيُحْرِضُهُمْ عَلَى الْكُفِّ، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَائِبَ

الْبَصْرَةَ مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ، فَقَامَ فِي النَّاسِ حَطِيبًا فَأَمَرَهُمْ بِالْجِدِّ وَالْجِهَادِ وَالنَّفِيرِ إِلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ قَالَ: وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ الضَّالَّ الْمُرَائِي - وَلَمْ يُسَمِّهِ - يُشْبِطُ النَّاسَ عَنَّا، أَمَا وَاللَّهِ لَيَكْفُنَنَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ لَأَفْعَلَنَّ وَلَا فَعَلَنَّ، وَتَوَعَّدَ الْحَسَنَ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحَسَنَ قَوْلَهُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا أَسْكَرُهُ أَنْ يُكْرِمَنِي اللَّهُ بِهَوَانِهِ. فَسَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى زَالَتْ ذَوُلَّتُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجِيُوشَ لَمَّا تَوَاجَهَتْ تَبَارَزَ النَّاسُ قَلِيلًا، وَلَمْ تَنْشَبِ الْحَرْبُ شَدِيدًا، فَلَمْ يَنْبُتْ أَهْلُ الْعِرَاقِ حَتَّى فَرُّوا سَرِيعًا، وَبَلَغَهُمْ أَنَّ الْجِسَرَ الَّذِي جَاءُوا عَلَيْهِ قَدْ حُرِقَ فَأَهْرَمُوا، فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ مَا بَالُ النَّاسِ؟ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَمْرِ مَا يُفْرُّ مِنْ مِثْلِهِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ بَلَغَهُمْ أَنَّ الْجِسَرَ قَدْ حُرِقَ. فَقَالَ: فَبَحُّهُمُ اللَّهُ.

ثُمَّ رَامَ أَنْ يُرَدَّ الْمُنْهَرِمِينَ فَلَمْ يُمْكِنَهُ ذَلِكَ، فَثَبَتَ فِي عِصَابَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَسَلَّلُونَ مِنْهُ حَتَّى بَقِيَ فِي شِرْذِمَةٍ مِنْهُمْ قَلِيلَةٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسِيرٌ قُدَمًا لَا يَمُرُّ بِحَيْلٍ إِلَّا هَزَمَهُمْ، وَأَهْلُ الشَّامِ يَنْحَارُونَ عَنْهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَقَدْ قُتِلَ قَبْلَهُ أَحْوَاهُ حَبِيبُ بْنُ الْمُهَلَّبِ؛ فَازْدَادَ حَنَفًا وَعَضْبًا، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْهَبٌ، ثُمَّ قَصَدَ نَحْوَ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ لَا يُرِيدُ غَيْرَهُ، فَلَمَّا وَاجَهَهُ حَمَلَتْ عَلَيْهِ حُيُُولُ الشَّامِ فَقَتَلُوهُ، وَقَتَلُوا مَعَهُ أَحَاهُ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ، وَقَتَلُوا السَّمِيدَعِ، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ، وَكَانَ الَّذِي قَتَلَ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْفَحْلُ بْنُ عِيَّاشٍ. فَقُتِلَ إِلَى جَانِبِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَجَاءُوا بِرَأْسِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ إِلَى مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَرْسَلَهُ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ

بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى أَخِيهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَاسْتَحْوَذَ مَسْلَمَةُ عَلَى مَا فِي مُعَسْكَرِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَأَسَرَ مِنْهُمْ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِمِائَةٍ، فَبَعَثَ بِهِمْ إِلَى الْكُوفَةِ، وَبَعَثَ إِلَى أَخِيهِ فِيهِمْ، فَجَاءَ كِتَابُ يَزِيدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَتْلِهِمْ، وَسَارَ مَسْلَمَةُ فَنَزَلَ الْحِيرَةَ.

وَلَمَّا انْتَهَتْ هَزِيمَةُ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ إِلَى ابْنِهِ مُعَاوِيَةَ، وَهُوَ بِوَاسِطٍ، عَمَدَ إِلَى نَحْوٍ مِنْ ثَلَاثِينَ أَسِيرًا فِي يَدِهِ فَقَتَلَهُمْ، مِنْهُمْ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَابْنُهُ، وَمَالِكُ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ ابْنَا مَسْمَعٍ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأَشْرَافِ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى أَتَى الْبَصْرَةَ وَمَعَهُ الْخَزَائِنُ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَجَاءَ عَمَّهُ الْمُفْضَلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، فَاجْتَمَعَ آلُ الْمُهَلَّبِ بِالْبَصْرَةِ، فَأَعَدُّوا السُّفُنَ، وَتَجَهَّزُوا أَمَمَ الْجِهَارِ، وَاسْتَعَدُّوا لِلْهَرَبِ، فَسَارُوا بَعِيَاهِمُ وَأَثْقَالِهِمْ، فَلَمْ يَزَالُوا سَائِرِينَ، حَتَّى أَتَوْا جِبَالَ كَرْمَانَ فَنَزَلُوهَا، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ فَلَّ مِمَّنْ كَانَ مَعَ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَقَدْ أَمَرُوا عَلَيْهِمُ الْمُفْضَلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، فَأَرْسَلَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ جَيْشًا، عَلَيْهِمْ هِلَالُ بْنُ أَحْوَزَ الْمَازِنِيُّ فِي طَلَبِ آلِ الْمُهَلَّبِ، وَيُقَالُ: إِتَمُّ أَمَرُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ مُدْرِكُ بْنُ ضَبِّ الْكَلْبِيِّ. فَلَحِقَهُمْ بِجِبَالِ كَرْمَانَ فَاقْتَتَلُوا هُنَالِكَ قِتَالًا شَدِيدًا، فَقُتِلَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمُفْضَلِ، وَأَسَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَانْهَزَمَ بِقِيَّتِهِمْ، ثُمَّ لَحِقُوا الْمُفْضَلَ فَقَتَلُوهُ، وَحَمَلَ رَأْسَهُ إِلَى مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَأَقْبَلَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ فَأَخَذُوا لَهُمْ أَمَانًا مِنْ أَمِيرِ الشَّامِ، مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْتَرِ النَّحْعِيُّ، ثُمَّ أَرْسَلُوا بِالْأَثْقَالِ وَالْأَمْوَالِ

وَالنِّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ فَوَرَدَتْ عَلَى مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَعَهُمْ رَأْسُ الْمُفَضَّلِ،
 وَرَأْسُ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِي الْمُهَلَّبِ، فَبَعَثَ مَسْلَمَةُ بِالرُّءُوسِ، وَتَسَعَةَ مِنَ الصَّبِيَّانِ
 الْأَحْدَاثِ الْحِسَانِ إِلَى أَخِيهِ يَزِيدَ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِ أَوْلَائِكَ، وَنُصِبَتْ
 رُءُوسُهُمْ بِدِمَشْقٍ ثُمَّ أَرْسَلَهَا إِلَى حَلَبَ فَنُصِبَتْ بِهَا، وَحَلَفَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ
 الْمَلِكِ لَيَبِيعَنَّ ذُرَارِيَّ آلِ الْمُهَلَّبِ، فَاشْتَرَاهُمْ بَعْضُ الْأَمْرَاءِ إِبْرَارًا لِقَسَمِهِ بِمِائَةِ
 أَلْفٍ، فَأَعْتَقَهُمْ وَحَلَّى سَبِيلَهُمْ، وَلَمْ يَأْخُذْ مَسْلَمَةُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمِيرِ شَيْئًا.

وَلَايَةُ مَسْلَمَةَ عَلَى بِلَادِ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَغَ مِنْ حَرْبِ آلِ الْمُهَلَّبِ كَتَبَ إِلَيْهِ أَخُوهُ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ
 بِوَلَايَةِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَخُرَاسَانَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فَاسْتَنَابَ عَلَى الْكُوفَةِ وَعَلَى
 الْبَصْرَةِ، وَبَعَثَ عَلَى خُرَاسَانَ حَتَّتَهُ زَوْجَ ابْنَتِهِ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْحَارِثِ
 بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، الْمُلَقَّبِ بِحُدَيْيَةَ، فَسَارَ إِلَيْهَا فَحَرَّضَ أَهْلَهَا عَلَى
 الصَّبْرِ وَالشَّجَاعَةِ، وَعَاقَبَ عُمَّالًا مِمَّنْ كَانَ يَنْوِبُ لِيَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَأَخَذَ
 مِنْهُمْ أَمْوَالًا جَزِيلَةً، وَمَاتَ بَعْضُهُمْ تَحْتَ الْعُقُوبَةِ.

ذِكْرُ وَقَعَةِ جَرْتِ بَيْنَ التُّرْكِ وَالْمُسْلِمِينَ

وَذَلِكَ أَنَّ خَاقَانَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمَ مَلِكِ التُّرْكِ، بَعَثَ جَيْشًا إِلَى الصُّغَدِ لِقِتَالِ
 الْمُسْلِمِينَ، عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ كُوزْصُولُ. فَأَقْبَلَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى قَصْرِ
 الْبَاهِلِيِّ فَحَصَرَهُ وَفِيهِ حُلُقٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَصَالِحُهُمْ نَائِبُ سَمَرْقَنْدَ وَهُوَ عَثْمَانُ

بِنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُطَرِّفٍ عَلَى أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ سَبْعَةَ عَشَرَ دِهْقَانًا رَهَائِنَ
 عِنْدَهُمْ، ثُمَّ نَدَبَ عُثْمَانُ النَّاسَ فَانْتَدَبَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ الْمُسَيْبُ بْنُ بَشْرِ
 الرِّيَاحِيِّ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ، فَسَارُوا نَحْوَ التُّرْكِ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الطَّرِيقِ حَطَبَ
 النَّاسَ، فَحَثَّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى الْأَعْدَاءِ لَطَلْبِ الشَّهَادَةِ،
 فَرَجَعَ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ يَحْطُبُهُمْ، وَيَرْجِعُ عَنْهُ بَعْضُهُمْ،
 حَتَّى بَقِيَ فِي سَبْعِمِائَةِ مُقَاتِلٍ، فَسَارَ بِهِمْ حَتَّى غَالَقَ جَيْشَ الْأَتْرَاكِ، وَهُمْ
 مُحَاصِرُونَ ذَلِكَ الْقَصْرِ، وَقَدْ عَزَمَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ هُمْ فِيهِ عَلَى قَتْلِ نِسَائِهِمْ
 وَذَبْحِ أَوْلَادِهِمْ أَمَامَهُمْ، ثُمَّ يَنْزِلُونَ فَيُقَاتِلُونَ حَتَّى يُقْتَلُوا عَنْ آخِرِهِمْ، فَبَعَثَ
 إِلَيْهِمُ الْمُسَيْبُ يُنَبِّئُهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، فَثَبَّتُوا وَمَكَثَ الْمُسَيْبُ حَتَّى إِذَا كَانَ
 وَقْتُ السَّحْرِ كَبَّرَ وَكَبَّرَ أَصْحَابُهُ، وَقَدْ جَعَلُوا شِعَارَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، ثُمَّ حَمَلُوا عَلَى
 التُّرْكِ حَمَلَةً صَادِقَةً، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَعَقَرُوا دَوَابَّ كَثِيرَةً، وَهَضَّ إِلَيْهِمْ
 التُّرْكُ، فَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا، حَتَّى فَرَّ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ، وَضُرِبَتْ دَابَّةُ
 الْمُسَيْبِ فِي عَجْرِهَا فَتَرَجَّلَ عَنْهَا، وَتَرَجَّلَ مَعَهُ الشُّجْعَانُ، فَقَاتَلُوا، وَهُمْ كَذَلِكَ
 قِتَالًا عَظِيمًا، وَالتَّقَتِ الْجَمَاعَةُ بِالْمُسَيْبِ، وَصَبَرُوا حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفَرَّ
 الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَارِبِينَ لَا يَلُؤُونَ عَلَى شَيْءٍ، وَقَدْ كَانَ الْأَتْرَاكُ فِي غَايَةِ
 الْكُتْرَةِ، فَنَادَى مُنَادِي الْمُسَيْبِ: أَلَّا تَتَّبَعُوا أَحَدًا مِنْهُمْ، وَعَلَيْكُمْ بِالْقَصْرِ
 وَأَهْلِهِ. فَاحْتَمَلُوهُمْ وَحَارُوا مَا فِي مَعْسَكِرِ أَوْلِيكَ الْأَتْرَاكِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَشْيَاءِ
 النَّفِيسَةِ، وَأَنْصَرَفُوا رَاجِعِينَ سَالِمِينَ بِمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا

مَحْصُورِينَ، وَجَاءَتِ التُّرُكُ مِنَ الْعَدِ إِلَى الْقَصْرِ فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ دَاعِيًا وَلَا مُجِيبًا، فَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَقُونَا بِالْأَمْسِ لَمْ يَكُونُوا إِنْسًا، إِنَّمَا كَانُوا جِنًّا. ثُمَّ غَزَا سَعِيدُ الْمَلْقَبُ حُدَيْنَةَ أَمِيرُ خُرَاسَانَ بِلَادِ الصُّغْدِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَعَانُوا الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْعَزْوَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، فَسَارَ إِلَيْهِمْ فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ أَمْوَالًا جَزِيلَةً، وَقَبِضَ مَا وَجَدَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحَوَاصِلِ.

وَفِيهَا عَزَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَحَاهُ مَسْلَمَةً عَنِ إِمْرَةِ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَصْرِفُ أَمْوَالَ الْغَنِيمَةِ فِيمَا يُرِيدُ، وَلَمْ يَصْرِفْ إِلَى أَخِيهِ يَزِيدَ شَيْئًا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَطَمِعَ فِي أَخِيهِ فَعَزَلَهُ عَنْهَا، وَوَلَّى عَلَيْهَا بَدَلَهُ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ عَلَى الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا أَمِيرُ الْمَدِينَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الصَّحَّاحِ بْنِ قَيْسٍ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا عَزَلَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ - وَهُوَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ - سَعِيدًا الْمَلْقَبُ حُدَيْنَةَ، عَنْ نِيَابَةِ خُرَاسَانَ وَوَلَّى عَلَيْهَا سَعِيدَ بْنَ عَمْرِو الْحَرَشِيِّ، بِإِذْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ سَعِيدٌ هَذَا مِنَ الْأَبْطَالِ الْمَشْهُورِينَ، أَنْزَعَجَ لَهُ التُّرُكُ، وَخَافُوهُ خَوْفًا شَدِيدًا، وَتَقَهَّقَرُوا مِنْ بِلَادِ الصُّغْدِ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ وَغَيْرِهَا.

وَفِيهَا جَمَعَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ بَيْنَ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ وَإِمْرَةِ مَكَّةَ، وَوَلَّى عَبْدَ الْوَاحِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ النَّضْرِيَّ نِيَابَةَ الطَّائِفِ. وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا أَمِيرُ الْحَرَمَيْنِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ أَرْبَعٌ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا قَاتَلَ سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو الْحَرْشِيَّ نَائِبَ حُرَّاسَانَ أَهْلَ الصُّعْدِ، وَحَاصَرَ أَهْلَ حُجَنْدَةَ، وَقَتَلَ خَلْقًا كَثِيرًا، وَأَخَذَ أَمْوَالًا جَزِيلَةً، وَأَسَرَ رَقِيقًا كَثِيرًا جِدًّا، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَجَدَ عَلَيْهِ أَمِيرُ الْعِرَاقِ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِذْ لَمْ يَكْتُبْ إِلَيْهِ فَيَكْتُبُ هُوَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وُلَّاهُ.

وَفِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْهَا عَزَلَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنِ إِمْرَةِ الْحَرَمَيْنِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّهُ خَطَبَ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ، فَاْمْتَنَعَتْ مِنْ قَبُولِ ذَلِكَ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِهَا وَتَوَعَّدَهَا، فَأَرْسَلَتْ إِلَى يَزِيدَ تَشْكُوهُ إِلَيْهِ، فَبَعَثَتْ إِلَى عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّضْرِيَّ نَائِبِ الطَّائِفِ، فَوَلَّاهُ الْمَدِينَةَ، وَأَنْ يَضْرِبَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الضَّحَّاكِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ مُتَّكِيٌّ عَلَى فِرَاشِهِ بِدِمَشْقَ، وَأَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ رَكِبَ إِلَى دِمَشْقَ فَاسْتَجَارَ بِمَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَدَخَلَ عَلَى أَخِيهِ فَقَالَ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. فَقَالَ: كُلُّ حَاجَةٍ تَقُوهَا فَهِيَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ابْنُ الضَّحَّاكِ. فَقَالَ: هُوَ وَاللَّهِ حَاجَتِي. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَقْبَلُهَا وَلَا أَعْفُو عَنْهُ.

فَرَدَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَسَلَّمَهُ عَبْدُ الْوَاحِدِ فَضَرَبَهُ وَأَخَذَ مَالَهُ حَتَّى تَرَكَهُ فِي جُبَّةِ صُوفٍ، فَسَأَلَ النَّاسَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ قَدْ بَاشَرَ نِيَابَةَ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا، وَكَانَ الزُّهْرِيُّ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِرَأْيِ سَدِيدٍ؛ وَهُوَ أَنْ يَسْأَلَ الْعُلَمَاءَ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ أَمْرٌ، فَلَمْ يَقْبَلْ وَمَ يَفْعَلْ، فَأَبْغَضَهُ النَّاسُ، وَذَمَّهُ الشُّعْرَاءُ، ثُمَّ كَانَ هَذَا آخِرَ أَمْرِهِ.

وَفِيهَا عَزَلَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ، سَعِيدَ بْنَ عَمْرِو الْحَرَشِيِّ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَخِفُّ بِأَمْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، فَلَمَّا عَزَلَهُ أَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَاقَبَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَوَلَّى عَلَى خُرَاسَانَ مُسْلِمَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ أَسْلَمَ بْنَ زُرْعَةَ الْكِلَابِيِّ، فَسَارَ إِلَيْهَا، فَاسْتَحْلَصَ أَمْوَالًا كَانَتْ مُنْكَسِرَةً فِي أَيَّامِ سَعِيدِ بْنِ عَمْرِو الْحَرَشِيِّ.

وَفِيهَا عَزَا الْجِرَاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيِّ نَائِبُ إِرمينية وَأَذْرَبيجانَ أَرْضَ التُّرْكِ، فَفَتَحَ بَلَنْجَرَ وَهَزَمَ التُّرْكَ، وَعَرَفَهُمْ وَذَرَارِيَهُمْ فِي الْمَاءِ، وَسَبَى مِنْهُمْ حَلْقًا كَثِيرًا، وَافْتَتَحَ عَامَّةَ الْخُصُونِ الَّتِي تَلِي بَلَنْجَرَ، وَأَجْلَى عَامَّةَ أَهْلِهَا.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّضْرِيُّ أَمِيرُ الْحَرَمَيْنِ وَالطَّائِفِ، وَعَلَى نِيَابَةِ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ، وَنَائِبُهُ عَلَى خُرَاسَانَ مُسْلِمُ بْنُ سَعِيدِ يَوْمئِذٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وُلِدَ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ الْمَلَقَّبُ بِالسَّقَّاحِ^١ أَوَّلُ حُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَقَدْ بَايَعَ أَبَاهُ فِي الْبَاطِنِ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ.

وفاة يزيد بن عبد الملك

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ حَمْسٌ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا غَزَا الْجِرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيُّ بِلَادَ اللَّانِ، وَفَتَحَ حُصُونًا كَثِيرَةً، وَبِلَادًا مُتَّسِعَةً الْأَكْنَافِ مِنْ وَرَاءِ بَلَنْجَرٍ، وَأَصَابَ غَنَائِمَ جَمَّةً، وَسَبَى حُلَقًا مِنْ أَوْلَادِ الْأَتْرَاكِ.

وَفِيهَا غَزَا مُسْلِمُ بْنُ سَعِيدٍ بِلَادَ التُّرُكِ، وَحَاصَرَ مَدِينَةَ عَظِيمَةً مِنْ بِلَادِ الصُّعْدِ فَصَالَحَهُ مَلِكُهَا عَلَى مَالٍ كَثِيرٍ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ.

وَفِيهَا غَزَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بِلَادَ الرُّومِ، فَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَرِيَّةً أَلْفَ فَارِسٍ فَأَصِيبُوا جَمِيعًا.

وَفِيهَا لَحِمَسِ بَقِينَ مِنْ شَعْبَانَ مِنْهَا تُوَيِّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بِأَرْبَدَ مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَعُمُرُهُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ، وَهَذِهِ تَرْجُمَتُهُ:

^١ السقحاح: من سفح المال وتفريقه كرمًا وسخاءً.

هُوَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ أَبُو خَالِدِ الْقُرَشِيِّ الْأُمَوِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأُمُّهُ عَاتِكَةُ بِنْتُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ. بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَمِائَةٍ، بِعَهْدٍ مِنْ أَخِيهِ سُلَيْمَانَ أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِحَمْسِ بَقِيْنَ مِنْ رَجَبٍ.

كَانَ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمَ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرَ الْمُسْلِمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، فَلَمَّا وَلِيَ مُعَاوِيَةُ وَرَثَ الْمُسْلِمَ مِنَ الْكَافِرِ، وَلَمْ يُورَثِ الْكَافِرَ مِنَ الْمُسْلِمِ، وَأَخَذَ بِذَلِكَ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَاجِعَ السُّنَّةَ الْأُولَى، وَتَبِعَهُ فِي ذَلِكَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا قَامَ هِشَامٌ أَخَذَ بِسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ. يَعْنِي أَنَّهُ وَرَثَ الْمُسْلِمَ مِنَ الْكَافِرِ. وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنِ ابْنِ جَابِرٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ مَكْحُولٍ إِذْ أَقْبَلَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَهَمَمْنَا أَنْ نُوسِعَ لَهُ، فَقَالَ مَكْحُولٌ: دَعُوهُ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ، يَتَعَلَّمُ التَّوَاضُعَ.

وَقَدْ كَانَ يَزِيدُ هَذَا يُكْتَبَرُ مِنْ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ الْخِلَافَةَ، فَلَمَّا وَلِيَ عَزَمَ أَنْ يَتَأَسَّى بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لَا أُرَانِي إِلَّا لِمَا بِي، وَمَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا سَيُفْضِي إِلَيْكَ، فَاللَّهُ اللَّهُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّكَ عَمَّا قَلِيلٍ مَيِّتٌ، فَتَدْعُ الدُّنْيَا لِمَنْ لَا يَحْمَدُكَ، وَتُفْضِي إِلَيَّ مَنْ لَا يَعْدِرُكَ، وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ مَرَضُهُ بِالسُّلِّ، وَذَلِكَ بِالسَّوَادِ سَوَادِ الْأُرْدُنِّ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِحَمْسٍ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، أَعْنِي سَنَةَ حَمْسٍ وَمِائَةٍ.

وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ أَرْبَعَ سِنِينَ وَشَهْرًا عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقِيلَ: أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ. وَكَانَ عُمُرُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ طَوِيلًا جَسِيمًا أَبْيَضَ مُدَوَّرَ الْوَجْهِ، أَفْقَمَ الْفَمِ، لَمْ يَشِبْ. وَصَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ وَعُمُرُهُ حَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقِيلَ: بَلْ صَلَّى عَلَيْهِ أَحُوهُ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُوَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ، وَحِمَلَ عَلَى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ حَتَّى دَفِنَ بَيْنَ بَابِ الْجَائِيَةِ وَبَابِ الصَّغِيرِ بِدِمَشْقَ، وَكَانَ قَدْ عَهَدَ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ لِأَخِيهِ هِشَامٍ وَمِنْ بَعْدِهِ لَوْلَدِهِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فَبَايَعَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ هِشَامًا.

خِلَافَةُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ

بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهِ لِحَمْسٍ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ - أَعْنِي سَنَةَ حَمْسٍ وَمِائَةٍ - وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً وَأَشْهَرُ؛ لِأَنَّهُ وُلِدَ لَمَّا قَتَلَ أَبُوهُ عَبْدِ الْمَلِكِ مُصْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ، فَسَمَّاهُ مَنْصُورًا تَفَاؤُلًا، ثُمَّ قَدِمَ فَوَجَدَ أُمَّهُ قَدْ أَسْمَتْهُ بِاسْمِ أَبِيهَا هِشَامًا^١ فَأَقْرَهُ.

^١ هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي: ولّاه عبد الملك بن مروان المدينة سنة

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ وَهُوَ بِالزُّبَيْدَةِ فِي مَنْزِلٍ لَهُ، فَجَاءَهُ الْبُرَيْدُ بِالْعَصَا وَالْحَاتِمِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ، فَرَكِبَ مِنَ الرِّصَافَةِ حَتَّى أَتَى دِمَشْقَ، فَقَامَ بِأَمْرِ الْخِلَافَةِ أُمَّمَ الْقِيَامِ، فَعَزَلَ فِي شَوَالٍ مِنْهَا عَنْ إِمْرَةِ الْعِرَاقِ وَحُرَّاسَانَ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ وَوَلَّى عَلَيْهَا خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْعِرَاقِ فِي سَنَةِ سِتِّ وَمِائَةٍ. وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيِّ حَالَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَخُو أُمِّهِ عَائِشَةَ بِنْتِ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ وَلَمْ تَلِدْ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ سِوَاهُ حَتَّى طَلَّقَهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ حَمَقَاءَ.

وَفِيهَا قَوِيٌّ أَمْرٌ دَعَا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي السِّرِّ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ، وَحَصَلَ لِدُعَائِهِمْ أَمْوَالٌ جَزِيلَةٌ يَسْتَعِينُونَ بِهَا عَلَى أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ بِصَدَدِهِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ سِتِّ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا عَزَلَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ إِمْرَةِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفِ عَبْدَ الْوَاحِدِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ النَّضْرِيِّ، وَوَلَّى عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ خَالَهُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيِّ. وَفِيهَا غَزَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الصَّبَائِقَةَ. وَفِيهَا غَزَا مُسْلِمُ بْنُ سَعِيدِ مَدِينَةَ فَرْعَانَةَ وَمُعَامَلَتَهَا، فَلَقِيَهُ عِنْدَهَا التُّرُكُ فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَقَعَةٌ هَائِلَةٌ، قُتِلَ فِيهَا الْخَاقَانُ وَطَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ التُّرُكِ.

وَفِيهَا أَوْعَلَ الْجَرَاحُ الْحَكَمِيُّ فِي أَرْضِ الْخَزَرِ فَصَالِحُوهُ وَأَعْطَوْهُ الْجِزْيَةَ وَالْخَرَاجَ. وَفِيهَا غَزَا الْحَجَّاجُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ اللَّانَ، فَقَتَلَ خَلْقًا كَثِيرًا وَغَنِمَ وَسَلِمَ.

وَفِيهَا عَزَلَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ عَنْ إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ مُسْلِمَ بْنَ سَعِيدٍ،
وَوَلَّى عَلَيْهَا أَخَاهُ أَسَدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيَّ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَتَبَ إِلَى
أَبِي الزِّنَادِ قَبْلَ دُخُولِهِ الْمَدِينَةَ لِيَتَلَقَّاهُ وَيَكْتُبَ لَهُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ، فَفَعَلَ، وَتَلَقَّاهُ
النَّاسُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، وَفِيهِمْ أَبُو الزِّنَادِ قَدْ امْتَثَلَ مَا أُمِرَ بِهِ،
وَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي الزِّنَادِ يُحَادِثُهُ، وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَكَّةَ عَرَضَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَلْحَةَ
فَتَطَلَّمَ إِلَيْهِ فِي أَرْضٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ كُنْتَ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ؟ قَالَ: ظَلَمَنِي.
قَالَ: فَالْوَلِيدُ؟ قَالَ: ظَلَمَنِي. قَالَ: فَسُلَيْمَانَ؟ قَالَ: ظَلَمَنِي. قَالَ: فَعُمَرَ بْنَ
عَبْدِ الْعَزِيزِ؟ قَالَ: رَدَّهَا عَلَيَّ. قَالَ: فَيَزِيدَ؟ قَالَ: انْتَزَعَهَا مِنْ يَدِي وَهِيَ الْآنَ
فِي يَدِكَ. فَقَالَ لَهُ هِشَامُ: أَمَا لَوْ كَانَ فِيكَ مَضْرِبٌ لَصَرْتُكَ. فَقَالَ: بَلَى فِيَّ
مَضْرِبٌ بِالسَّيْفِ وَالسَّوْطِ. فَانصَرَفَ هِشَامٌ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ لِرَجُلٍ مَعَهُ: مَا
رَأَيْتُ أَفْصَحَ مِنْ هَذَا.

وَفِيهَا كَانَ الْعَامِلَ عَلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ
إِسْمَاعِيلَ^١، وَعَلَى الْعِرَاقِ وَحُرَّاسَانَ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ.

^١ خال أمير المؤمنين.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا خَرَجَ بِالْيَمَنِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: عَبَّادُ الرَّعِينِيِّ. فَدَعَا إِلَى مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ، وَاتَّبَعَهُ فِرْقَةٌ مِنَ النَّاسِ، وَحَكَمُوا، فَقَاتَلَهُمْ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ، وَكَانُوا ثَلَاثِمِائَةً. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَفِيهَا وَقَعَ بِالشَّامِ طَاعُونَ شَدِيدٌ.

وَفِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامِ الصَّائِفَةَ وَعَلَى جَيْشِ أَهْلِ الشَّامِ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ فَقَطَعُوا الْبَحْرَ إِلَى فُبْرَسَ. وَغَزَا مَسْلَمَةَ فِي الْبَرِّ فِي جَيْشٍ آخَرَ.

وَفِيهَا ظَفَرَ أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ بِجَمَاعَةٍ مِنْ دُعَاةِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِخُرَّاسَانَ فَصَلَبَهُمْ وَأَشْهَرَهُمْ.

وَفِيهَا غَزَا أَسَدُ الْقَسْرِيُّ جِبَالَ تَمْرُونَ مَلِكِ الْغَزَشَسْتَانِ مِمَّا يَلِي جِبَالَ الطَّالِقَانَ فَصَلَحَهُ تَمْرُونَ وَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ.

وَفِيهَا غَزَا أَسَدُ الْعُورِ، وَهِيَ جِبَالُ هَرَاةَ، فَعَمَدَ أَهْلَهَا إِلَى حَوَاصِلِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَثْقَالِهِمْ، فَجَعَلُوا ذَلِكَ كُفْلَهُ فِي كَهْفٍ مَنِيَعٍ، لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُسْتَفْلٌ^١ جَدًّا، فَأَمَرَ أَسَدُ بِالرِّجَالِ فَجَعَلُوا فِي تَوَايِيتَ وَدَلَّاهُمْ إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُمْ بِوَضْعِ مَا هُنَالِكَ فِي التَّوَايِيتِ، فَلَمَّا جَمَعُوا مَا هُنَالِكَ قَعَدَ الرِّجَالُ فِي التَّوَايِيتِ وَرَفَعُوهُمْ، فَسَلِمُوا وَغَنِمُوا. وَهَذَا رَأْيُ سَدِيدٍ.

^١ مرتفع.

وَفِيهَا أَمْرُ أَسَدٍ يَجْمَعُ مَا حَوْلَ بَلْخِ إِلَيْهَا، وَاسْتَنَابَ عَلَيْهَا بَرْمَكٌ وَالِدَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ^١، وَبَنَاهَا بِنَاءً جَيِّدًا جَدِيدًا مُحْكَمًا، وَحَصَّنَهَا وَجَعَلَهَا مَعْقِلًا لِلْمُسْلِمِينَ.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ أَمِيرُ الْحَرَمَيْنِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا افْتَتَحَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَيْسَارِيَّةً مِنْ بِلَادِ الرُّومِ. وَفَتَحَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِصْنًا مِنْ حُصُونِ الرُّومِ أَيْضًا.

وَفِيهَا غَزَا أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ أَمِيرُ خُرَاسَانَ فَكَسَرَ الْأَتْرَاكَ كَسْرَةً فَاضِحَةً.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيُّ أَمِيرُ الْحَرَمَيْنِ وَالطَّائِفِ. وَالْعُمَّالُ فِيهَا هُمُ الْعُمَّالُ فِي الَّتِي قَبَلَهَا بِأَعْيَانِهِمْ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعٍ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا عَزَلَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ عَنِ إِمْرَةِ خُرَاسَانَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَفْدَمَ إِلَى الْحِجِّ، فَأَقْبَلَ مِنْهَا فِي

^١ خالد بن برمك (٩٠ - ١٦٣ هـ): أبو البرامكة، وأول من تمكن منهم في دولة بني العباس. هو الوزير العباسي أبو العباس، جد الوزير جعفر بن الوزير يحيى البرمكي. قال الصولي: كان يتهم بدين الجوس، وكان يختلف إلى محمد بن علي الإمام، ثم إلى ابنه إبراهيم الإمام. وكان من أفراد الرجال رئاسة ودهاء وحزمًا، وخلفه في ذلك أولاده.

رَمَضَانَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى حُرَّاسَانَ الْحَكَمَ بْنَ عَوَانَةَ الْكَلْبِيِّ، وَاسْتَنَابَ هِشَامٌ عَلَى حُرَّاسَانَ أَشْرَسَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ السُّلَمِيِّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُكَاتِبَ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسْرِيِّ وَكَانَ أَشْرَسُ فَاضِيلاً حَيِّراً، وَكَانَ يُسَمَّى الْكَامِلَ لِدَلِكِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ الْمُرَابِطَةَ بِحُرَّاسَانَ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ دِثَارِ الْبَاهِلِيِّ وَتَوَلَّى هُوَ الْأُمُورَ بِنَفْسِهِ، كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا، فَفَرِحَ بِهِ أَهْلُهَا.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامٍ أَمِيرُ الْحَرَمَيْنِ وَالطَّائِفِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ عَشْرٌ وَمِائَةٌ مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَفِيهَا قَاتَلَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَلِكِ الثُّرُكِ الْأَعْظَمِ حَاقَانَ فِي جُمُوعٍ عَظِيمَةٍ، فَمَتَّوَفَّقُوا نَحْوًا مِنْ شَهْرٍ، ثُمَّ هَزَمَ اللَّهُ حَاقَانَ فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ، وَرَجَعَ مَسْلَمَةُ سَالِمًا غَانِمًا، فَسَلَكَ عَلَى مَسَلِكِ ذِي الْقَرْنَيْنِ فِي رُجُوعِهِ إِلَى الشَّامِ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الْعَزْوَةُ غَزَاةَ الطَّيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ سَلَكُوا عَلَى مَعَارِقَ وَمَوَاضِعَ غَرِقَ فِيهَا دَوَابُّ كَثِيرَةٌ، وَتَوَحَّلَ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَمَا نَجَّوْا حَتَّى قَاسَوْا شِدَائِدَ وَأَهْوَالًا صِعَابًا وَشِدَادًا عِظَامًا.

وَفِيهَا دَعَا أَشْرَسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السُّلَمِيُّ نَائِبُ حُرَّاسَانَ أَهْلَ الذِّمَّةِ بِسَمَرْقَنْدَ وَمَنْ وَرَاءَ النَّهْرِ إِلَى الدُّحُولِ فِي الْإِسْلَامِ، عَلَى أَنْ يَضَعَ عَنْهُمْ الْجَزِيَّةَ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَسْلَمُوا غَالِبُهُمْ، ثُمَّ طَالَبَهُمْ بِالْجَزِيَّةِ، فَنَصَبُوا لَهُ الْحَرْبَ وَقَاتَلُوهُ، ثُمَّ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الثُّرُكِ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ.

وَفِيهَا أَرْسَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامٌ، عَبْدَهُ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ مُتَوَلِّيًا عَلَيْهَا، فَلَمَّا وَصَلَ
جَهْرَ ابْنَهُ وَأَخَاهُ فِي جَيْشٍ، فَالْتَقَوْا مَعَ الْمُشْرِكِينَ فَفَعَلُوا مِنْهُمْ حَلْفًا كَثِيرًا،
وَأَسْرُوا بِطَرِيقِهِمْ، وَأَهْزَمَ بِأَقْبَامِهِمْ، وَعَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ شَيْئًا كَثِيرًا.

وَفِيهَا فَتَحَ مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ حِصْنَيْنِ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ وَعَنِمَ عَنَائِمَ جَمَّةً.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامٍ. وَعَلَى الْعِرَاقِ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ وَعَلَى
حُرَّاسَانَ أَشْرَسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السُّلَمِيُّ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَةً، وَفِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ الصَّائِفَةَ
الْيُسْرَى، وَغَزَا سَعِيدُ بْنُ هِشَامٍ الصَّائِفَةَ الْيُمْنَى، حَتَّى بَلَغَ قَيْسَارِيَّةَ مِنْ بِلَادِ
الرُّومِ.

وَفِيهَا عَزَلَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَشْرَسَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ السُّلَمِيَّ عَنِ إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ
وَوَلَّى عَلَيْهَا الْجُنَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُرِّيَّ، وَوَلَّى الْجَرَاحَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيَّ
إِزْمِينِيَّةً.

وَفِيهَا قَصَدَتِ التُّرُكُ بِلَادَ أَدْرَبِيجَانَ فَلَقِيَهُمُ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو فَهَزَمَهُمْ، وَلَمَّا
وَصَلَ الْجُنَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَى حُرَّاسَانَ أَمِيرًا عَلَيْهَا، تَلَقَتْهُ حُيُولُ الْأَنْرَاكِ
مُنْهَزِمِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ فِي سَبْعَةِ آلَافٍ، فَتَصَافَوْا وَافْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا،
وَطَمَعُوا فِيهِ وَفِيَمَن مَعَهُ لِقَلَّتِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَمَعَهُمْ مَلِكُهُمْ حَاقَانُ، فَكَادَ

الْجَنْبُذُ أَنْ يَهْلِكَ، ثُمَّ أَظْفَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ، فَهَزَمَهُمْ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَأَسَرَ ابْنَ أَحِي مَلِكِهِمْ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى الْخَلِيفَةِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ الْمَخْزُومِيُّ وَهُوَ أَمِيرُ الْحَرَمَيْنِ وَالطَّائِفِ، وَأَمِيرُ الْعِرَاقِ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ وَأَمِيرُ حُرَّاسَانَ الْجَنْبُذُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُرِّي.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثِنْتِي عَشْرَةَ وَمِائَةً، وَفِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامِ الصَّائِفَةَ فَافْتَتَحَ حُصُونًا مِنْ نَاحِيَةِ مَلْطِيَّةَ.

وَفِيهَا سَارَتِ التُّرُكُ مِنَ اللَّانِ فَلَقِيَهُمُ الْجَرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيُّ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَذْرَبِيحَانَ فَافْتَتَلُوا قَبْلَ أَنْ يَتَّكَمَلَ إِلَيْهِ جَيْشُهُ، فَاسْتُشْهِدَ الْجَرَّاحُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ بِمَرْجِ أَرْدَبِيلَ، وَأَخَذَ الْعَدُوُّ أَرْدَبِيلَ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بَعَثَ سَعِيدَ بْنَ عَمْرٍو الْحَرَشِيِّ فِي جَيْشٍ سَرِيعًا، فَلَحِقَ التُّرُكَ وَهُمْ يَسِيرُونَ بِأَسَارَى الْمُسْلِمِينَ إِلَى نَحْوِ مَلِكِهِمْ حَاقَانَ، فَاسْتَنْقَذَ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَيْضًا، وَقَتَلَ فِي التُّرُكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَأَسَرَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، فَقَتَلَهُمْ صَبْرًا، وَشَفَى مَا كَانَ تَعَلَّتْ مِنَ الْقُلُوبِ، وَلَمْ يَكْتَفِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِذَلِكَ حَتَّى أَرْسَلَ أَحَاهُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي أَثَرِ التُّرُكِ فَسَارَ إِلَيْهِمْ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ وَشِتَاءٍ عَظِيمٍ، فَوَصَلَ

إِلَى بَابِ الْأَبْوَابِ^١، وَاسْتَحَلَفَ عِنْدَهُ أَمِيرًا، وَسَارَ هُوَ بِمَنْ مَعَهُ فِي طَلَبِ الْأَتْرَاكِ وَمَلِكِهِمْ حَاقَانَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا سَنَدُكُرُهُ، وَهَضَّ أَمِيرُ خُرَّاسَانَ فِي طَلَبِ الْأَتْرَاكِ أَيْضًا فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَوَصَلَ إِلَى تَهْرٍ بَلَّحَ وَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ سِرِّيَّةً؛ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَأُخْرَى عَشْرَةَ أَلْفٍ يَمَنَّةً وَيَسْرَةَ، وَجَاسَتْ التُّرُكُ فَأَتَوْا سَمَرْقَنْدَ، فَكَتَبَ أَمِيرُهُمْ إِلَيْهِ يُعَلِّمُهُ بِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى صَوْنِ سَمَرْقَنْدَ مِنْهُمْ، وَمَعَهُمْ مَلِكُهُمُ الْأَعْظَمُ حَاقَانَ، فَالْعَوْتُ الْعَوْتُ. فَسَارَ الْجُنَيْدُ مُسْرِعًا فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ نَحْوَ سَمَرْقَنْدَ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى شَعْبِ سَمَرْقَنْدَ، وَبَقِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَرْبَعَةٌ فَرَاسِحَ، فَصَبَّحَهُ حَاقَانَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، فَحَمَلَ حَاقَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ الْجُنَيْدِ فَأَنحَازُوا إِلَى الْعَسْكَرِ، وَالتُّرُكُ تَتَّبَعُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَتَرَاءَى الْجُمُعَانَ وَالْمُسْلِمُونَ يَتَعَدَّوْنَ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِأَنْهَزَامٍ مُقَدِّمَتِهِمْ وَأَنْحِيَازِهَا إِلَيْهِمْ، فَنهَضُوا إِلَى السِّلَاحِ، وَاصْطَفَوْا عَلَى مَنَازِلِهِمْ، وَذَلِكَ فِي مَجَالٍ وَاسِعٍ، وَمَكَانٍ بَارِزٍ فَالْتَفَوْا، فَحَمَلَتِ التُّرُكُ عَلَى الْمَيْمَنَةِ، وَفِيهَا بَنُو تَمِيمٍ وَالْأَزْدُ، فَقُتِلَ مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهِمْ حَلْقٌ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ بِالشَّهَادَةِ، وَقَدْ بَرَزَ بَعْضُ شُجْعَانَ الْمُسْلِمِينَ لِمَجَاعَةٍ مِنْ شُجْعَانِ التُّرُكِ فَقَتَلْتَهُمْ، فَنَادَاهُ تُرْجَمَانُ الْمَلِكِ: إِنَّ صِرْتَ إِلَيْنَا جَعَلْنَاكَ فِيمَنْ يَرْفُضُ الصَّنَمَ الْأَعْظَمَ فَنَعْبُدُكَ. فَقَالَ: وَبِحُكْمِ! إِنَّمَا

^١ مدينة باب الأبواب: بوابة قزوین، أو بوابة القوقاز، أحد الخطوط الدفاعية الساسانية التي بنتها الامبراطورية الساسانية الفارسية لحماية الممر الشرقي لجنال القوقاز.

أَقَاتِلُكُمْ عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ تَنَاحَى الْمُسْلِمُونَ^١، وَتَدَاعَتِ الْأَبْطَالُ وَالشُّجْعَانُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَصَبَرُوا وَصَابَرُوا، وَحَمَلُوا عَلَى التُّرِكِ حَمَلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ حَلَقًا كَثِيرًا، ثُمَّ عَطَفَتِ التُّرُكُ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَلَقًا حَتَّى لَمْ يَبْقَ سِوَى أَلْفَيْنِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ سُوْدَةُ بْنُ أَبِي جَرٍّ وَاسْتَأْسَرُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً كَثِيرَةً، فَحَمَلُوهُمْ إِلَى الْمَلِكِ حَاقَانَ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَهَذِهِ الْوَقْعَةُ يُقَالُ لَهَا: وَقْعَةُ الشَّعْبِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ أَرْضَ الرُّومِ مِنْ نَاحِيَةِ مَرْعَشَ.

وَفِيهَا صَارَ جَمَاعَةٌ مِنْ دُعَاةِ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى خُرَاسَانَ وَانْتَشَرُوا فِيهَا، وَقَدْ أَخَذَ أَمِيرُهُمْ رَجُلًا مِنْهُمْ فَقَتَلَهُ، وَتَوَعَّدَ غَيْرَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

وَفِيهَا وَعَلَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي بِلَادِ التُّرُكِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ حَلَقًا كَثِيرًا وَأَمَّا مُنْتَشِرَةً، حَتَّى قَتَلَ ابْنَ حَاقَانَ وَفَتَحَ بِلَادًا كَثِيرَةً، وَدَانَتْ لَهُ تِلْكَ الْأَمْمَالِكُ مِنْ نَاحِيَةِ بَلَنْجَرَ وَأَعْمَالِهَا.

^١ انتخوا وتنادوا بالمرءة والنخوة.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ. وَتَوَاتَبَ الْبِلَادِ هُمْ
الْمَذْكُورُونَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ أَرْبَعٌ عَشْرَةٌ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا عَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ الصَّائِفَةَ الْيُسْرَى،
وَعَلَى الْيَمْنَى سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

وَفِيهَا اتَّقَى عَبْدُ اللَّهِ الْبَطَّالُ^١ وَمَلِكُ الرُّومِ الْمُسَمَّى فِيهِمْ قُسْطَنْطِينَ وَهُوَ ابْنُ
هَرْقَلِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْرَهُ الْبَطَّالُ فَأَرْسَلَهُ
إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ فَسَارَ بِهِ إِلَى أَبِيهِ.

وَفِيهَا عَزَلَ هِشَامٌ عَنْ إِمْرَةِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ هِشَامِ بْنِ
إِسْمَاعِيلَ وَوَلَّى عَلَيْهَا أَخَاهُ مُحَمَّدَ بْنَ هِشَامٍ، فَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي
قَوْلٍ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ خَمْسٌ عَشْرَةٌ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا وَقَعَ طَاعُونٌ بِالشَّامِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ نَائِبُ الْحَرَمَيْنِ وَالطَّائِفِ.
وَالنُّوَابُ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

^١ عبد الله البطال (ت ١٢٢هـ): مجاهد مسلم ظهر في الحروب الإسلامية البيزنطية في بدايات القرن الثامن الميلادي، شارك في عدة حملات قادتها الدولة الأموية ضد الإمبراطورية البيزنطية. الحقائق التاريخية حول سيرته نادرة، لكنها نمت بعد وفاته وأصبح أسطورة شعبية، وأصبح شخصية شهيرة بارزة في الملاحم الأدبية العربية، والتركية باسم: بطال غازي أو سيد بطال غازي.

وَمَنْ تُؤَيِّ فِيهَا مِنَ الْأَعْيَانِ:

أَبُو جَعْفَرِ الْبَاقِرِ

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْفَرَشِيِّ الْهَاشِمِيِّ أَبُو جَعْفَرِ الْبَاقِرِ، وَأُمُّهُ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بِنْتُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَهُوَ تَابِعِيٌّ جَلِيلُ الْقَدْرِ، كَثِيرُ الْعِلْمِ، أَحَدُ أَعْلَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَعِبَادَةً وَنَسَبًا وَشَرَفًا، وَهُوَ أَحَدُ مَنْ تَدَّعَى فِيهِ طَائِفَةُ الشِّيْعَةِ أَنَّهُ أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ، وَمَنْ يَكُنِ الرَّجُلُ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَلَا عَلَى مَنَوَالِهِمْ، وَلَا يَدِينُ بِمَا وَقَعَ فِي أَدْهَانِهِمْ وَأَوْهَامِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ، بَلْ كَانَ مِمَّنْ يُقَدِّمُ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَذَلِكَ عِنْدَهُ صَحِيحٌ فِي الْأَثَرِ، وَقَالَ أَيْضًا: مَا أَدْرَكْتُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي إِلَّا وَهُوَ يَتَوَلَّاهُمَا. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعَنْهُ.

وَقَدْ رَوَى عَنْ عَيْرٍ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَحَدَّثَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ وَعَيْرِهِمْ، فَمِمَّنْ رَوَى عَنْهُ: ابْنُهُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ، وَالْحَكَمُ بْنُ عَتِيْبَةَ، وَرَبِيعَةُ، وَالْأَعْمَشُ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالْأَعْرَجُ - وَهُوَ أَسْنُ مِنْهُ - وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَعَطَاءُ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَالزُّهْرِيُّ، وَأَبُو إِسْحَاقَ السَّبْعِيُّ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي وَكَانَ خَيْرَ مُحَمَّدِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

وَقَالَ الْعِجْلِيُّ: هُوَ مَدِينِيٌّ تَابِعِيٌّ ثِقَةٌ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ: كَانَ ثِقَةً كَثِيرَ الْحَدِيثِ.

وَكَانَتْ وَقَاتُهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَقَدْ جَاوَزَ السَّبْعِينَ، وَقِيلَ: لَمْ يُجَاوِزِ السِّتِينَ. وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سِتُّ عَشْرَةَ وَمِائَةً، وَفِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ الصَّائِفَةَ.
وَفِيهَا وَقَعَ طَاعُونَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَكَانَ مُعْظَمُ ذَلِكَ فِي وَاسِطٍ.

وَفِي الْمُحَرَّمِ مِنْهَا تُوفِّيَ الْجُنَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُرِّيُّ أَمِيرُ خُرَاسَانَ مِنْ مَرَضٍ
أَصَابَهُ فِي بَطْنِهِ، وَكَانَ قَدْ تَزَوَّجَ الْفَاضِلَةَ بِنْتَ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ فَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَعَزَلَهُ وَوَلَّى مَكَانَهُ عَاصِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ
عَلَى خُرَاسَانَ، وَقَالَ لَهُ: إِنْ أَدْرَكْتَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ فَأَزْهِقِ رُوحَهُ. فَمَا قَدِمَ
عَاصِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ خُرَاسَانَ حَتَّى مَاتَ الْجُنَيْدُ فِي الْمُحَرَّمِ مِنْهَا بِمُرُورِهِ. وَلَمَّا قَدِمَ
عَاصِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ خُرَاسَانَ أَحَدَ ثَوَابِ الْجُنَيْدِ بِالضَّرْبِ الْبَلِيغِ وَأَنْوَاعِ
الْعُقُوبَاتِ، وَعَسَفَهُمْ فِي الْمُصَادِرَاتِ وَالْجِنَايَاتِ، فَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ الْحَارِثُ بْنُ
سُرَيْجٍ وَبَارَزَهُ بِالْحَرْبِ، وَجَرَّتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا، ثُمَّ هَزِمَ فِي آخِرِ
الْأَمْرِ الْحَارِثُ بْنُ سُرَيْجٍ وَظَهَرَ عَاصِمٌ عَلَيْهِ.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُوَ وَلِيُّ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِ عَمِّهِ
هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعَ عَشْرَةَ وَمِائَةً، وَفِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ الصَّائِفَةَ الْيُسْرَى
وَسُلَيْمَانَ بْنَ هِشَامٍ الصَّائِفَةَ الْيُمْنَى.

وَفِيهَا بَعَثَ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ - وَهُوَ عَلَى إِزْمِينِيَّةٍ - بَعْثَيْنِ، فَفَتَحَ حُصُونًا مِنْ بِلَادِ اللَّانِ وَنَزَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

وَفِيهَا عَزَلَ هِشَامُ عَاصِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْهَلَالِيَّ عَنْ إِمْرَةِ خُرَاسَانَ، وَضَمَّهَا إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ مَعَ الْعِرَاقِ مُعَادَةً إِلَيْهِ، جَزِيًّا عَلَى مَا سَبَقَ لَهُ مِنَ الْعَادَةِ؛ وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ كِتَابِ عَاصِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْهَلَالِيِّ: إِنَّ وَايَةَ خُرَاسَانَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا مَعَ وَايَةِ الْعِرَاقِ. فَأَجَابَهُ هِشَامٌ إِلَى ذَلِكَ قَبُولًا لِنَصِيحَتِهِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَمِائَةً، وَفِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ، وَسُلَيْمَانُ ابْنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِلَادَ الرُّومِ.

وَفِيهَا قَصَدَ شَخْصٌ يُقَالُ لَهُ عَمَّارُ بْنُ يَزِيدَ، ثُمَّ تَسَمَّى بِخِدَاشٍ، إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ فَدَعَا النَّاسَ إِلَى خِلَافَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَاسْتَجَابَ لَهُ حَلْقٌ كَثِيرٌ، فَلَمَّا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ دَعَاهُمْ إِلَى مَذْهَبِ الْحُرْمِيَّةِ الزَّنَادِقَةِ وَأَبَاحَ لَهُمْ نِسَاءَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَزَعَمَ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ ذَلِكَ، وَقَدْ

١ الجذور القديمة للحُرْمِيَّةِ تعود للمذهب المزدكي الذي أسس على يد مزدك واعتنقه الملك الفارسي قُتْبَادُ بْنُ فِيرِزِ بْنِ يَزِيدِ بْنِ الْأَصْغَرِ (٤٨٨ - ٥٣١م)، وزعم مزدك أن أكثر ما يقع بين الناس من البغضاء والمخالفة إنما سببه النساء والأموال فجعل الناس فيها شركاء. إلا أنه بعد انتشار الفجور وموت قباد وتولي ابنه أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩م) تغيرت معاملة المزدكية فانقلب عليهم أنوشروان ومعونة رجال الدين الزرادشت قضى عليهم وقتلهم وظفر بمزدك وقتله. ثم أُعيد إحياء المزدكية تحت اسم الحُرْمِيَّةِ وقد ظهرها في بداية الدولة العباسية وهم عدة فرق.

كَذَبَ عَلَيْهِ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الدَّوْلَةَ، فَأَخَذَ فَجِيءًا بِهِ إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ أَمِيرِ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ فَأَمَرَ بِهِ فَقُطِعَتْ يَدُهُ وَسُلِّ لِسَانُهُ ثُمَّ صُلِبَ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَفِيهَا حَجَّ بِالنَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْمَحْزُومِيِّ أَمِيرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَكَانَتْ إِمْرَةٌ الْعِرَاقِ إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ، وَنَائِبُهُ عَلَى خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا أَحْوَهُ أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تَسَعُ عَشْرَةَ وَمِائَةً، وَفِيهَا غَزَا الْوَلِيدُ بْنُ الْقَعْقَاعِ الْعَبْسِيُّ أَرْضَ الرُّومِ.

وَفِيهَا قَتَلَ أَسَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ مَلِكَ التُّرْكِ الْأَعْظَمَ حَاقَانَ، وَكَانَ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ أَسَدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرَ خُرَاسَانَ عَمِلَ نِيَابَةً عَنْ أَخِيهِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الْعِرَاقِ ثُمَّ سَارَ بِجُيُوشِهِ إِلَى مَدِينَةِ حُتَلٍ فَافْتَتَحَهَا، وَتَفَرَّقَتْ فِي أَرْضِهَا جُنُودُهُ يَفْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَيَعْنَمُونَ، فَجَاءَتِ الْعُيُونُ إِلَى مَلِكِ التُّرْكِ حَاقَانَ أَنَّ جَيْشَ أَسَدٍ قَدْ تَفَرَّقَ فِي بِلَادِ حُتَلٍ فَاعْتَنَمَ حَاقَانَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، فَرَكَبَ مِنْ قَوْرِهِ فِي جُنُودِهِ قَاصِدًا إِلَى أَسَدٍ، وَتَزَوَّدَ حَاقَانَ وَأَصْحَابُهُ سِلَاحًا كَثِيرًا، وَقَدِيدًا وَمِلْحًا، وَسَارُوا فِي حَلْقِ عَظِيمٍ، وَجَاءَتِ الْعَيْنُ الصَّافِيَةُ إِلَى أَسَدٍ فَأَعْلَمُوهُ بِقَصْدِ حَاقَانَ لَهُ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ كَثِيفٍ، فَتَجَهَّزَ لِذَلِكَ، وَأَخَذَ أُهْبَتَهُ، فَأَرْسَلَ

مِنْ فُورِهِ إِلَى أَطْرَافِ جَيْشِهِ فَلَمَّمَهَا عَلَيْهِ، وَأَشَاعَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ حَاقَانَ قَدْ
 هَجَمَ عَلَى أَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَتَلَهُ وَأَصْحَابَهُ؛ لِيَحْصُلَ بِذَلِكَ خِذْلَانٌ
 لِأَصْحَابِهِ فَلَا يَجْتَمِعُوا إِلَيْهِ، فَرَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَجَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي
 تَدْبِيرِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ أَخَذَتْهُمْ حَمِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَازْدَادُوا
 حَنَقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَعَزَمُوا عَلَى الْأَخْذِ بِالنَّارِ فَفَقَصَدُوا الْمَوْضِعَ الَّذِي فِيهِ
 أَسَدٌ فَإِذَا هُوَ حَيٌّ قَدِ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْعَسَاكِرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَسَارَ أَسَدٌ
 نَحْوَ حَاقَانَ حَتَّى أَتَى جَبَلَ الْمِلْحِ وَأَرَادَ أَنْ يَخُوضَ هَمْرَ بَلْخِ، وَكَانَ مَعَهُمْ أَعْنَامٌ
 كَثِيرَةٌ، فَكَرِهَ أَسَدٌ أَنْ يَتْرَكَهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَأَمَرَ كُلَّ فَارِسٍ أَنْ يَحْمِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ
 شَاةً عَلَى عُنُقِهِ، وَتَوَعَّدَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ بِقَطْعِ الْيَدِ، وَحَمَلَ هُوَ مَعَهُ شَاةً،
 وَخَاضُوا النَّهْرَ، فَمَا خَلَصُوا مِنْهُ حَيْدًا حَتَّى دَهَمَهُمْ حَاقَانٌ مِنْ وَرَائِهِمْ فِي حَيْلٍ
 دُهُمٍ، فَقَتَلُوا مَنْ وَجَدُوهُ لَمْ يَقْطَعْ النَّهْرَ وَبَعْضَ الضَّعْفَةِ، فَلَمَّا وَقَفُوا عَلَى حَافَةِ
 النَّهْرِ أَحْجَمُوا، وَظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَقْطَعُونَ إِلَيْهِمْ النَّهْرَ، فَتَشَاوَرَ الْأَنْرَاكُ
 فِيمَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَحْمِلُوا حَمَلَةً وَاحِدَةً - وَكَانُوا خَمْسِينَ أَلْفًا -
 فَيَقْتَحِمُوا النَّهْرَ، فَضَرَبُوا بِكُوسَاتِهِمْ ضَرْبًا شَدِيدًا، حَتَّى ظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُمْ
 مَعَهُمْ فِي عَسْكَرِهِمْ، ثُمَّ رَمَوْا بِأَنْفُسِهِمْ فِي النَّهْرِ رَمِيَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَجَعَلَتْ
 حُيُوهُمْ تَنْخِرُ أَشَدَّ النَّخِيرِ، وَخَرَجُوا مِنْهُ إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَتَبَّتْ
 الْمُسْلِمُونَ فِي مُعْسَكَرِهِمْ، وَكَانُوا قَدْ خَنَدَقُوا حَوْلَهُمْ خَنْدَقًا لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِمْ
 مِنْهُ، فَبَاتَ الْجَيْشَانِ تَتْرَأَى نَارَاهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَا مَالَ حَاقَانَ عَلَى بَعْضِ

الجيش الذي للمسلمين، فقتل منهم خلقًا، وأسّر أُمًّا، وأخذ أموالًا كثيرةً وإيلاً موقرةً، ثم إنَّ الجيشين تواجها في يوم عيد الفطر، حتى خاف جيش أسد أن يصلوا صلاة العيد، فما صلّوها إلا على وجل، ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ، حتى انقضى الشتاء، فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس، واستشارهم في لقاء حاقان، فمنهم من قال: نتحصن بلخ ونبعث إلى خالد والحليفة، ومن قائل يشير بالدهاب إلى مرو، وأشار آخرون بملاقاه والتوكل على الله، فوافق ذلك رأي أسد الأسدي، فقصده بجيشه نحو حاقان، وصلى بالناس ركعتين أطال فيهما، ثم دعا بدعاء طويل، ثم انصرف وهو يقول: نصرتكم إن شاء الله تعالى. ثلاثًا.

ثم سار بمن معه من المسلمين، فالتقت مقدمته بمقدمة حاقان، فقتل المسلمون منهم خلقًا، وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه، ثم ساق أسد فأنتهى إلى أغنامهم فاستاقها، فإذا هي مائة ألف وخمسون ألف شاة، ثم التقى معهم، وكان حاقان في هذا اليوم إنما معه أربعة آلاف أو نحوها، ومعه رجل من العرب قد حامر إليه^١، يقال له: الحارث بن سريج فهو يدلُّه على عورات المسلمين، فلما اقتتل الناس هربت الأتراك في كل جانب، وانهمز حاقان، ومعه الحارث بن سريج المذكور يحميه ويثبتُه، فتبعهم أسد فلما كان عند

١ خامر إليه: انضم إليه وكان عيناً له.

الظهيرَةَ اخْتَدَلَ حَاقَانَ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، عَلَيْهِمُ الْخِزْيُ، وَمَعَهُمُ الْكُوسَاتُ^١، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْمُسْلِمُونَ أَمَرَ بِالْكُوسَاتِ فَضْرِبَتْ ضَرْبَ الْإِنْصِرَافِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الْإِنْصِرَافَ، فَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ، فَاحْتَاطُوا عَلَى مُعَسْكَرِهِمْ، فَاحْتَازُوهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْتَعَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأَوَانِي مِنَ النَّقْدِ، وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْأَسَارَى مِنَ الْمُسْلِمَاتِ وَعَيْرِهِمْ، بِمَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، لِكَثْرَتِهِ وَعَظَمِ قِيمَتِهِ وَحُسْنِهِ، غَيْرَ أَنَّ حَاقَانَ كَانَ قَدْ ضَرْبَ امْرَأَتَهُ بِخَنْجَرٍ فَقَتَلَهَا، فَوَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْعَسْكَرِ، وَهِيَ فِي آخِرِ رَقِيٍّ تَنَحَّرَكُ، وَوَجَدُوا قُدُورَهُمْ تَعْلِي بِأَطْعِمَاتِهِمْ، وَهَرَبَ حَاقَانَ بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ بَعْضَ الْمُدُنِ، فَتَحَصَّنَ بِهَا، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ لَعِبَ بِالنَّرْدِ مَعَ بَعْضِ أَمْرَائِهِ، فَغَلَبَهُ الْأَمِيرُ، فَتَوَعَّدَهُ حَاقَانَ بِقَطْعِ الْيَدِ، فَحَنِقَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمِيرُ، ثُمَّ عَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ فَقَتَلَهُ، وَتَفَرَّقَتِ الْأَتْرَاكُ فِرْقًا يَعْذُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَنْهَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَبَعَثَ أَسَدٌ إِلَى أَخِيهِ خَالِدٍ يُعَلِّمُهُ بِمَا وَقَعَ مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفْرِ بِحَاقَانَ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطُوقِ حَاقَانَ، وَشَيْءٍ كَثِيرٍ مِنْ حَوَاصِلِهِ وَأَمْتَعَتِهِ، فَوَفَدَهَا خَالِدٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامٍ؛ فَفَرِحَ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا جَدًّا، وَأَطْلَقَ لِلرُّسُلِ أَمْوَالًا جَزِيلَةً كَثِيرَةً مِنْ بَيْتِ الْمَالِ.

^١ الكوس: الطبل.

وَفِيهَا قَتَلَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ الْمُغِيرَةَ بْنَ سَعِيدٍ وَجَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ تَابَعُوهُ عَلَى بَاطِلِهِ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ سَاحِرًا فَاجِرًا شَيْعِيًّا حَبِيثًا، وَكَانَ يُقُولُ: لَوْ أَرَادَ عَلِيٌّ أَنْ يُجِيبِي عَادًا وَتُمُودًا وَفُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا لَأَحْيَاهُمْ.

قَالَ الْأَعْمَشُ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ يُخْرِجُ إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَيَتَكَلَّمُ، فَيُرَى مِثْلَ الْجَرَادِ عَلَى الْقُبُورِ. أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ.

وَدَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى سِحْرِهِ وَفُجُورِهِ. وَلَمَّا بَلَغَ خَالِدًا أَمْرُهُ أَمَرَ بِإِحْضَارِهِ، فَجِيءَ بِهِ فِي سِتَّةِ نَفَرٍ أَوْ سَبْعَةِ نَفَرٍ، فَأَمَرَ خَالِدٌ فَأُبْرِزَ سَرِيرُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ أَطْنَانَ الْقَصَبِ، وَالنِّفْطِ فَصَبَّ فَوْقَهَا، وَأَمَرَ الْمُغِيرَةَ أَنْ يَخْتَضِنَ طُنًا مِنْهَا، فَاثْمَنَعَ فَضْرِبَ حَتَّى اخْتَضَنَ مِنْهَا طُنًا وَاحِدًا، وَصَبَّ فَوْقَ رَأْسِهِ النَّفْطَ، ثُمَّ أَضْرَمَ بِالنَّارِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِبَقِيَّةِ أَصْحَابِهِ، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ خَرَجَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مُهْلُولُ بْنُ بَشْرٍ. وَيُلَقَّبُ بِكُثَّارَةَ، وَاتَّبَعَهُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْخَوَارِجِ دُونَ الْمَائَةِ، وَقَصَدُوا قَتْلَ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الْبُعُوثَ، فَكَسَرُوا الْجَيْوشَ، وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ جَدًّا؛ لِشَجَاعَتِهِمْ وَجَلَدِهِمْ، وَقَلَّةِ نُصْحِ مَنْ يُقَاتِلُهُمْ مِنَ الْجَيْوشِ، فَردُّوا الْعَسَاكِرَ مِنَ الْأُلُوفِ الْمُؤَلَّفَةِ، الْمُوقَرَةِ فَاعْتَرَضَهُمْ جَيْشٌ بِأَرْضِ الْجَزِيرَةِ فَاقْتَتَلُوا مَعَهُمْ قِتَالًا عَظِيمًا، فَقَتَلُوا عَامَّةً

١ الطُّنُّ: حُرْمَةُ الْقَصَبِ أَوْ الْحَطَبِ.

أَصْحَابِ بُهْلُولِ الْخَارِجِيِّ ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ جَدِيدَةَ يُكْتَى أبا المَوْتِ ضَرَبَ بُهْلُولًا
ضَرْبَةً فَصَرَعَهُ، وَتَفَرَّقَ بَقِيَّةُ أَصْحَابِهِ، وَكَانُوا جَمِيعُهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا.

ثُمَّ تَجَمَّعَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أُخْرَى عَلَى بَعْضِ أَمْرَائِهِمْ، فَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا وَجَهَّزَتْ
إِلَيْهِمُ الْعَسَاكِرُ مِنْ عِنْدِ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ
هُمُ بَاقِيَةٌ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَفِيهَا عَزَا أَسَدُ الْقَسْرِيِّ بِلَادَ التُّرْكِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ مِلْكُهُمْ بِدُرِّ طَرْحَانُ أَلْفِ
أَلْفٍ، فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ شَيْئًا، وَأَخَذَهُ قَهْرًا، فَقَتَلَهُ صَبْرًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ مَدِينَتَهُ
وَقَلْعَتَهُ وَحَوَاصِلَهُ وَنِسَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ.

وَفِيهَا حَرَجَ الصُّحَارِيُّ بِنُ شَيْبِ الْخَارِجِيِّ، وَاتَّبَعَهُ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ نَحْوَ مِنْ ثَلَاثِينَ
رَجُلًا، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ خَالِدُ الْقَسْرِيِّ جُنْدًا، فَقَتَلُوهُ وَجَمِيعَ أَصْحَابِهِ، فَلَمْ يَبْقَ
مِنْهُمْ رَجُلًا وَاحِدًا، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَبُو شَاكِرٍ مَسْلَمَةٌ بِنُ هِشَامِ بِنِ عَبْدِ الْمَلِكِ،
وَحَجَّ مَعَهُ ابْنُ شَهَابِ الزُّهْرِيِّ لِيُعَلِّمَهُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ، وَكَانَ أَمِيرَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ
وَالطَّائِفِ مُحَمَّدُ بِنُ هِشَامِ بِنِ إِسْمَاعِيلِ، وَأَمِيرَ الْعِرَاقِ وَالْمَشْرِقِ بِكَمَالِهِ خَالِدُ
الْقَسْرِيِّ، وَنَائِبُهُ عَلَى حُرَّاسَانَ بِكَمَالِهَا أَحْوَهُ أَسَدُ بِنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ وَقَدْ
قِيلَ: إِنَّهُ تُوَيِّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ. وَقِيلَ: فِي سَنَةِ عِشْرِينَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَنَائِبُ
إِرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِجَانَ مَرْوَانُ الْمُلقَّبُ بِالْحِمَارِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثم دخلت سنة عشرين ومائة من الهجرة النبوية، وفيها غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم وافتتح فيها حصوناً.

وفيها غزا إسحاق بن مسلم العقبلي قلاع ثومان شاه، وافتتحها وحرب أراضيها.

وفيها غزا مروان بن محمد الحمار بلاد الترك.

وفيها كانت وفاة أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان، وكانت وفاته بسبب أنه كانت له ذبيلة^١ في جوفه، فلما كان مهرجان هذه السنة قدمت الدهاقين - وهم أمراء المدين الكبار - من سائر البلدان بالهدايا والتحف على أسد، وكان ممن قدم نائب هراة ودهقانها خراسان شاه، فقدم بهدايا عظيمة وتحف غزيرة، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب، وقصر من فضة، وأباريق من ذهب، وصحاف من ذهب وفضة، وتفاصيل من حرير تلك البلاد ألوان ملونة، فوضع ذلك كله بين يدي أسد حتى امتلأ المجلس، ثم قام الدهقان خطيباً، فامتدح أسداً بخصال حسنة؛ على عقله ورياسته وعدله، ومنعه أهله وخاصته أن يظلموا أحداً من الرعايا بشيء قل أو كثر، وأنه قهر الخاقان الأعظم، وكان في مائة ألف، فكسره وقتله، وأنه يفرح بما يفد إليه من الأموال، وهو بما خرج من عنده أفرح وأشد سروراً، فأنشئ عليه أسد وأجلسه، ثم فرق

^١ الدمل أو الخراج.

أَسَدٌ جَمِيعَ تِلْكَ الْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ وَمَا هُنَالِكَ أَجْمَعُ عَلَى الْأَمْرَاءِ وَالْأَكَابِرِ بَيْنَ يَدَيْهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَهُوَ عَلِيلٌ مِنْ تِلْكَ الدُّبَيْلَةِ، ثُمَّ أَفَاقَ إِفَاقَةً، وَجِيءَ بِهَدِيَّةٍ كَثْرَى، فَجَعَلَ يُفْرِقُهَا عَلَى الْحَاضِرِينَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَأَلْقَى إِلَى دِهْقَانِ حُرَّاسَانَ وَاحِدَةً، فَاَنْفَجَرَتْ دُبَيْلَتُهُ، فَكَانَ فِيهَا حَتْفُهُ، وَاسْتَحْلَفَ عَلَى عَمَلِهِ جَعْفَرُ بْنُ حَنْظَلَةَ الْبَهْرَانِيُّ فَمَكَثَ أَمِيرًا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، حَتَّى جَاءَ عَهْدُ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ فِي رَجَبٍ مِنْهَا، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ وِفَاةُ أَسَدٍ فِي صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ.

وَفِيهَا عَزَلَ هِشَامُ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ عَنِ نِيَابَةِ الْعِرَاقِ وَذَلِكَ أَنَّهُ انْحَصَرَ مِنْهُ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ إِطْلَاقِ عِبَارَةٍ فِيهِ؛ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ عَنْهُ إِنَّهُ ابْنُ الْحَمَقَاءِ. وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا فِيهِ غِلْظَةٌ، فَرَدَّ عَلَيْهِ هِشَامٌ رَدًّا عَنِيفًا، وَيُقَالُ: إِنَّهُ حَسَدَهُ عَلَى سَعَةِ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحَوَاصِلِ وَالْعَلَّاتِ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ دَخَلَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ. وَقِيلَ: دِرْهَمٌ. وَلَوْلَدِهِ يَزِيدَ بْنَ خَالِدٍ عَشْرَةَ أَلْفِ أَلْفٍ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ وَقَدَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَلْرَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ فُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ عَمْرٍو. فَلَمْ يُرَحِّبْ بِهِ وَلَمْ يَعْأَبْ بِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ هِشَامٌ يُعْنَفُهُ، وَيُبَكِّتُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّهُ حَالَ وُصُولِ هَذَا الْكِتَابِ إِلَيْهِ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ يَقُومُ مِنْ فَوْرِهِ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ، فَيَنْطَلِقُ عَلَى قَدَمَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ بَابَ ابْنِ عَمْرٍو صَاغِرًا ذَلِيلًا مُسْتَأْذِنًا عَلَيْهِ، مُتَنَصِّلًا إِلَيْهِ مِمَّا وَقَعَ، فَإِنْ أَدِنَ لَكَ وَإِلَّا فَفَقِفْ عَلَى بَابِهِ

حَوْلًا، غَيْرَ مُتَحَلِّحٍ مِنْ مَكَانِكَ وَلَا زَائِلٍ، ثُمَّ أَمْرُكَ إِلَيْهِ: إِنْ شَاءَ عَزَلُكَ، وَإِنْ شَاءَ أَبْتَقَاكَ، وَإِنْ شَاءَ انْتَصَرَ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا. وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ عَمْرِو يُعَلِّمُهُ بِمَا كَتَبَ إِلَى خَالِدٍ، وَأَمَرَهُ إِنْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْ يَضْرِبَهُ عِشْرِينَ سَوْطًا عَلَى رَأْسِهِ، إِنْ رَأَى ذَلِكَ مَصْلَحَةً. ثُمَّ إِنَّ هِشَامًا عَزَلَ خَالِدًا وَأَخْفَى ذَلِكَ، وَبَعَثَ الْبَرِيدَ إِلَى نَائِبِهِ عَلَى الْيَمَنِ، وَهُوَ يُوسُفُ بْنُ عَمَرَ فَوَلَّاهُ إِمْرَةَ الْعِرَاقِ وَأَمَرَهُ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهَا وَالْقُدُومَ عَلَيْهَا فِي ثَلَاثِينَ رَاكِبًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَدِمُوا الْكُوفَةَ وَقَتَّ السَّحَرِ، فَدَخَلُوهَا، فَلَمَّا أَدَّانَ الْمُؤَدِّانَ أَمَرَهُ يُوسُفُ بِالْإِقَامَةِ، فَقَالَ: إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الْإِمَامُ - يَعْنِي خَالِدًا - فَانْتَهَرَهُ، وَأَمَرَهُ بِالْإِقَامَةِ، وَتَقَدَّمَ يُوسُفُ فَصَلَّى وَقَرَأَ: { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ } و { سَأَلَ سَائِلٌ }. ثُمَّ انصرفت فبعثت إلى خالد، وطارق وأصحابهما، فأحضرُوا فأخذ منهم أموالًا كثيرة، صادَرَ خالدًا بمائة ألفِ درهم، وكانت ولاية خالد في شوالِ سنة خمسٍ ومائة، وعزله عنها في جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة عشرين ومائة.

وفي هذا الشهر قديم يوسف بن عمر على ولاية العراق مكان خالد بن عبد الله القسري، واستناب على خراسان جديع بن علي الكرماني، وعزل جعفر بن حنظلة الذي كان استنابه أسدٌ ثم إن يوسف بن عمر عزله جديعًا في هذه السنة عن خراسان، وولى عليها نصر بن سيار، وذهب جميع ما كان اقتناه وحصله خالد من العقار والأموال وهلة واحدة، وقد كان أشار عليه بعض أصحابه لما بلغهم عتب هشام عليه أن يبعث إليه يعرض عليه بعض

أَمْلَاكِهِ، فَمَا أَحَبَّ مِنْهَا أَحَدَهُ وَمَا شَاءَ تَرَكَ، وَقَالُوا لَهُ: لِأَنْ يَذْهَبَ الْبَعْضُ وَيَبْقَى الْبَعْضُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَذْهَبَ الْجَمِيعُ مَعَ الْعَزْلِ وَالْإِحْرَاقِ. فَاثْتَمَنَعَ مِنْ ذَلِكَ وَاعْتَرَّ بِالدُّنْيَا، وَعَزَّتْ نَفْسُهُ عَلَيْهِ أَنْ يَدِلَّ، فَفَجَأَهُ الْعَزْلُ، وَذَهَبَ مَا كَانَ حَصَلَهُ وَجَمَعَهُ وَمَنَعَهُ، وَاسْتَقَرَّتْ وِلَايَةُ يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ عَلَى الْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ، وَاسْتَقَرَّتْ وِلَايَةُ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ نَائِبًا عَلَى خُرَّاسَانَ فَتَمَهَّدَتِ الْبِلَادُ وَأَمِنَ الْعِبَادُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ اسْتَبْطَأَتْ شَيْعَةُ آلِ الْعَبَّاسِ كِتَابَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ كَانَ عَتَبَ عَلَيْهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمْ ذَلِكَ الرَّنْدِيقِ الْمُلَقَّبِ بِجِدَاشٍ وَكَانَ حُرْمِيًّا، وَهُوَ الَّذِي أَحَلَّ لَهُمُ الْمُنْكَرَاتِ، وَدَنَسَ الْمَحَارِمَ وَالْمُصَاهِرَاتِ، فَفَتَلَهُ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ كَمَا تَقَدَّمَ، فَعَتَبَ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ فِي تَصْدِيقِهِمْ لَهُ وَاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى الْبَاطِلِ، فَلَمَّا اسْتَبْطَأُوا كِتَابَهُ إِلَيْهِمْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يَحْبُرُ لَهُمْ أَمْرَهُ، وَبَعَثُوا لَهُمْ أَيْضًا رَسُولًا، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُهُمْ أَعْلَمَهُ مُحَمَّدٌ بِمَاذَا عَتَبَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْحُرْمِيِّ، فَبَحَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَرْسَلَ مَعَ الرَّسُولِ كِتَابًا مَخْتُومًا، فَلَمَّا فَتَحُوهُ إِذَا هُوَ لَيْسَ فِيهِ سِوَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، تَعَلَّمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا عَتَبْنَا عَلَيْكُمْ بِسَبَبِ الْحُرْمِيِّ. ثُمَّ أَرْسَلَ هُوَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّ يُصَدِّقُهُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَهُمُوهَا بِهِ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مِنْ جِهَتِهِ عَصَا مَلُوءِيٌّ عَلَيْهَا حَدِيدٌ وَنُحَاسٌ، فَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا إِشَارَةٌ لَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ عَصَاءٌ، وَأَنََّّهُمْ مُخْتَلِفُونَ كَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ. وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْمَخْزُومِيِّ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَمِائَةً، وَفِيهَا غَزَا مَسْلَمَةُ بْنُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الرُّومَ فَافْتَتَحَ بِهَا مَطَامِيرَ.

وَعَزَا مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ بِلَادَ صَاحِبِ الذَّهَبِ فَافْتَتَحَ قِلاَعَهُ، وَحَرَّبَ أَرْضَهُ، فَأَدْعَنَ لَهُ بِالْحِزْبَةِ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِأَلْفِ رَأْسٍ يُؤَدِّيَهَا إِلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ رَهْنًا عَلَى ذَلِكَ.

مقتل زيد بن علي بن الحسين

وَفِيهَا فِي صَفَرٍ قُتِلَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي تَنَسَّبَ إِلَيْهِ الطَّائِفَةُ الزَّيْدِيَّةُ.

وَسَبَبَ مَقْتَلَهُ، هُوَ أَنَّ زَيْدًا وَقَدَ عَلَى يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ فَسَأَلَهُ: هَلْ أُوَدِّعَ خَالِدُ الْقَسْرِيُّ عِنْدَكَ مَالًا؟ فَقَالَ لَهُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: كَيْفَ يُودِّعُنِي مَالًا وَهُوَ يَشْتُمُ آبَائِي عَلَى مِنْبَرِهِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ؟! فَأَخْلَفَهُ أَنَّهُ مَا أُوَدِّعَ عِنْدَهُ شَيْئًا، فَأَمَرَ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ بِإِحْضَارِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ مِنَ السِّجْنِ، فَجِيءَ بِهِ فِي عَبَاءَةٍ، فَقَالَ: أَنْتَ أُوَدِّعْتَ هَذَا شَيْئًا نَسْتَخْلِصُهُ مِنْهُ؟ قَالَ: لَا، وَكَيْفَ وَأَنَا أَشْتُمُ آبَاءَهُ كُلَّ جُمُعَةٍ؟! فَتَرَكَهُ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ وَأَعْلَمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ، فَعَفَا عَنْ ذَلِكَ، وَيُقَالُ: بَلِ اسْتَحْضَرَهُمْ فَحَلَفُوا بِمَا حَلَفُوا.

ثُمَّ إِنَّ طَائِفَةً مِنَ الشَّيْعَةِ التَّقَّتْ عَلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَنَهَاهُ بَعْضُ النَّصَحَاءِ عَنِ الْخُرُوجِ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ جَدَّكَ حَيْرٌ مِنْكَ، وَقَدِ التَّقَّتْ عَلَى بَيْعَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ثَمَانُونَ

أَلْفًا، ثُمَّ حَانُوهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِمْ، وَإِنِّي أَحَدِرُكَ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ. فَلَمْ يَقْبَلْ
بَلِ اسْتَمَرَ يُبَايِعُ النَّاسَ فِي الْبَاطِنِ بِالْكَوْفَةِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، حَتَّى
اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ بِهَا فِي الْبَاطِنِ، وَهُوَ يَتَحَوَّلُ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ، وَمَا زَالَ كَذَلِكَ
حَتَّى دَخَلَتْ سَنَةٌ ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَمِائَةً، فَكَانَ فِيهَا مَقْتَلُهُ، كَمَا سَدَّكَرُهُ قَرِيبًا.
وَفِيهَا غَزَا نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ أَمِيرُ خُرَاسَانَ غَزَوَاتٍ مُتَعَدِّدَةً فِي التُّرْكِ وَأَسَرَ مَلَكَهُمْ
كُورْصُولَ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْحُرُوبِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَهُ وَتَحَقَّقَهُ، سَأَلَ
مِنْهُ كُورْصُولُ أَنْ يُطْلِقَهُ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ لَهُ أَلْفَ بَعِيرٍ مِنْ إِبِلِ التُّرْكِ - وَهِيَ
الْبَحَائِثُ - وَأَلْفَ بَرْدُونٍ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ جِدًّا، فَشَاوَرَ نَصْرَ مَنْ
يَحْضُرْتِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ فِي ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَشَارَ بِإِطْلَاقِهِ. ثُمَّ سَأَلَهُ نَصْرُ بْنُ
سَيَّارٍ: كَمْ غَزَوْتَ مِنْ غَزَوَاتٍ؟ فَقَالَ: ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ غَزَوَةً. فَقَالَ لَهُ نَصْرٌ: مَا
مِثْلُكَ يُطْلَقُ وَقَدْ شَهِدْتَ هَذَا كُلَّهُ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ، فَضْرِبَتْ عُنُقُهُ وَصَلَبَتْ، فَلَمَّا
بَلَغَ ذَلِكَ جَيْشُهُ مِنْ قَتْلِهِ بَأَثًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَجْعُرُونَ وَيَبْكُونَ عَلَيْهِ، وَجَدُّوا لِحَاهِمُ
وَشُعُورَهُمْ، وَقَطَّعُوا آذَانَهُمْ، وَحَرَّقُوا خِيَامًا كَثِيرَةً، وَقَتَّلُوا أَنْعَامًا كَثِيرَةً، فَلَمَّا
أَصْبَحَ أَمَرَ نَصْرٌ بِإِحْرَاقِهِ لِئَلَّا يَأْخُذُوا جُثَّتَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَتْلِهِ،
وَأَنْصَرَفُوا حَائِبِينَ صَاغِرِينَ حَاسِئِينَ، ثُمَّ كَرَّرَ نَصْرٌ عَلَى بِلَادِهِمْ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ
خَلْقًا كَثِيرًا، وَأَسَرَ أُمَّمًا لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ نَائِبُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ،
وَنَائِبُ الْعِرَاقِ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ، وَنَائِبُ خُرَّاسَانَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ، وَعَلَى إِرْمِينِيَّةَ
مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ.

وفاة مسلمة بن عبد الملك

ابن مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ الْفُرَشِيِّ الْأَمْوِيِّ، أَبُو سَعِيدٍ وَأَبُو
الْأَصْبَغِ الدِّمَشْقِيُّ. وَدَارُهُ بِدِمَشْقَ فِي مَحَلَّةِ الْقِيَابِ عِنْدَ بَابِ الْجَامِعِ الْقِبْلِيِّ،
وَلِيَ الْمَوْسِمَ أَيَّامَ أَخِيهِ الْوَلِيدِ وَغَزَا الرُّومَ غَزَوَاتٍ، وَحَاصَرَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَوَلَّاهُ
أَحُوهُ يَزِيدَ إِمْرَةَ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَزَلَهُ، وَوَلِيَ إِرْمِينِيَّةَ.

وَرَوَى الْحَدِيثَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعَنْهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ أَبِي عُثْمَانَ،
وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ فَرْعَةَ، وَعُيَيْنَةُ وَالِدُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَابْنُ أَبِي عِمْرَانَ، وَمُعَاوِيَةُ
بْنُ حَدِيحٍ، وَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى الْعَسَائِيُّ.

كَانَ مِنْ رِجَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَكَانَ يُلَقَّبُ بِالْجَرَادَةِ الصَّفْرَاءِ، وَلَهُ آثَارٌ كَثِيرَةٌ وَحُرُوبٌ
وَنِكَايَةٌ فِي الرُّومِ.

قُلْتُ: وَقَدْ فَتَحَ حُصُونًا كَثِيرَةً مِنْ بِلَادِ الرُّومِ. تِسْعَ سِنِينَ.

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ غَزَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فَحَاصَرَهَا، وَافْتَتَحَ مَدِينَةَ الصَّقَالِبَةِ
وَكَسَرَ مَلِكَهُمُ الْبُرْجَانَ ثُمَّ عَادَ إِلَى مُحَاصَرَةِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.

وَقَدْ لَقِيَ مَسْلَمَةَ فِي حِصَارِهِ الْفُسْطَاطِيَّةِ شِدَّةً عَظِيمَةً، وَجَاعَ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَهَا جَوْعًا شَدِيدًا، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْبَرِيدَ يَأْمُرُهُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَى الشَّامِ، فَحَلَفَ مَسْلَمَةُ أَلَّا يُفْلِحَ عَنْهُمْ حَتَّى يَبْنُوا لَهُ جَامِعًا كَبِيرًا بِالْفُسْطَاطِيَّةِ، فَبَنُوا لَهُ جَامِعًا وَمَنَارَةً، فَهُوَ بِهَا إِلَى الْآنِ يُصَلِّي فِيهِ الْمُسْلِمُونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ.

وَبِالْجُمْلَةِ كَانَتْ لِمَسْلَمَةَ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ وَمَسَاعٍ مَشْكُورَةٌ، وَعَزَوَاتٌ مُتَتَالِيَةٌ وَمُنْتَوَرَةٌ، وَقَدْ افْتَتَحَ حُصُونًا وَقِلَاعًا، وَأَحْيَا بَعْزِمِهِ وَحَزَمِهِ قُصُورًا وَبِقَاعًا، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ نَظِيرَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي أَيَّامِهِ، فِي كَثْرَةِ مَعَاذِيهِ، وَكَثْرَةِ فُتُوحِهِ، وَقُوَّةِ عَزَمِهِ، وَشِدَّةِ بَأْسِهِ، وَجَوْدَةِ تَصَرُّفِهِ فِي نَفْسِهِ وَإِبْرَامِهِ، هَذَا مَعَ الْكَرَمِ وَالْفَصَاحَةِ، وَالرِّيَاسَةِ وَالسَّمَاخَةِ، وَالْأَصَالَةِ وَالرَّجَاحَةِ، وَالدِّينِ وَالْعِقَّةِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمِنْ كَلَامِهِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ: مُرُوءَتَانِ ظَاهِرَتَانِ: الرِّيَاسُ وَالْفَصَاحَةُ.

وَقَالَ يَوْمًا لِنَصِيبِ الشَّاعِرِ: سَلْنِي. قَالَ: لَا. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّ كَفَّكَ بِالْجَزِيرِ أَكْثَرَ مِنْ مَسْأَلَتِي بِاللِّسَانِ. فَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ.

وَقَالَ أَيْضًا: الْأَنْبِيَاءُ لَا يَتَنَاءَبُونَ كَمَا يَتَنَاءَبُ النَّاسُ، مَا تَنَاءَبَ نَبِيٌّ قَطُّ.

وَقَدْ أَوْصَى بِثُلْثِ مَالِهِ لِأَهْلِ الْأَدَبِ، وَقَالَ: إِنَّهَا صِنَاعَةٌ مَجْفُوفُ أَهْلِهَا.

وَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَعَظِيْرُهُ: تُؤَيِّيْ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لِسَبْعِ مَضِيْنٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ، سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ وَمِائَةٍ. وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ: الْحَانُوْثُ.

سبب مقتل زيد بن علي بن الحسين

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِيْنَ وَمِائَةٍ، وَفِيْهَا كَانَ مُقْتَلُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَ الْبَيْعَةَ مِّنْ بَايَعِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، أَمَرَهُمْ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السَّنَةِ بِالخُرُوجِ وَالتَّأَهُبِ لَهُ، فَشَرَعُوا فِي أَخْذِ الْأُهْبَةِ لِذَلِكَ، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: سُلَيْمَانُ بْنُ سُرَاقَةَ إِلَى يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ نَائِبِ الْعِرَاقِ فَأَخْبَرَهُ - وَهُوَ بِالْحِيرَةِ يَوْمَئِذٍ - خَبَرَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَعِنْدَ مَنْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، فَبَعَثَ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ يَطْلُبُهُ وَيُلْحِقُ فِي طَلْبِهِ، فَلَمَّا عَلِمَتِ الشَّيْعَةُ ذَلِكَ اجْتَمَعُوا عِنْدَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَقَالُوا لَهُ: مَا قَوْلُكَ بِرَحْمَتِ اللَّهِ، فِي أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا، مَا سَمِعْتُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَتَّبِرُ مِنْهُمَا، وَأَنَا لَا أَقُولُ فِيهِمَا إِلَّا خَيْرًا. قَالُوا: فَلِمَ تَطْلُبُ إِذْ بَدِمَ أَهْلُ الْبَيْتِ؟ فَقَالَ: إِنَّا كُنَّا أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ اسْتَأْثَرُوا عَلَيْنَا بِهِ وَدَفَعُونَا عَنْهُ، وَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ عِنْدَنَا بِهِمْ كُفْرًا، قَدْ وُلُوا فَعَدَلُوا، وَعَمِلُوا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. قَالُوا: فَلِمَ تُقَاتِلُ هَؤُلَاءِ إِذْ؟ قَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا كَأَوْلِيكَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ ظَلَمُوا النَّاسَ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنِّي أَدْعُو إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِحْيَاءِ السُّنَنِ وَإِمَاتَةِ الْبِدْعِ، فَإِنْ تَسَمَعُوا يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ وَلي،

وَإِنْ تَأْتَبُوا فَلَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. فَرَفَضُوا وَأَنْصَرَفُوا عَنْهُ، وَنَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَتَرَكُوهُ، فَهَذَا سُمُّوا الرَّافِضَةَ مِنْ يَوْمِئِذٍ، وَمَنْ تَابَعَهُ مِنَ النَّاسِ عَلَى قَوْلِهِ سُمُّوا الزَّيْدِيَّةَ، وَعَالِبُ أَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْهُمْ رَافِضَةٌ، وَعَالِبُ أَهْلِ مَكَّةَ إِلَى الْيَوْمِ عَلَى مَذْهَبِ الزَّيْدِيَّةِ، وَفِيهِ حَقٌّ: وَهُوَ تَعْدِيلُ الشَّيْخَيْنِ، وَبَاطِلٌ: وَهُوَ اعْتِقَادُ تَقْدِيمِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا، وَلَيْسَ عَلِيٌّ مُقَدَّمًا عَلَيْهِمَا، بَلْ وَلَا عُثْمَانُ عَلَى أَصَحِّ قَوْلِي أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْآثَارِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي سِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُمَّ إِنَّ زَيْدًا عَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَوَاعَدَهُمْ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ مُسْتَهْلًا صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السُّنَّةِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ فَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ عَلَى الْكُوفَةِ وَهُوَ الْحَكَمُ بْنُ الصَّلْتِ يَأْمُرُهُ بِجَمْعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، فَجَمَعَ النَّاسَ لِذَلِكَ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ سَلَخَ الْمُحَرَّمِ، قَبْلَ خُرُوجِ زَيْدٍ بِيَوْمٍ، وَخَرَجَ زَيْدٌ بِمَنْ مَعَهُ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ، وَرَفَعَ أَصْحَابُهُ النَّيْرَانَ، وَجَعَلُوا يُنَادُونَ: يَا مَنْصُورُ يَا مَنْصُورُ. فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ إِذَا قَدِ اجْتَمَعَ مَعَهُ مِائَتَانِ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَجَعَلَ زَيْدٌ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ النَّاسُ؟ فَقِيلَ: هُمْ فِي الْمَسْجِدِ مَحْضُورُونَ. وَكَتَبَ الْحَكَمُ بْنُ الصَّلْتِ إِلَى يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ يُعَلِّمُهُ بِخُرُوجِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ سَرِيَّةً إِلَى الْكُوفَةِ، وَرَكِبَتِ الْجِيُوشُ مَعَ نَائِبِ الْكُوفَةِ، وَجَاءَ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ أَيْضًا فِي طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ، فَالْتَقَى

زَيْدٌ بِنَ مَعَهُ جُرْتُومَةٌ^١ مِنْهُمْ فِيهِمْ خَمْسُمِائَةِ فَارِسٍ فَهَزَمَهُمْ ثُمَّ أَتَى الْكُنَاسَةَ، فَحَمَلَ عَلَى جَمْعٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَهَزَمَهُمْ، ثُمَّ اجْتَاَزَ يُوْسُفَ بْنَ عُمَرَ وَهُوَ وَقِفٌ فَوْقَ نَلِّ وَزَيْدٌ فِي مَائَتِي فَارِسٍ، وَلَوْ فَصَدَّ يُوْسُفُ بْنُ عُمَرَ لَقَتَلَهُ، وَلَكِنْ أَحْذَ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَكَلَّمَا التَّقَى بِطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ هَزَمَهُمْ، وَجَعَلَ أَصْحَابَهُ يُنَادُونَ: يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ اخْرُجُوا إِلَى الدِّينِ وَالْعِزِّ وَالْدُّنْيَا، فَإِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي دِينٍ وَلَا عِزٍّ وَلَا دُنْيَا. ثُمَّ لَمَّا أَمْسَوْا انْضَافَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ قُتِلَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي افْتَتَلَ هُوَ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا، وَأَنْصَرَفُوا عَنْهُ بِشَرِّ حَالٍ، وَأَمْسَوْا فَعَبَأَ يُوْسُفُ بْنُ عُمَرَ جَيْشَهُ، ثُمَّ أَصْبَحُوا فَالْتَقَوْا مَعَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فِي أَصْحَابِهِ، فَكَشَفَهُمْ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ إِلَى السَّبْحَةِ ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ تَبِعَهُمْ فِي حَيْلِهِ وَرَجَلِهِ حَتَّى أَحْذُوا عَلَى الْمُسْنَاةِ، ثُمَّ افْتَتَلُوا هُنَاكَ قِتَالًا شَدِيدًا، حَتَّى كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ رُمِيَ زَيْدٌ بِسَهْمٍ، فَأَصَابَ جَانِبَ جَبْهَتِهِ الْيُسْرَى، فَوَصَلَ إِلَى دِمَاغِهِ، فَرَجَعَ وَرَجَعَ أَصْحَابُهُ، وَلَا يَظُنُّ أَهْلُ الشَّامِ أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَّا لِلْمَسَاءِ وَاللَّيْلِ، وَأَدْخَلَ زَيْدٌ فِي دَارٍ فِي سِكَّةِ الْبَرِيدِ، وَجِيءَ بِطَبِيبٍ فَاَنْتَرَعَ ذَلِكَ السَّهْمَ مِنْ جَبْهَتِهِ، فَمَا عَدَا أَنْ انْتَرَعَهُ حَتَّى مَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ. فَاحْتَلَفَ أَصْحَابُهُ أَيْنَ يَدْفِنُونَهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلْبِسُوهُ دِرْعَهُ وَأَلْقُوهُ

فِي الْمَاءِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اخْتَزُوا رَأْسَهُ وَاتْرَكُوا جُثَّتَهُ فِي الْقَتْلَى. فَقَالَ ابْنُهُ: لَا وَاللَّهِ لَا تَأْكُلُ أَبِي الْكِلَابُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اذْفَنُوهُ فِي الْعَبَّاسِيَّةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اذْفَنُوهُ فِي الْحُفْرَةِ الَّتِي يُؤْخَذُ مِنْهَا الطَّيْنُ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَأَجْرُوا عَلَى قَبْرِهِ الْمَاءَ لَعَلَّ يُعْرِفَ، وَانْفَتَلَ أَصْحَابُهُ وَمَنْ يَبْقَ لَهُمْ رَأْسٌ يُقَاتِلُونَ بِهِ، فَمَا أَصْبَحَ الْفَجْرُ وَلَهُمْ قَائِمَةٌ يَنْهَضُونَ بِهَا، وَتَتَبَعَ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ الْجَرْحِيُّ هَلْ يَجِدُ زَيْدًا بَيْنَهُمْ، وَجَاءَ مَوْلَى لَزِيدٍ سِنْدِيٌّ، قَدْ شَهِدَ دَفْنَهُ، فَدَلَّ عَلَى قَبْرِهِ، فَأُخِذَ مِنْ قَبْرِهِ، فَأَمَرَ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ بِصُلْبِهِ عَلَى حَشَبَةِ بِالْكَنَّاسَةِ وَمَعَهُ نَصْرُ بْنُ حَزِيمَةَ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ الْأَنْصَارِيَّ، وَزِيَادَ النَّهْدِيُّ وَيُقَالُ: إِنَّ زَيْدًا مَكَثَ مَصْلُوبًا أَرْبَعَ سِنِينَ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُحْرِقَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيُّ أَنَّ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَعْلَمْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ حَتَّى كَتَبَ لَهُ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ لِعَافِلٌ، وَإِنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيٍّ غَارِزٌ ذَنْبُهُ بِالْكَوْفَةِ يُبَايِعُ لَهُ، فَأَلْحَ فِي طَلْبِهِ وَأَعْطَاهُ الْأَمَانَ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ فَقَاتِلْهُ. فَتَطَلَّبَهُ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا ذَكَرْنَاهُ، فَلَمَّا ظَهَرَ عَلَى قَبْرِهِ حَزَّ رَأْسَهُ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَنَصَبَهُ عَلَى بَابِ دِمَشْقَ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسَارُوا بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى نَصَبُوهُ عَلَى أَحَدِ أَبْوَابِهَا، وَأَمَّا جُثَّتُهُ فَلَمْ تَزَلْ مَصْلُوبَةً تُحْرَسُ لَيْلًا وَنَهَارًا حَتَّى انْقَضَتْ دَوْلَةُ هِشَامِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ فَأَمَرَ بِهِ، فَأُنْزِلَ وَحُرِّقَ فِي أَيَّامِهِ، فَبَحَّ اللَّهُ الْوَلِيدَ هَذَا.

وَأَمَّا ابْنُهُ يَحْيَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَاسْتَجَارَ بِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ يَتَهَدَّدُهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ بَشْرِ: مَا كُنْتَ لِأُوَيْيَ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ وَهُوَ عَدُوْنَا وَابْنُ عَدُوْنَا. فَصَدَّقَهُ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ فِي ذَلِكَ. وَلَمَّا هَدَأَ الطَّلَبُ عَنْهُ سَيَّرَهُ إِلَى خُرَّاسَانَ، فَخَرَجَ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الزَّيْدِيَّةِ إِلَى خُرَّاسَانَ فَأَقَامُوا بِهَا هَذِهِ الْمُدَّةَ.

قصة عبد الله البطال

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ الْبَطَّالُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِ الرُّومِ. كَانَ يَنْزِلُ أَنْطَاكِيَةَ، حَكَى عَنْهُ أَبُو مَرْوَانَ الْأَنْطَاكِيُّ. ثُمَّ رَوَى بِإِسْنَادِهِ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ حِينَ عَقَدَ لِابْنِهِ مَسْلَمَةَ عَلَى غَزْوِ بِلَادِ الرُّومِ وَلَّى عَلَى رُؤَسَاءِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ الْبَطَّالَ، وَقَالَ لِابْنِهِ مَسْلَمَةَ: صَبِّرْهُ عَلَى طَلَائِعِكَ، وَأَوْمِرْهُ فَلْيُعَسَّ بِاللَّيْلِ الْعَسْكَرَ، فَإِنَّهُ أَمِينٌ ثِقَةٌ مِقْدَامٌ شُجَاعٌ. وَخَرَجَ مَعَهُمْ عَبْدُ الْمَلِكِ يُشَيِّعُهُمْ إِلَى بَابِ دِمَشْقَ.

قَالَ: فَقَدَّمَ مَسْلَمَةَ الْبَطَّالَ عَلَى عَشْرَةِ آلَافٍ يَكُونُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُرْسًا مِنَ الرُّومِ أَنْ يَصِلُوا إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَائِدِ الدِّمَشْقِيِّ: ثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنِي أَبُو مَرْوَانَ - شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ أَنْطَاكِيَةَ - قَالَ: كُنْتُ أَعَارِي الْبَطَّالَ وَقَدْ أُوْطَأَ الرُّومَ ذُلًّا، قَالَ الْبَطَّالُ: فَسَأَلَنِي بَعْضُ وُلَاةِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ أَعْجَبِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي فِيهِمْ،

فَقُلْتُ لَهُ: حَرَجْتُ فِي سِرِّيَّةٍ لَيْلًا، فَدَفَعْنَا إِلَى قَرْيَةٍ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: أَرْحُوا جُحْمَ حَيْوَلِكُمْ وَلَا تُحْرِكُوا أَحَدًا بِقَتْلِ وَلَا بِسَبِّي حَتَّى تَشْحَنُوا الْقَرْيَةَ^١ فَأَيَّاهُمْ فِي نَوْمَةٍ. فَمَعَلُوا وَافْتَرَقُوا فِي أَرْقَتَيْهَا، فَدَفَعْتُ فِي أَنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِي إِلَى بَيْتِ يَزْهَرُ سِرَاجُهُ، وَإِذَا امْرَأَةٌ تُسَكِّتُ ابْنَهَا مِنْ بُكَائِهِ وَهِيَ تَقُولُ: لَتَسْكُنَنَّ أَوْ لَأَدْفَعَنَّكَ إِلَى الْبَطَالِ يَذْهَبُ بِكَ. وَانْتَشَلْتُهُ مِنْ سَرِيرِهِ وَقَالَتْ: أُمْسِكْ يَا بَطَالُ. قَالَ: فَأَخَذْتُهُ.

وَعَنِ الْبَطَالِ قَالَ: انْفَرَدْتُ مَرَّةً عَلَى فَرَسِي، لَيْسَ مَعِيَ أَحَدٌ مِنَ الْجُنْدِ، وَقَدْ سَمَّطْتُ خَلْفِي مَحَلَّةً فِيهَا شَعِيرٌ، وَمَعِيَ مَنْدِيلٌ فِيهِ حُبْرٌ وَشَوَاءٌ، فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ لَعَلِّي أَلْقَى أَحَدًا مُنْفَرِدًا أَوْ أَطَّلِعَ عَلَى حَبْرٍ، إِذَا أَنَا بِبُسْتَانٍ فِيهِ بُقُولٌ حَسَنَةٌ، فَزَلْتُ وَأَكَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الْحُبْرِ وَالشَّوَاءِ مَعَ الْبَقْلِ، فَأَخَذَنِي إِسْهَالٌ عَظِيمٌ فُتُّ مِنْهُ مِرَارًا، فَخِفْتُ أَنْ أَضْعَفَ مِنْ كَثْرَةِ الْإِسْهَالِ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَالْإِسْهَالُ مُسْتَمِرٌّ عَلَى حَالِهِ، وَجَعَلْتُ أَحْشَى إِنْ أَنَا نَزَلْتُ عَنْ فَرَسِي أَنْ أَضْعَفَ عَنِ الرُّكُوبِ، وَأَفْرَطَ بِي الْإِسْهَالُ فِي السَّرَجِ، حَتَّى حَشَيْتُ أَنْ أَسْقُطَ مِنَ الضَّعْفِ، فَأَخَذْتُ بَعَانَ الْفَرَسِ، وَنَمْتُ عَلَى وَجْهِي لَا أَدْرِي أَيْنَ يَسِيرُ الْفَرَسُ بِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا بِقَرَعِ نِعَالِهِ عَلَى بِلَاطٍ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَإِذَا دَيْرٌ، وَإِذَا قَدْ حَرَجَ مِنْهُ نِسْوَةٌ صُحْبَةٌ امْرَأَةٌ حَسَنَاءَ جَمِيلَةٍ، فَجَعَلْتُ تَقُولُ لَهْنٌ بِلِسَانِهَا:

^١ شَحَنَ الْبَلَدَ بِالْخَيْلِ: مَلَأَهُ بِهَا.

أَنْزَلْنَاهُ. فَأَنْزَلْنِي، فَعَسَلَنَ عَنِّي ثِيَابِي وَسَرَجِي وَفَرَسِي، وَوَضَعَنِي عَلَى سَرِيرٍ، وَعَمَلَنَ لِي طَعَامًا وَشَرَابًا فَمَكَثْتُ يَوْمًا وَلَيْلَةً مَسْبُوتًا، ثُمَّ أَقَمْتُ بَقِيَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ حَتَّى تَرَادَّ إِلَيَّ حَالِي، فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ قِيلَ: جَاءَ الْبَطْرِيْقُ. فَأَمَرْتُ بِفَرَسِي فَحَوَّلَ، وَغَلِقَ عَلَيَّ الْبَابُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَإِذَا هُوَ بِطَرِيقٍ كَبِيرٍ فِيهِمْ قَدْ جَاءَ لِحِطَّتَيْهَا، فَأَخْبَرَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ هُنَاكَ بِأَنَّ هَذَا الْبَيْتَ فِيهِ رَجُلٌ وَلَهُ فَرَسٌ، فَهَمَّ بِالْهُجُومِ عَلَيَّ، فَمَنَعَتْهُ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَرْسَلَتْ تَقُولُ لَهُ: إِنْ فَتَحَ عَلَيْهِ الْبَابَ لَمْ أَقْضِ حَاجَتَهُ. فَشَنَاهُ ذَلِكَ عَنِ الْهُجُومِ عَلَيَّ، وَأَقَامَ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ فِي ضِيَافَتِهِمْ، ثُمَّ رَكِبَ فَرَسَهُ، وَرَكِبَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ وَانْطَلَقَ. قَالَ الْبَطْلَالُ: فَهَضُّتُ فِي أَثَرِهِمْ، فَهَمَّتُ أَنْ تَمْنَعَنِي حَوْفًا عَلَيَّ مِنْهُمْ فَلَمْ أَقْبَلْ، وَسُقْتُ حَتَّى لَحِقْتُهُمْ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَأَنْفَرَجَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَأَرَادَ الْفِرَارَ، فَأَلْحَقَهُ فَأَضْرَبُ عُنُقَهُ وَاسْتَلْبَيْتُهُ وَأَخَذْتُ رَأْسَهُ مُسَمِّطًا عَلَى فَرَسِي، وَرَجَعْتُ إِلَى الدَّيْرِ، فَخَرَجَنَ إِلَيَّ وَوَقَّفَنَ بَيْنَ يَدَيَّ، فَقُلْتُ: ارْكَبْنِ. فَرَكِبَنَ مَا هُنَالِكَ مِنَ الدَّوَابِّ، وَسُقْتُ بِهِنَّ حَتَّى أَتَيْتُ أَمِيرَ الْجَيْشِ، فَدَفَعْتُهُنَّ إِلَيْهِ، فَنَفَّلَنِي مَا شِئْتُ مِنْهُنَّ، فَأَخَذْتُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ الْحَسَنَاءَ بَعَيْنِهَا، فَهِيَ أُمُّ أَوْلَادِي. وَكَانَ أَبُوهَا بِطْرِيْقًا كَبِيرًا فِيهِمْ، وَكَانَ الْبَطْلَالُ بَعْدَ ذَلِكَ يُكَاتِبُ أَبَاهَا وَيُهَادِيهِ.

وَدَكَرَ مَنْ سَمِعَ مِنَ الْبَطَّالِ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا وَلَاهُ الْمِصْبِيصَةَ بَعَثَ الْبَطَّالَ سَرِيَّةً إِلَى أَرْضِ الرُّومِ فَعَابَ عَنْهُ خَبَرُهَا فَلَمْ يَدْرِ مَا صَنَعُوا، فَرَكِبَ بِنَفْسِهِ وَحَدَهُ عَلَى فَرَسٍ لَهُ، وَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى عُمُورِيَّةَ، فَطَرَقَ بَابَهَا لَيْلًا، فَقَالَ لَهُ الْبَوَّابُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ الْبَطَّالُ: فَقُلْتُ: أَنَا سَيَافُ الْمَلِكِ وَرَسُولُهُ إِلَى الْبَطْرِيقِ فَخُذْ لِي طَرِيقًا إِلَيْهِ. فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ إِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرٍ، فَجَلَسْتُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ إِلَى جَانِبِهِ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ فِي رِسَالَةٍ، فَمُرْ هَؤُلَاءِ فَلْيَنْصَرِفُوا. فَأَمَرَ مَنْ عِنْدَهُ فَذَهَبُوا. ثُمَّ قَامَ فَعَلَّقَ بَابَ الْكَنِيسَةِ عَلَيَّ وَعَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَ فَجَلَسَ، فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، وَضَرَبْتُ بِهِ رَأْسَهُ صَفْحًا^١، وَقُلْتُ لَهُ: أَنَا الْبَطَّالُ فَاصْدُقْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ وَإِلَّا ضَرَبْتُ عَنْقَكَ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قُلْتُ: السَّرِيَّةُ الَّتِي بَعَثْتَهَا مَا خَبَرْتَهَا؟ فَقَالَ: هُمْ فِي بِلَادِي يَنْتَهَبُونَ مَا تَهَيَّأَ لَهُمْ، وَهَذَا كِتَابٌ قَدْ جَاءَنِي يُخْبِرُ أَنَّهُمْ فِي وَادِي كَذَا وَكَذَا، وَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتُكَ. فَقُلْتُ: هَاتِ الْأَمَانَ. فَأَعْطَانِي الْأَمَانَ، فَقُلْتُ: اثْبِنِي بِطَعَامٍ. فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَجَاءُوا بِطَعَامٍ، فَوَضِعَ لِي، فَأَكَلْتُ ثُمَّ قُمْتُ لِأَنْصَرِفَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: اخْرُجُوا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الْمَلِكِ. فَاذْطَلُّوا يَتَعَادُونَ بَيْنَ يَدَيْ، وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي ذَكَرَ، فَإِذَا أَصْحَابِي هُنَالِكَ، فَأَخَذْتُهُمْ وَرَجَعْتُ إِلَى الْمِصْبِيصَةِ. فَهَذَا أَعْرَبُ مَا جَرَى.

^١ يعني ضربه بصفحة السيف لا بجده.

قَالَ الْوَلِيدُ: وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ شُيُوخِنَا أَنَّهُ رَأَى الْبَطَّالَ وَهُوَ قَافِلٌ مِنْ حَجَّتِهِ، وَكَانَ قَدْ شُعِلَ بِالْجِهَادِ عَنِ الْحَجِّ، وَكَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ دَائِمًا الْحُجَّ ثُمَّ الشَّهَادَةَ، فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ حَجَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَّا فِي السَّنَةِ الَّتِي اسْتُشْهِدَ فِيهَا، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ سَبَبُ شَهَادَتِهِ أَنْ لِيُونَ مَلِكَ الرُّومِ خَرَجَ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي مِائَةِ أَلْفِ فَارِسٍ، فَبَعَثَ الْبَطْرِيْقُ - الَّذِي الْبَطَّالُ مُتَزَوِّجٌ بِابْنَتِهِ الَّتِي ذَكَرْنَا أَمْرَهَا - إِلَى الْبَطَّالِ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ فَأَخْبَرَ الْبَطَّالُ أَمِيرَ عَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ، وَكَانَ الْأَمِيرُ مَالِكُ بْنُ شَيْبٍ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْمَصْلَحَةَ تَقْتَضِي أَنْ نَتَخَصَّنَ فِي مَدِينَةِ حَرَّانَ، فَنَكُونَ بِهَا حَتَّى يَفْتَدِمَ عَلَيْنَا سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ فِي الْجَيْوشِ. فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَدَهَمَهُمُ الْجَيْشُ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا وَالْبَطَّالُ يَجُولُ بَيْنَ يَدَيْ الْأَبْطَالِ، وَلَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ أَنْ يُنَوِّهَ بِاسْمِهِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ الرُّومِ، فَاتَّفَقَ أَنْ نَادَاهُ بَعْضُهُمْ، وَذَكَرَ اسْمَهُ غَلَطًا مِنْهُ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ فُرْسَانُ الرُّومِ حَمَلُوا عَلَيْهِ حَمَلَةً وَاحِدَةً، فَاقْتَلَعُوهُ مِنْ سَرِّحِهِ بِرِمَاحِهِمْ، فَأَلْقَوْهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَاقُوا وَرَاءَ النَّاسِ يَقْتُلُونَ فِيهِمْ وَيَأْسِرُونَ، وَقُتِلَ الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ مَالِكُ بْنُ شَيْبٍ وَأَنْكَسَرَ الْمُسْلِمُونَ، وَأَنْطَلَقُوا إِلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْحَرَّابِ فَتَخَصَّنُوا بِهَا، وَأَصْبَحَ لِيُونَ فَوْقَ عَلَى مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ، فَإِذَا الْبَطَّالُ بِأَخْرِ رَمَقٍ، فَقَالَ لَهُ لِيُونَ: مَا هَذَا يَا أَبَا يَحْيَى؟ فَقَالَ: هَكَذَا تُقْتَلُ الْأَبْطَالُ. فَاسْتَدْعَى لِيُونَ بِالْأَطْبَاءِ لِيُدَاوُوهُ فَإِذَا جِرَاحُهُ قَدْ نَفَذَتْ إِلَى مَقَاتِلِهِ، فَقَالَ لَهُ لِيُونَ: هَلْ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: تَأْمُرُ مَنْ مَعَكَ مِنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَلُؤُوا غَسْلِي

وَالصَّلَاةَ عَلَيَّ وَدَفْنِي. فَفَعَلَ، وَأَطْلَقَ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَوْلِيكَ الْأَسَارَى، وَأَنْطَلَقَ لِيُونُ إِلَى أَوْلِيكَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَحَصَّنُوا فَحَاصَرَهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمُ الْبُرْدُ بِقُدُومِ سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ فِي الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَقَرَّرَ لِيُونُ فِي حَيْشِهِ رَاجِعًا إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، قَبَّحَهُ اللَّهُ.

كَانَتْ وَفَاةُ الْبَطَالِ وَمَقْتَلُهُ بِأَرْضِ الرُّومِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ. ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، ذَكَرَ الْمَدَائِنِيُّ عَنْ شَيْوْخِهِ أَنَّ حَاقَانَ مَلِكَ التُّرْكِ لَمَّا قُتِلَ فِي وِلَايَةِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ عَلَى خُرَاسَانَ، تَفَرَّقَ شَمْلُ الْأَتْرَاكِ وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُعِيرُ عَلَى بَعْضٍ، وَبَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَحْرَبَ بِلَادُهُمْ، وَاشْتَعَلُوا عَنِ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِيهَا سَأَلَ أَهْلُ الصُّعْدِ مِنْ أَمِيرِ خُرَاسَانَ نَصْرَ بْنَ سَيَّارٍ أَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَسَأَلُوهُ شُرُوطًا أَنْكَرَهَا الْعُلَمَاءُ، مِنْهَا: أَلَّا يُعَاقَبَ مَنْ ارْتَدَّ مِنْهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلَا تُؤْخَذَ أَسْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، وَعَيْرُ ذَلِكَ، فَأَرَادَ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِشِدَّةِ نِكَايَتِهِمْ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَعَابَ عَلَيْهِ النَّاسُ ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَى هِشَامٍ فِي ذَلِكَ فَتَوَقَّفَ، ثُمَّ لَمَّا رَأَى أَنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى مُعَانَدَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانَ ضَرَرُهُمْ أَشَدَّ، أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ بَعَثَ يُوْسُفُ بْنُ عُمَرَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ وَفَدًّا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ مِنْهُ أَنْ يُضَمَّ إِلَيْهِ نِيَابَةَ خُرَاسَانَ، وَتَكَلَّمُوا فِي نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ أَمِيرِ خُرَاسَانَ بِأَنَّهُ وَإِنْ

كَانَ شَهْمًا شُجَاعًا، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَضَعْفَ بَصَرُهُ فَلَا يَعْرِفُ الرَّجُلَ إِلَّا مِنْ قَرِيبٍ بِصَوْتِهِ، وَتَكَلَّمُوا فِيهِ كَلَامًا كَثِيرًا، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى ذَلِكَ هِشَامٌ وَاسْتَمَرَ بِهِ عَلَى إِمْرَةِ حُرَّاسَانَ وَوَلَايَتِهَا.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا يَزِيدُ بْنُ هِشَامٍ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ. وَالْعُمَّالُ فِيهَا مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي الَّتِي قَبْلَهَا.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ أَرْبَعٌ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا غَزَا سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِلَادَ الرُّومِ فَلَقِيَ مَلِكَ الرُّومِ أَلْيُونَ فَسَلِمَ سُلَيْمَانُ وَغَنِمَ.

أول ظهور لأبي مُسْلِمٍ الحُرَّاسَانِيّ

وَفِيهَا قَدِمَ جَمَاعَةٌ مِنْ دُعَاةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ بِلَادِ حُرَّاسَانَ قَاصِدِينَ إِلَى مَكَّةَ، فَمَرُّوا بِالْكُوفَةِ، فَبَلَغَهُمْ أَنَّ فِي السِّجْنِ جَمَاعَةً مِنَ الْأَمْرَاءِ مِنْ نُوَابِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ قَدْ حَبَسَهُمْ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ، فَاجْتَمَعُوا بِهِمْ فِي السِّجْنِ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْبَيْعَةِ لِبَنِي الْعَبَّاسِ، وَإِذَا عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ جَانِبٌ كَبِيرٌ، فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ، وَوَجَدُوا عِنْدَهُمْ فِي السِّجْنِ أَبَا مُسْلِمٍ الحُرَّاسَانِيّ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ غُلَامٌ يَخْدُمُ عَيْسَى بْنَ مَعْقِلِ الْعِجْلِيِّ وَكَانَ حُبُوسًا، فَأَعْجَبَهُمْ شَهَامَتُهُ وَقُوَّتُهُ وَاسْتَجَابَتْهُ مَعَ مَوْلَاهُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ، فَاشْتَرَاهُ بِكَبِيرٍ مِنْ مَاهَانَ مِنْهُ بِأَرْبَعِمِائَةٍ دِرْهَمٍ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ، فَاسْتَنْدَبُوهُ لِهَذَا الْأَمْرِ، فَكَانُوا لَا يُوجِّهُونَهُ إِلَى مَكَانٍ

إِلَّا ذَهَبَ، وَنَتَجَ مَا يُوجِّهُونَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا سَنَدُّكُرُهُ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَمَاتَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ. وَهُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ دُعَاةُ بَنِي الْعَبَّاسِ فَقَامَ مَقَامَهُ وَلَدُهُ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ. وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ. وَتَوَابُ الْبِلَادِ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي الَّتِي قَبَلَهَا.

وفاة هشام بن عبد الملك

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ حَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا غَزَا النُّعْمَانُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الصَّائِفَةَ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ.

وَفِي رَبِيعِ الْآخِرِ مِنْهَا تُوِّفِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ. هُوَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، أَبُو الْوَلِيدِ الْقُرَشِيُّ الْأُمَوِيُّ الدِّمَشْقِيُّ، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. وَأُمُّهُ أُمُّ هِشَامِ بِنْتُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْمَخْزُومِيِّ. وَكَانَتْ دَارُهُ بِدِمَشْقَ عِنْدَ بَابِ الْخَوَاصِينِ وَبَعْضُهَا الْيَوْمَ مَدْرَسَةُ نُورِ الدِّينِ الشَّهِيدِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا التُّورِيَّةُ الْكَبِيرَةُ. وَتُعْرَفُ بِدَارِ الْقَبَائِبِينَ يَعْنِي الَّذِينَ يَبِيعُونَ الْقَبَابَ. وَهِيَ الْخِيَامُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ بُويعَ لَهُ بِالْخِلاَفَةِ بَعْدَ أَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِعَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِأَرْبَعِ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ حَمْسٍ وَمِائَةٍ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْعُمْرِ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَكَانَ جَمِيلاً أَبْيَضَ أَحْوَلَ، يَخْضِبُ بِالسَّوَادِ، وَهُوَ الرَّابِعُ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ لِصُلْبِهِ الَّذِينَ وَلُوا الْخِلاَفَةَ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ رَأَى فِي الْمَنَامِ كَأَنَّهُ بَالٌ فِي الْمِحْرَابِ أَرْبَعِ مَرَّاتٍ، فَدَسَّ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْهَا، فَفَسَّرَهَا لَهُ بِأَنَّهُ يَلِي الْخِلاَفَةَ مِنْ وَلَدِهِ أَرْبَعَةً، فَوَقَعَ ذَلِكَ، فَكَانَ هِشَامُ آخِرَهُمْ، وَكَانَ فِي خِلاَفَتِهِ حَازِمُ الرَّأْيِ، جَمَاعًا لِلْأَمْوَالِ يُبَحِّلُ، وَكَانَ ذَكِيًّا مُدْبِرًا، لَهُ بَصَرٌ بِالْأُمُورِ جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا، وَكَانَ فِيهِ حِلْمٌ وَأَنَاةٌ، شَتَمَ مَرَّةً رَجُلًا مِنَ الْأَشْرَافِ، فَقَالَ: أَتَشْتُمُنِي وَأَنْتَ حَلِيفَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ؟ فَاسْتَحْيَا وَقَالَ: افْتَصَّ مِنِّي بَدَهَا. فَقَالَ: إِذْنُ أَكُونُ سَفِيهَاً مِثْلَكَ. قَالَ: فَحُذِّ عِوَضًا مِنْهَا. قَالَ: لَا أَفْعَلُ. قَالَ: فَانْتَرَكَهَا لِلَّهِ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَسْمَعَ رَجُلٌ هِشَامًا كَلَامًا، فَقَالَ لَهُ: أَتَقُولُ لِي مِثْلَ هَذَا وَأَنَا حَلِيفَتُكَ؟

وَعَضِبَ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ، فَقَالَ لَهُ: اسْكُتْ وَإِلَّا ضَرَبْتُكَ سَوْطًا.

وَكَانَ هِشَامٌ مِنْ أَكْرَهِ النَّاسِ لِسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَلَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَقْتَلِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَابْنِهِ يَحْيَى أَمْرٌ شَدِيدٌ، وَقَالَ: وَدِدْتُ أَبِي افْتَدَيْتُهُمَا بِجَمِيعِ مَا أَمْلِكُ.

وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ عَنِّي، عَنْ بَشْرِ مَوْلَى هِشَامٍ قَالَ: أُتِيَ هِشَامٌ بِرَجُلٍ عِنْدَهُ قِيَانٌ وَحَمْرٌ وَبَرَبِطٌ. فَقَالَ: اكْسِرُوا الطُّبُورَ عَلَى رَأْسِهِ وَقَرْنِهِ. فَبَكَى الشَّيْخُ. قَالَ بَشْرٌ: فَضْرَبَهُ، فَمُتُّ لَهُ وَأَنَا أُعْرِيهِ: عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ. فَقَالَ: أَتُرَانِي أَبْكِى لِلضَّرْبِ، إِنَّمَا أَبْكِى لِاحْتِقَارِهِ الْبَرَبِطَ حَتَّى سَمَّاهُ طُنْبُورًا.

وَأَعْلَظَ هِشَامٌ رَجُلًا يَوْمًا فِي الْكَلَامِ فَقَالَ: لَيْسَ لَكَ أَنْ تَقُولَ هَذَا لِإِمَامِكَ. وَتَفَقَّدَ أَحَدَ وَلَدِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ: مَا لَكَ لَمْ تَشْهَدْ الْجُمُعَةَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَغْلَتِي عَجَزَتْ عَنِّي. فَبَعَثَ إِلَيْهِ: أَمَا كَانَ يُمَكِّنُكَ الْمَشْيُ. وَمَنَعَهُ أَنْ يَرْكَبَ سَنَةً.

وَدَكَرَ الْمَدَائِنِيُّ أَنَّ رَجُلًا أَهْدَى إِلَى هِشَامٍ طَيْرَيْنِ، فَأَوْرَدَهُمَا السَّفِيرُ إِلَى هِشَامٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرٍ فِي وَسْطِ دَارِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَرْسَلَهُمَا فِي الدَّارِ. فَأَرْسَلَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: جَائِزَتِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: وَيْحَكَ! وَمَا جَائِزَتُكَ عَلَى هَدِيَّةِ طَيْرَيْنِ؟ حُذِّ أَحَدَهُمَا. فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَسْعَى خَلْفَ أَحَدِهِمَا، فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَا لَكَ؟ فَقَالَ: أَخْتَارُ أَجُودَهُمَا. قَالَ: وَتَخْتَارُ أَيْضًا الْجَيْدَ وَتَتْرَكَ الرَّدِيءَ؟ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ دِرْهَمًا.

وَعَنْ فَحْدَمِ كَاتِبِ يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ قَالَ: بَعَثَنِي يُوسُفُ إِلَى هِشَامٍ بِبِاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ وَلَوْوَةٌ كَانَتَا لِرَائِقَةَ جَارِيَةِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ مُشْتَرَى الْبِاقُوتَةِ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ فَوْقَهُ فَرَشٌ لَمْ

أَرَأْسَ هِشَامٍ مِنْ عُلُوِّ تِلْكَ الْفُرْشِ، فَأَوْرَدْتُهَا لَهُ، فَقَالَ: كَمْ زَنْتُهُمَا؟ فَقُلْتُ:
إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ لَا مِثْلَ لَهَا. فَسَكَتَ.

وَرَأَى قَوْمًا يَفْرِطُونَ الزَّيْتُونَ، فَقَالَ: الْفُطُوهُ لَفُطًا، وَلَا تَنْفُضُوهُ نَفْضًا، فَتُفْقَأُ
عُيُونُهُ وَتَنْكَسِرَ عُضُونُهُ.

وَكَانَ يَقُولُ: ثَلَاثَةٌ لَا يَضَعْنَ الشَّرِيفَ: تَعَاهُدُ الصَّيِّعَةَ، وَإِصْلَاحُ الْمَعِيشَةِ،
وَطَلْبُ الْحَقِّ وَإِنْ قَلَّ.

وَعَنْ عَقَّالِ بْنِ شَبَّةَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى هِشَامٍ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ فَنَكَّيْتُ أَخْضَرَ، فَوَجَّهَنِي
إِلَى حُرَّاسَانَ، ثُمَّ جَعَلَ يُوصِينِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْقَبَاءِ، فَقَطِنَ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟
قُلْتُ: رَأَيْتُ عَلَيْكَ قَبَاءً فَنَكَّيْتُ أَخْضَرَ قَبْلَ أَنْ تَلِيَ الْخِلَافَةَ، فَجَعَلْتُ أَتَأَمَّلُ
هَذَا؛ أَهْوَى ذَلِكَ أَمْ غَيْرُهُ؟ قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ذَلِكَ، مَا لِي قَبَاءٌ
غَيْرُهُ، وَأَمَّا مَا تَرُونَ مِنْ جَمْعِي لِهَذَا الْمَالِ وَصَوْنِهِ فَإِنَّهُ لَكُمْ. قَالَ عَقَّالٌ: وَكَانَ
هِشَامٌ مَحْشُورًا عَقَّالًا.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ عَمَّ السَّقَّاحُ: جَمَعْتُ دَوَاوِينَ بَنِي أُمَيَّةَ فَلَمْ أَرِ أَصْلَحَ
لِلْعَامَّةِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ دِيْوَانِ هِشَامٍ.

وَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ أَشَدَّ نَظْرًا فِي أَمْرِ أَصْحَابِهِ وَدَوَاوِينِهِ، وَلَا
أَشَدَّ مُبَالَغَةً فِي الْفَحْصِ عَنْهُمْ مِنْ هِشَامٍ.

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ غَيْلَانَ الْقَدْرِيَّ. وَلَمَّا أُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ! قُلْ مَا عِنْدَكَ، إِنْ كَانَ حَقًّا اتَّبَعْنَا، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا رَجَعْتَ عَنْهُ. فَنَاطَرَهُ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ فَقَالَ لِمَيْمُونٍ: أَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعْصَى؟ فَقَالَ لَهُ مَيْمُونٌ: أَيْعَصَى اللَّهُ كَارِهًا؟ فَسَكَتَ غَيْلَانٌ، فَقَيَّدَهُ حِينَئِذٍ هِشَامٌ وَقَتَلَهُ.

وَعَنْ مُنْذِرِ بْنِ أَبِي ثَوْرٍ قَالَ: أَصَبْنَا فِي خَزَائِنِ هِشَامٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَمِيصٍ، كُلُّهَا قَدْ أُثِرَ بِهَا.

وَشَكَى هِشَامٌ إِلَى أَبِيهِ ثَلَاثًا: إِحْدَاهَا أَنَّهُ يَهَابُ الصُّعُودَ عَلَى الْمَنْبَرِ، وَالثَّانِيَةُ، قِلَّةُ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، وَالثَّلَاثَةُ، أَنَّ عِنْدَهُ فِي الْقَصْرِ مِائَةٌ جَارِيَةٍ لَا يَكَادُ يَصِلُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ: أَمَّا صُعُودُكَ عَلَى الْمَنْبَرِ فِذَا عَلَوْتَ فَوْقَهُ فَارْمِ بَبْصَرَكَ إِلَى مُوَحَّرِ النَّاسِ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ، وَأَمَّا قِلَّةُ الطَّعَامِ فَمُرِ الطَّبَّاحَ فَلْيُكْتِرِ الْأَلْوَانَ، فَلَعَلَّكَ أَنْ تَتَنَاوَلَ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ لُقْمَةً، وَعَلَيْكَ بِكُلِّ بَيْضَاءَ بَضَّةٍ ذَاتِ جَمَالٍ وَحُسْنٍ.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ: لَمَّا بَنَى هِشَامٌ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الرُّصَافَةَ قَالَ: أَحَبُّ أَنْ أَحْلُوَ بِهَا يَوْمًا لَا يَأْتِينِي فِيهِ حَبْرٌ غَمٌّ. فَمَا انْتَصَفَ النَّهَارَ حَتَّى أَتَتْهُ رَيْشَةُ دَمٍ مِنْ بَعْضِ الثُّغُورِ فَقَالَ: وَلَا يَوْمًا وَاحِدًا؟

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كَانَ هِشَامٌ لَا يُكْتَبُ إِلَيْهِ بِكِتَابٍ فِيهِ ذِكْرُ الْمَوْتِ.

وَعَنْ سَالِمِ كَاتِبِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: حَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا هِشَامٌ وَعَلَيْهِ كَاتِبَةٌ، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْحُزْنُ، فَاسْتَدْعَى الْأَبْرَشَ بْنَ الْوَلِيدِ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لِي أَرَاكَ هَكَذَا؟ فَقَالَ: مَا لِي لَا أَكُونُ وَقَدْ زَعَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالنُّجُومِ أَبِي أَمُوتُ إِلَى ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ مِنْ يَوْمِي هَذَا. فَكَتَبْنَا ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ آخِرَ لَيْلَةٍ مِنْ ذَلِكَ جَاءَنِي رَسُولُهُ فِي اللَّيْلِ يَقُولُ: أَحْضِرْ مَعَكَ دَوَاءً لِلدَّبْحَةِ، وَكَانَتْ قَدْ أَصَابَتْهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَاسْتَعْمَلَ مِنْهُ فَعُوِي، فَذَهَبَتْ إِلَيْهِ وَمَعِيَ ذَلِكَ الدَّوَاءُ، فَتَنَاوَلَهُ وَهُوَ فِي وَجَعٍ شَدِيدٍ، وَاسْتَمَرَّ فِيهِ عَامَةَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَالَ: يَا سَالِمُ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِكَ فَقَدْ وَجَدْتُ خِفَّةً، وَذَرِ الدَّوَاءَ عِنْدِي. فَذَهَبْتُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَصَلْتُ إِلَى مَنْزِلِي حَتَّى سَمِعْتُ الصِّيَاحَ عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ.

وَنَظَرَ هِشَامٌ إِلَى أَوْلَادِهِ وَهُمْ يَبْكُونَ حَوْلَهُ، فَقَالَ: جَادَ لَكُمْ هِشَامٌ بِالدُّنْيَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ، وَتَرَكَ لَكُمْ مَا جَمَعَ، وَتَرَكَتُمْ عَلَيْهِ مَا كَسَبَ، مَا أَعْظَمَ مُنْقَلَبَ هِشَامٍ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ.

وَلَمَّا مَاتَ جَاءَتِ الْحَزْنَةُ فَحَتَّمُوا عَلَى حَوَاصِلِهِ، وَأَرَادُوا تَسْخِينَ الْمَاءِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا لَهُ عَلَى فُتْمِهِمْ، حَتَّى اسْتَعَارُوا لَهُ. وَكَانَ نَفْسُ حَاتِمِهِ: الْحُكْمُ لِلْحَكَمِ الْحَكِيمِ.

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِالرُّصَافَةِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لِسِتِّ بَقِيَيْنِ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَهُوَ ابْنُ بَضْعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً. وَصَلَّى عَلَيْهِ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ

عَبْدُ الْمَلِكِ الَّذِي وَوِي الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ، وَكَانَتْ خِلَافَةُ هِشَامٍ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَوَاحِدَ عَشْرَ يَوْمًا. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قُلْتُ: لَمَّا مَاتَ هِشَامٌ تَوَلَّى مُلْكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَاضْطَرَبَ أَمْرُهُمْ جِدًّا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَأَخَّرَتْ أَيَّامُهُمْ بَعْدَهُ نَحْوًا مِنْ سَبْعِ سِنِينَ، وَلَكِنْ فِي اخْتِلَافٍ وَهَيِجٍ، وَمَا زَالُوا حَتَّى خَرَجَتْ عَلَيْهِمْ بَنُو الْعَبَّاسِ فَاسْتَلْبَوْهُمْ نِعْمَتَهُمْ وَمُلْكَهُمْ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا، وَسَلَبَوْهُمْ الْخِلَافَةَ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مَبْسُوطًا مُفْرَرًا فِي مَوَاضِعِهِ.

خِلَافَةُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

الْفَاسِقِ، قَبَّحَهُ اللَّهُ وَأَبَعَهُ. بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ يَوْمَ مَاتَ عُمُهُ هِشَامٌ بِنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لَيْسَتْ حُلُونٌ مِنْ ربيعِ الْآخِرِ، سَنَةَ حَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ. وَكَانَ عُمُرُهُ إِذْ ذَلِكَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً. وَكَانَ سَبَبُ وَوَلَايَتِهِ أَنَّ أَبَاهُ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ قَدْ جَعَلَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ لِأَخِيهِ هِشَامٍ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِوَلَدِهِ الْوَلِيدِ هَذَا، فَلَمَّا وَوِي هِشَامٌ أَكْرَمَ ابْنَ أَخِيهِ الْوَلِيدَ حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِ أَمْرُ الشَّرَابِ وَخُلْطَاءِ السُّوءِ وَجَمَالِسِ اللَّهْوِ، فَأَرَادَ هِشَامٌ أَنْ يَقْطَعَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَأَمَرَهُ عَلَى الْحُجِّ سَنَةَ سِتِّ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ، فَأَخَذَ مَعَهُ كِلَابَ الصَّيْدِ حُفِيَّةً مِنْ عَمِّهِ، فَيَقَالُ: إِنَّهُ جَعَلَهَا فِي صِنَادِيقٍ، فَسَقَطَ مِنْهَا صُنْدُوقٌ فِيهِ كَلْبٌ، فَسَمِعَ صَوْتَهُ، فَأَحَالُوا ذَلِكَ عَلَى الْجَمَالِ، فَضْرِبَ عَلَى ذَلِكَ.

وَاصْطَنَعَ الْوَلِيدُ قُبَّةً عَلَى قَدْرِ الْكَعْبَةِ وَمِنْ عَزْمِهِ أَنْ يَنْصِبَ تِلْكَ الْقُبَّةَ فَوْقَ
سَطْحِ الْكَعْبَةِ وَيَجْلِسَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ هُنَالِكَ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ الْخُمُورَ وَغَيْرَ
ذَلِكَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَّةَ هَابَ أَنْ يَفْعَلَ مَا كَانَ قَدْ عَزَمَ
عَلَيْهِ مِنَ الْجُلُوسِ فَوْقَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ؛ خَوْفًا مِنَ النَّاسِ وَمِنْ إِنْكَارِهِمْ عَلَيْهِ ذَلِكَ،
فَلَمَّا تَحَقَّقَ عَمُّهُ ذَلِكَ مِنْهُ نَهَاهُ مِرَارًا، فَلَمْ يَنْتَهَ، وَاسْتَمَرَ عَلَى حَالِهِ الْقُبْحِ،
وَعَلَى فِعْلِهِ الرَّدِيِّ، فَعَزَمَ عَمُّهُ عَلَى خَلْعِهِ مِنَ الْخِلَافَةِ - وَلَيْتَهُ فَعَلَ - وَأَنْ
يُؤَيِّبَ بَعْدَهُ مَسْلَمَةَ بِنَ هِشَامٍ^١، وَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ، وَمِنْ
أَحْوَالِهِ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَيْتَ ذَلِكَ تَمَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَنْتَظِمَ حَتَّى
قَالَ هِشَامٌ يَوْمًا لِلْوَلِيدِ: وَيْحَكَ! وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَعْلَى الْإِسْلَامِ أَنْتَ أَمْ لَا، فَإِنَّكَ
مَا تَدْعُ شَيْئًا مِنَ الْمُنْكَرَاتِ إِلَّا أَتَيْتَهُ غَيْرَ مُتَحَاشٍ وَلَا مُسْتَتِرٍ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ
الْوَلِيدُ:

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا دِينِي عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ
نَشْرُهَا صِرْفًا وَمُزْوَجَةً بِالسُّخْنِ أَحْيَانًا وَبِالْفَاتِرِ

فَعَضِبَ هِشَامٌ عَلَى ابْنِهِ مَسْلَمَةَ، وَكَانَ يُكْنَى أَبَا شَاكِرٍ، وَقَالَ لَهُ: يُعَيِّرُنِي بِكَ
الْوَلِيدُ بَنْ يَزِيدَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُرْقِيكَ إِلَى الْخِلَافَةِ؟ وَبَعَثَهُ عَلَى الْمَوْسِمِ سَنَةَ تِسْعَ

^١ وكان يكنى أبا شاكر.

عَشْرَةَ وَمِائَةٍ، فَأَظْهَرَ النُّسُكَ وَالْوَقَارَ وَاللِّينَ، وَفَسَمَّ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ أَمْوَالًا، فَقَالَ
مَوْلَى لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ:

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا دِينِي عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ
الْوَاهِبِ الْجُرْدِ بِأَرْسَاهَا لَيْسَ بِزَنْدِيقٍ وَلَا كَافِرٍ

وَوَقَعَتْ بَيْنَ هِشَامٍ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ وَحَشَّةَ عَظِيمَةً بِسَبَبِ تَعَاطِي الْوَلِيدِ
مَا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، فَتَنَكَّرَ لَهُ هِشَامٌ وَعَزَمَ عَلَى خَلْعِهِ
وَتَوَلِيَّةِ وَلَدِهِ مَسْلَمَةَ وَوَلَايَةِ الْعَهْدِ، فَفَرَّ مِنْهُ الْوَلِيدُ إِلَى الصَّخْرَاءِ، وَجَعَلَ
يَبْرَأْسِلَانِ بِأَفْبَحِ الْمُرَاسَلَاتِ، وَجَعَلَ هِشَامٌ يَتَوَعَّدُهُ وَعِيدًا شَدِيدًا وَيَتَهَدَّدُهُ،
وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى مَاتَ هِشَامٌ، وَالْوَلِيدُ فِي الْبَرِّيَّةِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي
قَدِمَ فِي صَبِيحَتِهَا عَلَيْهِ الْبُرْدُ بِالْخِلَافَةِ قَلِقَ الْوَلِيدُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَلَقًا شَدِيدًا، وَقَالَ
لِيَعْضِ أَصْحَابِهِ: وَيْحَكَ! قَدْ أَخَذَنِي اللَّيْلَةُ قَلَقٌ عَظِيمٌ، فَارْكَبْ لَعَلَّنَا نَنْبَسُطُ،
فَسَارَا مِيلَيْنِ يَتَكَلَّمَانِ فِي هِشَامٍ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ كَتْبِهِ إِلَيْهِ بِالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ،
ثُمَّ رَأَى مِنْ بُعْدِ رَهْجًا وَأَصْوَاتًا وَعُجْبَارًا، ثُمَّ انْكَشَفَ ذَلِكَ عَنْ بُرْدٍ يَقْصِدُونَهُ
بِالْوَلَايَةِ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ: وَيْحَكَ! إِنَّ هَذِهِ رُسُلُ هِشَامٍ اللَّهُمَّ أَعْطِنَا حَيْرَهَا.

فَلَمَّا افْتَرَبَتِ الْبُرْدُ مِنْهُ وَتَبَيَّنُوهُ تَرَجَّلُوا إِلَى الْأَرْضِ، وَجَاءُوا فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ
بِالْخِلَافَةِ، فَبُهَتَ وَقَالَ: وَيْحَكُمْ! أَمَاتَ هِشَامٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَمَنْ بَعَثَكُمْ؟
قَالُوا: سَلَّمَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ صَاحِبِ دِيْوَانِ الرِّسَائِلِ. وَأَعْطُوهُ الْكِتَابَ فَقَرَأَهُ،

ثُمَّ سَأَهُمْ عَنِ أَحْوَالِ النَّاسِ، وَكَيْفَ مَاتَ عَمُّهُ هِشَامٌ فَأَخْبَرُوهُ، فَكَتَبَ مِنْ
فَوْرِهِ بِالْإِحْتِيَاظِ عَلَى أَمْوَالِ هِشَامٍ وَحَوَاصِلِهِ بِالرُّصَافَةِ وَقَالَ:

لَيْتَ هِشَامًا عَاشَ حَتَّى يَرَى مَكْيَالَهُ الْأَوْفَرَ قَدْ طُبِعَا
كِلَنَاهُ بِالصَّاعِ الَّذِي كَالَهُ وَمَا ظَلَمْنَا بِهِ إِصْبَعَا
وَمَا أَتَيْنَا ذَاكَ عَنِ بِدْعَةٍ أَحَلَّهُ الْفُرْقَانُ لِي أَجْمَعَا

ثُمَّ سَارَ إِلَى دِمَشْقَ، وَاسْتَعْمَلَ الْعُمَّالَ، وَجَاءَتْهُ الْبَيْعَةُ مِنَ الْأَفَاقِ، وَجَاءَتْهُ
الْوُفُودُ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ^١ - وَهُوَ إِذْ ذَاكَ نَائِبُ إِزْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِيجَانَ
- يُبَارِكُ لَهُ فِي خِلَافَةِ اللَّهِ لَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَالتَّمَكِينِ فِي بِلَادِهِ، وَيُهَيِّئُهُ بِمَوْتِ
هِشَامٍ وَظَفَرِهِ بِهِ، وَالتَّحَكُّمِ فِي أَمْوَالِهِ وَحَوَاصِلِهِ، وَيَذَكِّرُ لَهُ أَنَّهُ جَدَدُ الْبَيْعَةِ لَهُ
فِي بِلَادِهِ، وَأَنَّهُمْ فَرِحُوا وَاسْتَبَشَرُوا بِذَلِكَ، وَلَوْلَا حَوْفُهُ مِنَ الثَّغْرِ لَأَسْتَنَابَ عَلَيْهِ
وَرَكِبَ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ، شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِ، وَرَغْبَةً فِي مُشَافَهَتِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْوَلِيدَ سَارَ فِي النَّاسِ سِيرَةً حَسَنَةً بَادِيَ الرَّأْيِ، وَأَمَرَ بِإِعْطَاءِ الزَّمَنِ
وَالْمَجْدُومِينَ وَالْعُمَيَانَ، لِكُلِّ إِنْسَانٍ حَادِمًا، وَأَخْرَجَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ الطَّيِّبِ
وَالتُّحَفَ لِعِيَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَزَادَ فِي أُعْطِيَاتِ النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا أَهْلَ الشَّامِ
وَالْوُفُودَ، وَكَانَ كَرِيمًا مُمَدِّحًا شَاعِرًا مُجِيدًا، لَا يُسْأَلُ شَيْئًا فَطًى فَيَقُولُ: لَا.

^١ مروان الحمار.

الوليد يعقد ولاية العهد لولديه من بعده

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَقَدَ الْوَلِيدُ الْبَيْعَةَ لِابْنَيْهِ الْحَكَمِ، ثُمَّ عُثْمَانَ، عَلَى أَنْ يَكُونَ
وَلِيِّ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ، وَبَعَثَ الْبَيْعَةَ إِلَى يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ أَمِيرِ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ
فَأَرْسَلَهَا إِلَى نَائِبِ خُرَاسَانَ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، فَحَطَبَ بِذَلِكَ نَصْرٌ حُطْبَةً عَظِيمَةً
بَلِيغَةً طَوِيلَةً. وَاسْتَوْسَقَ لِلْوَلِيدِ الْمَمَالِكُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَخَذَتْ
الْبَيْعَةُ لَوْلَدَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ فِي الْأَفَاقِ، وَكَتَبَ الْوَلِيدُ إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ بِالِاسْتِقْلَالِ
بِوَلَايَةِ خُرَاسَانَ، ثُمَّ وَقَدَّ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ عَلَى الْوَلِيدِ فَسَأَلَهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِ وِلَايَةَ
خُرَاسَانَ، فَزَدَهَا إِلَيْهِ كَمَا كَانَتْ فِي أَيَّامِ هِشَامٍ، وَأَنْ يَكُونَ نَصْرٌ بْنُ سَيَّارٍ
وَنُؤَابَةُ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ، فَكَتَبَ عِنْدَ ذَلِكَ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ
يَسْتَوْفِدُهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ، وَأَنْ يُكْتَبَ مِنْ اسْتِصْحَابِ الْهَدَايَا
وَالْتَّحْفِ، فَحَمَلَ نَصْرٌ بْنُ سَيَّارٍ أَلْفَ مَمْلُوكٍ عَلَى الْخَيْلِ، وَأَلْفَ وَصِيْفَةٍ، وَشَيْئًا
كَثِيرًا مِنْ أَبَارِيْقِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ التَّحْفِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ الْوَلِيدُ
يَسْتَحِثُّهُ سَرِيْعًا، وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ طَنَايِيرَ وَبَرَابِطَ وَمُعْنِيَاتٍ وَبَارَاتٍ
وَبَرَاذِينَ فُرْهًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ آلَاتِ الطَّرْبِ وَالْفِسْقِ، فَكَرِهَ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْهُ
وَكْرَهُوهُ، وَقَالَ الْمُنَجِّمُونَ لِنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ: إِنَّ الْفِتْنَةَ قَرِيبًا سَتَفْعُ بِالشَّمَامِ. فَجَعَلَ
يَتَنَاقَلُ فِي سَيْرِهِ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ يَبْعُضُ الطَّرِيقِ جَاءَتْهُ الْبُرْدُ، فَأَحْبَرُوهُ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ
الْوَلِيدَ قَدْ قُتِلَ، وَهَاجَتِ الْفِتْنَةُ الْعَظِيمَةُ فِي النَّاسِ بِالشَّمَامِ، فَعَدَلَ بِمَا مَعَهُ إِلَى
بَعْضِ الْمُدُنِ، فَأَقَامَ بِهَا، وَبَلَغَهُ أَنَّ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ قَدْ هَرَبَ مِنَ الْعِرَاقِ

وَاضْطَرَبَتِ الْأُمُورُ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ قَتْلِ الْخَلِيفَةِ عَلَى مَا سَنَدَكُرُهُ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَلَّى الْوَلِيدُ يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيَّ وَوَلَايَةَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقِيمَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدًا، ابْنَيْ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمَخْزُومِيِّ بِالْمَدِينَةِ مُهَانَيْنِ لِكُونِهِمَا حَالِي هِشَامِ، ثُمَّ يَبْعَثُ بِهِمَا إِلَى يُوسُفَ بْنِ عَمْرِ نَائِبِ الْعِرَاقِ، فَبَعَثَهُمَا إِلَيْهِ، فَمَا زَالَ يُعَذِّبُهُمَا حَتَّى مَاتَا، وَأَخَذَ مِنْهُمَا أَمْوَالًا كَثِيرَةً.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَلَّى يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ يَحْيَى بْنَ سَعِيدِ الْأَنْصَارِيِّ فَضَاءَ الْمَدِينَةَ. وَفِيهَا بَعَثَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ إِلَى أَهْلِ قُبْرَسَ جَيْشًا مَعَ أَخِيهِ، وَقَالَ: حَرِّبْهُمْ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى الشَّامِ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى الرُّومِ. فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ اخْتَارَ جَوَارَ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّامِ وَمِنْهُمْ مَنْ انْتَقَلَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ.

وَفِيهَا قَدِمَ سُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ، وَمَالِكُ بْنُ الْهَيْثَمِ، وَلَاهْزُ بْنُ قُرَيْظٍ، وَقَحْطَبَةُ بْنُ شَيْبِ مَكَّةَ، فَلَقُوا - فِي قَوْلِ أَهْلِ السِّيَرِ - مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ^١ فَأَخْبَرُوهُ بِقِصَّةِ أَبِي مُسْلِمٍ فَقَالَ: أَحْرُّهُ أَمْ عَبْدٌ؟ فَقَالُوا: أَمَّا هُوَ فَيَزِعُكُمْ أَنَّهُ حُرٌّ، وَأَمَّا مَوْلَاهُ فَيَزِعُكُمْ أَنَّهُ عَبْدٌ. فَاشْتَرَوْهُ فَأَعْتَقُوهُ، وَدَفَعُوا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ مِائَتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ وَكُسُوفَةً بِثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَقَالَ لَهُمْ: لَعَلَّكُمْ لَا تَلْقَوْنِي بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، فَإِنْ مِتُّ

^١ العباسي.

فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُحَمَّدٍ - يَعْنِي ابْنَهُ - فَإِنَّهُ ابْنِي، فَأَوْصِيكُمْ بِهِ. وَمَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ فِي مُسْتَهَلِّ ذِي الْقَعْدَةِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بَعْدَ أَبِيهِ عَلِيٍّ بِسَبْعِ سِنِينَ.

وَفِيهَا قُتِلَ يَحْيَى بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَلِيٍّ بِحُرَّاسَانَ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِيهَا يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّقْفِيُّ أَمِيرُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفِ، وَأَمِيرُ الْعِرَاقِ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ، وَأَمِيرُ حُرَّاسَانَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ، وَهُوَ فِي هَمَّةِ الْوُفُودِ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْهَدَايَا وَالتُّحَفِ، فَقُتِلَ الْوَلِيدُ قَبْلَ أَنْ يَجْتَمَعَ بِهِ.

وفاة محمد بن علي

وَمَنْ تُوُوِّيَّ فِيهَا مِنَ الْأَعْيَانِ: مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْقُرَشِيِّ الْهَاشِمِيِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَدِينِيُّ، وَهُوَ أَبُو السَّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ، رَوَى عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَجَمَاعَةٍ، وَحَدَّثَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ، مِنْهُمْ ابْنَاهُ الْخَلِيفَتَانِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ السَّفَّاحُ، وَأَبُو جَعْفَرِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَنْصُورِ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ أَوْصَى إِلَيْهِ بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالْأَخْبَارِ، فَبَشَّرَهُ بِأَنَّ الْخِلَافَةَ سَتَكُونُ فِي وَدِّهِ، فَدَعَا إِلَى نَفْسِهِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ، وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُهُ يَتَزَايَدُ حَتَّى تُوُوِّيَّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، عَنْ ثَلَاثِ وَسِتِّينَ سَنَةً، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شَكْلًا، فَأَوْصَى بِالْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ لَوْلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ،

فَمَا أُبْرِمَ الْأَمْرُ إِلَّا لَوْلَدِهِ السَّفَاحُ، فَاسْتَلَبَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ الْأَمْرَ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ
وَتَلَاثَيْنِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ.

مقتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين

وَأَمَّا يَحْيَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُتِلَ
أَبُوهُ زَيْدٌ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، لَمْ يَزَلْ يَحْيَى مُخْتَفِيًا فِي حُرَّاسَانَ عِنْدَ
الْحَرِيشِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ دَاوُدَ بِلَحَّ حَتَّى مَاتَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَكَتَبَ عِنْدَ
ذَلِكَ يُوسُفُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ يُخْبِرُهُ بِأَمْرِ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ فَكَتَبَ نَصْرُ
بُنِ سَيَّارٍ إِلَى نَائِبِ بَلْحَ عَقِيلِ بْنِ مَعْقِلِ الْعِجْلِيِّ فَأَحْضَرَ الْحَرِيشَ فَعَاقَبَهُ
سِتْمَانَةَ سَوَاطِ، فَلَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ، وَجَاءَ وَلَدُ الْحَرِيشِ فَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ، فَحُبِسَ، فَكَتَبَ
نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ إِلَى يُوسُفَ بِذَلِكَ، فَبَعَثَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ زَيْدٍ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ،
فَكَتَبَ الْوَلِيدُ إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ يَأْمُرُهُ بِإِطْلَاقِهِ مِنَ السِّجْنِ، وَإِرْسَالِهِ إِلَيْهِ
صُحْبَةَ أَصْحَابِهِ، وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَيْهِ فَأَطْلَقَهُمْ وَأَطْلَقَ لَهُمْ وَجَهَّزَهُمْ، فَسَارُوا إِلَى
دِمَشْقَ، فَلَمَّا كَانُوا بِنَعْصِ الطَّرِيقِ تَوَسَّمَ نَصْرٌ مِنْهُ عَدْرًا، فَبَعَثَ إِلَيْهِ جَيْشًا
عَشْرَةَ آلَافٍ، فَكَسَرَهُمْ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ وَإِنَّ مَا مَعَهُ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَقَتَلَ أَمِيرَهُمْ،
وَاسْتَلَبَ مِنْهُمْ أَمْوَالًا كَثِيرَةً، ثُمَّ جَاءَ جَيْشٌ آخَرُ، فَقَتَلُوهُ وَاحْتَرَبُوا رَأْسَهُ، وَقَتَلُوا
جَمِيعَ أَصْحَابِهِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

مَقْتَلُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا كَانَ مَقْتَلُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهَذِهِ تَرْجَمَتُهُ:

هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، أَبُو الْعَبَّاسِ الْأُمَوِيُّ الدِّمَشْقِيُّ. بُويعَ لَهُ بِالْخِلاَفَةِ بَعْدَ عَمِّهِ هِشَامٍ فِي السَّنَةِ الْخَالِيَةِ بِعَهْدٍ مِنْ أَبِيهِ، كَمَا قَدَّمْنَا. وَأُمُّهُ أُمُّ الْحَجَّاجِ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ تِسْعِينَ، وَقُتِلَ يَوْمَ الْحَمِيسِ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَوَقَعَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ بَيْنَ النَّاسِ بِسَبَبِ قَتْلِهِ وَهُوَ حَلِيفَةٌ؛ لِفِسْقِهِ، وَقِيلَ: وَرَزَقْتَهُ.

صِفَةُ مَقْتَلِ الْوَلِيدِ وَرِوَالِ دَوْلَتِهِ

كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مُجَاهِرًا بِالْفُؤَادِ مُصِرًّا عَلَيْهَا، مُنْتَهَكًا مَحَارِمَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَتَحَاشَى مِنْ مَعْصِيَةٍ، وَرَبَّمَا أَهَمَّهُ بَعْضُهُمْ بِالرِّزْدَقَةِ وَالْإِنْحِلَالِ مِنَ الدِّينِ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. لَكِنَّ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ عَاصِيًا شَاعِرًا مَاجِنًا مُتَعَاطِيًا لِلْمَعَاصِي، لَا يَتَحَاشَى بِهَا مِنْ أَحَدٍ وَلَا يَسْتَحِي مِنْ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ الْخِلاَفَةَ وَبَعْدَ أَنْ وُلِيَ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَحَاهُ سُلَيْمَانَ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ سَعَى فِي قَتْلِهِ، قَالَ: أَشْهَدُ -
بُعْدًا لَهُ - أَنَّهُ كَانَ شَرُوبًا لِلْخَمْرِ مَاجِنًا فَاسِقًا، وَلَقَدْ أَرَادَنِي عَلَى نَفْسِي
الْفَاسِقُ.

وَعَنِ الْعُتْبِيِّ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ يَزِيدَ نَظَرَ إِلَى نَضْرَانِيَّةٍ مِنْ حِسَانِ نِسَاءِ النَّصَارَى
اسْمُهَا سَفْرَى فَأَحَبَّهَا، فَبَعَثَ إِلَيْهَا يُرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ عَلَيْهِ، فَأَلْحَّ
عَلَيْهَا، وَعَشَقَّهَا، فَلَمْ تُطَاوِعْهُ، فَاتَّفَقَ اجْتِمَاعُ النَّصَارَى فِي بَعْضِ كَنَائِسِهِمْ
لِعِيدِهِمْ، فَذَهَبَ الْوَلِيدُ إِلَى بُسْتَانَ هُنَاكَ، فَتَنَكَّرَ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ مُصَابٌ، فَخَرَجَ
النِّسَاءُ مِنَ الْكَنِيسَةِ إِلَى الْبُسْتَانِ، فَرَأَيْنَهُ فَأَحَدَقْنَ بِهِ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ سَفْرَى
وَيَمَازِحُهَا وَنُضَاحِكُهَا وَلَا تَعْرِفُهُ، حَتَّى اسْتَفَى مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَتْ
قِيلَ لَهَا: وَبِحُكِّ! أَتَدْرِينَ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ فَقَالَتْ: لَا. فَقِيلَ لَهَا: هُوَ الْوَلِيدُ.
فَلَمَّا تَحَقَّقَتْ ذَلِكَ حَنَّتْ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَيْهَا.
فَقَالَ الْوَلِيدُ فِي ذَلِكَ:

أَضْحَى فُقُودُكَ يَا وَلِيدُ عَمِيدًا	صَبًّا قَدِيمًا لِلْحِسَانِ صَيُودًا
مِنْ حَبِّ وَاضِحَةِ الْعَوَارِضِ طِفْلَةً	بَرَزْتَ لَنَا نَحْوَ الْكَنِيسَةِ عِيدًا
مَا زِلْتُ أَرْمُقُهَا بَعِينِي وَامِقِ	حَتَّى بَصُرْتُ بِهَا تُقْبِلُ عُودًا
عُودَ الصَّلِيبِ فَوَيْحَ نَفْسِي مَنْ رَأَى	مِنْكُمْ صَلِيبًا مِثْلَهُ مَعْبُودًا
فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ أَكُونَ مَكَانَهُ	وَأَكُونَ فِي هَبِّ الْجَحِيمِ وَقُودًا

وَقَالَ فِيهَا أَيضًا لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ، وَعَلِمَ بِحَالِهِ النَّاسُ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا وَقَعَ قَبْلَ أَنْ يَلِيَّ الْخِلَافَةَ:

أَلَا حَبْدًا سَفَرَى وَإِنْ قِيلَ إِنَّي كَلِمْتُ بِنَصْرَانِيَّةٍ تَشْرَبُ الْحَمْرَا
يَهُونُ عَلَيَّ أَنْ نَظَلَ نَهَارَنَا إِلَى اللَّيْلِ لَا أُولَى نُصَلِّي وَلَا عَصْرًا
قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَرَجِ الْمُعَاوِي بْنُ زَكْرِيَّا الْجَبْرِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ طَرَارِ النَّهْرَوَالِيِّ
ثُمَّ الْبُعْدَادِيُّ بَعْدَ إِيرَادِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ: لِلْوَلِيدِ فِي هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْخِلَافَةِ
وَالْمَجُونِ وَسَخَافَةِ الدِّينِ مَا يَطُولُ ذِكْرُهُ، وَقَدْ نَاقَضْنَاهُ فِي أَشْيَاءَ مِنْ مَنْظُومِ
شِعْرِهِ الْمُتَضَمِّنِ رَكِيكَ ضَلَالِهِ وَكُفْرِهِ.

وَسِعَ الْوَلِيدُ بِخَمَارٍ صَلَفٍ بِالْحَيْرَةِ، فَقَصَدَهُ حَتَّى شَرِبَ مِنْهُ ثَلَاثَةَ أَرْطَالٍ مِنْ
الْحَمْرِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى فَرَسِهِ، وَمَعَهُ اثْنَانِ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَمَرَ
لِلْحَمَارِ بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ.

وَأَرَادَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ الْحَجَّ، وَقَالَ: أَشْرَبُ فَوْقَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ. فَهَمَّ قَوْمٌ أَنْ
يَفْتِنُوكَ بِهِ إِذَا حَرَجَ، فَجَاءُوا إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ فَسَأَلُوهُ أَنْ يَكُونَ
مَعَهُمْ فَأَبَى، فَقَالُوا لَهُ: فَاتَّكُمُ عَلَيْنَا. فَقَالَ: أَمَّا هَذَا فَنَعَمْ. فَجَاءَ إِلَى الْوَلِيدِ
فَقَالَ لَهُ: لَا تَخْرُجْ، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ. فَقَالَ: وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَخَافُهُمْ عَلَيَّ؟
قَالَ: لَا أَحْبَبُّكَ بِهِمْ. قَالَ: إِنَّ لَمْ تُخْبِرْنِي بِهِمْ بَعَثْتُ بِكَ إِلَى يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ.
قَالَ: وَإِنْ بَعَثْتَ بِي إِلَى يُوسُفَ. فَبَعَثَهُ إِلَى يُوسُفَ فَعَذَّبَهُ حَتَّى قَتَلَهُ.

قتل يزيد بن الوليد للوليد بن يزيد

ذَكَرَ قَتْلَ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ النَّاقِصُ، لِلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدٍ^١، وَكَيْفَ قُتِلَ؟ قَدْ ذَكَرْنَا بَعْضَ أَمْرِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ وَخَلَاعَتِهِ وَمَجَانَّتِهِ، وَمَا ذَكَرَ عَنْهُ مِنْ تَهَاوُنِهِ وَاسْتِخْفَافِهِ بِأَمْرِ دِينِهِ قَبْلَ خِلَافَتِهِ، وَلَمَّا وَلى الْخِلَافَةَ وَأَفْضَتْ إِلَيْهِ لَمْ يَزِدْ فِي الَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّذَّةِ وَالرُّكُوبِ إِلَى الصَّيْدِ وَشُرْبِ الْمُسْكَرِ وَمُنَادِمَةِ الْفَسَاقِ، إِلَّا تَمَادِيًا وَجِدًّا، فَثَقُلَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى رَعِيَّتِهِ وَجُنْدِهِ، وَكَرِهَهُ كَرَاهَةً شَدِيدَةً، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا جَنَى عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى أَوْرَثَهُ ذَلِكَ هَلَاكَهُ، إِفْسَادُهُ عَلَى نَفْسِهِ بَنِي عَمِّهِ هِشَامٍ، وَالْوَلِيدِ، مَعَ إِفْسَادِهِ الْيَمَانِيَةَ وَهُمْ عَظْمُ جُنْدِ حُرَّاسَانَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَتَلَ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَسَلَّمَهُ إِلَى غَرِيمِ يُوْسُفَ بْنِ عُمَرَ الَّذِي هُوَ نَائِبُ الْعِرَاقِ إِذْ ذَاكَ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِبُهُ حَتَّى هَلَكَ، انْقَلَبُوا عَلَيْهِ وَتَنَكَّرُوا لَهُ، وَسَاءَ هُمْ قَتْلَهُ، كَمَا سَنَذَكُرُهُ فِي تَرْجَمَتِهِ.

وَضَرَبَ الْوَلِيدُ بُنَّ يَزِيدَ ابْنَ عَمِّهِ سُلَيْمَانَ بْنَ هِشَامٍ مِائَةَ سَوْطٍ، وَحَلَّقَ رَأْسَهُ وَحَلِيَّتَهُ، وَغَرَبَهُ إِلَى عَمَانَ، فَحَبَسَهُ بِهَا، فَلَمْ يَزَلْ هُنَاكَ حَتَّى قُتِلَ الْوَلِيدُ وَأُخِذَ جَارِيَةً كَانَتْ لِأَلِ عَمِّهِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا عُمَرُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَالَ: لَا أَرُدُّهَا. فَقَالَ: إِذْنُ تَكْتُرُ الصَّوَاهِلُ حَوْلَ عَسْكَرِكَ. وَحَبَسَ الْأَفْقَمَ

^١ أرجو أن ينتبه القارئ ويفرق بين الاسمين لتشابههما، فالوليد بن يزيد أمير المؤمنين المعروف بالفاسق، قتله ابن عمه يزيد بن الوليد وولي الإمارة بعده.

يَزِيدَ بْنَ هِشَامٍ وَبَايَعَ لَوْلَدِيهِ الْحَكَمَ وَعُثْمَانَ وَكَانَا دُونَ الْبُلُوغِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ أَيْضًا، وَنَصَحُوهُ فَلَمْ يَنْتَصِحْ، وَهَوَّهُ فَلَمْ يَزْتَدِعْ وَمَ يَقْبَلُ.

وَتَقَلَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، وَرَمَاهُ بَنُو هِشَامٍ وَبَنُو الْوَلِيدِ بِالْكَفْرِ وَعَشِيَانِ أُمَّهَاتِ أَوْلَادِ أَبِيهِ، وَقَالُوا: قَدْ اتَّخَذَ مَائَةَ جَامِعَةٍ، عَلَى كُلِّ جَامِعَةٍ اسْمُ رَجُلٍ مِنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ لِيُقْتَلَهُ بِهَا، وَرَمَوْهُ بِالزُّنْدَقَةِ، وَكَانَ أَشَدَّهُمْ فِيهِ قَوْلًا يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ النَّاسُ إِلَى قَوْلِهِ أُمَيْلٌ؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرَ النُّسْكَ وَالتَّوَضُّعَ، وَجَعَلَ يَقُولُ: مَا يَسْعُنَا الرِّضَا بِالْوَلِيدِ. حَتَّى حَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْفِتْكَ بِهِ.

وَأَنْتَدَبَ لِلْقِيَامِ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ فُضَاعَةَ وَالْيَمَانِيَّةِ وَخَلَقَ مِنْ أَعْيَانِ الْأَمْرَاءِ وَالِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَالِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَ الْقَائِمَ بِأَعْبَاءِ ذَلِكَ كُلهِ وَالِدَاعِي إِلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ بَنِي أُمِّيَّةٍ وَكَانَ يُنْسَبُ إِلَى الصَّلَاحِ وَالِدَيْنِ وَالْوَرَعِ، فَبَايَعَهُ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ نَهَاهُ عَنِ ذَلِكَ أَحُوهُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ فَلَمْ يَقْبَلْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ لَا أَبِي أَحَافُ عَلَيْكَ الْوَلِيدَ لَقَيْدْتُكَ وَأَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِ. وَاتَّفَقَ خُرُوجِ النَّاسِ مِنْ دِمَشْقَ مِنْ وِبَاءٍ وَقَعَ بِهَا، فَكَانَ مِمَّنْ حَرَجَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ نَحْوَ الْمَائَتَيْنِ، إِلَى نَاحِيَةِ مَشَارِفِ دِمَشْقَ، فَانْتَضَمَ لِيَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ، وَجَعَلَ أَحُوهُ الْعَبَّاسُ يَنْهَاهُ عَنِ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، فَلَا يَقْبَلُ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ فِي ذَلِكَ:

إِنِّي أُعِيدُكُمْ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنٍ مِثْلِ الْحِبَالِ تَسَامَى ثُمَّ تَنْدَفِعُ

إِنَّ الْبَرِيَّةَ قَدْ مَلَّتْ سِيَاسَتَكُمْ فَاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الدِّينِ وَارْتَدِعُوا
 لَا تُلْحِمَنَّ ذَنَابَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الذَّنَابَ إِذَا مَا أُحِمَّتْ رَتَعُوا
 لَا تَبْفُرَنَّ بِأَيْدِيكُمْ بُطُونَكُمْ فَتَمَّ لَا حَسْرَةَ تُغْنِي وَلَا جَرَعُ
 فَلَمَّا اسْتَوْسَقَ لِيَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ، وَبَايَعَهُ مَنْ بَايَعَهُ مِنَ النَّاسِ، قَصَدَ دِمَشْقَ
 فَدَخَلَهَا فِي غَيْبَةِ الْوَلِيدِ، فَبَايَعَهُ أَكْثَرُ أَهْلِهَا فِي اللَّيْلِ، وَبَلَعَهُ أَنَّ أَهْلَ الْمِرَّةِ قَدْ
 بَايَعُوا كَبِيرَهُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ مَصَادٍ، فَمَضَى إِلَيْهِ يَزِيدُ مَاشِيًا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ،
 فَأَصَابَهُمْ فِي الطَّرِيقِ مَطَرٌ شَدِيدٌ، فَأَتَوْهُ فَطَرَفُوا بَابَهُ لَيْلًا، ثُمَّ دَخَلُوا، فَكَلَّمَهُ يَزِيدُ
 فِي ذَلِكَ، فَبَايَعَهُ مُعَاوِيَةَ بْنَ مَصَادٍ، ثُمَّ رَجَعَ يَزِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ إِلَى دِمَشْقَ عَلَى
 طَرِيقِ الْفَنَاءِ وَهُوَ عَلَى حِمَارٍ أَسْوَدَ، فَحَلَفَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ دِمَشْقَ إِلَّا
 فِي السَّلَاحِ، فَلَبَسَ سِلَاحًا مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ فَدَخَلَهَا، وَكَانَ الْوَلِيدُ قَدْ اسْتَتَابَ
 عَلَى دِمَشْقَ فِي غَيْبَتِهِ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَجَّاجِ بْنِ يُونُسَ الثَّقَفِيَّ
 وَقَدْ حَرَجَ مِنْهَا أَيْضًا مِنَ الْوَبَاءِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِقَطْنَا وَاسْتَحْلَفَ ابْنَهُ عَلَى دِمَشْقَ،
 وَعَلَى شَرْطِهَا أَبُو الْعَاجِ كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السُّلَمِيُّ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ
 اجْتَمَعَ أَصْحَابُ يَزِيدَ بَيْنَ الْعِشَائِينَ عِنْدَ بَابِ الْفَرَادِيسِ، فَلَمَّا أُذِنَ لِعِشَاءِ
 الْآخِرَةِ دَخَلُوا الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ فِي الْمَسْجِدِ غَيْرُهُمْ بَعَثُوا إِلَى يَزِيدَ بْنِ
 الْوَلِيدِ فَجَاءَهُمْ، فَقَصَدُوا بَابَ الْمَقْصُورَةِ فَفَتَحَ لَهُمْ حَادِمٌ، فَدَخَلُوا فَوَجَدُوا أَبَا
 الْعَاجِ وَهُوَ سَكَرَانٌ، فَأَخَذُوهُ وَأَخَذُوا حُرَّانَ بَيْتِ الْمَالِ، وَتَسَلَّمُوا الْخَوَاصِلَ،
 وَتَقَفُوا بِالْأَسْلِحَةِ، وَأَمَرَ يَزِيدُ بِإِعْلَاقِ أَبْوَابِ الْبَلَدِ، وَأَلَّا يَفْتَحَ إِلَّا لِمَنْ يَعْرِفُ،

فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ قَدِمَ أَهْلُ الْحَوَاضِرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَدَخَلُوا مِنْ سَائِرِ أَبْوَابِ
الْبَلَدِ، كُلُّ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَلِيهِمْ، فَكَثُرَتِ الْجُمُوشُ حَوْلَ يَزِيدَ بْنِ
الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي نُصْرَتِهِ، وَكُلُّهُمْ قَدْ بَايَعَهُ بِالْخِلَافَةِ.

وَبَعَثَ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مَصَادٍ فِي مِائَتِي فَارِسٍ إِلَى قَطْنَا لِيَأْتُوهُ
بِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُجَّاجِ نَائِبِ دِمَشْقَ، وَلَهُ الْأَمَانُ، وَكَانَ قَدْ تَخَصَّنَ
فِي قَصْرِ هُنَاكَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَوَجَدُوا عِنْدَهُ خُرَجَيْنِ: فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ.

فَلَمَّا مَرُّوا بِالْمِزَّةِ قَالَ أَصْحَابُ ابْنِ مَصَادٍ: حُذِّ هَذَا الْمَالُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ
يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ. فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا تُحَدِّثُ الْعَرَبُ أَيُّ أَوْلٍ مِنْ حَانَ. ثُمَّ أَتَوْا
بِهِ يَزِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَاسْتَحْدَمَ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ جُنْدًا لِلْقِتَالِ قَرِيبًا مِنْ أَلْفِي فَارِسٍ،
وَبَعَثَ بِهِمْ مَعَ أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ
يَزِيدَ لِيَأْتُوا بِهِ، وَرَكِبَ بَعْضُ مَوَالِي الْوَلِيدِ فَرَسًا سَابِقًا، فَسَاقَ بِهِ حَتَّى انْتَهَى
إِلَى مَوْلَاهُ مِنَ اللَّيْلِ وَقَدْ نَفَقَ الْفَرَسُ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبْرَ فَلَمْ يُصَدِّقْهُ، وَأَمَرَ بِضَرْبِهِ،
ثُمَّ تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ مَنْزِلِهِ
ذَلِكَ إِلَى حِمصَ، فَإِنَّهَا حَصِينَةٌ، وَقَالَ الْأَبْرَشُ سَعِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْكَلْبِيُّ: انزِلْ
عَلَى قَوْمِي بِتَدْمُرَ. فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، بَلْ رَكِبَ بِمَنْ مَعَهُ وَهُوَ فِي

مَائَتِي فَارِسٍ، وَقَصَدَهُ أَصْحَابُ يَزِيدَ فَالْتَفَقُوا بِثِقَلِهِ^١ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَأَخَذُوهُ،
وَجَاءَ الْوَلِيدُ فَنَزَلَ حِصْنَ الْبُحْرَاءِ الَّذِي كَانَ لِلنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وَجَاءَهُ رَسُولُ
الْعَبَّاسِ بْنِ الْوَلِيدِ: إِنِّي آتِيكَ. وَكَانَ مِنْ أَنْصَارِهِ، فَأَمَرَ الْوَلِيدُ بِإِبْرَازِ سَرِيرِهِ،
فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَقَالَ: أَعَلَيْ يَتَوَثَّبُ الرِّجَالُ، وَأَنَا أَثْبُ عَلَى الْأَسَدِ، وَأَتَخَصَّرُ
الْأَفَاعِي؟! وَقَدِمَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْوَلِيدِ بِمَنْ مَعَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ قَدْ حَلَصَ مَعَهُ مِنْ
الْأَلْفِي فَارِسٍ ثَمَانِمِائَةَ فَارِسٍ، فَتَصَافَوْا فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ
الْعَبَّاسِ جَمَاعَةٌ، حُمِلَتْ رُءُوسُهُمْ إِلَى الْوَلِيدِ، وَقَدْ كَانَ جَاءَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ
لِنَصْرِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَخُوهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَجِيءَ بِهِ إِلَيْهِ قَهْرًا حَتَّى
بَايَعَ لِأَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ وَاجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ، فَلَمَّا رَأَى
النَّاسُ اجْتِمَاعَهُمْ فَرُّوا مِنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الْوَلِيدُ فِي ذُلٍّ وَقَلٍّ مِنَ النَّاسِ،
فَلَجَأَ إِلَى الْحِصْنِ فَجَاءُوا إِلَيْهِ، وَأَحَاطُوا بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يُحَاصِرُونَهُ، فَدَنَا
الْوَلِيدُ مِنْ بَابِ الْحِصْنِ فَنَادَى: لِيُكَلِّمَنِي رَجُلٌ شَرِيفٌ. فَكَلَّمَهُ يَزِيدُ بْنُ عَنبَسَةَ
السَّكْسَكِيِّ، فَقَالَ الْوَلِيدُ: أَلَمْ أَرْفَعِ الْمُؤْنَ عَنْكُمْ؟ أَلَمْ أُعْطِ فُقَرَاءَكُمْ؟ أَلَمْ أَخْدِمَ
رَفَنَّاكُمْ؟ فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: إِنَّمَا نَنْتَقِمُ عَلَيْكَ انْتِهَاكَ الْمَحَارِمِ، وَشُرْبِ الخُمُورِ،
وَنِكَاحِ أُمَّهَاتِ أَوْلَادِ آبِيكَ، وَاسْتِحْفَافِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ: حَسْبُكَ
يَا أَخَا السَّكَّاسِكِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ أَكْثَرْتَ وَأَعْرَفْتَ، وَإِنَّ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ لِي

^١ النقل: المتناع.

لَسِعَةً عَمَّا ذَكَرْتَ. ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَئِن قَتَلْتُمُونِي لَا يُرْتَقُ فَتَقُكُمْ، وَلَا يَلَمَّ شَعْنُكُمْ، وَلَا يَجْتَمِعُ كَلِمَتُكُمْ.

وَرَجَعَ إِلَى الدَّارِ، فَجَلَسَ وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُصْحَفًا، فَنَشَرَهُ وَأَقْبَلَ يَقْرَأُ فِيهِ، وَقَالَ: يَوْمَ كَيْوَمِ عُثْمَانَ. وَاسْتَسَلَّمَ وَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ أَوْلِيكَ الحَائِطِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ نَزَلَ إِلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ عَنبَسَةَ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَإِلَى جَانِبِهِ سَيْفُهُ فَقَالَ: نَحَى عَنْكَ. فَقَالَ الْوَلِيدُ: لَوْ أَرَدْتُ الْقِتَالَ بِهِ لَكَانَ غَيْرَ هَذَا. فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْبِسَهُ حَتَّى يَبْعَثَ بِهِ إِلَى يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ فَبَادَرَهُ عَلَيْهِ عَشْرَةٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى الْوَلِيدِ يَضْرِبُونَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ بِالسُّيُوفِ حَتَّى قَتَلُوهُ، ثُمَّ جَرُّوهُ بِرِجْلِهِ لِيُخْرِجُوهُ، فَصَاحَتِ النِّسْوَةُ، فَتَرَكُوهُ، وَاحْتَزَّ أَبُو عِلَاقَةَ الْفَضَاعِيُّ رَأْسَهُ، وَخَاطُوا مَا كَانَ جُرْحَ فِي وَجْهِهِ بِعَقَبٍ^١، وَبَعَثُوا بِهِ إِلَى يَزِيدَ مَعَ عَشْرَةِ نَفَرٍ، مِنْهُمْ مَنْصُورُ بْنُ جُمْهُورٍ، وَرَوْحُ بْنُ مُقْبِلٍ، وَبِشْرُ مَوْلَى كِنَانَةَ مِنْ بَنِي كَلْبٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمَلَقْبُ بِوَجْهِ الْفَلَسِ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِ بِشَرُّوهُ بِقَتْلِ الْوَلِيدِ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ، فَأَطْلَقَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ الْعَشْرَةِ عَشْرَةَ آلافٍ، وَقَالَ لَهُ رَوْحُ بْنُ مُقْبِلٍ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَتْلِ الْوَلِيدِ الْفَاسِقِ. فَسَجَدَ شُكْرًا لِلَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ.

^١ العقب: العصب الذي تعمل منه الأوتار.

وَرَجَعَتِ الْجَيْشُ إِلَى يَزِيدَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ يَدَهُ لِلْمُبَايَعَةِ يَزِيدُ بْنُ عَنَسَةَ السَّكْسَكِيِّ، فَاِنْتَرَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا رِضًا لَكَ فَأَعِنِّي عَلَيْهِ. وَكَانَ قَدْ جَعَلَ لِمَنْ جَاءَهُ بِرَأْسِ الْوَلِيدِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَلَمَّا جِيءَ بِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، لِلْيَلْتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، سَنَةَ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، فَأَمَرَ يَزِيدُ بِنَصَبِ رَأْسِهِ عَلَى رُمْحٍ، وَأَنْ يُطَافَ بِهِ فِي الْبَلَدِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّمَا يُنْصَبُ رَأْسُ الْخَارِجِيِّ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْصِبَنَّهُ. فَشَهَرَهُ فِي الْبَلَدِ عَلَى رُمْحٍ، ثُمَّ أَوْدَعَهُ عِنْدَ رَجُلٍ شَهْرًا، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى أَخِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ يَزِيدَ، فَقَالَ أَخُوهُ: بَعْدًا لَهُ، أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ شَرُوبًا لِلْحَمْرِ مَاجِنًا فَاسِقًا، وَلَقَدْ أَرَادَنِي عَلَى نَفْسِي الْفَاسِقِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ رَأْسَهُ لَمْ يَزَلْ مُعَلَّقًا بِحَائِطِ جَامِعِ دِمَشْقَ الشَّرْقِيِّ مِمَّا يَلِي الصَّحْنَ، حَتَّى انْقَضَتْ دَوْلَةُ بَنِي أُمِيَّةٍ. وَقِيلَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَثَرَ دَمِهِ. وَكَانَ عُمُرُهُ يَوْمَ قُبُلِ سِنًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً. وَمُدَّةُ وِلَايَتِهِ سَنَةٌ وَسِتَّةُ أَشْهُرٍ عَلَى الْأَشْهُرِ. وَقِيلَ: وَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ.

وَكَانَ شَدِيدَ الْبَطْشِ، طَوِيلَ أَصَابِعِ الرِّجْلَيْنِ، كَانَتْ تُضْرَبُ لَهُ سِكَّةُ الْحَدِيدِ فِي الْأَرْضِ، وَيُرْبَطُ فِيهَا حَيْطٌ إِلَى رِجْلِهِ، ثُمَّ يَتَّبَعُ عَلَى الْفَرَسِ، فَيَرَكْبُهَا، وَلَا يَمْسُ الْفَرَسَ، فَتَنْقَلِعُ تِلْكَ السِّكَّةُ مِنَ الْأَرْضِ مَعَ وَثْبَتِهِ.

خِلاَفَةُ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ

وَهُوَ الْمُلْكُ بِالنَّقْصِ؛ لِنَقْصِهِ النَّاسَ الزِّيَادَةَ الَّتِي كَانَ زَادَهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ فِي أُعْطِيَاتِهِمْ، وَهِيَ عَشْرَةٌ عَشْرَةٌ، وَرَدَّهَ إِيَّاهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي زَمَنِ هِشَامٍ. وَيُقَالُ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ لَقِبَهُ بِذَلِكَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ^١.

بُيِعَ لَهُ بِالْخِلاَفَةِ بَعْدَ مَقْتَلِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ، وَذَلِكَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ لِلْيَلْتَنِ بَقِيَّتَا مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ - أَعْنِي سَنَةَ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ - وَكَانَ فِيهِ صَلَاحٌ وَوَرَعٌ قَبْلَ ذَلِكَ، فَأَوَّلُ مَا عَمَلَ انْتِقَاصُهُ مِنْ أَرْزَاقِ الْجُنْدِ مَا كَانَ الْوَلِيدُ زَادَهُمْ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ سَنَةٍ عَشْرَةٌ عَشْرَةٌ، فَسُمِّيَ النَّاقِصَ لِذَلِكَ. وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ: الْأَشْحُ وَالنَّقِصُ أَعْدَلَا بَنِي مَرْوَانَ. يَعْنِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهَذَا. وَلَكِنْ لَمْ تَطُلْ أَيَّامُهُ، فَإِنَّهُ تُوُفِّيَ مِنْ آخِرِ هَذِهِ السَّنَةِ، وَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ، وَانْتَشَرَتِ الْفِتْنُ، وَاخْتَلَفَتْ كَلِمَةُ بَنِي مَرْوَانَ فَنَهَضَ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ، وَكَانَ مُعْتَقَلًا فِي سِجْنِ الْوَلِيدِ بَعْمَانَ، فَاسْتَحْوَذَ عَلَى أَمْوَالِهَا وَحَوَاصِلِهَا، وَأَقْبَلَ إِلَى دِمَشْقَ، فَجَعَلَ يَلْعَنُ الْوَلِيدَ وَيَعِيبُهُ وَيَرْمِيهِ بِالْكَفْرِ، فَأَكْرَمَهُ يَزِيدُ وَرَدَّ عَلَيْهِ أَمْوَالَهُ الَّتِي كَانَ أَحَدَهَا مِنْهُ الْوَلِيدُ. وَتَزَوَّجَ يَزِيدُ أُخْتِ سُلَيْمَانَ وَهِيَ أُمُّ هِشَامِ بِنْتُ هِشَامٍ. وَهَضَّ أَهْلُ حِمَصَ إِلَى دَارِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْوَلِيدِ الَّتِي عِنْدَهُمْ فَهَدَمُوهَا،

^١ تلقيب مروان له بذلك على سبيل الانتقاص، ومقابلة الاسم بضده؛ فاسمه يزيد فعدل عن ضد الفعل (ينقص) إلى الاسم، فسماه الناقص.

وَحَبَسُوا أَهْلَهُ وَبَنِيهِ، وَهَرَبَ هُوَ مِنْ حِمصَ، فَلَحِقَ بِيَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى دِمَشْقَ.

أهل حمص يطلبون بدم الوليد الفاسق

وَأَظْهَرَ أَهْلُ حِمصَ الْأَخَذَ بِدَمِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ، وَأَعْلَقُوا أَبْوَابَ الْبَلَدِ، وَأَقَامُوا النَّوَاحِ وَالْبَوَاكِي عَلَى الْوَلِيدِ وَكَاتَبُوا الْأَجْنَادَ فِي طَلَبِ ثَأْرِ الْوَلِيدِ فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهُمْ، عَلَى أَنْ يَكُونَ الْحَكَمُ بِنِ الْوَلِيدِ بِنِ يَزِيدَ الَّذِي أَحَذَّ لَهُ الْعَهْدَ هُوَ الْخَلِيفَةُ، وَحَلَعُوا نَائِبُهُمْ، وَهُوَ مَرْوَانَ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ثُمَّ قَتَلُوهُ وَقَتَلُوا ابْنَهُ، وَأَمَرُوا عَلَيْهِمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ يَزِيدَ بْنِ حُصَيْنٍ، فَلَمَّا انْتَهَى حَرْبُهُمْ إِلَى يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ كَتَبَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا مَعَ يَعْقُوبَ بْنِ هَانِيٍّ، وَمَضْمُونُ الْكِتَابِ أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ شُورَى، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ: فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَدْ رَضِينَا بِوَلِيِّ عَهْدِنَا الْحَكَمِ بْنِ الْوَلِيدِ. فَأَحَذَ يَعْقُوبُ بِلِحْيَتِهِ وَقَالَ: وَيْحَكَ! لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ يَتِيمًا تَحْتَ حَجْرِكَ لَمْ يَجَلَّ لَكَ أَنْ تَدْفَعَ إِلَيْهِ مَالَهُ، فَكَيْفَ أَمْرُ الْأُمَّةِ. فَوَثَبَ أَهْلُ حِمصَ عَلَى رُسُلِ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ فَطَرَدُوهُمْ عَنْهُمْ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ السُّفْيَانِيُّ: لَوْ قَدْ قَدِمْتُ دِمَشْقَ لَمْ يَخْتَلِفَ عَلَيَّ مِنْهُمْ اثْنَانِ. فَرَكِبُوا مَعَهُ، وَسَارُوا نَحْوَ دِمَشْقَ، وَقَدْ أَمَرُوا عَلَيْهِمُ السُّفْيَانِيَّ فَتَلَقَّاهُمْ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ قَدْ جَهَّزَهُمْ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَجَهَّزَ أَيْضًا عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ الْحُجَّاجِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ يَكُونُونَ عِنْدَ ثَنِيَّةِ الْعُقَابِ، وَجَهَّزَ هِشَامُ بْنُ مَصَادٍ

الْمَزِيَّ فِي أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ لِيَكُونُوا عَلَى عَقَبَةِ السُّلَمِيَّةِ، فَمَرَّ أَهْلُ حِمَصَ، وَتَرَكُوا جَيْشَ سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ ذَاتَ الْيَسَارِ وَعَدَّوْهُ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ سُلَيْمَانُ سَاقَ فِي طَلَبِهِمْ، فَلَحِقَهُمْ عِنْدَ السُّلَيْمَانِيَّةِ فَجَعَلُوا الزَّيْتُونَ عَنْ أَيْمَانِهِمُ وَالْجُبَلِ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَالْجَبَابَ مِنْ خَلْفِهِمْ، وَمَ يَبْقُ مَخْلَصٌ إِلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، فَاقْتَتَلُوا هُنَالِكَ فِي قِيَالَةِ الْحَرِّ قِتَالًا شَدِيدًا، فَقُتِلَ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْحَجَّاجِ بِمَنْ مَعَهُ، فَحَمَلَ عَلَى أَهْلِ حِمَصَ فَاخْتَرَقَ جَيْشَهُمْ، حَتَّى رَكِبَ التَّلَّ الَّذِي فِي وَسْطِهِمْ، وَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ، فَتَفَرَّقُوا وَاتَّبَعَهُمُ النَّاسُ، ثُمَّ تَنَادَوْا بِالْكَفِّ عَنْهُمْ عَلَى أَنْ يُبَايَعُوا لِيَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ وَأَسْرُوا مِنْهُمْ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ السُّفْيَانِيُّ، وَزَيْدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ثُمَّ ارْتَحَلَ سُلَيْمَانُ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ فَتَزَلَّ عَدْرَاءَ وَمَعَهُمُ الْجِيُوشُ وَأَشْرَافُ النَّاسِ، وَأَشْرَافُ أَهْلِ حِمَصَ مِنَ الْأَسَارِيِّ، وَمَنْ اسْتَجَابَ مِنْ غَيْرِ أَسْرٍ، بَعْدَ مَا قُتِلَ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةَ نَفْسٍ، فَدَخَلُوا بِهِمْ عَلَى يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَصَفَحَ عَنْهُمْ، وَأَطْلَقَ الْأَعْطِيَاتِ لَهُمْ، لَا سِيَّمَا لِأَشْرَافِهِمْ، وَوَلَّى عَلَيْهِمُ الَّذِي اخْتَارُوهُ، وَهُوَ مُعَاوِيَةُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ الْحُصَيْنِ وَطَابَتْ عَلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ، وَأَقَامُوا عِنْدَهُ بِدِمَشْقَ سَامِعِينَ لَهُ مُطِيعِينَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ بَايَعَ أَهْلُ فَلَسْطِينَ يَزِيدَ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي سُلَيْمَانَ كَانَتْ لَهُمْ أَمْلَاكٌ هُنَاكَ، وَكَانُوا يَنْزِلُونَهَا، وَكَانَ أَهْلُ فَلَسْطِينَ يُجِبُونَ مُجَاوَرَتَهُمْ، فَلَمَّا قُتِلَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ كَتَبَ سَعِيدُ بْنُ رُوحِ بْنِ زِنْبَاعٍ -

وَكَانَ رَئِيسَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ - إِلَى - يَزِيدَ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يَدْعُوهُ إِلَى الْمُبَايَعَةِ لَهُ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا بَلَغَ أَهْلَ الْأُرْدُنِّ خَبَرَهُمْ بَايَعُوا أَيْضًا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَمْرُوهُ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا انْتَهَى خَبَرَهُمْ إِلَى يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، بَعَثَ إِلَيْهِمُ الْجِيُوشَ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ فِي الدَّمَاشِقَةِ وَأَهْلِ حِمصَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ السُّفْيَانِيِّ، فَصَالَحَهُمْ أَهْلَ الْأُرْدُنِّ أَوْلًا وَرَجَعُوا إِلَى الطَّاعَةِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ فَلَسْطِينَ، وَكَتَبَ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَلايَةَ الْإِمْرَةِ بِالرَّمْلَةِ وَتِلْكَ النَّوَاحِي لِأَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْوَلِيدِ، وَاسْتَقَرَّتِ الْمَمَالِكُ هُنَالِكَ.

وَقَدْ حَظَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ النَّاسَ بِدِمَشْقَ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَا وَاللَّهِ مَا خَرَجْتُ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا، وَلَا حِرْصًا عَلَى الدُّنْيَا، وَلَا رَغْبَةً فِي الْمَلِكِ، وَمَا بِي إِطْرَاءُ نَفْسِي، إِلَيَّ لَطْلُومٌ لِنَفْسِي إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي، وَلَكِنِّي خَرَجْتُ غَضَبًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِدِينِهِ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا هُدِمَتْ مَعَالِمُ الدِّينِ، وَأُطْفِئَ نُورُ أَهْلِ التَّقْوَى، وَظَهَرَ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ، الْمُسْتَحِلُّ لِكُلِّ حُرْمَةٍ، وَالرَّاكِبُ كُلَّ بِدْعَةٍ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ مَا كَانَ يُصَدِّقُ بِالْكِتَابِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَإِنَّهُ لَا بِنُ عَمِّي فِي النَّسَبِ، وَكُفِّي فِي الْحَسَبِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَجَابِي مِنْ اللَّهِ فِي أَمْرِهِ، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَكْلِيَنِي إِلَى نَفْسِي، وَدَعَوْتُ إِلَى ذَلِكَ مَنْ أَجَابَنِي مِنْ أَهْلِ وَلايَتِي، وَسَعَيْتُ فِيهِ حَتَّى أَرَاخَ اللَّهُ مِنْهُ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ، بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ أَلَّا أَضَعَ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، وَلَا

لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ، وَلَا أَكْرِي نَهْرًا، وَلَا أَكْثِرُ مَالًا، وَلَا أُعْطِيهِ زَوْجَةً وَلَا وَلَدًا، وَلَا أَثْقُلُ مَالًا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ حَتَّى أَسُدَّ ثَعْرَ ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَحَصَاصَةَ أَهْلِهِ بِمَا يُعِينُهُمْ، فَإِنْ فَضَلَ فَضْلًا نَقَلْتُهُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي يَلِيهِ مِمَّنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ، وَلَا أَجْرِكُمْ فِي ثَعْرِكُمْ^١ فَافْتِنَكُمْ وَأَفْتِنَ أَهْلِيكُمْ، وَلَا أَغْلِقُ بَابِي دُونَكُمْ فَيَأْكُلُ قَوِيَّتَكُمْ ضَعِيفَكُمْ، وَلَا أَحْمِلَ عَلَى أَهْلِ جَزِيَّتِكُمْ مَا يُجْلِيهِمْ عَن بِلَادِهِمْ وَيَقْطَعُ نَسْلَهُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أُعْطِيَاتِكُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَأَرْزَاقَكُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ، حَتَّى تَسْتَدِرَّ الْمَعِيشَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ أَفْصَاهُمْ كَأَدْنَاهُمْ، فَإِن أَنَا وَفَيْتُ لَكُمْ بِمَا قُلْتُ، فَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَحُسْنُ الْمُوَارَرَةِ، وَإِن أَنَا لَمْ أَفِ لَكُمْ، فَلَكُمْ أَنْ تَخْلَعُونِي إِلَّا أَنْ تَسْتَيْبُونِي، فَإِن تَبْتُ قَبَلْتُمْ مِنِّي، وَإِن عَلِمْتُمْ أَحَدًا مِّنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ يُعْطِيكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ مَا أُعْطَيْتُكُمْ، فَأَرْدَيْتُمْ أَنْ تُبَايِعُوهُ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُبَايِعُهُ وَيَدْخُلُ فِي طَاعَتِهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ طَاعَةُ اللَّهِ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَأَطِيعُوهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَا أَطَاعَ، فَإِذَا عَصَى فَدَعَا إِلَى مَعْصِيَتِهِ فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يُعْصَى وَيُقْتَلَ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَزَلَ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ عَن إِمْرَةِ الْعِرَاقِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُ مِنَ الْحَقِّ عَلَى الْيَمَانِيَّةِ، وَهُمْ قَوْمُ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ حِينَ قُتِلَ

١ تَجَمَّرَ الْجَيْشُ: تَجَبَّسَ فِي نَعْرِ الْعَدُوِّ.

الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ، وَكَانَ قَدْ سَجَنَ غَالِبَ مَنْ بِيْلَادِهِ مِنْهُمْ، وَجَعَلَ الْأَرْضَادَ عَلَى الثُّغُورِ؛ خَوْفًا مِنْ جُنْدِ الْخُلَيْفَةِ، فَعَزَلَهُ عَنْهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَوَلَّى عَلَيْهَا مَنْصُورَ بْنَ جُمُهورٍ مَعَ بِلَادِ السِّنْدِ وَسِجِسْتَانَ وَحُرَّاسَانَ. وَقَدْ كَانَ مَنْصُورُ بْنُ جُمُهورٍ أَعْرَابِيًّا جِلْفًا، وَكَانَ يَدِينُ بِمَذْهَبِ الْغَيْلَانِيَّةِ الْقَدْرِيَّةِ وَلَكِنْ كَانَتْ لَهُ آثَارٌ حَسَنَةٌ، وَعِنَاءٌ كَثِيرٌ فِي مَقْتَلِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فَحَطِي بِذَلِكَ عِنْدَ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمَّا فَرَعَ النَّاسُ مِنْ مَقْتَلِ الْوَلِيدِ ذَهَبَ مِنْ قُوْرِهِ إِلَى الْعِرَاقِ فَأَخَذَ الْبَيْعَةَ مِنْ أَهْلِهَا لِيَزِيدَ وَقَرَّرَ بِالْأَقَالِيمِ نُورًا وَعَمَلًا، وَكَرَّرَ رَاجِعًا فِي أَوَاخِرِ رَمَضَانَ؛ فَلِذَلِكَ وَوَلَاهُ الْخُلَيْفَةُ مَا وَوَلَاهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ فَإِنَّهُ فَرَّ مِنَ الْعِرَاقِ فَلَحِقَ بِيْلَادِ الْبَلْقَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ فَأَخْضَرُوهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ - وَكَانَ كَبِيرَ اللَّحْيَةِ، رُبَّمَا كَانَتْ تُجَاوِزُ سَرَّتَهُ، وَكَانَ قَصِيرَ الْقَامَةِ - فَوَجَّهَهُ وَأَنَّبَهُ، ثُمَّ سَجَنَهُ، وَأَمَرَ بِاسْتِخْلَاصِ الْخُفُوقِ مِنْهُ، وَلَمَّا انْتَهَى مَنْصُورُ بْنُ جُمُهورٍ إِلَى الْعِرَاقِ قَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِمْ فِي كَيْفِيَّةِ مَقْتَلِ الْوَلِيدِ وَأَنَّ اللَّهَ أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيْرٍ مُقْتَدِرٍ، وَأَنَّهُ قَدْ وَوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْصُورَ بْنَ جُمُهورٍ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ شَجَاعَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالْحَرْبِ، فَبَايَعَ أَهْلُ الْعِرَاقِ لِيَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ السِّنْدِ وَسِجِسْتَانَ.

وَأَمَّا نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ نَائِبُ حُرَّاسَانَ فَإِنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِمَنْصُورِ بْنِ جُمُهورٍ وَأَبَى أَنْ يَنْقَادَ لِأَوَامِرِهِ، وَقَدْ كَانَ جَهَّزَ هَدَايَا كَثِيرَةً لِلوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فَاسْتَمَرَّتْ لَهُ.

مروان الحمار يطلب بدم الوليد الفاسق

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَتَبَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُلقَّبُ بِالْحِمَارِ كِتَابًا إِلَى العَمْرِ بْنِ يَزِيدَ أَخِي الوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ، يُحْتِثُهُ عَلَى الْقِيَامِ بِطَلْبِ دَمِ أَخِيهِ الوَلِيدِ، وَكَانَ مَرْوَانُ يَوْمَئِذٍ أَمِيرًا عَلَى أَدْرَبِجَانَ وَإِرْمِينِيَّةَ.

ثُمَّ إِنَّ يَزِيدَ بْنَ الوَلِيدِ عَزَلَ مَنْصُورَ بْنَ جُمُهورٍ عَنِ وِلَايَةِ العِرَاقِ وَوَلَّى عَلَيْهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَهْلَ العِرَاقِ يُحِبُّونَ أَبَاكَ فَقَدْ وَلَّيْتُكَهَا. وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ مِنْهَا، وَكَتَبَ لَهُ إِلَى أُمَرَاءِ الشَّامِ الَّذِينَ بِالْعِرَاقِ يُوصِيهِمْ بِهِ؛ حَشِيَّةً أَنْ يَمْتَنِعَ مَنْصُورُ بْنُ جُمُهورٍ مِنْ تَسْلِيمِ البِلَادِ إِلَيْهِ، فَسَلَّمَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ وَأَطَاعَ.

وَكَتَبَ الخَلِيفَةُ إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ بِوِلَايَةِ حُرَّاسَانَ مُسْتَقْللاً بِهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الكَرْمَانِيُّ؛ لِأَنَّهُ وُلِدَ بِكَرْمَانَ، وَهُوَ أَبُو عَلِيٍّ جَدِيدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ شَيْبِ المَعْنِيِّ، وَاتَّبَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ بِحَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يَشْهَدُ الجُمُعَةَ فِي نَحْوِ مِنْ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَكَانَ يُسَلِّمُ عَلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَلَا يَجْلِسُ عِنْدَهُ، فَتَحَيَّرَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ وَأَمْرَاؤُهُ فِيمَا يَصْنَعُ بِهِ، فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ بَعْدَ جَهْدٍ عَلَى سَجْنِهِ، فَسَجَنَ

قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَجَمٌّ غَفِيرٌ، وَرَكِبُوا مَعَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ نَصْرًا مَنِ قَاتَلَهُمْ وَقَهَرَهُمْ وَكَسَرَهُمْ.

وَاسْتَحَفَّ جَمَاعَاتٌ مِنْ أَهْلِ حُرَّاسَانَ بِنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَتَلَّاشُوا أَمْرَهُ وَحُرْمَتَهُ، وَأَحْوَا عَلَيْهِ فِي أُعْطِيَاتِهِمْ، وَأَسْمَعُوهُ غَلِيظًا مَا يَكْرَهُ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ بِسِفَارَةِ سَلْمِ بْنِ أَحْوَزٍ أَدَّى ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَحَرَجَتِ الْبَاعَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ وَهُوَ يَخْطُبُ، وَانْفَضَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُمْ نَصْرٌ فِيمَا قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ نَشَرْتُكُمْ وَطَوَيْتُكُمْ، وَطَوَيْتُكُمْ وَنَشَرْتُكُمْ، فَمَا عِنْدِي مِنْكُمْ عَشْرَةٌ عَلَى دِينٍ، فَاتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ اِخْتَلَفَ فِيكُمْ سَيْفَانِ لَيَتَمَنَّيَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَنْ يَنْخَلِعَ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَلَمْ يَكُنْ رَأَهَا. ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ النَّابِغَةِ:

فَإِنْ يَغْلِبُ شَقَاؤُكُمْ عَلَيْكُمْ فَإِنِّي فِي صَلَاحِكُمْ سَعِيْتُ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَخَذَ الْخَلِيفَةُ الْبَيْعَةَ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَعَبْرَهُمْ بِوِلَايَةِ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ لِأَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيمَ، لِعَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْهَا، وَقَدْ حَرَّضَهُ عَلَى ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْأَكَابِرِ وَالْوُزَرَءِ.

وَفِيهَا عَزَلَ يَزِيدُ عَنْ إِمْرَةِ الْحِجَازِ يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ التَّقْفِيَّ وَوَلَّى عَلَيْهَا عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقَدِمَهَا فِي أَوَاخِرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْهَا.

وَفِيهَا أَظْهَرَ مَرْوَانَ الْحَمَارُ الْخِلَافَ لِيَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ وَخَرَجَ مِنْ بِلَادِ إِزْمِينِيَّةَ يُظْهِرُ أَنَّهُ يَطْلُبُ بَدَمَ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى حَرَّانَ أَظْهَرَ الْمُؤَافَقَةَ، وَبَايَعَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ.

وَفِيهَا أَرْسَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَبَا هَاشِمٍ بُكَيْرَ بْنَ مَاهَانَ إِلَى أَرْضِ خُرَّاسَانَ، فَاجْتَمَعَ بِجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ خُرَّاسَانَ بِمَرْوَى، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْإِمَامِ إِلَيْهِمْ وَوَصِيَّتَهُ، فَتَلَّقَوْا ذَلِكَ بِالْقَبُولِ، وَأَرْسَلُوا مَعَهُ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ النَّفَقَاتِ.

وَفَاةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ

وَفِي سَلْخِ ذِي الْقَعْدَةِ، كَانَتْ وَفَاةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهَذِهِ تَرْجَمَتُهُ:

هُوَ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ، أَبُو خَالِدٍ الْأُمَوِيُّ، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ أَوَّلَ مَا بُويعَ بِهَا فِي قَرْيَةِ الْمُرَّةِ ثُمَّ دَخَلَ دِمَشْقَ فَعَلَبَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ الْجَبِيُوشَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فَقَتَلَهُ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَى الْخِلَافَةِ فِي أَوَاخِرِ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَكَانَ يُقَبَّلُ بِالنَّقِصِ؛ لِئِنْقَصَهُ النَّاسَ الْعَشْرَاتِ الَّتِي زَادَهُمْ إِيَّاهَا الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ، وَقِيلَ: إِنَّمَا سَمَّاهُ بِذَلِكَ مَرْوَانُ بْنُ

مُحَمَّدِ الْمُلقَّبِ بِالْحِمَارِ^١. فَكَانَ يُقُولُ: النَّاقِصُ بْنُ الْوَلِيدِ. وَأُمُّهُ شَاهُ فَرْنَدِ بِنْتُ
فَيْرُوزَ بْنِ كِسْرَى كِسْرَوِيَّةً. وَهُوَ الْقَائِلُ:

أَنَا ابْنُ كِسْرَى وَأَبِي مَرْوَانَ وَقَيْصِرُ جَدِّي وَجَدُّ حَاقَانَ

وَأَمَّا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ جَدَّهُ فَيْرُوزَ وَأُمُّ أُمِّهِ بِنْتُ قَيْصَرَ وَأُمُّ شِيرَوِيَّةِ هِيَ بِنْتُ
حَاقَانَ مَلِكُ التُّرُكِ وَكَانَتْ قَدْ سَبَّاهَا قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ هِيَ وَأُخْتًا لَهَا، فَبَعَثَهُمَا
إِلَى الْحَجَّاجِ فَأَرْسَلَ بِهِمَا إِلَى الْوَلِيدِ وَاسْتَبَقَى عِنْدَهُ الْأُخْرَى. فَوَلَدَتْ هَذِهِ
لِلْوَلِيدِ يَزِيدَ النَّاقِصَ، وَكَانَ مَوْلَدُهُ فِي سَنَةِ تِسْعِينَ، وَقِيلَ: فِي سَنَةِ سِتِّ
وَتِسْعِينَ.

وَقَدْ رَوَى عَنْهُ الْأَوْزَاعِيُّ مَسْأَلَةً فِي السَّلَمِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا كَيْفِيَّةَ وَلَايَتِهِ فِيمَا سَلَفَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَأَنَّهُ كَانَ عَادِلًا دَيِّتًا، مُحِبًّا
لِلْخَيْرِ، مُبْغِضًا لِلشَّرِّ، قَاصِدًا لِلْحَقِّ.

وَقَدْ خَرَجَ يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى صَلَاةِ الْعِيدِ بَيْنَ صَفَّيْنِ مِنَ
الْحَيْلَةِ، وَالسُّيُوفُ مُسَلَّةٌ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَرَجَعَ مِنَ الْمُصَلَّى إِلَى الْخِصْرَاءِ
كَذَلِكَ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا، يُقَالُ فِي الْمَثَلِ: الْأَشْجُ وَالنَّاقِصُ أَعْدَلَا بَنِي
مَرْوَانَ. وَالْمُرَادُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهَذَا.

^١ يعني سخريَّةً من اسمه يزيد، فناقص الاسم وسماه الناقص.

قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ النَّاقِصُ: يَا بَنِي أُمَيَّةَ إِيَّاكُمْ وَالْغِنَاءَ، فَإِنَّهُ يُنْقِصُ الْحَيَاءَ، وَيَزِيدُ فِي الشَّهْوَةِ، وَيَهْدِمُ الْمُرُوَّةَ، وَإِنَّهُ لَيَنْتُوبُ عَنِ الْحَمْرِ، وَيَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ الْمُسْكِرُ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ فَاعِلِينَ فَجَنِّبُوهُ النِّسَاءَ فَإِنَّ الْغِنَاءَ ذَاعِيَةُ الزَّيْنِ.

وَآخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ النَّاقِصُ: وَاحْسَرْتَاهُ! وَأَسْفَاهُ. وَكَانَ نَقَشَ حَاتِمِهِ: الْعِظْمَةُ لِلَّهِ.

وَكَانَتْ وَقَاتُهُ بِالْحَضْرَاءِ مِنْ طَاعُونٍ أَصَابَهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ مَضِينٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ. وَأَكْثَرَ مَا قِيلَ فِي عُمُرِهِ سِتُّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً. وَقِيلَ: ثَلَاثُونَ سَنَةً. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَتْ مُدَّةُ وَلَايَتِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ عَلَى الْأَشْهُرِ. وَقِيلَ: حَمْسَةُ أَشْهُرٍ وَأَيَّامٍ. وَصَلَّى عَلَيْهِ أَحْوَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ كَثِيرٍ بْنُ عُفَيْرٍ أَنَّهُ دُفِنَ بَيْنَ بَابِ الْجَابِيَّةِ وَبَابِ الصَّغِيرِ. وَكَانَ أَسْمَرَ نَحِيفًا، حَسَنَ الْجِسْمِ، حَسَنَ الْوَجْهِ.

كَانَ يَزِيدُ أَسْمَرَ طَوِيلًا، صَغِيرَ الرَّأْسِ، بِوَجْهِهِ حَالٌ، وَكَانَ جَمِيلًا، فِي فَمِهِ بَعْضُ السِّعَةِ، وَلَيْسَ بِالْمُفْرِطِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ نَائِبُ الْحِجَازِ وَأَحْوَهُ عَبْدُ اللَّهِ نَائِبُ الْعِرَاقِ وَنَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ عَلَى نِيَابَةِ حُرَّاسَانَ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٌ، وَاسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَالْخَلِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ
 بَنِي الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِوَصِيَّةِ أَخِيهِ يَزِيدَ النَّاقِصِ إِلَيْهِ، وَمُبَايَعَةَ الْأَمْرَاءِ لَهُ
 بِذَلِكَ، وَجَمِيعِ أَهْلِ الشَّامِ، إِلَّا أَهْلَ حِمَصَ فَلَمْ يُبَايِعُوهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَرْوَانَ
 بْنَ مُحَمَّدٍ الْمُكَلَّبَ بِالْحِمَارِ كَانَ نَائِبًا بِأَذْرَبِجَانَ وَإِرمِينِيَّةَ - وَتِلْكَ كَانَتْ لِأَيِّهِ
 مِنْ قَبْلِهِ - وَكَانَ نَقَمَ عَلَى يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ فِي قَتْلِهِ الْوَلِيدَ بْنَ يَزِيدَ، وَأَقْبَلَ فِي
 طَلَبِ دَمِ الْوَلِيدِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى حَرَّانَ أَنَابَ وَبَايَعَ يَزِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، فَلَمْ يَلْبَثْ
 إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى بَلَغَهُ مَوْتُهُ، فَأَقْبَلَ فِي أَهْلِ الْجَزِيرَةِ حَتَّى وَصَلَ قِنَسَرِينَ، فَحَاصَرَ
 أَهْلَهَا، فَنَزَلُوا عَلَى طَاعَتِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى حِمَصَ وَعَلَيْهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْحَجَّاجِ
 مِنْ جِهَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْوَلِيدِ يُحَاصِرُهُمْ حَتَّى يُبَايِعُوا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ
 الْوَلِيدِ، وَقَدْ أَصْرُوا عَلَى عَدَمِ مُبَايَعَتِهِ، فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ الْعَزِيزِ قُرْبَ مَرْوَانَ بْنَ
 مُحَمَّدٍ تَرَحَّلَ عَنْهَا، وَقَدِمَ مَرْوَانَ إِلَيْهَا، فَبَايَعُوهُ وَسَارُوا مَعَهُ قَاصِدِينَ دِمَشْقَ،
 وَمَعَهُمْ جُنْدُ الْجَزِيرَةِ وَجُنْدُ قِنَسَرِينَ، فَتَوَجَّهَ مَرْوَانَ إِلَى دِمَشْقَ فِي ثَمَانِينَ أَلْفًا،
 وَقَدْ بَعَثَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْوَلِيدِ سُلَيْمَانَ بْنَ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي مِائَةٍ وَعِشْرِينَ
 أَلْفًا، فَالْتَقَى الْجَيْشَانِ عِنْدَ عَيْنِ الْجَرِّ مِنَ الْبُقَاعِ، فَدَعَاَهُمْ مَرْوَانَ إِلَى الْكُفِّ
 عَنِ الْقِتَالِ، وَأَنْ يُحْلُوا عَنِ ابْنِي الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ - وَهُمَا الْحَكَمُ، وَعُثْمَانُ -
 اللَّذَيْنِ كَانَا قَدْ أَخَذَ الْعَهْدَ لَهُمَا، وَكَانَ يَزِيدُ قَدْ سَجَنَهُمَا بِدِمَشْقَ فَأَبَوْا عَلَيْهِ
 ذَلِكَ، فَأَقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا مِنْ حِينِ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ إِلَى الْعَصْرِ، وَبَعَثَ مَرْوَانَ

سَرِيَّةً تَأْتِي جَيْشَ سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَتَمَّ لَهُمْ مَا أَرَادُوهُ، وَأَقْبَلُوا مِنْ وَرَائِهِمْ يُكَبِّرُونَ، وَحَمَلَ الآخَرُونَ مِنْ تَلْقَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، فَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ فِي أَصْحَابِ سُلَيْمَانَ فَقَتَلَ مِنْهُمْ أَهْلُ حِمَصَ حَلْفًا كَثِيرًا، وَاسْتَبِيحَ عَسْكَرَهُمْ.

وَكَانَ مِقْدَارُ مَا قُتِلَ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ أَوْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَأَسِرَ مِنْهُمْ مِثْلُهُمْ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَرْوَانَ الْبَيْعَةَ لِلْعُلَمَاءِ ابْنِ الْوَلِيدِ: الْحَكَمَ، وَعُثْمَانَ، وَأَطْلَقَهُمْ كُلَّهُمْ سِوَى رَجُلَيْنِ، وَهُمَا يَزِيدُ بْنُ الْعَقَّارِ، وَالْوَلِيدُ بْنُ مَصَادِ الْكَلْبِيِّانِ، فَضَرَبَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسِّيَاطِ وَحَبَسَهُمَا، فَمَاتَا فِي السِّجْنِ؛ لِأَنَّهُمَا كَانَا مِمَّنْ بَاشَرَ قَتْلَ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ حِينَ قُتِلَ، وَأَمَّا سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ وَبَقِيَّةُ أَصْحَابِهِ فَإِنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا مُنْهَزِمِينَ، فَمَا أَصْبَحَ لَهُمُ الصُّبْحُ إِلَّا بِدِمَشْقَ فَأَحْبَرُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْوَلِيدِ بِمَا وَقَعَ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُمْ رُءُوسُ الْأُمَرَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُمْ: عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْحَجَّاجِ، وَيَزِيدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسْرِيِّ، وَأَبُو عِلَاقَةَ السَّكْسَكِيُّ، وَالْأَصْبَعُ بْنُ ذُوَالَةَ الْكَلْبِيُّ وَنَظَرُوا لَهُمْ، عَلَى أَنْ يَعْمِدُوا إِلَى قَتْلِ ابْنِ الْوَلِيدِ: الْحَكَمَ، وَعُثْمَانَ؛ حَشِيَّةً أَنْ يَلِيَا الْخِلَافَةَ فَيُهْلِكَا مَنْ عَادَاهُمَا وَقَتَلَ أَبَاهُمَا، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمَا يَزِيدَ بْنَ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسْرِيَّ فَعَمَدَ إِلَى السِّجْنِ وَفِيهِ الْحَكَمُ وَعُثْمَانُ، ابْنَا الْوَلِيدِ وَقَدْ بَلَغَا، وَيُقَالُ: وَوُلِدَ لِأَحَدِهِمَا وَوَلَدٌ. فَشَدَّحَهُمَا بِالْعَمْدِ، وَقَتَلَ يُوسُفَ بْنَ عَمَرَ وَكَانَ مَسْجُونًا مَعَهُمَا، وَكَانَ فِي سِجْنِهِمَا أَيْضًا أَبُو مُحَمَّدٍ السُّفْيَانِيُّ فَهَرَبَ فَدَخَلَ فِي بَيْتٍ دَاخِلِ السِّجْنِ، وَجَعَلَ وَرَاءَ الْبَابِ رَدْمًا، فَحَاصَرُوهُ فَاْمْتَنَعَ، فَأَتَوْا بِنَارٍ

لِيَحْرِقُوا الْبَابَ، ثُمَّ اشْتَعَلُوا عَنْ ذَلِكَ بِقُدُومِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ إِلَى دِمَشْقَ فِي طَلَبِ الْمُتَنَهِّزِينَ.

وَأَيَّةُ مَرْوَانَ الْحِمَارِ الْخِلَافَةَ وَعَزَلَهُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْوَلِيدِ

لَمَّا أَقْبَلَ مَرْوَانُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنُودِ مِنْ عَيْنِ الْجَرِّ وَاقْتَرَبَ مِنْ دِمَشْقَ وَقَدِ انْهَزَمَ أَهْلُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْأَمْسِ، هَرَبَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَمَدُ سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ، فَفَتَحَهُ وَأَنْفَقَ مَا فِيهِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْجِيُوشِ، وَثَارَ مَوَالِي الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ إِلَى دَارِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْحَجَّاجِ فَقَتَلُوهُ فِيهَا وَأَنْتَهَبُوهَا، وَنَبَشُوا قَبْرَ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ وَصَلَبُوهُ عَلَى بَابِ الْجَائِيَةِ، وَدَخَلَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ دِمَشْقَ فَنَزَلَ فِي أَعَالِيهَا، وَأُتِيَ بِالْعَلَامِينَ الْحَكَمِ، وَعُثْمَانَ مَقْتُولِينَ، وَكَذَلِكَ يُوسُفُ بْنُ عَمَرَ فَأَمَرَ بِهِمْ فَدُفِنُوا، وَأُتِيَ بِأَبِي مُحَمَّدٍ السُّفْيَانِيِّ وَهُوَ فِي كُبُورِهِ، فَسَلَّمَ عَلَى مَرْوَانَ بِالْخِلَافَةِ، فَقَالَ مَرْوَانُ: مَهْ! فَقَالَ: إِنَّ هَذَيْنِ الْعَلَامِينَ جَعَلَاهَا لَكَ مِنْ بَعْدِهِمَا.

ثُمَّ قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ السُّفْيَانِيُّ لِمَرْوَانَ: ابْسُطْ يَدَكَ. فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَهُ بِالْخِلَافَةِ مُعَاوِيَةُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ حُصَيْنِ بْنِ مُمَيَّرٍ، ثُمَّ بَايَعَهُ رُؤُوسُ أَهْلِ الشَّامِ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ وَحِصَصَ وَغَيْرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مَرْوَانُ: اخْتَارُوا أُمَّرَاءَ نُؤَلِّيهِمْ عَلَيْكُمْ. فَاخْتَارَ أَهْلُ كُلِّ بَلَدٍ أَمِيرًا، فَوَلَّاهُ عَلَيْهِمْ، فَعَلَى دِمَشْقَ زَامَلُ بْنُ عَمْرِو الْحُبْرَائِيِّ، وَعَلَى

حِصَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَجَرَةَ الْكِنْدِيِّ، وَعَلَى الْأُرْدُنِّ الْوَلِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ مَرْوَانَ، وَعَلَى فَلَسْطِينَ ثَابِتُ بْنُ نُعَيْمِ الْجَذَامِيِّ.

وَلَمَّا اسْتَوْسَقَ الشَّامُ لِمَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ رَجَعَ إِلَى حِرَّانَ، وَعِنْدَ ذَلِكَ طَلَبَ مِنْهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ الَّذِي كَانَ خَلِيفَةً وَابْنُ عَمِّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامِ الْأَمَانِ، فَأَمَنَهُمَا، وَقَدِمَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ فِي أَهْلِ تَدْمُرَ فَبَايَعُوهُ.

ثُمَّ لَمَّا اسْتَقَرَّ مَرْوَانُ بِحِرَّانَ أَقَامَ فِيهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، فَانْتَقَصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَنْبَرَمَ لَهُ مِنْ مُبَايَعَةِ أَهْلِ الشَّامِ، فَنَقَصَ أَهْلُ حِمَصَ وَغَيْرُهُمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى حِمَصَ جَيْشًا، فَوَافَوْهُمُ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَقَدِمَ مَرْوَانُ إِلَيْهَا بَعْدَ الْفِطْرِ يَوْمَيْنِ، فَنَارَهَا مَرْوَانُ فِي جُنُودٍ كَثِيرَةٍ، وَمَعَهُ يَوْمئِذٍ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمَخْلُوعُ وَسُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ وَهُمَا عِنْدَهُ مُكْرَمَانِ خِصِيصَانِ لَا يَجْلِسُ إِلَّا بِيَمَانِهِمَا وَقَتَ الْعَدَاءِ وَالْعِشَاءِ، فَلَمَّا حَاصَرَ حِمَصَ نَادَوْهُ: إِنَّا عَلَى طَاعَتِكَ. فَقَالَ: افْتَحُوا بَابَ الْبَلَدِ. فَفَتَحُوهُ، ثُمَّ كَانَ مِنْهُمْ بَعْضُ الْقِتَالِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ نَحْوَ الْخَمْسِمِائَةِ أَوْ السِّتِّمِائَةِ. فَأَمَرَ بِهِمْ فَصَلَبُوا حَوْلَ الْبَلَدِ، وَأَمَرَ بِهَدْمِ بَعْضِ سُورِهَا.

وَأَمَّا أَهْلُ دِمَشْقَ فَإِنَّ أَهْلَ الْعُوْطَةِ حَاصَرُوا أَمِيرَهُمْ زَامَلَ بْنَ عَمْرِوٍ وَوَلَّوْا عَلَيْهِمْ يَزِيدَ بْنَ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ وَثَبَتَ فِي الْمَدِينَةِ نَائِبَهَا، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَرْوَانُ مِنْ حِمَصَ عَسْكَرًا نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ، فَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْ دِمَشْقَ حَرَجَ النَّائِبُ فِيْمَنْ مَعَهُ، وَالتَّقُوا هُمْ وَالْعَسْكَرُ بِأَهْلِ الْعُوْطَةِ فَهَزَمُوهُمْ وَحَرَقُوا الْمِرَّةَ وَفَرَى أُخْرَى مَعَهَا، وَاسْتَجَارَ يَزِيدُ بْنُ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ، وَأَبُو عِلَافَةَ الْكَلْبِيُّ بِرَجُلٍ

مِنْ أَهْلِ الْمِزَّةِ مِنْ لَحْمٍ فَدَلَّ عَلَيْهِمْ زَامِلُ بْنُ عَمْرٍو فَأُتِيَ بِهِمَا، فَمَتَلَهُمَا وَبَعَثَ بِرَأْسَيْهِمَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَرْوَانَ وَهُوَ بِجَمْعَصَ.

وَحَرَجَ ثَابِتُ بْنُ نُعَيْمٍ فِي أَهْلِ فَلَسْطِينَ عَلَى الْخَلِيفَةِ، وَأَتَوْا طَبْرِيَّةَ فَحَاصَرُوهَا، فَبَعَثَ الْخَلِيفَةُ إِلَيْهِمْ جَيْشًا، فَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا وَاسْتَبَاحُوا عَسْكَرَهُمْ، وَفَرَّ ثَابِتُ بْنُ نُعَيْمٍ هَارِبًا إِلَى فَلَسْطِينَ فَاتَّبَعَهُ الْأَمِيرُ أَبُو الْوَرْدِ فَهَزَمَهُ ثَانِيَةً، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَأَسَرَ أَبُو الْوَرْدِ ثَلَاثَةً مِنْ أَوْلَادِهِ، فَبَعَثَ بِهِمْ إِلَى الْخَلِيفَةِ وَهُمْ جَرْحَى، فَأَمَرَ بِمُدَاوَاتِهِمْ، ثُمَّ كَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نَائِبِ فَلَسْطِينَ وَهُوَ الرُّمَاحِسُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْكِنَانِيِّ يَأْمُرُهُ بِطَلْبِ ثَابِتِ بْنِ نُعَيْمٍ حَيْثُ كَانَ، فَمَا زَالَ يَتَلَطَّفُ بِهِ حَتَّى أَحْذَهُ أُسِيرًا، وَذَلِكَ بَعْدَ شَهْرَيْنِ، فَبَعَثَهُ إِلَى الْخَلِيفَةِ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَكَذَلِكَ جَمَاعَةٌ كَانُوا مَعَهُ، وَبَعَثَ بِهِمْ إِلَى دِمَشْقَ، فَأُقِيمُوا عَلَى بَابِ مَسْجِدِهَا؛ لِأَنَّ أَهْلَ دِمَشْقَ كَانُوا قَدْ أَرْجَفُوا بِأَنَّ ثَابِتَ بْنَ نُعَيْمٍ ذَهَبَ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ فَتَعَلَّبَ عَلَيْهَا، وَقَتَلَ نَائِبَ مَرْوَانَ فِيهَا، فَأَرْسَلَ بِهِ إِلَيْهِمْ مَقْطُوعَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ؛ لِيَعْرِفُوا بُطْلَانَ مَا كَانُوا بِهِ أَرْجَفُوا.

مروان الحمار يعقد ولاية العهد لولديه

وَأَقَامَ الْخَلِيفَةُ مَرْوَانَ بِدِيرِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُدَّةً حَتَّى بَايَعَ لِابْنَيْهِ عُبَيْدِ اللَّهِ ثُمَّ عُبْدِ اللَّهِ وَرَوَّجَهُمَا ابْنَتِي هِشَامٍ، وَهُمَا أُمَّ هِشَامٍ وَعَائِشَةُ، وَكَانَ مَجْمَعًا حَافِلًا، وَعَقْدًا هَائِلًا، وَبَيْعَةً عَامَّةً، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ تَامَّةً، وَقَدِمَ الْخَلِيفَةُ

إِلَى دِمَشْقَ وَأَمَرَ بِثَابِتٍ وَأَصْحَابِهِ بَعْدَ مَا كَانُوا قُطِعُوا أَنْ يُصَلُّوا عَلَى أَبْوَابِ
الْبَلَدِ، وَلَمْ يَسْتَبِقِ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا وَاحِدًا، وَهُوَ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ الْكَلْبِيُّ وَكَانَ
عِنْدَهُ - فِيمَا زَعَمَ - عِلْمٌ بِوَدَائِعِ كَانَ ثَابِتُ بْنُ نَعِيمٍ أَوْدَعَهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ.

وَاسْتَوْسَقَ أَمْرُ الشَّامِ لِمَرْوَانَ مَا عَدَا تَدْمُرَ؛ فَسَارَ مِنْ دِمَشْقَ فَنَزَلَ الْقَسْطَلَ
مِنْ أَرْضِ حِمصَ، وَبَلَغَهُ أَنَّ أَهْلَ تَدْمُرَ قَدْ عَوَّزُوا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمِيَاهِ،
فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهِمْ، وَمَعَهُ جَحَافِلُ مِنَ الْجِيُوشِ، فَتَكَلَّمَ الْأَبْرَشُ بْنُ الْوَلِيدِ -
وَكَانُوا قَوْمَهُ - وَسَأَلَ مِنْهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَوْلًا لِيُعْذِرَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ عَمْرُو بْنُ
الْوَلِيدِ أَخَا الْأَبْرَشِ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَلَا سَمِعُوا لَهُ قَوْلًا، فَرَجَعَ،
فَهَمَّ الْحَلِيفَةُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمُ الْجُنُودَ، فَسَأَلَهُ الْأَبْرَشُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ،
فَأَرْسَلَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْأَبْرَشُ كَلَّمَهُمْ وَاسْتَمَاهُمُ إِلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،
فَأَجَابَهُ أَكْثَرُهُمْ، وَامْتَنَعَ بَعْضُهُمْ، فَكَتَبَ إِلَى الْحَلِيفَةِ يُعَلِّمُهُ بِمَا وَقَعَ، فَأَمَرَهُ
الْحَلِيفَةُ أَنْ يَهْدِمَ بَعْضَ سُورِهَا، وَأَنْ يُقْبَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ، فَفَعَلَ، فَلَمَّا
حَضَرُوا عِنْدَهُ سَارَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنُودِ نَحْوَ الرُّصَافَةِ عَلَى طَرِيقِ الْبَرِّيَّةِ، وَمَعَهُ
مِنَ الرَّءُوسِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمَحْلُوعُ وَسُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ وَجَمَاعَةٌ مِنْ وَالدِ
الْوَلِيدِ، وَبِرِيدِ، وَسُلَيْمَانَ فَأَقَامَ بِالرُّصَافَةِ أَيَّامًا، ثُمَّ شَحَصَ إِلَى الرَّقَّةِ فَاسْتَأْذَنَهُ
سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ أَنْ يُقِيمَ هُنَاكَ أَيَّامًا؛ لِيَسْتَرِيحَ وَيُجِمَّ ظَهْرَهُ، فَأَذِنَ لَهُ، وَانْحَدَرَ
مَرْوَانُ فَنَزَلَ عِنْدَ وَاسِطَ عَلَى شَطِّ الْفُرَاتِ فَأَقَامَ ثَلَاثًا، ثُمَّ مَضَى إِلَى قَرْقِيسِيَا

وَابْنُ هُبَيْرَةَ بِهَا؛ لِيَبْعَهُهُ إِلَى الْعِرَاقِ لِمُحَارَبَةِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسِ الشَّيْبَانِيِّ الْخَارِجِيِّ الْحُرُورِيِّ، وَاشْتَعَلَ مَرْوَانَ بِهَذَا الْأَمْرِ.

خروج سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى مَرْوَانَ

وَأَقْبَلَ عَشْرَةَ آلَافٍ فَارِسٍ مِمَّنْ كَانَ مَرْوَانُ قَدْ بَعَثَهُمْ فِي بَعْضِ السَّرَايَا، فَاجْتَاؤُوا بِالرُّصَافَةِ وَفِيهَا سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ اسْتَأْذَنَ الْخَلِيفَةَ فِي الْمَقَامِ هُنَاكَ لِلرَّاحَةِ، فَدَعَاهُ إِلَى الْبَيْعَةِ لَهُ وَخَلَعَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَمُحَارِبَتِهِ، فَاسْتَرْزَلَهُ الشَّيْطَانُ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَخَلَعَ مَرْوَانَ وَسَارَ بِالْجَيْشِ إِلَى قَنْسَرِينَ، وَكَاتَبَ أَهْلَ الشَّامِ، فَأَنْفَضُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَكَتَبَ سُلَيْمَانُ إِلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ الَّذِي جَهَّزَهُ مَرْوَانُ لِقِتَالِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسِ الْخَارِجِيِّ يَأْمُرُهُ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهِ، فَالْتَفَّ عَلَيْهِ نَحْوُ مَنْ سَبْعِينَ أَلْفًا، وَبَعَثَ مَرْوَانُ إِلَيْهِمْ عَيْسَى بْنَ مُسْلِمٍ فِي نَحْوِ مَنْ سَبْعِينَ أَلْفًا أَيْضًا، فَالْتَقَوْا بِأَرْضِ قَنْسَرِينَ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَجَاءَ مَرْوَانُ وَالنَّاسُ فِي الْحَرْبِ، فَقَاتَلَهُمْ أَشَدَّ الْقِتَالِ فَهَزَمَهُمْ، وَقَتَلَ يَوْمَئِذٍ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ نَيْفًا عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَذَهَبَ سُلَيْمَانُ مَفْلُولًا، فَأَتَى حِمَصَ، فَالْتَفَّ عَلَيْهِ مَنْ أَهْرَمَ مِنْ جَيْشِهِ، فَعَسَكَرَ بِهِمْ فِيهَا، وَبَنَى مَا كَانَ مَرْوَانُ هَدَمَ مِنْ سُورِهَا، فَجَاءَهُمْ مَرْوَانُ فَحَاصَرَهُمْ بِهَا، وَنَصَبَ عَلَيْهِمْ نَيْفًا وَثَمَانِينَ مَنَجْنِيقًا، فَمَكَثَ كَذَلِكَ ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ يَرْمِيهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَيَخْرُجُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيُقَاتِلُونَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ.

هَذَا وَقَدْ ذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْجَيْشِ مَعَهُ إِلَى تَدْمُرَ وَقَدْ اعْتَرَضُوا جَيْشَ مَرْوَانَ فِي الطَّرِيقِ، وَهَمُّوا بِالْفَتْكِ بِهِ وَأَنْ يُبَيِّتُوهُ فَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ ذَلِكَ، وَهَيَّأَ لَهُمْ مَرْوَانٌ فُقَاتَهُمْ، فَقَتَلُوا مِنْ جَيْشِهِ قَرِيبًا مِنْ سِتَّةِ آلَافٍ وَهُمْ تِسْعُمِائَةٍ، وَأَنْصَرَفُوا إِلَى تَدْمُرَ وَلَزِمَ مَرْوَانٌ مُحَاصِرَةَ حِمَصَ كَمَالَ عَشْرَةِ أَشْهُرٍ، فَلَمَّا تَتَابَعَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَلَزِمَهُمُ الدُّلُّ، سَأَلُوهُ أَنْ يُؤَمِّنَهُمْ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ، ثُمَّ سَأَلُوهُ الْأَمَانَ عَلَى أَنْ يُمَكِّنُوهُ مِنْ سَعِيدِ بْنِ هِشَامٍ وَابْنَيْهِ مَرْوَانَ، وَعُثْمَانَ وَمَنْ السَّكْسَكِيِّ الَّذِي كَانَ مَعَهُ عَلَى جَيْشِهِ، وَمَنْ حَبَشِيِّ كَانَ يَشْتُمُهُ وَيَقْتَرِي عَلَيْهِ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَأَمَّنَهُمْ وَقَتَلَ أَوْلِيكَ.

ثُمَّ سَارَ إِلَى الضَّحَّاكِ الْحَارِجِيِّ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ نَائِبَ الْعِرَاقِ قَدْ صَالَحَ الضَّحَّاكَ الْحَارِجِيَّ عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنَ الْكُوفَةِ وَأَعْمَالِهَا، وَجَاءَتْ حُيُولُ مَرْوَانَ قَاصِدَةً إِلَى الْكُوفَةِ فَتَلَقَّاهُمْ نَائِبُهَا مِنْ جِهَةِ الضَّحَّاكِ، مِلْحَانَ الشَّيْبَانِيِّ، فَقَاتَلَهُمْ فَقَتَلَ مِلْحَانَ، فَاسْتَنَابَ الضَّحَّاكُ عَلَيْهَا الْمُتَنَّى بْنُ عِمْرَانَ مِنْ بَنِي عَائِدَةَ، وَسَارَ الضَّحَّاكُ فِي ذِي الْقَعْدَةِ إِلَى الْمُوصِلِ، وَسَارَ ابْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى الْكُوفَةِ، فَانْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْحَوَارِجِ وَأَرْسَلَ الضَّحَّاكَ جَيْشًا إِلَى الْكُوفَةِ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ خَرَجَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسِ الشَّيْبَانِيِّ، وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِ أَنْ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: سَعِيدُ بْنُ بَهْدَلٍ - وَكَانَ حَارِجِيًّا - اعْتَنَمَ عَقْلَةَ النَّاسِ وَاشْتَعْلَاهُمْ بِمَقْتَلِ الْوَلِيدِ بْنِ يَرِيدٍ، فَثَارَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْحَوَارِجِ بِالْعِرَاقِ وَالْتَفَّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ

الآف - وَمَ تَجْتَمِعُ قَبْلَهُ لِحَارِجِيٍّ - فَقَصَدَتْهُمُ الْجِيُوشُ، فَاقْتَتَلُوا مَعَهُمْ، فَتَارَةً يَكْسِرُونَ، وَتَارَةً يُكْسِرُونَ، ثُمَّ مَاتَ سَعِيدُ بْنُ بَهْدَلٍ فِي طَاعُونِ أَصَابَهُ، وَاسْتَحْلَفَ عَلَى الْخَوَارِجِ مِنْ بَعْدِهِ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ هَذَا، فَالْتَفَّ أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ، وَالتَّقَى هُوَ وَجَيْشٌ كَثِيرٌ، فَغَلَبَتِ الْخَوَارِجُ وَقَتَلُوا حَلْفًا كَثِيرًا، مِنْهُمْ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخُو أَمِيرِ الْعِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَرْتَاهُ بِأَشْعَارٍ.

ثُمَّ قَصَدَ الضَّحَّاكُ بِطَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مَرَوَانَ، فَاجْتَازَ بِالْكَوْفَةِ، فَنَهَضَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا، فَكَسَرَهُمْ وَدَخَلَ الْكَوْفَةَ، فَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهَا، وَاسْتَنَابَ بِهَا رَجُلًا اسْمُهُ حَسَّانٌ، ثُمَّ اسْتَنَابَ مِلْحَانَ الشَّيْبَانِيَّ فِي شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَسَارَ هُوَ فِي طَلَبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ نَائِبِ الْعِرَاقِ فَالْتَقَوْا، فَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا وَتَفْصِيلُهَا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ اجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْإِمَامِ وَمَعَهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ، فَدَفَعُوا إِلَيْهِ نَفَقَاتٍ كَثِيرَةً، وَأَعْطَوْهُ حُمْسَ أَمْوَالِهِمْ، وَلَمْ يَنْتَظِمْ لَهُمْ أَمْرٌ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لِكثْرَةِ الشُّرُورِ الْمُنْتَشِرَةِ، وَالْفِتَنِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ النَّاسِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ حَرَجَ بِالْكَوْفَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ فَدَعَا إِلَى نَفْسِهِ، فَحَارَبَهُ أَمِيرُ الْعِرَاقِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ

الْعَزِيزِ، فَجَرَتْ بَيْنَهُمَا حُرُوبٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا، ثُمَّ أَجْلَاهُ عَنْهَا، فَلَحِقَ بِالْجِبَالِ، فَتَعَلَّبَ عَلَيْهَا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ خَرَجَ الْحَارِثُ بْنُ سُرَيْجٍ الَّذِي كَانَ لِحَقِّ بِلَادِ الثَّرَكِ وَمَالَاهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ، وَوَفَّقَهُ حَتَّى خَرَجَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ دُعَاءِ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَخَرَجَ إِلَى حُرَّاسَانَ فَأَكْرَمَهُ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ نَائِبُهَا، وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ وَجَاءُوا لِتَهْنِئَتِهِ، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ حُصُومَةٌ، وَاسْتَمَرَ الْحَارِثُ بْنُ سُرَيْجٍ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَطَاعَةِ الْإِمَامِ، وَعِنْدَهُ بَعْضُ الْمُنَاوَأَةِ لِنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَمِيرُ الْحِجَازِ وَمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ.

وَأَمِيرُ الْعِرَاقِ النَّصْرُ بْنُ سَعِيدِ الْحَرْشِيِّ وَقَدْ خَرَجَ عَلَيْهِ الضَّحَّاكُ الْحُرُورِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ. وَأَمِيرُ حُرَّاسَانَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ، وَقَدْ خَرَجَ عَلَيْهِ الْكَرْمَانِيُّ، وَالْحَارِثُ بْنُ سُرَيْجٍ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَفِيهَا كَانَ مَقْتَلُ الْحَارِثِ بْنِ سُرَيْجٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ بَعَثَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَبَا مُسْلِمٍ الْحُرَّاسَانِيَّ إِلَى حُرَّاسَانَ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا إِلَى شَيْعَتِهِمْ بِهَا: إِنَّ هَذَا أَبُو مُسْلِمٍ

فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، وَقَدْ وَلَّيْتُهُ عَلَى مَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ أَرْضِ حُرَّاسَانَ. فَلَمَّا
 قَدِمَ أَبُو مُسْلِمٍ حُرَّاسَانَ، وَقَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ هَذَا الْكِتَابَ، لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ
 يَعْمَلُوا بِهِ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ، وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، فَرَجَعَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ
 أَيَّامَ الْمَوْسِمِ، فَاشْتَكَاهُمْ إِلَيْهِ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا قَابَلُوهُ بِهِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا
 عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّكَ رَجُلٌ مِّنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ وَعَلَيْكَ بِهَذَا الْحَيِّ مِنَ الْيَمَنِ
 فَالزَّمَهُمْ وَانزِلْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنْتِمْ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ حَدَرَهُ مِنْ
 بَقِيَّةِ الْأَحْيَاءِ، وَقَالَ لَهُ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَدَعَ بَيْتَكَ الْبِلَادِ لِسَانًا عَرَبِيًّا
 فَافْعَلْ، وَمَنْ بَلَغَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ خَمْسَةَ أَشْبَارٍ وَاهْتَمَّتْهُ فَاقْتُلْهُ، وَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّيْخِ
 فَلَا تَعْصِهِ. يَعْنِي سُلَيْمَانَ بْنَ كَثِيرٍ، وَسَيَأْتِي مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِي مُسْلِمٍ الْحُرَّاسَانِيِّ
 فِيمَا بَعْدُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قُتِلَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسِ الْحَارِجِيِّ.

وَفِيهَا بَعَثَ مَرْوَانَ الْحِمَارُ عَلَى إِمْرَةِ الْعِرَاقِ يَزِيدَ بْنَ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ لِيُقَاتِلَ مَنْ
 بِهَا مِنَ الْخَوَارِجِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ حَجَّ بِالنَّاسِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ نَائِبُ
 الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَأَمِيرُ الْعِرَاقِ يَزِيدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ، وَأَمِيرُ حُرَّاسَانَ
 نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعٌ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٌ، وَفِيهَا اجْتَمَعَتِ الْخَوَارِجُ بَعْدَ الْحَيْبَرِيِّ عَلَى شَيْبَانَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْحُلَيْسِ الْيَشْكُرِيِّ الْخَارِجِيِّ فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ أَنْ يَتَحَصَّنُوا بِالْمَوْصِلِ وَيَجْعَلُوهَا مَنْزِلًا لَهُمْ، فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهَا، وَتَبِعَهُمْ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَسَكَرُوا بِظَاهِرِهَا، وَخَنَدَقُوا عَلَيْهِمْ مِمَّا يَلِي جَيْشَ مَرْوَانَ وَقَدْ خَنَدَقَ مَرْوَانُ عَلَى جَيْشِهِ أَيْضًا مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ، وَأَقَامَ سَنَةً يُحَاصِرُهُمْ وَيَقْتَتِلُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، وَظَفَرَ مَرْوَانُ بِابْنِ أَخٍ لِسُلَيْمَانَ بْنِ هِشَامٍ وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ هِشَامٍ، أَسْرَهُ بَعْضُ جَيْشِهِ، فَأَمَرَ بِهِ فَقَطَعَتْ يَدَاهُ، ثُمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ، وَعَمَّهُ سُلَيْمَانُ وَالْجَيْشُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. وَكَتَبَ مَرْوَانُ إِلَى نَائِيهِ بِالْعِرَاقِ يَزِيدَ بْنِ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ يَأْمُرُهُ بِقِتَالِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ فِي بِلَادِهِ، فَجَرَتْ لَهُ مَعَهُمْ وَقَعَاتٌ عَدِيدَةٌ، فَظَفَرَ بِهِمْ ابْنُ هُبَيْرَةَ وَأَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ، وَلَمْ يُبْقِ لَهُمْ بَقِيَّةً بِالْعِرَاقِ وَاسْتَنْقَذَ الْكُوفَةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَكَانَ عَلَيْهَا الْمُثَنَّى بْنُ عِمْرَانَ الْعَائِدِيُّ - عَائِدَةٌ قُرَيْشٍ - فِي رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَكَتَبَ مَرْوَانُ إِلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا فَرَغَ مِنَ الْخَوَارِجِ أَنْ يُمِدَّهُ بِعَامِرِ بْنِ ضُبَارَةَ - وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ - فَبَعَثَهُ فِي سِتَّةِ آلَافٍ أَوْ ثَمَانِيَةِ آلَافٍ، فَأَرْسَلَتِ الْخَوَارِجُ إِلَيْهِ سَرِيَّةً فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ، فَأَعْتَرَضُوهُ فِي الطَّرِيقِ، فَهَزَمَهُمْ ابْنُ ضُبَارَةَ وَقَتَلَ أَمِيرَهُمُ الْجُونَ بْنَ كِلَابِ الشَّيْبَانِيِّ الْخَارِجِيِّ وَأَقْبَلَ نَحْوَ الْمَوْصِلِ، وَرَجَعَ فَلُ الْخَوَارِجِ إِلَيْهِمْ، فَأَشَارَ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْتَحِلُوا عَنِ الْمَوْصِلِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنُهُمُ الْإِقَامَةَ بِهَا وَمَرْوَانُ مِنْ أَمَامِهِمْ وَابْنُ ضُبَارَةَ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَدَقَّعَ عَنْهُمْ الْمِيرَةَ

حَتَّى لَمْ يَجِدُوا شَيْئًا يَأْكُلُونَهُ، فَارْتَحَلُوا عَنْهَا، وَسَارُوا عَلَى حُلُوانٍ إِلَى الْأَهْوَازِ
فَأَرْسَلَ مَرْوَانَ ابْنَ ضُبَارَةَ فِي آثَارِهِمْ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، فَاتَّبَعَهُمْ يَقْتُلُ مَنْ تَخَلَّفَ
مِنْهُمْ، وَيَلْحَقُهُمْ فِي مُوَاطِنَ فَيَقَاتِلُهُمْ، وَمَا زَالَ وِرَاءَهُمْ حَتَّى فَرَّقَ شَمْلَهُمْ شَدَرَ
مَذَرَ، وَهَلَكَ أَمِيرُهُمْ شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْيَشْكُرِيُّ بِالْأَهْوَازِ فِي السَّنَةِ الْقَابِلَةِ،
فَقَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ حُلَيْدِ الْأَزْدِيِّ. وَرَكِبَ سُلَيْمَانُ بْنُ هِشَامٍ
فِي مَوَالِيهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ السُّفْنِ، وَسَارُوا إِلَى السِّنْدِ، وَرَجَعَ مَرْوَانُ مِنَ الْمَوْصِلِ
فَأَقَامَ بِمَنْزِلِهِ بَحْرَانَ وَقَدْ وَجَدَ سُورًا بِزَوَالِ الْخَوَارِجِ وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعْ سُورُهُ، بَلْ أَعَقَبَهُ
الْقَدَرُ مَنْ هُوَ أَقْوَى شَوْكَةً، وَأَعْظَمَ أَتْبَاعًا، وَأَشَدُّ بَأْسًا مِنَ الْخَوَارِجِ، وَهُوَ ظُهُورُ
أَبِي مُسْلِمِ الْخُرَّاسَانِيِّ الدَّاعِيَةِ إِلَى دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ.

أَوَّلُ ظُهُورِ أَبِي مُسْلِمِ الْخُرَّاسَانِيِّ بِخُرَّاسَانَ

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَرَدَ كِتَابٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ الْإِمَامِ الْعَبَّاسِيِّ يَطْلُبُ أَبِي
مُسْلِمِ الْخُرَّاسَانِيِّ مِنْ خُرَّاسَانَ، فَسَارَ إِلَيْهِ فِي سَبْعِينَ مِنَ التُّقْبَاءِ، لَا يَمُرُّونَ بِبَلَدٍ
إِلَّا سَأَلُوهُمْ: إِلَى أَيَّنَ تَذْهَبُونَ؟ فَيَقُولُ أَبُو مُسْلِمٍ: نُرِيدُ الْحَجَّ. وَإِذَا تَوَسَّمَ أَبُو
مُسْلِمٍ مِنْ بَعْضِهِمْ مَيْلًا إِلَيْهِ دَعَاهُ إِلَى مَا هُمْ فِيهِ، فَيُجِيبُهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ
أَبُو مُسْلِمٍ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ جَاءَ كِتَابٌ تَأْنٍ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ إِنِّي قَدْ بَعَثْتُ
إِلَيْكَ بِرَايَةِ النَّصْرِ فَارْجِعْ إِلَى خُرَّاسَانَ وَأَظْهِرِ الدَّعْوَةَ. فَاثْتَمَلَ أَبُو مُسْلِمٍ ذَلِكَ
وَأَمَرَ فَحُطَبَةَ بْنَ شَيْبِ بْنِ سَيْبِ أَنْ يَسِيرَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالتُّحَفِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ

الإمام فيؤا فيه بها في الموسم، ورجع أبو مسلم بالكتاب، فدخل خراسان في أول يوم من رمضان، فدفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه أن أظهر دعوتك ولا تترصن، فقدموا عليهم أبا مسلم الخراساني داعيًا إلى بني العباس؛ فبث أبو مسلم دعائه في بلاد خراسان ونواحيها، وأمير خراسان نصر بن سيار مشغول بقتال الكرماني، وشيبان بن سلمة الحزوري. وقد بلغ من أمره أنه كان يسلم عليه أصحابه بالخلافة في طوائف كثيرة من الخوارج، فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل جانب، فكان ممن قصده في يوم واحد أهل سبتين قرية، فأقام هناك اثنين وأربعين يومًا، ففتحت عليه أقاليم كثيرة.

ولما كان ليلة الخميس لحمس بقين من رمضان في هذه السنة، عقد أبو مسلم اللواء الذي بعث به إليه الإمام، وكان يدعى الظل، على رُمح طوله أربعة عشر ذراعًا، وعقد الراية التي بعث بها الإمام أيضًا، وتدعى السحاب، على رُمح طوله ثلاثة عشر ذراعًا، وهما سوداوان، وهو يتلو قوله تعالى: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير}. وليس أبو مسلم، وسليمان بن كثير ومن أجابهم إلى هذه الدعوة السوداء وصارت شعارهم، وأوقفوا في هذه الليلة نازًا عظيمة يدعوون بها أهل تلك النواحي، وكانت علامة ما بينهم فتجمعوا. ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يطبق جميع الأرض، كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم الأرض،

وَمَعْنَى تَسْمِيَةِ الْأُخْرَى بِالظَّلِّ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنَ الظِّلِّ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ بَنُو الْعَبَّاسِ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ مِنْهُمْ.

وَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَكَثُرَ جَيْشُهُ جَدًّا. وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ أَمَرَ أَبُو مُسْلِمٍ سُلَيْمَانَ بْنَ كَثِيرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، وَنَصَبَ لَهُ مِنْبَرًا، وَأَنْ يُخَالِفَ فِي ذَلِكَ بَنِي أُمَيَّةَ وَيَعْمَلَ بِالسُّنَّةِ، فَنُودِيَ لِلصَّلَاةِ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً. وَمَ يُؤَدِّنْ وَمَ يُعْتَمِ، خِلَافًا لَهُمْ، وَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، وَكَبَّرَ سَبْعًا فِي الْأُولَى قَبْلَ الْقِرَاءَةِ، لَا أَرْبَعًا، وَخَمْسًا فِي الثَّانِيَةِ لَا ثَلَاثًا، خِلَافًا لَهُمْ. وَابْتَدَأَ الْخُطْبَةَ بِالذِّكْرِ وَالتَّكْبِيرِ، وَخَتَمَهَا بِالْقِرَاءَةِ، وَأَنْصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاةِ الْعِيدِ، وَقَدْ أَعَدَّ لَهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ طَعَامًا، فَوَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ كِتَابًا بَدَأَ فِيهِ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ عَيَّرَ أَقْوَامًا فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: {وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}. فَعَظَّمْ عَلَى نَصْرِ أَنْ قَدَّمَ اسْمَهُ عَلَى اسْمِهِ، وَأَطَالَ الْفِكْرَةَ، وَقَالَ: هَذَا كِتَابٌ لَهُ جَوَابٌ.

ثُمَّ بَعَثَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ حَيْلًا عَظِيمَةً لِمُحَارَبَةِ أَبِي مُسْلِمٍ وَذَلِكَ بَعْدَ ظُهُورِهِ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا، فَأَرْسَلَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَيْهِمْ مَالِكُ بْنُ الْهَيْثَمِ الْخَزَاعِيَّ فَالتَقُوا

هُنَالِكَ فَدَعَاهُمْ مَالِكٌ إِلَى الرِّضَا عَنْ آلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَبَوْا ذَلِكَ، فَتَصَافَوْا مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى الْعَصْرِ، ثُمَّ جَاءَهُ مَدَدُ فَقْوِي مَالِكٌ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَظْهَرَ وَظَفَرَ بِهِمْ، وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ مَوْقِفٍ اقْتَتَلَ فِيهِ دُعَاةَ بَنِي الْعَبَّاسِ وَجُنْدُ بَنِي أُمَيَّةَ.

وَفِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ غَلَبَ حَارِثُ بْنُ حُزَيْمَةَ عَلَى مُرُو الرُّوذِ وَقَتَلَ عَامِلَهَا مِنْ جِهَةِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وَهُوَ بَشْرُ بْنُ جَعْفَرِ السَّعْدِيِّ وَكَتَبَ بِالْفَتْحِ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ.

وَكَانَ أَبُو مُسْلِمٍ إِذْ ذَاكَ شَابًّا حَدَّثًا قَدِ اخْتَارَهُ إِبْرَاهِيمُ الْإِمَامُ لِدَعْوَتِهِمْ، وَذَلِكَ لِشَهَامَتِهِ وَصِرَامَتِهِ وَقُوَّةِ فَهْمِهِ وَجُودَةِ عَقْلِهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ سَوَادِ الْكُوفَةِ، وَكَانَ مَوْلى لِإِدْرِيسَ بْنِ مَعْقِلِ الْعَجَلِيِّ فَاشْتَرَاهُ بَعْضُ دُعَاةِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ، ثُمَّ أَخَذَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ آلَ وَلَاؤُهُ لِآلِ الْعَبَّاسِ، وَقَدْ زَوَّجَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْإِمَامُ بِابْنَةِ أَبِي النَّجْمِ عِمْرَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ وَأَصْدَقَهَا عَنْهُ، وَكَتَبَ إِلَى نُقْبَائِهِمْ بِخُرَّاسَانَ وَالْعِرَاقِ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا، فَامْتَنَلُوا أَمْرَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَقَدْ كَانُوا فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ رَدُّوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ فِيهِ لِيَصْعِرَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ السَّنَةُ أَكَّدَ كِتَابَهُ إِلَيْهِمْ فِي سَبَبِهِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَنْهُ مَعْدِلٌ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْحَيْرَةَ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا.

وَلَمَّا اسْتَفْحَلَ أَمْرُ أَبِي مُسْلِمٍ بِخُرَّاسَانَ تَعَاقَدَتْ طَوَائِفُ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَمَّا عَلَى حَرْبِهِ وَمُقَاتَلَتِهِ، وَلَمْ يَكْرَهُ أَمْرَهُ الْكُرْمَانِيُّ، وَشَيْبَانُ لِأَنَّهُمَا حَرَجَا

عَلَى نَصْرٍ وَهَذَا مُخَالِفٌ لَهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَدْعُو إِلَى خَلْعِ مَرْوَانَ الْحِمَارِ. وَقَدْ طَلَبَ نَصْرٌ مِنْ شَيْبَانَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ عَلَى حَرْبِ أَبِي مُسْلِمٍ أَوْ يَكْفَ عَنْهُ حَتَّى يَنْفَرَعَ لِحَرْبِهِ، فَإِذَا قَتَلَهُ وَنَفَرَغَ مِنْهُ عَادَا إِلَى عَدَاوَتِهِمَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا مُسْلِمٍ فَبَعَثَ إِلَى ابْنِ الْكَرْمَائِيِّ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ، فَتَنَى ابْنُ الْكَرْمَائِيِّ شَيْبَانَ عَلَى ذَلِكَ الرَّأْيِ، وَبَعَثَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَى هَرَاةِ النَّصْرِ بْنِ نُعَيْمٍ فَافْتَتَحَهَا وَطَرَدَ عَنْهَا عَامِلَهَا عَيْسَى بْنَ عَقِيلِ اللَّيْثِيِّ وَاسْتَحْوَذَ عَلَى الْبَلَدِ، وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ بِذَلِكَ، وَجَاءَ عَامِلُهَا إِلَى نَصْرِ هَارِبًا. ثُمَّ إِنَّ شَيْبَانَ وَادَعَ نَصْرٌ بْنُ سَيَّارٍ سَنَةَ عَلَى تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَذَلِكَ عَنْ كُرْهِهِ مِنْ ابْنِ الْكَرْمَائِيِّ فَبَعَثَ ابْنُ الْكَرْمَائِيِّ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ: إِنِّي مَعَكَ عَلَى قِتَالِ نَصْرِ. وَرَكِبَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَى خِدْمَةِ ابْنِ الْكَرْمَائِيِّ فَانزَلَ عِنْدَهُ وَاجْتَمَعَا، فَاتَّفَقَا عَلَى حَرْبِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، وَتَحَوَّلَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَى مَوْضِعٍ فَسِيحٍ، وَكَثُرَ جُنْدُهُ، وَعَظُمَ جَيْشُهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الشَّرْطِ وَالْحَرْسِ وَالرَّسَائِلِ وَالِدِّيَّوَانَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ الْمَلِكُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ الْقَاسِمَ بْنَ مُجَاشِعِ التَّمِيمِيِّ - وَكَانَ أَحَدَ الثُّقَبَاءِ - عَلَى الْقَضَاءِ، وَكَانَ يُصَلِّي بِأَبِي مُسْلِمٍ الصَّلَوَاتِ، وَيَقْضُ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَيَذْكُرُ مُحَاسِنَ بَنِي هَاشِمٍ وَيَذُمُّ بَنِي أُمَّيَّةَ.

ثُمَّ تَحَوَّلَ أَبُو مُسْلِمٍ فَانزَلَ بِقَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا: آلِينُ. وَكَانَ فِي مَكَانٍ مُنْخَفِضٍ، فَحَشِيهِ أَنْ يَقْطَعَ عَنْهُ نَصْرٌ بْنُ سَيَّارٍ الْمَاءَ، وَذَلِكَ فِي سَادِسِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَصَلَّى بِهِمْ يَوْمَ النَّحْرِ الْقَاضِي الْقَاسِمُ بْنُ مُجَاشِعِ، وَصَارَ نَصْرٌ

بُنِ سَيَّارٍ فِي جَحَافِلٍ قَاصِدًا قِتَالَ أَبِي مُسْلِمٍ وَاسْتَحْلَفَ عَلَى الْبِلَادِ نُؤَابًا،
فَكَانَ مِنَ الْأَمْرِ مَا سَنَدَكُرُهُ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

مَقْتَلُ الْكَرْمَانِيِّ

وَنَشِبَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَبَيْنَ الْكَرْمَانِيِّ وَهُوَ جَدِيعُ بْنُ عَلِيٍّ الْكَرْمَانِيُّ
فَقُتِلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حَلْقٌ كَثِيرٌ، وَجَعَلَ أَبُو مُسْلِمٍ يُكَاتِبُ كُتْلًا مِنْ
الطَّائِفَتَيْنِ، وَيَسْتَمِيلُهُمْ إِلَيْهِ، يَكْتُبُ إِلَى نَصْرِ وَإِلَى الْكَرْمَانِيِّ: إِنَّ الْإِمَامَ قَدْ
أَوْصَانِي بِكُمْ خَيْرًا، وَلَسْتُ أَعْدُو رَأْيَهُ فِيكُمْ. وَكَتَبَ إِلَى الْكُورِ يَدْعُو إِلَى بَنِي
الْعَبَّاسِ فَاسْتَجَابَ لَهُ حَلْقٌ كَثِيرٌ وَجَمَّ غَفِيرٌ، وَأَقْبَلَ أَبُو مُسْلِمٍ فَنَزَلَ بَيْنَ خَنْدَقِ
نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَخَنْدَقِ جَدِيعِ الْكَرْمَانِيِّ، فَهَابَهُ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا.

نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ يَتَّبِعُ بظهور العباسيين

وَكَتَبَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ إِلَى الْخَلِيفَةِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ الْمُلَقَّبِ بِالْحِمَارِ
يُعَلِّمُهُ بِأَمْرِ أَبِي مُسْلِمٍ وَكَثْرَةَ مَنْ مَعَهُ، وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَكَتَبَ
فِي كِتَابِهِ:

أَرَى بَيْنَ الرَّمَادِ وَمِيضِ جَمْرٍ فَأَحْرِبُ بَأَنَّ يَكُونَ لَهُ ضِرَامٌ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُدَكِّي وَإِنَّ الْحَرْبَ مَبْدَؤُهَا الْكَلَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَأَيَقَاطُ أُمِّيَّةٌ أَمْ نِيَامٌ؟

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَرْوَانَ: الشَّاهِدُ يَرَى مَا لَا يَرَى الْعَائِبُ. فَقَالَ نَصْرٌ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ
قَدْ أَعْلَمَكُمْ أَنَّ لَا نُصْرَةَ عِنْدَهُ.

وَكَتَبَ نَصْرٌ إِلَى نَائِبِ الْعِرَاقِ يَزِيدَ بْنِ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ يَسْتَمِدُّهُ، كَتَبَ إِلَيْهِ:

أَبْلَغِ يَزِيدَ وَخَيْرِ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَقَدْ تَبَيَّنْتُ أَنْ لَا حَيْرَ فِي الْكَذِبِ
بِأَنْ حُرَّاسَانُ أَرْضٌ قَدْ رَأَيْتُ بِهَا بِيضًا لَوْ افْرَحَ قَدْ حُدِّثْتَ بِالْعَجَبِ
فِرَاحُ عَامِينَ إِلَّا أَهْمًا كَثُرَتْ لَمَّا يَطْرَنَ وَقَدْ سُرِبَلَنَ بِالرَّغَبِ
فَإِنْ يَطْرَنَ وَمَ يَخْتَلُ لَهْنٌ بِهَا يُلْهَبَنَ نِيرَانَ حَرْبٍ أَيَّمَا هَبِ

فَبَعَثَ ابْنُ هُبَيْرَةَ بِكِتَابِ نَصْرٍ إِلَى مَرْوَانَ وَاتَّفَقَ فِي وُصُولِهِ إِلَيْهِ أَنْ وَجَدُوا
رَسُولًا مِنْ جِهَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَمَعَهُ كِتَابٌ مِنْهُ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ وَهُوَ يَشْتُمُهُ
وَيَسُبُّهُ وَيَأْمُرُهُ أَنْ يُنَهِضَ نَصْرَ بْنَ سَيَّارٍ وَالْكَرْمَائِيَّ، وَلَا يَتْرُكْ هُنَاكَ مَنْ يُحْسِنُ
الْكَلامَ بِالْعَرَبِيَّةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ بَعَثَ مَرْوَانَ وَهُوَ مُقِيمٌ بِحِرَّانَ إِلَى نَائِبِهِ بِدِمَشْقَ
وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، يَأْمُرُهُ أَنْ يُرْسَلَ كِتَابًا إِلَى نَائِبِهِ بِالْبَلْقَاءِ
وَيَأْمُرُهُ فِيهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْحُمَيْمَةِ الْبَلَدَةِ الَّتِي فِيهَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَلْقَبُ
بِالإِمَامِ، فَيَقِيدَهُ وَيُرْسِلُهُ إِلَيْهِ، فَبَعَثَ نَائِبُ دِمَشْقَ إِلَى نَائِبِ الْبَلْقَاءِ، فَذَهَبَ
إِلَى مَسْجِدِ الْبَلَدَةِ، فَوَجَدَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُحَمَّدٍ جَالِسًا فِيهِ، فَقِيدَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى
دِمَشْقَ، فَبَعَثَهُ نَائِبُ دِمَشْقَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَمَرَ
بِهِ فَسُجِنَ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا سَيَأْتِي فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ.

وَأَمَّا أَبُو مُسْلِمٍ فَإِنَّهُ لَمَّا تَوَسَّطَ بَيْنَ جَيْشِ نَصْرٍ، وَالْكَرْمَائِيِّ كَاتَبَ الْكَرْمَائِيَّ: إِيَّيَّ مَعَكَ. فَمَالَ إِلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ نَصْرٌ: وَيُحْكُ! لَا تَعْتَرَّ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ قَتْلَكَ وَقَتْلَ أَصْحَابِكَ مَعَكَ، فَهَلُمَّ حَتَّى نَكْتُبَ كِتَابًا بَيْنَنَا بِالْمُوَادَعَةِ. فَدَخَلَ الْكَرْمَائِيُّ دَارَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الرَّحْبَةِ فِي مِائَةِ فَارِسٍ وَبَعَثَ إِلَى نَصْرٍ أَنْ هَلُمَّ حَتَّى نَتَكَاتَبَ، فَأَبْصَرَ نَصْرٌ غِرَّةً مِنَ الْكَرْمَائِيِّ فَنَهَضَ إِلَيْهِ فِي حَلْقٍ كَثِيرٍ، فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ جَمَاعَةً، وَقَتِلَ الْكَرْمَائِيُّ فِي الْمَعْرَكَةِ، طَعَنَهُ رَجُلٌ فِي خَاصِرَتِهِ، فَحَرَّ عَنْ دَائِبَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَ نَصْرٌ بِصَلْبِهِ، فَصَلِبَ وَصَلِبَ مَعَهُ سَمَكَةٌ، وَأَنْصَافَ وَادُّهُ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَمَعَهُ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ أَبِيهِ، فَصَارُوا كَتِفًا وَاحِدَةً عَلَى نَصْرٍ بِنِ سَيَّارٍ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَعَلَّبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ عَلَى فَارِسٍ وَكُورِهَا، وَعَلَى حُلْوَانَ وَفُومَسَ وَأَصْبَهَانَ وَالرِّيَّ، بَعْدَ حُرُوبٍ يَطُولُ ذِكْرُهَا وَبَسَطُهَا، ثُمَّ التَّقَى عَامُرُ بْنُ ضُبَارَةَ مَعَهُ بِأَصْطَحَرَ فَهَزَمَهُ ابْنُ ضُبَارَةَ وَأَسَرَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَكَانَ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَنَسَبَهُ ابْنُ ضُبَارَةَ، وَقَالَ لَهُ: مَا جَاءَ بِكَ مَعَ ابْنِ مُعَاوِيَةَ وَقَدْ عَلِمْتَ خِلَافَهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَرْوَانَ؟ فَقَالَ: كَانَ عَلِيٌّ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ حَرْبُ بْنُ عَلِيٍّ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ. ثُمَّ اسْتَعْلَمَ ابْنُ ضُبَارَةَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أَحْبَارِ ابْنِ مُعَاوِيَةَ فَدَمَّهُ، وَرَمَاهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِاللُّوَاطِ، وَجِيءَ مِنَ الْأَسَارَى بِمِائَةِ غُلَامٍ عَلَيْهِمُ النَّيَابُ الْمُصَبَّغَةُ، فَحَمَلَ ابْنُ ضُبَارَةَ، عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى الْبَرِيدِ إِلَى

ابن هُبَيْرَةَ لِيُخْبِرَهُ بِذَلِكَ، فَبَعَثَهُ ابْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى مَرْوَانَ فِي أَجْنَادِ أَهْلِ الشَّامِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا أَخْبَرَهُ ابْنُ ضُبَارَةَ عَنِ ابْنِ مُعَاوِيَةَ. وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ زَوَالَ مُلْكِ مَرْوَانَ يَكُونُ عَلَى يَدِ هَذَا الرَّجُلِ، وَلَا يَشْعُرُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِذَلِكَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ وَافَى الْمَوْسِمَ أَبُو حَمَزَةَ الْخَارِجِيُّ فَأَظْهَرَ التَّحَكُّمَ وَالْمُخَالَفَةَ لِمَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ وَالتَّبَرُّؤَ مِنْهُ، فَرَأَسَلَهُمْ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ، وَإِلَيْهِ أَمْرُ الْحَجِيجِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، ثُمَّ صَالَحَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ إِلَى يَوْمِ النَّفْرِ، فَوَقَفُوا عَلَى حَجْرَةٍ مِنَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ ثُمَّ تَحَيَّرُوا عَنْهُمْ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ النَّفْرِ الْأَوَّلِ تَعَجَّلَ عَبْدُ الْوَاحِدِ وَتَرَكَ مَكَّةَ فَدَخَلَهَا الْخَارِجِيُّ بِغَيْرِ قِتَالٍ، فَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فِي ذَلِكَ:

رَأَى الْحَجِيجَ عِصَابَةً قَدْ خَالَفُوا دِينَ الْإِلَهِ فَقَرَّ عَبْدُ الْوَاحِدِ

تَرَكَ الْحَلَائِلَ وَالْإِمَارَةَ هَارِبًا وَمَضَى يُحِبِّطُ كَالْبَعِيرِ الشَّارِدِ

لَوْ كَانَ وَالِدُهُ تَنَصَّلَ عِرْقَهُ لَصَفَّتْ مَشَارِبُهُ بِعِرْقِ الْوَالِدِ

وَلَمَّا رَجَعَ عَبْدُ الْوَاحِدِ إِلَى الْمَدِينَةِ شَرَعَ فِي تَجْهِيزِ السَّرَايَا إِلَى الْخَارِجِيِّ وَبَدَلَ النَّفَقَاتِ، وَزَادَ فِي أَعْطِيَةِ الْأَجْنَادِ، وَسَيَّرَهُمْ إِلَيْهِ سَرِيعًا.

وَكَانَ إِمْرَةً الْعِرَاقِ إِلَى يَزِيدَ بْنِ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ وَإِمْرَةً خُرَاسَانَ إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وَكَانَ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَى بَعْضِ بِلَادِهِ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَّاسَانِيُّ.

استفحال أمر أبي مسلم الخراساني

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ ثَلَاثِينَ وَمِائَةً، وَفِي يَوْمِ الْحَمِيسِ لِيَسْعَ حَلُونَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى مِنْهَا دَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيَّ مَدِينَةَ مَرَوْ وَنَزَلَ دَارَ الْإِمَارَةِ بِهَا، وَأَنْتَزَعَهَا مِنْ يَدِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وَذَلِكَ بِمُسَاعَدَةِ عَلِيِّ بْنِ الْكُرْمَانِيِّ وَهَرَبَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ فِي شَرْذِمَةٍ قَلِيلَةٍ مِنَ النَّاسِ نَحْوَ مَنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ الْمُرْزُبَانَةُ ثُمَّ عَجَلَ أَهْرَبَ حَتَّى لَحِقَ بِسَرْحَسَ وَتَرَكَ امْرَأَتَهُ وَرَاءَهُ، وَنَجَا بِنَفْسِهِ، وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُ أَبِي مُسْلِمٍ بِخُرَاسَانَ جَدًّا، وَالتَّقَتْ عَلَيْهِ الطَّوَائِفُ مِنَ النَّاسِ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ.

مَقْتَلُ شَيْبَانَ بْنِ سَلَمَةَ الْخُرَوْرِيِّ

وَلَمَّا هَرَبَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ بَقِيَ شَيْبَانُ الْخُرَوْرِيُّ وَكَانَ مُمَالئًا لَهُ عَلَى أَبِي مُسْلِمٍ فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو مُسْلِمٍ رُسُلًا، فَحَبَسَهُمْ شَيْبَانُ فَأَرْسَلَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَى بَسَّامِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ مَوْلَى بَنِي لَيْثٍ يَأْمُرُهُ أَنْ يَرْكَبَ إِلَى شَيْبَانَ فَيَقَاتِلَهُ، فَسَارَ إِلَيْهِ، فَاقْتَتَلَا، فَهَزَمَهُ بَسَّامٌ وَقَتَلَهُ، وَاتَّبَعَ أَصْحَابُهُ يَقْتُلُهُمْ وَيَأْسِرُهُمْ. ثُمَّ قَتَلَ أَبُو مُسْلِمٍ عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ ابْنَ الْكُرْمَانِيِّ، وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ كَانَ وَجَّهَ مُوسَى بْنِ كَعْبٍ إِلَى أَبِي يُوْرَدَ فَانْتَحَهَا وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ يُعْلِمُهُ بِذَلِكَ، وَوَجَّهَ أَبُو مُسْلِمٍ أَبَا دَاوُدَ إِلَى بَلَخَ، فَأَخَذَهَا مِنْ زِيَادِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَشِيرِيِّ فَجَمَعَ زِيَادٌ حَلْفًا مِنْ الْجُنُودِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ لِقِتَالِ الْمَسُودَةِ، فَنَهَضَ إِلَيْهِمْ أَبُو

دَاوُدَ فَقَتَلَهُمْ حَتَّى كَسَرَهُمْ وَاسْتَبَاحَ مُعَسَّكَرَهُمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ حَلْفًا، وَاصْطَفَى مِنْهُمْ أَمْوَالًا جَزِيلَةً، وَاسْتَفْحَلَ أَمْرَهُ هُنَالِكَ، ثُمَّ وَقَعَتْ كَائِنَةٌ اِقْتَضَتْ أَنْ اتَّفَقَ رَأْيُ أَبِي مُسْلِمٍ مَعَ أَبِي دَاوُدَ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ بْنِ الْكَرْمَايِيِّ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعِنِهِ يَقْتُلُ أَبُو مُسْلِمٍ عَلِيَّ بْنَ جُدَيْعِ الْكَرْمَايِيِّ فَوَقَعَ ذَلِكَ كَذَلِكَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَوَجَّهَ قَحْطَبَةُ بْنُ شَيْبٍ إِلَى نَيْسَابُورَ لِقِتَالِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وَمَعَ قَحْطَبَةَ جَمَاعَةٌ مِنْ كُبَرَاءِ الْأَمْرَاءِ، مِنْهُمْ حَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ وَحَلْقُ مِنْهُمْ، فَالْتَقُوا مَعَ تَمِيمِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وَقَدْ وَجَّهَهُ أَبُوهُ لِقِتَالِهِمْ بِطُوسَ؛ فَقَتَلَ قَحْطَبَةُ مِنْ أَصْحَابِ نَصْرِ نَحْوًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ أَلْفًا فِي الْمَعْرَكَةِ، وَقَدْ كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ بَعَثَ إِلَى قَحْطَبَةَ مَدَدًا فِي عَشْرَةِ آلَافٍ فَارِسٍ عَلَيْهِمْ عَلِيُّ بْنُ مَعْقِلٍ وَكَمَا اتَّفَقُوا قَتَلُوا مِنْ أَصْحَابِ نَصْرِ حَلْفًا، وَقَتَلُوا تَمِيمَ بْنَ نَصْرِ وَعَنِمُوا أَمْوَالًا جَزِيلَةً جَدًّا، ثُمَّ إِنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَرَ بْنَ هُبَيْرَةَ نَائِبَ مَرْوَانَ عَلَى الْعِرَاقِ بَعَثَ سَرِيَّةً مَدَدًا لِنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ عَلَى أَبِي مُسْلِمٍ، فَأَرْسَلَ أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ جِهَتِهِ قَحْطَبَةَ بْنَ شَيْبٍ، فَالْتَقَى مَعَهُمْ فِي مُسْتَهَلِّ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ بِبُجْرَجَانَ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَامَ قَحْطَبَةُ فِي النَّاسِ حَاطِبِيًّا، فَحَثَّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ وَذَمَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِالْمُصَابَرَةِ، وَوَعَدَهُمْ عَنِ الْإِمَامِ أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، فَقاتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَانْهَزَمَ جُنْدُ بَنِي أُمَيَّةَ وَقَتَلَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَغَيْرِهِمْ عَشْرَةُ

آلافٍ، مِنْهُمْ أَمِيرُ الْمَدَدِ نُبَاتَةُ بِنُ حَنْظَلَةَ عَامِلُ جُرْجَانَ وَرَسَاتِيقِهَا لِابْنِ هُبَيْرَةَ
فَبَعَثَتْ قَحْطَبَةَ بِرَأْسِهِ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ.

دُخُولِ أَبِي حَمْرَةَ الْخَارِجِيِّ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ وَاسْتِيْلَاؤَهُ عَلَيْهَا

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ وَقَعَةٌ بِقُدَيْدٍ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ بَيْنَ أَبِي حَمْرَةَ الْخَارِجِيِّ
- الَّذِي كَانَ حَكَمَ فِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ - وَبَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقَتَلَ الْخَارِجِيُّ حَلْفًا
كَثِيرًا مِنْ قُرَيْشٍ وَعَبِيدِهِمْ، ثُمَّ دَخَلَ الْخَارِجِيُّ الْمَدِينَةَ وَهَرَبَ نَائِبُهَا عَبْدُ الْوَاحِدِ
بْنُ سُلَيْمَانَ؛ فَقَتَلَ الْخَارِجِيُّ مِنْ أَهْلِهَا حَلْفًا، وَذَلِكَ لِتِسْعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ
مَنْ صَفَرَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَقَدْ حَطَبَ الْخَارِجِيُّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ عَلَى الْمَنْبَرِ
النَّبَوِيِّ فَوَجَّهَهُمْ وَأَتَبَّهُمْ، وَكَانَ فِيهَا وَجَّهَهُمْ بِهِ أَنْ قَالَ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنِّي
مَرَرْتُ بِكُمْ أَيَّامَ الْأَحْوَالِ - يَعْنِي هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَقَدْ أَصَابَتْكُمْ عَاهَةٌ
فِي ثِمَارِكُمْ، فَكَتَبْتُمْ إِلَيْهِ تَسْأَلُونَهُ أَنْ يَضَعَ الْحَرْصَ عَنْ ثِمَارِكُمْ، فَوَضَعَهُ عَنْكُمْ،
فَرَادَ غَيْبُكُمْ غَيْبًا، وَزَادَ فَقِيرُكُمْ فَقْرًا، فَكَتَبْتُمْ إِلَيْهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا. فَلَا جَزَاءَ
لِلَّهِ خَيْرًا. فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ غَيْرِ هَذَا، وَقَدْ أَقَامَ أَبُو حَمْرَةَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ؛ بَقِيَّةَ صَفَرٍ
وَشَهْرَيْ رَبِيعٍ وَبَعْضَ جُمَادَى الْأُولَى.

وَرَقِيَّ أَبُو حَمْرَةَ يَوْمًا مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى
عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: تَعْلَمُونَ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَنَا لَمْ نَخْرُجْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا أَشْرًا وَلَا
بَطْرًا وَلَا عَبْنًا، وَلَا لِدَوْلَةٍ مُلْكٍ نُرِيدُ أَنْ نُخَوِّضَ فِيهِ، وَلَا لِثَأْرِ قَدِيمٍ نَبِلَ مِنَّا، وَلَكِنَّا

لَمَّا رَأَيْنَا مَصَابِيحَ الْحَقِّ قَدْ عَطَلَتْ، وَضَعَفَ الْقَائِلُ بِالْحَقِّ، وَقُتِلَ الْقَائِمُ
بِالْقِسْطِ، ضَاقَتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَسَمِعْنَا دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ
الرَّحْمَنِ وَحُكْمِ الْقُرْآنِ، فَأَجَبْنَا دَاعِيَ اللَّهِ، { وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ
بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ } . أَقْبَلْنَا مِنْ قَبَائِلِ شَتَّى، النَّفْرَ مِنَّا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ عَلَيْهِ
زَادُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، يَتَعَاوَرُونَ لِحَافًا وَاحِدًا. قَلِيلُونَ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ، فَأَوَانَا
اللَّهُ وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ، فَأَصْبَحْنَا وَاللَّهِ بِبِنْعَمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا، ثُمَّ لَقِينَا رِجَالَكُمْ بِقُدَيْدٍ،
فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ وَحُكْمِ الْقُرْآنِ، وَدَعَوْنَا إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَحُكْمِ
آلِ مَرْوَانَ فَشَتَّانَ لَعَمْرُ اللَّهِ مَا بَيْنَ الْعَيِّ وَالرُّشْدِ. ثُمَّ أَقْبَلُوا نَحُونَا يُهْرَعُونَ يَرْفُونَ
قَدْ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ فِيهِمْ بِحِرَانِهِ، وَعَلَّتْ بِدِمَائِهِمْ مَرَاجِلُهُ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ ظَنَّهُ،
وَأَقْبَلَ أَنْصَارُ اللَّهِ عَصَائِبَ وَكَتَائِبَ، بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ذِي رُونَقٍ، فَدَارَتْ رَحَانَا
وَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ، بِضَرْبِ يَرْتَابٍ مِنْهُ الْمُبْطِلُونَ، وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنْ
تَنْصَرُوا مَرْوَانَ يُسْحِكْتُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُؤْمِنِينَ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، أَوْلُكُمْ حَيْرٌ أَوْلٍ، وَآخِرُكُمْ شَرٌّ آخِرٍ. يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ،
النَّاسُ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثْنٍ، أَوْ كَافِرَ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَوْ إِمَامًا
جَائِرًا. يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا، أَوْ سَأَلَهَا
مَا لَمْ يُؤْتَهَا، فَهُوَ لِلَّهِ عَدُوٌّ، وَلَنَا حَرْبٌ. يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، أَخْبِرُونِي عَنْ ثَمَانِيَةِ
أَسْهُمٍ فَرَضَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ، فَجَاءَ تَاسِعٌ لَيْسَ لَهُ مِنْهَا
وَلَا سَهْمٌ وَاحِدٌ، فَأَخَذَهَا لِنَفْسِهِ، مُكَابِرًا مُحَارِبًا لِرَبِّهِ. يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، بَلَّغِي

أَنْكُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي؛ فُلْتُمْ: شَبَابُ أَحْدَاثٍ، وَأَعْرَابُ جَفَاءٍ. وَيُحْكَمُ! يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا شَبَابًا أَحْدَاثًا؟! شَبَابُ وَاللَّهِ مُكْتَهَلُونَ فِي شَبَابِهِمْ، غَضَّةٌ عَنِ الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ، ثَقِيلَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَقْدَامُهُمْ، قَدْ بَاعُوا لِلَّهِ أَنْفُسًا تَمُوتُ بِأَنْفُسٍ لَا تَمُوتُ، قَدْ خَالَطُوا كَالَاهُمْ بِكَالِهِمْ، وَقِيَامَ لَيْلِهِمْ بِصِيَامِ نَهَارِهِمْ، مُنْحَنِيَةٌ أَصْلَابُهُمْ عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ، كَلَّمَا مَرُّوا بِآيَةِ حَوْفٍ شَهَقُوا؛ حَوْفًا مِنَ النَّارِ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةِ شَوْقٍ شَهَقُوا؛ شَوْفًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى السُّيُوفِ قَدِ انْتَضَيْتْ، وَإِلَى الرِّمَاحِ قَدِ شُرِعَتْ، وَإِلَى السِّهَامِ قَدِ فُوقَتْ، وَأُرْعِدَتْ الْكَتِيبَةُ بِصَوَاعِقِ الْمَوْتِ، اسْتَحَفُّوا وَعَيْدَ الْكَتِيبَةِ لَوَعِيدِ اللَّهِ، وَمَ يَسْتَحَفُّوا وَعَيْدَ اللَّهِ لَوَعِيدِ الْكَتِيبَةِ، فَطُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَأْبٍ، فَكَمْ مِنْ عَيْنٍ فِي مَنْقَارِ طَائِرٍ طَالَمَا فَاضَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ حَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَمْ مِنْ يَدٍ زَالَتْ عَنْ مَفْصِلِهَا طَالَمَا اعْتَمَدَ بِهَا صَاحِبُهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ تَقْصِيرِنَا، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَكَانَ أَبُو حَمْرَةَ الْخَارِجِيُّ قَدْ أَحْسَنَ السِّيْرَةَ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ حَتَّى اسْتَمَالَ النَّاسَ حِينَ سَمِعُوهُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: بَرِحَ الْخَفَاءُ أَيَّنَ مَا بِكَ يَذْهَبُ؟! مَنْ زَنَى فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ سَرَقَ فَهُوَ كَافِرٌ. فَأَبْغَضَهُ النَّاسُ، وَرَجَعُوا عَنْ مَحَبَّتِهِ. وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى بَعَثَ مَرْوَانَ الْحِمَارُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَطِيَّةَ أَحَدَ بَنِي سَعْدِ فِي حُيُولِ أَهْلِ الشَّامِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، قَدِ

انْتَحَبَهَا مِنْ جَيْشِهِ، وَأَعْطَى كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مِائَةَ دِينَارٍ، وَفَرَسًا عَرَبِيَّةً وَبَعْلًا لِنَفْلِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَهُ، وَلَوْ لَمْ يَلْحَقْهُ إِلَّا بِالْيَمَنِ فَلْيَتَّبِعْهُ إِلَيْهَا، وَلِيُقَاتِلَ نَائِبَ صَنْعَاءَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى فَسَارَ ابْنُ عَطِيَّةَ حَتَّى بَلَغَ وَادِي الْفَرَى فَتَلَقَاهُ أَبُو حَمْرَةَ الْحَارِجِيُّ قاصِدًا مَرَوَانَ فَاقْتَتَلُوا هُنَالِكَ إِلَى اللَّيْلِ، فَقَالُوا: وَيْحَكَ يَا بَنَ عَطِيَّةَ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا. فَأَبَى أَنْ يُفْلِعَ عَنِ الْقِتَالِ، وَمَا زَالَ يُقَاتِلُهُمْ حَتَّى غَلَبَهُمْ وَكَسَرَهُمْ وَرَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ فَنهَضَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَفَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْفًا كَثِيرًا، وَدَخَلَ ابْنُ عَطِيَّةَ الْمَدِينَةَ وَقَدِ انْهَزَمَ جَيْشُ أَبِي حَمْرَةَ عَنْهَا، فَيُقَالُ: إِنَّهُ أَقَامَ بِهَا شَهْرًا، ثُمَّ سَارَ إِلَى مَكَّةَ وَقَدِ اسْتَحْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ اسْتَحْلَفَ عَلَى مَكَّةَ، وَسَارَ إِلَى الْيَمَنِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى مِنْ صَنْعَاءَ، فَاقْتَتَلَا فَفَقَتَلَ ابْنُ عَطِيَّةَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى وَبَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَى مَرَوَانَ، وَجَاءَ كِتَابُ مَرَوَانَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِعَجَلَةِ السَّيْرِ إِلَى مَكَّةَ لِيُحْجَّ بِالنَّاسِ عَامَهُ هَذَا، فَخَرَجَ مِنْ صَنْعَاءَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَاكِبًا، وَتَرَكَ جَيْشَهُ بِصَنْعَاءَ، وَمَعَهُ خُرُجٌ فِيهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ نَزَلَ مَنْزِلًا هُنَالِكَ، إِذْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ أَمِيرَانِ، يُقَالُ لَهُمَا ابْنَا جُمَانَةَ. مِنْ سَادَاتِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَمَعَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِمَا فَأَحْدَقُوا بِابْنِ عَطِيَّةَ وَأَصْحَابِهِ. فَقَالُوا: وَيْحَكُمْ! أَنْتُمْ لُصُوصٌ. فَقَالَ: وَيْحَكُمْ! هَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ بِأَمْرَةِ الْحَجِّ فِي هَذَا الْعَامِ، فَتَحْنُ نُعَجِّلُ السَّيْرَ لِنَلْحَقَ الْمَوْسِمَ، وَأَنَا ابْنُ عَطِيَّةَ. فَقَالُوا: هَذَا بَاطِلٌ.

ثُمَّ حَمَلُوا عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا ابْنَ عَطِيَّةَ وَأَصْحَابَهُ، وَلَمْ يُفَلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ،
وَأَخَذُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْمَالِ.

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَقَدْ جُعِلَتْ إِلَيْهِ
إِمْرَةُ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَنَائِبُ الْعِرَاقِ يَزِيدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ وَإِمْرَةَ
خُرَاسَانَ إِلَى نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، غَيْرَ أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ قَدْ انْتَزَعَ مِنْهُ أَمَاكِنَ كَثِيرَةً مِنْ
خُرَاسَانَ وَكُورًا وَرَسَاتِيقَ وَقَدْ أَرْسَلَ نَصْرٌ إِلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ يَسْتَمِدُّهُ وَيَسْتَنْجِدُهُ
وَيَطْلُبُ أَنْ يَمُدَّهُ مِنْ عِنْدِهِ بِعَشْرَةِ آلَافٍ قَبْلَ أَنْ لَا يَكْفِيَهُ مِائَةُ أَلْفٍ، وَكَتَبَ
إِلَى مَرْوَانَ يَسْتَمِدُّهُ، فَكَتَبَ مَرْوَانُ إِلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ يَمُدُّهُ بِمَا أَرَادَ.

موت نصر بن سيار وتمكن أبي مسلم من خراسان

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَمِائَةً، وَفِي الْمُحَرَّمِ مِنْهَا وَجَّهَ فَحْطَبَةُ بْنُ
شَيْبٍ وَلَدَهُ الْحَسَنَ إِلَى قَوْمِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ، وَأَرْدَفَهُ بِالْأَمْدَادِ، فَخَامَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَى نَصْرِ، وَارْتَحَلَ نَصْرٌ فَنَزَلَ الرَّيِّ، فَأَقَامَ بِهَا يَوْمَيْنِ، ثُمَّ مَرِضَ، فَسَارَ
مِنْهَا إِلَى هَمْدَانَ، فَلَمَّا كَانَ بِسَاوَةِ قَرِيْبًا مِنْ هَمْدَانَ تُوْفِيَ لِمُضِيِّ ثِنْتِي عَشْرَةَ لَيْلَةً
خَلَّتْ مِنْ رَيْبِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، عَنْ حُمْسٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً، فَلَمَّا مَاتَ
نَصْرٌ تَمَكَّنَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيُّ وَأَصْحَابُهُ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ
جَدًّا، فَسَارَ فَحْطَبَةُ مِنْ جَرْجَانَ، وَقَدِمَ أَمَامَهُ زِيَادُ بْنُ زُرَّارَةَ الْفُشَيْرِيُّ وَكَانَ قَدْ
نَدِمَ عَلَى اتِّبَاعِ أَبِي مُسْلِمٍ فَتَرَكَ الْجَيْشَ، وَأَخَذَ جَمَاعَةً مَعَهُ، وَسَلَكَ طَرِيقَ

أَصْبَهَانَ لِيَأْتِيَ ابْنَ ضُبَارَةَ، فَبَعَثَ فَحْطَبَةَ وَرَأَاهُ جَيْشًا، فَقَتَلُوا عَامَّةَ أَصْحَابِهِ،
وَأَقْبَلَ فَحْطَبَةَ وَرَأَاهُ، فَقَدِمَ قُومِسَ، وَقَدِ افْتَتَحَهَا ابْنُهُ الْحَسَنُ فَأَقَامَ بِهَا، وَبَعَثَ
ابْنَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى الرَّيِّ، ثُمَّ سَاقَ وَرَأَاهُ، فَوَجَدَهُ قَدِ افْتَتَحَهَا، فَأَقَامَ بِهَا وَكَتَبَ
إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ بِذَلِكَ، وَارْتَحَلَ أَبُو مُسْلِمٍ مِنْ مَرَوْ فَزَلَ نَيْسَابُورَ وَاسْتَفْحَلَ أَمْرَهُ
جِدًّا، وَبَعَثَ فَحْطَبَةَ - بَعْدَ دُخُولِهِ الرَّيِّ بِثَلَاثٍ - ابْنَهُ الْحَسَنَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى
هَمْدَانَ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهَا خَرَجَ مِنْهَا مَالِكُ بْنُ أَدَهَمَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَجْنَادِ الشَّامِ
وَخُرَّاسَانَ فَزَلُّوا نَهَاوَنْدَ فَأَفْتَتَحَ الْحَسَنُ هَمْدَانَ، ثُمَّ سَارَ وَرَأَاهُمْ إِلَى نَهَاوَنْدَ،
وَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُوهُ بِالْأَمْدَادِ وَرَأَاهُ، فَجَاءَ فَحَاصَرَهُمْ بِهَا حَتَّى افْتَتَحَهَا.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ مَاتَ عَامِرُ بْنُ ضُبَارَةَ وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ هُبَيْرَةَ كَانَ قَدِ
كَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ إِلَى فَحْطَبَةَ وَأَمَدَّهُ بِالْعَسَاكِرِ، فَسَارَ ابْنُ ضُبَارَةَ حَتَّى التَّمَى
مَعَ فَحْطَبَةَ، وَابْنُ ضُبَارَةَ فِي مِائَةٍ وَخَمْسِينَ أَلْفًا، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عَسَاكِرُ الْعَسَاكِرِ،
وَقَحْطَبَةُ فِي عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمَّا تَوَاجَهَ الْقَرِيقَانِ رَفَعَ فَحْطَبَةُ وَأَصْحَابُهُ
الْمُصَاحِفَ، وَنَادَى الْمُنَادِي: يَا أَهْلَ الشَّامِ، إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى مَا فِي هَذَا
الْمُصْحَفِ. فَسَمِعُوا الْمُنَادِي، وَشَتَمُوا فَحْطَبَةَ، فَأَمَرَ فَحْطَبَةُ أَصْحَابَهُ أَنْ
يَحْمِلُوا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ كَثِيرٌ قِتَالٍ حَتَّى انْهَزَمَ أَصْحَابُ ابْنِ ضُبَارَةَ
وَاتَّبَعَهُمْ أَصْحَابُ فَحْطَبَةَ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَقَتَلُوا ابْنَ ضُبَارَةَ فِي
الْعَسَاكِرِ وَأَخَذُوا مِنْ عَسَاكِرِهِمْ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ.

وَفِيهَا حَاصِرَ قَحْطَبَةَ نَهَاوَنَدَ حِصَارًا شَدِيدًا، حَتَّى سَأَلَهُ أَهْلُ الشَّامِ الَّذِينَ بِهَا أَنْ يَشْعَلَ أَهْلَهَا حَتَّى يَفْتَحُوا لَهُ الْبَابَ، فَفَتَحُوا لَهُ الْبَابَ، وَأَخَذُوا لَهُمْ مِنْهُ أَمَانًا، فَقَالَ لَهُمْ مَنْ بِهَا مِنْ أَهْلِ حُرَّاسَانَ: مَا فَعَلْتُمْ؟ فَقَالُوا: أَخَذْنَا لَنَا وَلَكُمْ أَمَانًا. فَخَرَجُوا ظَائِبِينَ أَهْمٌ فِي أَمَانٍ، فَقَالَ قَحْطَبَةُ لِلْأَمْرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ: كُلُّ مَنْ حَصَلَ عِنْدَهُ أَسِيرٌ مِنَ الْحُرَّاسَانِيِّينَ فَلْيَضْرِبْ عُنُقَهُ وَلْيَأْتِنَا بِرَأْسِهِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يَبْقَ مِمَّنْ كَانَ هَرَبَ مِنْ أَبِي مُسْلِمٍ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَأَطْلَقَ الشَّامِيِّينَ وَأَوْفَى لَهُمْ عَهْدَهُمْ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ الْأَيْمَانِيَّ عَلَيْهِ عَدُوًّا، ثُمَّ بَعَثَ قَحْطَبَةُ - عَنْ أَمْرِ أَبِي مُسْلِمٍ - أَبَا عَوْنٍ إِلَى شَهْرَزُورَ فِي ثَلَاثِينَ أَلْفًا، فَحَاصَرَهَا حَتَّى افْتَتَحَهَا، وَقَتَلَ نَائِبَهَا عُثْمَانَ بْنَ سُفْيَانَ. وَلَمَّا بَلَغَ مَرْوَانَ خَبِرَ قَحْطَبَةَ، وَأَبِي مُسْلِمٍ وَمَا وَقَعَ مِنْ أَمْرِهِمَا تَحَوَّلَ مِنْ حَرَّانَ، فَنَزَلَ بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الرَّابُّ الْأَكْبَرُ.

وَفِيهَا قَصَدَ قَحْطَبَةُ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ نَائِبَ الْعِرَاقِ يَزِيدَ بْنَ عَمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهُ تَقَهَّقَرَ ابْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى وِزَانَ، وَمَا زَالَ يَتَقَهَّقَرُ إِلَى أَنْ جَاوَزَ الْفُرَاتَ، وَجَاءَ قَحْطَبَةُ فَجَازَهُ وَرَاءَهُ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا سَنَدُكُرُهُ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثِنْتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، وَفِي الْمَحْرَمِ مِنْهَا جَارَ قَحْطَبَةُ بْنُ شَيْبٍ الْفُرَاتَ وَمَعَهُ الْجُنُودُ وَالْفُرْسَانُ، وَابْنُ هُبَيْرَةَ مُحْتَمٍ عَلَى فَمِ الْفُرَاتِ مِمَّا يَلِيهِ الْفُلُوجَةُ فِي حَلْقٍ كَثِيرٍ وَجَمِّ غَفِيرٍ، وَقَدْ أَمَدَّهُ مَرْوَانُ بِجُنُودٍ كَثِيرَةٍ، وَأَنْصَفَ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ أَهْرَمَ مِنْ جَيْشِ ابْنِ ضُبَارَةَ. ثُمَّ إِنَّ قَحْطَبَةَ عَدَلَ إِلَى الْكُوفَةِ لِيَأْخُذَهَا، فَاتَّبَعَهُ

ابن هُبَيْرَةَ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْأَرْبَعَاءِ لِثَمَانَ مَضَيْنَ مِنَ الْمُحَرَّمِ افْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِي الْفَرِيقَيْنِ، وَوَلَّى أَهْلُ الشَّامِ مُنْهَازِينَ، وَاتَّبَعَهُمْ أَهْلُ حُرَّاسَانَ، وَفُقِدَ فَحْطَبَةُ مِنَ النَّاسِ، فَأَخْبَرَهُمْ رَجُلٌ أَنَّهُ قُتِلَ، وَأَنَّهُ أَوْصَى أَنْ يَكُونَ أَمِيرُ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَدُهُ الْحَسَنُ، وَلَمْ يَكُنِ الْحَسَنُ حَاضِرًا، فَبَايَعُوا حَمِيدَ بْنَ فَحْطَبَةَ لِأَخِيهِ الْحَسَنِ، وَذَهَبَ الْبَرِيدُ إِلَى الْحَسَنِ لِيَحْضُرَ، وَقُتِلَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ سَادَاتِ الْأُمَرَاءِ، وَالَّذِي قَتَلَ فَحْطَبَةَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ، وَيَحْيَى بْنُ حُصَيْنٍ. وَقِيلَ: بَلْ قَتَلَهُ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ آخِذًا بِثَأْرِ بَنِي نَضْرٍ بِنِ سَيَّارٍ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَوُجِدَ فَحْطَبَةُ فِي الْقَتْلِ، فَدُفِنَ هُنَالِكَ، وَسَارَ الْحَسَنُ بْنُ فَحْطَبَةَ نَحْوَ الْكُوفَةِ، وَقَدْ حَرَجَ بِهَا مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ، وَدَعَا إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَسَوَّدَ، وَكَانَ خُرُوجُهُ لَيْلَةَ عَاشُورَاءَ فِي الْمُحَرَّمِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَأُخْرِجَ عَامِلَهَا مِنْ جِهَةِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، وَهُوَ زِيَادُ بْنُ صَالِحِ الْحَارِثِيِّ وَتَحْوَلَ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ إِلَى قَصْرِ الْإِمَارَةِ، فَفَصَدَهُ حَوْثَرَةُ فِي عِشْرِينَ أَلْفًا مِنْ جِهَةِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ حَوْثَرَةُ مِنَ الْكُوفَةِ جَعَلَ أَصْحَابُهُ يَذْهَبُونَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ فَيَبَايَعُونَهُ لِبَنِي الْعَبَّاسِ، فَلَمَّا رَأَى حَوْثَرَةُ ذَلِكَ ارْتَحَلَ إِلَى وَاسِطَ. وَيُقَالُ: بَلْ دَخَلَ الْحَسَنُ بْنُ فَحْطَبَةَ الْكُوفَةَ، وَكَانَ فَحْطَبَةُ قَدْ جَعَلَ فِي وَصِيَّتِهِ أَنْ تَكُونَ وِرَارَةُ الْخِلَافَةِ إِلَى أَبِي سَلَمَةَ حَفْصِ بْنِ سُلَيْمَانَ مَوْلَى السَّبِيحِ الْكُوفِيِّ الْخَلَّالِ وَهُوَ بِالْكُوفَةِ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِ أَشَارَ أَنْ يَذْهَبَ الْحَسَنُ بْنُ فَحْطَبَةَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَى قِتَالِ ابْنِ هُبَيْرَةَ بِوَاسِطَ، وَأَنْ يَذْهَبَ أَخُوهُ حَمِيدٌ إِلَى الْمَدَائِنِ

وَبَعَثَ الْبُعُوثَ إِلَى كُلِّ جَانِبٍ مِنْ تِلْكَ النَّوَاحِي يَفْتَتِحُونَهَا، وَفَتَحُوا الْبَصْرَةَ،
 افْتَتَحَهَا سَلْمُ بْنُ قُتَيْبَةَ لِابْنِ هُبَيْرَةَ، فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ هُبَيْرَةَ - كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ
 - جَاءَ أَبُو مَالِكٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُسَيْدِ الْخَزَاعِيِّ فَأَخَذَ الْبَصْرَةَ لِأَبِي مُسْلِمِ
 الْخُرَّاسَانِيِّ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رِبْعِ الْآخِرِ مِنْهَا، أُخِذَتْ
 الْبَيْعَةُ لِأَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ
 الْمُطَّلِبِ الْمُلقَّبِ بِالسَّقَّاحِ.

مَقْتَلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْإِمَامِ

قَدْ ذَكَرْنَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ أَنَّ مَرْوَانَ اطَّلَعَ عَلَى كِتَابٍ مِنْ إِبْرَاهِيمَ
 الْإِمَامِ إِلَى أَبِي مُسْلِمِ الْخُرَّاسَانِيِّ يَأْمُرُهُ فِيهِ بِالْأَلَّا يُبْقِيَ أَحَدًا بِأَرْضِ خُرَّاسَانَ مِمَّنْ
 يَتَكَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ إِلَّا أَبَادَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ مَرْوَانُ عَلَى ذَلِكَ سَأَلَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فَقِيلَ
 لَهُ: هُوَ بِالْبَلْقَاءِ. فَكُتِبَ إِلَى نَائِبِ دِمَشْقَ أَنْ يُخْضِرَهُ، وَبَعَثَ رَسُولًا فِي ذَلِكَ
 وَمَعَهُ صِفْتُهُ وَنَعْتُهُ، فَذَهَبَ الرَّسُولُ، فَوَجَدَ أَخَاهُ أَبَا الْعَبَّاسِ السَّقَّاحَ فَاعْتَقَدَ
 أَنَّهُ هُوَ، فَأَخَذَهُ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ لَيْسَ بِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَخُوهُ. فَدَلَّ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
 فَأَخَذَهُ وَذَهَبَ مَعَهُ بِإِمٍّ وَلِدٍ لَهُ يُجْبِئُهَا، وَأَوْصَى إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةَ مِنْ
 بَعْدِهِ أَخُوهُ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّقَّاحُ وَأَمَرَهُمْ بِالْمَسِيرِ إِلَى الْكُوفَةِ، فَارْتَحَلُوا مِنْ قُورِهِمْ
 إِلَيْهَا، وَكَانُوا جَمَاعَةً، مِنْهُمْ أَعْمَامُهُ السِّتَّةُ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ، وَدَاوُدُ، وَعَيْسَى،

وَصَالِحٌ، وَإِسْمَاعِيلُ، وَعَبْدُ الصَّمَدِ بَنُو عَلِيٍّ، وَأَخَوَاهُ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ، وَيَجِي ابْنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَابْنَاهُ مُحَمَّدٌ، وَعَبْدُ الْوَهَّابِ ابْنَا إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ الْمَمْسُوكِ، وَخَلَقَ سِوَاهُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا الْكُوفَةَ أَنْزَلَهُمْ أَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ دَارَ الْوَلِيدِ بْنِ سَعْدِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ فِي بَنِي أَوْدٍ وَكَتَمَ أَمْرَهُمْ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً مِنَ الْفُؤَادِ وَالْأَمْرَاءِ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ، حَتَّى فُتِحَتْ الْبِلَادُ، ثُمَّ بُويعَ لِلسَّقَّاحِ.

وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْإِمَامُ فَإِنَّهُ سِيرَ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَهُوَ بَجْرَانٌ فَحَبَسَهُ كَمَا قَدَّمْنَا، وَمَا زَالَ فِي السِّجْنِ إِلَى هَذِهِ السَّنَةِ، فَمَاتَ فِي صَفَرٍ مِنْهَا فِي السِّجْنِ، عَنْ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: إِنَّهُ عُمٌّ بِمَرْفَقَةٍ وُضِعَتْ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى مَاتَ عَنْ إِحْدَى وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَصَلَّى عَلَيْهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مُهْلَهُلُ بْنُ صَفْوَانَ.

وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ هَذَا كَرِيمًا جَوَادًا مُدَّحًا، لَهُ فَضَائِلُ وَفَوَاضِلُ، رَوَى الْحَدِيثَ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِّهِ وَأَبِي هَاشِمٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَعَنْهُ أَخَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّقَّاحُ، وَأَبُو جَعْفَرٍ عَبْدُ اللَّهِ الْمَنْصُورُ، وَأَبُو مُسْلِمٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُسْلِمِ الْخُرَّاسَانِيِّ، وَمَالِكُ بْنُ الْهَيْثَمِ وَمِنْ كَلَامِهِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ: الْكَامِلُ الْمُرُوءَةِ مَنْ أَحْرَزَ دِينَهُ، وَوَصَلَ رَحْمَهُ، وَاجْتَنَبَ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ.

خِلاَفَةُ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ

لَمَّا بَلَغَ أَهْلَ الْكُوفَةِ مَقْتَلَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ أَرَادَ أَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ أَنْ يُحَوِّلَ الْخِلاَفَةَ إِلَى آلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَلَبَهُ بِقِيَّةِ النُّقْبَاءِ وَالْأُمَرَاءِ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَحْضَرُوا أَبَا الْعَبَّاسِ السَّفَّاحَ^١ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ بِالْخِلاَفَةِ، وَذَلِكَ بِالْكُوفَةِ، وَكَانَ عُمُرُهُ إِذْ ذَاكَ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلاَفَةِ أَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ، وَذَلِكَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ رِبْعِ الْآخِرِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ خَرَجَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ عَلَى بَرْدُونَ أَبْلَقَ، وَالْجُنُودُ مُلَبَّسَةٌ مَعَهُ، حَتَّى دَخَلَ دَارَ الْإِمَارَةِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فِي أَعْلَاهُ، وَعَمُّهُ ذَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ وَقَفَّ دُونَهُ بِثَلَاثِ دَرَجٍ، وَتَكَلَّمَ السَّفَّاحُ وَكَانَ أَوَّلَ مَا نَطَقَ بِهِ أَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ فَكَرَّمَهُ وَشَرَّفَهُ وَعَظَّمَهُ، وَاخْتَارَهُ لَنَا، وَأَيَّدَهُ بِنَا، وَجَعَلَنَا أَهْلَهُ وَكَهْفَهُ وَالْقَوْمَ بِهِ وَالذَّابِينَ عَنْهُ وَالنَّاصِرِينَ لَهُ، وَالزَّمْنَا كَلِمَةَ التَّقْوَى، وَجَعَلْنَا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، حَصَّنَا بِرَحْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَابَتِهِ، وَاشْتَقْنَا مَنْ نَبَعْتِهِ، وَوَضَعْنَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِالْمَوْضِعِ الرَّفِيعِ، وَأَنْزَلَ بِذَلِكَ عَلَى أَهْلِ

^١ يقال إن الناس لقبوه بالسفاح بسبب كثرة عطاياه، حين قال في خطبته: "وقد زدتم في أعطياتكم مئة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح الهائج، والثائر المبير"، فجاء لفظ السفاح هنا بمعنى الكريم الذي يسفح المال، أي يسكبه، ويصبه ويسيله.

الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}. وقال: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} وقال: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}. وقال: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى}. فأعلمهم الله عزَّ وجلَّ فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزَلَ من الفِيَءِ والغَنِيمَةِ نصيبنا؛ تَكْرِمَةً لَنَا، وَفَضْلَةً عَلَيْنَا، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَرَعَمَتِ السَّبْيِيَّةُ^١ الضَّلَالُ أَنْ عَيَّرْنَا أَحَقُّ بِالرِّيَاسَةِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْخِلَافَةِ مِنَّا، فَشَاهَتِ وُجُوهُهُمْ، بِمِ وَلِمَ أَيُّهَا النَّاسُ؟! وَبِنَا هَدَى اللَّهُ النَّاسَ بَعْدَ ضَلَالَتِهِمْ، وَبَصَّرَهُمْ بَعْدَ جَهَالَتِهِمْ، وَأَنْقَذَهُمْ بَعْدَ هَلَكَتِهِمْ، وَأَظْهَرَ بِنَا الْحَقَّ، وَأَدْحَضَ بِنَا الْبَاطِلَ، وَأَصْلَحَ بِنَا مِنْهُمْ مَا كَانَ فَاسِدًا، وَرَفَعَ بِنَا الْخَسِيسَةَ، وَأَتَمَّ النَّقِيسَةَ، وَجَمَعَ الْفِرْقَةَ، حَتَّى عَادَ النَّاسُ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ أَهْلَ تَعَاطُفٍ وَبِرٍّ وَمُؤَاسَاةٍ فِي دُنْيَاهُمْ، وَإِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ فِي أُحْرَاهُمْ، فَتَحَّ اللَّهُ ذَلِكَ مِنَّةً وَمَنْحَةً لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَامَ بِذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أَصْحَابُهُ، وَأَمَرَهُمْ سُورَى بَيْنِهِمْ، فَحَوَّوْا مَوَارِيثَ الْأُمَمِ، فَعَدَلُوا فِيهَا، وَوَضَعُوهَا مَوَاضِعَهَا، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا، وَخَرَجُوا خِمَاصًا مِنْهَا، ثُمَّ وَثَبَ بَنُو حَرْبٍ وَمَرَوَانٍ فَابْتَزُّوهَا وَتَدَاوَلُوهَا، فَجَارُوا فِيهَا، وَاسْتَأْتَرُوا بِهَا، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا، فَأَمَلَى اللَّهُ لَهُمْ حِينًا حَتَّى آسَفُوهُ،

^١ ذكر السفاح للسبئية دليل تاريخي لا يقبل الشك في وجودهم.

فَلَمَّا آسَفُوهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَيْدِينَا، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا، وَتَدَارَكَ بِنَا أُمَّتَنَا، وَوَلَّى نَصْرَنَا وَالْقِيَامَ بِأَمْرِنَا؛ لِيَمُنَّ بِنَا عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ، وَخَتَمَ بِنَا كَمَا افْتَتَحَ بِنَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْجُورُ مِنْ حَيْثُ جَاءَكُمُ الْخَيْرُ، وَلَا الْفَسَادُ مِنْ حَيْثُ جَاءَكُمُ الصَّلَاحُ، وَمَا تَوْفِيقُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَّا بِاللَّهِ، يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ مَحَلُّ مَحَبَّتِنَا، وَمَنْزِلُ مَوَدَّتِنَا، وَأَنْتُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِنَا وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيْنَا، وَقَدْ زِدْتُمْ فِي أُعْطِيَاتِكُمْ مِائَةَ دِرْهَمٍ، فَاسْتَعِدُّوا، فَإِنَّا السَّقَّاحُ الْهَائِجُ، وَالتَّائِرُ الْمُبِيرُ.

وَكَانَ بِهِ وَعَكُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَهَضَّ عَمَّهُ دَاوُدُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا شُكْرًا الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّنَا، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ نَبِينَا، أَيُّهَا النَّاسُ، الْآنَ انْقَشَعَتْ حَنَادِسُ الظُّلْمَاتِ، وَانْكَشَفَ غِطَاؤُهَا، وَأَشْرَقَتْ أَرْضُهَا وَسَمَاوُهَا، وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَعِهَا، وَبَرَعَ الْقَمَرُ مِنْ مَبْرِعِهِ، وَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نَصَابِهِ فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ؛ أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِكُمْ وَالْعَطْفِ عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا فِي طَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ لِنُكْتَبِرَ لِحِينًا وَلَا عَقِيَانًا، وَلَا لِنَحْفِرَ نَهْرًا، وَلَا لِنَبْنِي قَصْرًا، وَإِنَّمَا أَخْرَجْنَا الْأَنْفَةَ مِنْ ابْتِرَازِهِمْ حَقَّنَا، وَالْعَضْبُ لِنَبِي عَمَّنَا، وَلِسُوءِ سِيرَةِ بَنِي أُمَيَّةَ فِيكُمْ، وَاسْتِدْلَالِهِمْ لَكُمْ، وَاسْتِثْنَائِهِمْ بِفَيْئِكُمْ وَصَدَقَاتِكُمْ، فَلَكُمْ عَلَيْنَا ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ أَنْ نَحْكُمَ فِيكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَنَعْمَلَ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَنَسِيرَ فِي الْعَامَّةِ مِنْكُمْ وَالْخَاصَّةِ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَبَّا تَبَّا لِنَبِي أُمَيَّةَ وَبَنِي مَرْوَانَ؛ آثَرُوا الْعَاجِلَةَ

عَلَى الْأَجَلَةِ، وَالِدَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ، فَرَكِبُوا الْأَثَامَ وَظَلَمُوا الْأَنَامَ،
وَارْتَكَبُوا الْمَحَارِمَ، وَعَشَوْا الْجَرَائِمَ، وَجَارُوا فِي سِيرَتِهِمْ فِي الْعِبَادِ، وَسَنَّتِهِمْ فِي
الْبِلَادِ، الَّتِي بِهَا اسْتَلْدُوا تَسْرِيْلَ الْأَوْزَارِ، وَتَجَلَّبَبَ الْأَصَارِ، وَمَرِحُوا فِي أَعِنَّةِ
الْمَعَاصِي، وَرَكَضُوا فِي مِيَادِينِ الْعَيِّ؛ جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ، وَأَمْنَا لِمَكْرِ اللَّهِ،
فَأَتَاهُمْ بِأَسْرِ اللَّهِ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحُوا أَحَادِيثَ، وَمُزِقُوا كُلَّ مُزِقٍ، فَبَعْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَأَدَلْنَا اللَّهَ مِنْ مَرْوَانَ وَقَدْ غَرَّهُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ، وَأَرْسَلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ
فِي عِنَانِهِ حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ خِطَامِهِ، أَظَنَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ؟!
فَنَادَى حِزْبُهُ، وَجَمَعَ مَكَائِدَهُ، وَرَمَى بِكِتَابِيهِ، فَوَجَدَ أَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ وَعَنْ يَمِينِهِ
وَشِمَالِهِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَبَأْسِهِ وَنِقْمَتِهِ مَا أَمَاتَ بَاطِلُهُ، وَمَحَقَّ ضَلَالُهُ، وَجَعَلَ دَائِرَةَ
السَّوْءِ بِهِ، وَأَحْيَا شَرَفَنَا وَعِزَّنَا، وَرَدَّ إِلَيْنَا حَقَّنَا وَإِرْتِنَا، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ - نَصَرَهُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيًّا - إِذَا عَادَ إِلَى الْمِنْبَرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، لِأَنَّهُ كَرِهَ
أَنْ يَخْلُطَ بِكَلَامِ الْجُمُعَةِ غَيْرَهُ، وَإِنَّمَا قَطَعَهُ عَنِ اسْتِسْمَامِ الْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ اسْتَحْنَفَرَ
فِيهِ، شِدَّةَ الْوَعَكِ، فَادْعُوا اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَافِيَةِ، فَقَدْ أَبْدَلَكُمْ اللَّهُ بِمَرْوَانَ
عَدُوِّ الرَّحْمَنِ، وَخَلِيفَةَ الشَّيْطَانِ، الْمُتَّبِعِ لِلسَّفَلَةِ الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
صَلَاحِهَا، الشَّابَّ الْمُتَكَهِّلَ، الْمُقْتَدِيَ بِسَلْفِهِ الْأَبْرَارِ الْأَخْيَارِ، الَّذِينَ أَصْلَحُوا
الْأَرْضَ بَعْدَ فَسَادِهَا بِعَالِمِ الْهُدَى، وَمَنَاهِجِ التَّقَى.

فَعَجَّ النَّاسُ لَهُ بِالِدُّعَاءِ، ثُمَّ قَالَ: وَعَلِّمُوا يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ أَنَّهُ لَمْ يَصْعَدْ مِنْبَرِكُمْ
هَذَا خَلِيفَةٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ

أبي طالبٍ وأميرُ المؤمنينَ عبدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ هذا - وأشارَ بيدهِ إلى السَّفاحِ -
 - وأعلمُوا أنَّ هذا الأمرَ فينا ليسَ بِخارجٍ مِنَّا حتَّى نُسلمَهُ إلى عيسى بنِ مريمَ
 عليه السَّلَامُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا أَبْلَانَا وَأَوْلَانَا. ثُمَّ نَزَلَ أَبُو
 الْعَبَّاسِ، وَدَاوُدُ حَتَّى دَخَلَ الْقَصْرَ. ثُمَّ دَخَلَ النَّاسُ يُبَايِعُونَ إِلَى الْعَصْرِ، ثُمَّ مِنْ
 بَعْدِ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ.

السفاح يرسل جيوشه لبيسط سلطان العباسيين

ثُمَّ إِنَّ أبا الْعَبَّاسِ حَرَجَ فَعَسَكَرَ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَيْهَا عَمَّهُ دَاوُدَ
 بنَ عَلِيٍّ، وَبَعَثَ عَمَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَلِيٍّ إِلَى أَبِي عَوْنِ بنِ يَزِيدَ، وَبَعَثَ ابْنَ
 أَخِيهِ عَيْسَى بنَ مُوسَى إِلَى الْحُسَيْنِ بنِ قَحْطَبَةَ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ بِوَاسِطِ مُحَاصِرِ ابْنِ
 هُبَيْرَةَ، وَبَعَثَ يَحْيَى بنَ جَعْفَرِ بنِ تَمَّامِ بنِ الْعَبَّاسِ إِلَى حَمِيدِ بنِ قَحْطَبَةَ بِالْمَدَائِنِ،
 وَبَعَثَ أبا الْيُظْطَانَ عَثْمَانَ بنَ عُرْوَةَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ إِلَى بَسَّامِ بنِ
 إِبْرَاهِيمِ بنِ بَسَّامِ بِالْأَهْوَازِ، وَبَعَثَ سَلَمَةَ بنَ عَمْرٍو بنِ عَثْمَانَ إِلَى مَالِكِ بنِ
 الطَّوَّافِ. وَأَقَامَ هُوَ بِالْعَسْكَرِ أَشْهُرًا، ثُمَّ ارْتَحَلَ فَنَزَلَ الْمَدِينَةَ الْهَاشِمِيَّةَ فِي قَصْرِ
 الْإِمَارَةِ، وَقَدْ تَنَكَّرَ لِأَبِي سَلَمَةَ الْحَلَّالِ وَذَلِكَ لِمَا كَانَ بَلَغَهُ عَنْهُ مِنَ الْعُدُولِ
 بِالْخِلَافَةِ عَنْ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى آلِ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 أَعْلَمُ.

مَقْتَلُ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ

أَخْرَجَ خُلَفَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ وَتَحَوَّلَ الخِلافةَ إِلَى بَنِي العَبَّاسِ وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَرْوَانَ لَمَّا بَلَغَهُ مَا جَرَى بِأَرْضِ حُرَّاسَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِي مُسْلِمٍ وَأَتْبَاعِهِ، تَحَوَّلَ مِنْ حَرَّانَ، فَانزَلَ عَلَى هَرِّ قَرِيبٍ مِنَ الْمُوصِلِ يُقَالُ لَهُ: الزَّابُ. مِنْ أَرْضِ الجَزِيرَةِ، ثُمَّ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ السَّقَّاحَ قَدْ بُويعَ لَهُ بِالكُوفَةِ وَالتَّفَّ عَلَيْهِ الجُنُودُ، وَاجْتَمَعَ لَهُ أَمْرُهُ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَجَمَعَ جُنُودَهُ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَبُو عَوْنِ بْنِ يَزِيدَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَنَارَلَهُ عَلَى الزَّابِ، وَجَاءَتْهُ الأَمْدَادُ مِنْ جِهَةِ السَّقَّاحِ، ثُمَّ نَدَبَ السَّقَّاحُ النَّاسَ مِنْ يَلِيهِ القِتَالِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَانْتَدَبَ عُمَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ فَقَالَ: سِرَّ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسَارَ فِي جُنُودِ كَثِيرَةٍ، فَقَدَّمَ عَلَى أَبِي عَوْنٍ فَتَحَوَّلَ لَهُ أَبُو عَوْنٍ عَنِ سُرَادِقِهِ وَخَلَّاهُ لَهُ وَمَا فِيهِ، وَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَى شُرطَتِهِ حِيَاشَ بْنَ حَبِيبِ الطَّائِيِّ وَعَلَى حَرَسِهِ نُصَيْرَ بْنَ الْمُحْتَفِزِ، وَوَجَّهَ أَبُو العَبَّاسِ مُوسَى بْنَ كَعْبٍ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا عَلَى البَرِيدِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ يَحْتُمُّهُ عَلَى مُنَاجِرَةِ مَرْوَانَ وَالمُبَادَرَةِ إِلَى قِتَالِهِ وَنَزَالِهِ، فَتَقَدَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى وَاجَهَ جَيْشَ مَرْوَانَ وَهَضَّ مَرْوَانَ فِي جُنُودِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَتَصَافَّ القَرِيفَانِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ مَعَ مَرْوَانَ يَوْمَئِذٍ مِائَةٌ أَلْفٍ وَحَمْسُونَ أَلْفًا. وَقِيلَ: مِائَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ

فِي عِشْرِينَ أَلْفًا. فَقَالَ مَرْوَانُ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِنَّ زَالَتْ
الشَّمْسُ يَوْمَئِذٍ وَمَ يُقَاتِلُونَا، كُنَّا الَّذِينَ نَدْفَعُهَا إِلَى عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَإِنْ
قَاتَلُونَا قَبْلَ الرَّوَالِ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

ثُمَّ أَرْسَلَ مَرْوَانُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ يَسْأَلُهُ الْمُوَادَعَةَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَذَبَ
ابْنُ زُرَيْقٍ لَا تَزُولُ الشَّمْسُ حَتَّى أُوْطِعَهُ الْحَيْلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ
السَّبْتِ لِإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَقَالَ
مَرْوَانُ لِأَهْلِ الشَّامِ: قِفُوا، لَا تَبْدَءُواهُمْ بِقِتَالٍ. وَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الشَّمْسِ،
فَخَالَفَهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ مَرْوَانَ - وَهُوَ حَتَّى مَرْوَانَ عَلَى ابْنَتِهِ - فَحَمَلَ،
فَعَضِبَ مَرْوَانُ وَشْتَمَهُ، فَقَاتَلَ أَهْلَ الْمَيْمَنَةِ، فَأَنحَاَزَ أَبُو عَوْنٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَلِيٍّ فَقَالَ مُوسَى بْنُ كَعْبٍ، لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ: مَرِ النَّاسَ فَلْيَنْزِلُوا. فَنُودِيَ:
الْأَرْضَ. فَنَزَلَ النَّاسُ وَأَشْرَعُوا الرِّمَاحَ، وَجَثُوا عَلَى الرَّكْبِ وَقَاتَلُوهُمْ، وَجَعَلَ
أَهْلُ الشَّامِ يَتَأَخَّرُونَ كَأَنَّمَا يَدْفَعُونَ، وَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ يَمْشِي قُدَمَا وَهُوَ يَقُولُ:
يَا رَبِّ حَتَّى مَتَى نُقْتَلُ فِيكَ؟ وَنَادَى: يَا أَهْلَ حُرَّاسَانَ، يَا لِثَارَاتِ إِبْرَاهِيمَ، يَا
مُحَمَّدُ، يَا مَنْصُورُ. وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ مَرْوَانُ إِلَى قُضَاعَةَ يَأْمُرُهُمْ
بِالنُّزُولِ، فَقَالُوا: قُلْ لِبَنِي سُلَيْمٍ فَلْيَنْزِلُوا. وَأَرْسَلَ إِلَى السَّكَّاسِكِ أَنْ أَحْمِلُوا.
فَقَالُوا: قُلْ لِبَنِي عَامِرٍ فَلْيَحْمِلُوا. فَأَرْسَلَ إِلَى السَّكُونِ أَنْ أَحْمِلُوا. فَقَالُوا: قُلْ
لِعَطْفَانَ فَلْيَحْمِلُوا. فَقَالَ لِصَاحِبِ شُرْطَتِهِ: انزِلْ. فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَجْعَلُ

نَفْسِي غَرَضًا. قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لِأَسْوَأَنَّاكَ. قَالَ: وَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّكَ قَدَرْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لِابْنِ هُبَيْرَةَ.

ثُمَّ انْهَزَمَ أَهْلُ الشَّامِ وَاتَّبَعَهُمْ أَهْلُ حُرَّاسَانَ فِي أَدْبَارِهِمْ يَفْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ، وَكَانَ مِنْ غَرَقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَكْثَرَ مِمَّنْ قُتِلَ، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ غَرَقٍ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَحْلُوعِ، وَقَدْ أَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بِعَقْدِ الْجِسْرِ، وَاسْتِخْرَاجِ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْغَرَقِيِّ، وَجَعَلَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}. وَأَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ فِي مَوْضِعِ الْمَعْرَكَةِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ.

وَاحْتَارَ عَبْدُ اللَّهِ مَا كَانَ فِي مُعَسْكَرِ مَرْوَانَ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالْحَوَاصِلِ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ امْرَأَةً سِوَى جَارِيَةٍ كَانَتْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْوَانَ، وَكَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّقَّاحِ يُخْبِرُهُ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّصْرِ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ؛ فَصَلَّى السَّقَّاحُ رُكْعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَطْلَقَ لِكُلِّ مَنْ حَضَرَ الْوُقُوعَةَ حَمْسِمِائَةَ حَمْسِمِائَةٍ، وَرَفَعَ فِي أَرْزَاقِهِمْ إِلَى ثَمَانِينَ، وَجَعَلَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ}.

صِفَةُ مَقْتَلِ مَرْوَانَ الْحِمَارِ

لَمَّا انْهَزَمَ مَرْوَانَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ سَارَ لَا يَلْوِي عَلَى أَحَدٍ، فَأَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ فِي مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ سَارَ فِي طَلَبِهِ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنُودِ، وَذَلِكَ عَنِ

أَمْرِ السَّقَّاحِ لَهُ بِذَلِكَ، فَلَمَّا مَرَّ مَرْوَانَ بَحْرَانَ اجْتَاَزَ بِهَا، وَأَخْرَجَ أَبَا مُحَمَّدٍ السُّفْيَانِيَّ مِنْ سِجْنِهِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَيْهَا أَبَانَ بْنَ يَزِيدَ وَهُوَ ابْنُ أَخِيهِ وَزَوْجُ ابْنَتِهِ أُمِّ عَثْمَانَ، فَلَمَّا قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ حَرَّانَ حَرَجَ إِلَيْهِ أَبَانُ بْنُ يَزِيدَ مُسَوِّدًا، فَأَمَّنَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ وَأَقَرَّهُ عَلَى عَمَلِهِ، وَهَدَمَ الدَّارَ الَّتِي سُجِنَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْإِمَامَ.

وَاجْتَاَزَ مَرْوَانَ بِقَنْسَرِينَ قَاصِدًا إِلَى حِمصَ، فَلَمَّا جَاءَهَا حَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا بِالْأَسْوَاقِ، فَأَقَامَ بِهَا يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ شَخَّصَ مِنْهَا، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّةَ مَنْ مَعَهُ اتَّبَعُوهُ؛ طَمَعًا فِيهِ، وَقَالُوا: مَرْعُوبٌ مِنْهُمْ. فَأَذْرَكُوهُ بِوَادٍ عِنْدَ حِمصَ، فَأَكْمَنَ هُمْ أَمِيرَيْنِ، فَلَمَّا تَلَاخَثُوا بِمَرْوَانَ عَطَفَ عَلَيْهِمْ، فَنَاشَدَهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا، فَأَبَوْا إِلَّا مُقَاتَلَتَهُ، فَتَارَ الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ، وَتَارَ الْكَمِينَانِ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَانْهَزَمَ الْحَمِصِيُّونَ، وَجَاءَ مَرْوَانُ إِلَى دِمَشْقَ وَعَلَى نِيَابَتِهَا مِنْ جِهَتِهِ زَوْجُ ابْنَتِهِ أُمِّ الْوَلِيدِ، وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ مَرْوَانَ، فَتَرَكَهُ بِهَا، وَاجْتَاَزَ عَنْهَا قَاصِدًا إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ لَا يَمُرُّ بِبَلَدٍ إِلَّا حَرَجُوا وَقَدَّ سَوْدُوا، فَيُبَايِعُونَهُ وَيُعْطِيهِمُ الْأَمَانَ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَنْسَرِينَ وَصَلَ إِلَيْهِ أَخُوهُ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ عَلِيٍّ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ، وَقَدَّ بَعَثَهُمُ السَّقَّاحُ مَدَدًا لَهُ، ثُمَّ سَارَ عَبْدُ اللَّهِ حَتَّى أَتَى حِمصَ، ثُمَّ سَارَ مِنْهَا إِلَى بَعْلَبَكَّ، وَجَاءَ دِمَشْقَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمِزَّةِ فَنَزَلَ بِهَا

يَوْمِينَ، ثُمَّ جَاءَهُ أَحْوَهُ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ فِي ثَمَانِيَةِ آلَافٍ مَدَدًا مِنَ السَّقَّاحِ، فَنَزَلَ صَالِحٌ بِمَرْجِ عَذْرَاءَ، وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ دِمَشْقَ نَزَلَ عَلَى الْبَابِ الشَّرْقِيِّ، وَنَزَلَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى بَابِ الْجَائِيَةِ، وَنَزَلَ أَبُو عَوْنٍ عَلَى بَابِ كَيْسَانَ، وَبَسَّامُ عَلَى بَابِ الصَّغِيرِ، وَحُمَيْدُ بْنُ قَحْطَبَةَ عَلَى بَابِ ثُومَا، وَعَبْدُ الصَّمَدِ، وَيَحْيَى بْنُ صَفْوَانَ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ يَزِيدَ عَلَى بَابِ الْفَرَادِيسِ فَحَاصَرُوهَا أَيَّامًا، ثُمَّ افْتَتَحَهَا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لِعَشْرِ خَلَوْنَ مِنْ رَمَضَانَ هَذِهِ السَّنَةِ، فَقَتَلَ مِنْ أَهْلِهَا خَلْفًا كَثِيرًا، وَأَبَاحَهَا ثَلَاثَ سَاعَاتٍ، وَهَدَمَ سُورَهَا، وَيُقَالُ: إِنَّ أَهْلَهَا لَمَّا حَاصَرَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، مَا بَيْنَ عَبَّاسِيٍّ وَأُمَوِيٍّ، حَتَّى افْتَتَلُوا، فَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَتَلُوا نَائِبَهُمْ، ثُمَّ سَلَّمُوا الْبَلَدَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَ السُّورَ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ الطَّائِي. وَمِنْ نَاحِيَةِ الْبَابِ الصَّغِيرِ بَسَّامُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ أُبِيحَتْ دِمَشْقُ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ قُتِلَ بِهَا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ نَحْوًا مِنْ حَمْسِينَ أَلْفًا.

وَأَقَامَ بِهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ سَارَ وَرَاءَ مَرْوَانَ فَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْكُسُوفَةِ، وَوَجَّهَ يَحْيَى بْنَ جَعْفَرِ الْهَاشِمِيِّ نَائِبًا عَلَى دِمَشْقَ، ثُمَّ انْزَحَلَ إِلَى الْأُرْدُنِّ فَأَتَوْهُ وَقَدِ سَوَّدُوا، ثُمَّ سَارَ إِلَى بَيْسَانَ، ثُمَّ سَارَ فَنَزَلَ مَرْجَ الرُّومِ ثُمَّ أَتَى نَهْرَ أَبِي فُطْرُسَ، فَوَجَدَ مَرْوَانَ قَدْ هَرَبَ فَدَخَلَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ، وَجَاءَهُ كِتَابُ السَّقَّاحِ أَنَّ وَجَّهَ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ فِي طَلَبِ مَرْوَانَ وَيُقِيمُ هُوَ بِالشَّامِ نَائِبًا عَلَيْهَا، فَسَارَ صَالِحٌ فِي طَلَبِ مَرْوَانَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَمَعَهُ أَبُو عَوْنٍ، وَعَامِرُ

بُنِ إِسْمَاعِيلَ فَنَزَلَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَجَمَعَ مَا هُنَاكَ مِنَ السُّفُنِ، وَبَلَعَهُ أَنْ مَرَّوَانَ قَدْ نَزَلَ الْفَرَمَاءَ، فَجَعَلَ يَسِيرُ عَلَى السَّاحِلِ وَالسُّفُنُ تُقَادُ مَعَهُ فِي الْبَحْرِ حَتَّى أَتَى الْعَرِيشَ ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى النَّيْلِ ثُمَّ سَارَ إِلَى الصَّعِيدِ، فَعَبَّرَ مَرَّوَانَ النَّيْلَ، وَقَطَعَ الْجِسْرَ وَحَرَّقَ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْعَلْفِ وَالطَّعَامِ، وَمَضَى صَالِحٌ فِي طَلَبِهِ، فَالْتَقَى بِخَيْلٍ لِمَرَّوَانَ فَهَزَمَهُمْ، ثُمَّ جَعَلَ كُلُّمَا اتَّقَوْا مَعَ خَيْلٍ لِمَرَّوَانَ يَهْزِمُوهُمْ، حَتَّى سَأَلُوا بَعْضَ مَنْ أَسْرُوا عَنْ مَرَّوَانَ فَدَلُّوهُمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا بِهِ فِي كَنَيْسَةِ بُوصِيرٍ، فَوَافَوْهُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَأَهْزَمَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنْدِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مَرَّوَانُ فِي نَفَرٍ يَسِيرٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ حَتَّى قَتَلُوهُ؛ طَعَنَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يُقَالُ لَهُ: مَعْوَدٌ. وَلَا يَعْرِفُهُ، حَتَّى قَالَ رَجُلٌ: صُرِعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. فَابْتَدَرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ كَانَ يَبِيعُ الرُّمَانَ، فَاحْتَزَّ رَأْسَهُ، فَبَعَثَ بِهِ عَامِرُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَمِيرٌ هَذِهِ السَّرِيَّةِ إِلَى أَبِي عَوْنٍ، فَبَعَثَ بِهِ أَبُو عَوْنٍ إِلَى صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ، فَبَعَثَ بِهِ صَالِحٌ مَعَ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: حُرَيْمَةُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ هَانِيٍّ. كَانَ عَلَى شُرْطَتِهِ، إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّفَّاحِ.

وَكَانَ مَقْتَلُ مَرَّوَانَ يَوْمَ الْأَحَدِ لِثَلَاثِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ وَمِائَةٍ، فَكَانَتْ خِلَافَتُهُ خَمْسَ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ، عَلَى الْمَشْهُورِ، وَاحْتَلَفُوا فِي سِنِّهِ يَوْمَ قُتِلَ؛ فَقِيلَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ صَالِحَ بْنِ عَلِيٍّ سَارَ إِلَى الشَّامِ، وَاسْتَحْلَفَ عَلَى مِصْرَ أَبَا عَوْنِ بْنِ يَزِيدَ.

تَرْجَمَةَ مَرْوَانَ الْحِمَارِ

وَهَذَا شَيْءٌ مِنْ تَرْجَمَةِ مَرْوَانَ الْحِمَارِ: هُوَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ، الْقُرَشِيُّ الْأُمَوِيُّ أَبُو عَبْدِ الْمَلِكِ، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ آخِرُ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَأُمُّهُ أَمَةٌ كُرْدِيَّةٌ يُقَالُ لَهَا لُبَابَةٌ. وَكَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْتَرِ النَّخَعِيِّ أَخَذَهَا مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ يَوْمَ قَتْلِهِ، فَاسْتَوْلَدَهَا مَرْوَانَ هَذَا، وَيُقَالُ: إِهْمَا كَانَتْ أَوْلَا لِمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ. وَقَدْ كَانَتْ دَارُ مَرْوَانَ هَذَا فِي سُوقِ الْأَكْفَانِ. بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ قَتْلِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ، وَبَعْدَ مَوْتِ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ، ثُمَّ قَدِمَ دِمَشْقَ كَمَا ذَكَرْنَا، وَحَلَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَاسْتَنْبَتَ لَهُ الْأَمْرَ فِي النَّصْفِ مِنْ صَفْرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ. وَقَالَ أَبُو مَعْشَرٍ: بُويعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ، سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: مَرْوَانُ الْجَعْدِيُّ، نِسْبَةً إِلَى رَأْيِ الْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، وَيُلَقَّبُ بِالْحِمَارِ، وَهُوَ آخِرُ مَنْ مَلَكَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ؛

١ لقب آخر خلفاء الدولة الأموية بـ"الحمار" وهو ما اعتبره البعض إهانة له، لكن في الحقيقة كان هذا اللقب مديحا في صبر وقوة آخر خلفاء بني أمية؛ فيحسب الإمام الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء" لقب مروان محمد بالحمار، حيث قيل عنه: "أصبر في الحرب من حمار" حيث كان مروان بطلاً شجاعاً داهية، وقيل: سمي بهذا اللقب: لأن العرب تسمى كل مائة عام حمارة، فلما قارب

كَانَتْ خِلَافَتُهُ مُنْذُ سَلَّمَ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى أَنْ بُويعَ لِلسَّقَّاحِ حَمْسَ سِنِينَ وَشَهْرًا، وَبَقِيَ مَرْوَانَ بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقَّاحِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ.

وَكَانَ أَبْيَضَ مُشْرَبًا، أَرْزَقَ الْعَيْنَيْنِ، كَبِيرَ اللَّحْيَةِ، ضَحْمَ الْهَامَةِ، رُبْعَةً، وَلَمْ يَكُنْ يَخْضِبُ. وَلَا هِشَامُ نِيَابَةَ أَدْرِيجَانَ وَإِرْمِينِيَّةَ وَالْجَزِيرَةَ فِي سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ، فَفَتَحَ بِلَادًا كَثِيرَةً وَحُصُونًا مُتَعَدِّدَةً فِي سِنِينَ كَثِيرَةٍ، وَكَانَ لَا يُفَارِقُ الْعَزْوَةَ، قَاتِلَ طَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ وَالتَّرِكِ وَالتَّخَزِرِ وَالتَّلَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَكَسَرَهُمْ وَقَهَرَهُمْ، وَقَدْ كَانَ شَجَاعًا، بَطَلًا مُقَدِّمًا، حَازِمَ الرَّأْيِ، وَلَكِنْ مَنْ يُخَذِّلِ اللَّهَ يُخَذَّلِ.

وَقَدْ كَانَ مَرْوَانَ كَثِيرَ الْمُرُوءَةِ، يُعْجِبُهُ اللَّهْوُ وَالطَّرَبُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَشْتَغِلُ عَنْ ذَلِكَ بِالْحَرْبِ.

انتهى كتاب

دولة بني أمية

المحتويات

٦ هذا الكتاب
١٠ بداية الكتاب
١٠ الدولة الأموية الأولى (السُفيانية: ٤١ - ٦٤ هـ)
١١ أخذ البيعة ليزيد
١٢ وفاة معاوية
١٣ إِمَارَةُ يَزِيدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ
١٤ أول أعمال يزيد محاولة أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير
١٨ موت يزيد وإِمَارَةُ مُعَاوِيَةَ بْنِ يَزِيدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ
١٨ إِمَارَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
١٩ بَيْعَةُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ
٢٠ الدولة الأموية الثانية (المروانية: ٦٤ - ١٣٢ هـ)
٢٠ خِلَافَةُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ
٢٠ بناء عبد الملك قبة الصخرة مكابدة لابن الزبير
٢٤ مَقْتَلُ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ
٢٥ الحِجَاجُ وحِصَارُ مَكَّةِ الثَّانِي
٢٦ مَقْتَلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
٢٧ الحِجَاجُ ينقُضُ ما بناه ابنُ الزبير في الكعبة
٢٨ تولية المَهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ حَرْبِ الْأَرَارِقَةِ
٢٩ موتُ عبد الله بن عمر بن الخطاب
٣٤ الحِجَاجُ في العراق
٤٠ ثورة أهل البصرة والحوارج على الحِجَاجِ

- ٤٢ محاولة اغتيال الخوارج عبد الملك في الحج
- ٤٤ اشتداد الخوارج في الجزيرة الفراتية
- ٥٠ ولادة مروان الحمار
- ٥١ هزيمة جيش الحجاج على يد الخوارج
- ٥٣ هزيمة شبيب والخوارج
- ٥٦ مقتل شبيب زعيم الخوارج
- ٥٨ ترجمة شبيب بن يزيد
- ٦٠ استقرار الأمر للحجاج بعد هزيمة الخوارج
- ٦١ مقتل الحارث بن سعيد الممتنبي الكذاب
- ٦٨ مقتل قطري بن الفخاءة
- ٧٠ السيل الجحاف بمكة
- ٧١ القصاص من رثيل
- ٧٤ فتنه ابن الأشعث
- ٨٠ وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج
- ٨٢ وقعة دير الجماجم
- ٨٤ عبد الملك يفكر في عزل الحجاج دفعاً للفتنة
- ٨٧ وفاة المهلب بن أبي صفرة
- ٨٩ هزيمة ابن الأشعث وفراره
- ٩٥ بناء الحجاج واسطاً
- ٩٦ سنة الحريق
- ٩٧ وفاة عبدالعزير بن مروان
- ٩٨ ترجمة عبد العزيز بن مروان رحمه الله تعالى

- ١٠١ الوليد بن عبد الملك ولي العهد
- ١٠١ البيعة للوليد ثم سليمان بن عبد الملك
- ١٠٢ طاعون الفتيات
- ١٠٤ وفاة عبد الملك بن مروان والد الخلفاء الأمويين
- ١٠٩ ذكر أولاده وأزواجه
- ١١١ خلافة الوليد بن عبد الملك
- ١١١ بناء مسجد دمشق
- ١١٢ إمارة عمر بن عبدالعزيز على المدينة
- ١١٧ فتح حصن طوانة
- ١١٨ توسعة المسجد النبوي
- ١٢١ غزو بلاد الروم
- ١٢٣ فتح مدينة بخارى
- ١٣١ فتح طارق بن زياد بلاد الأندلس
- ١٣٤ فتح سمرقند
- ١٤٠ فتح بلاد الهند
- ١٤٠ عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة
- ١٤٢ مقتل سعيد بن جبيرة رحمه الله
- ١٤٦ سنة الفقهاء
- ١٤٧ ذكر من توفي فيها من المشاهير والأعيان:
- ١٤٧ سعيد بن جبيرة الأسدي الوالبي
- ١٤٨ سعيد بن المسيب
- ١٥٠ غزوة بن الزبير بن العوام

- ١٥٢ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ
- ١٦٥ موت الحجاج الثقفي
- ١٦٧ تَرْجِمَةُ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ
- ١٧٥ فتح بلاد الصين
- ١٩٦ تَرْجِمَةُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
- ٢٠١ خِلَافَةُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
- ٢٠٣ سَبَبُ مَقْتَلِ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ
- ٢٠٣ ترجمة قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ
- ٢٠٥ سُلَيْمَانُ بَوَّابِي نِبَابَةِ خُرَّاسَانَ لِيَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ
- ٢١٢ وَفَاةُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
- ٢٢٤ خِلَافَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
- ٢٢٧ شبهة دس السُّمِّ إلى عمر بن عبدالعزيز
- ٢٣١ بداية دُعْوَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ
- ٢٣٣ تَرْجِمَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
- ٢٤١ مَنَاقِبُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
- ٢٥٦ مَجْدِدُ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ
- ٢٥٨ رُدُّ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِلْمَطَّلِمِ
- ٢٦٢ سَبَبُ وَفَاةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ
- ٢٦٥ خِلَافَةُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
- ٢٦٦ ثورة يزيد بن المُهَلَّبِ على بني أمية
- ٢٦٨ هَزِيمَةُ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ
- ٢٧١ وِلَايَةُ مُسْلِمَةَ عَلَى بِلَادِ الْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ

- ٢٧١ ذِكْرُ وَقْعَةِ حَرَّتِ بَيْنِ التُّرْكِ وَالْمُسْلِمِينَ .
- ٢٧٦ وفاة يزيد بن عبد الملك .
- ٢٧٨ خِلاَفَةُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .
- ٢٨٩ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ .
- ٣٠٢ مقتل زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ .
- ٣٠٤ وفاة مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .
- ٣٠٦ سبب مَقْتَلِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ .
- ٣١٠ قصة عبد الله البطل .
- ٣١٦ أول ظهور لأبي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيِّ .
- ٣١٧ وفاة هشام بن عبد الملك .
- ٣٢٣ خِلاَفَةُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .
- ٣٢٧ الوليد يعقد ولاية العهد لولديه من بعده .
- ٣٢٩ وفاة مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ .
- ٣٣٠ مقتل يَحْيَى بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ .
- ٣٣١ مَقْتَلُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .
- ٣٣١ صِفَةُ مَقْتَلِ الْوَلِيدِ وَرِوَايَ دَوْلَتِهِ .
- ٣٣٤ قتلُ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ لِلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ .
- ٣٤١ خِلاَفَةُ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .
- ٣٤٢ أهل حمص يطلبون بدم الوليد الفاسق .
- ٣٤٧ مروان الحمار يطلب بدم الوليد الفاسق .
- ٣٤٩ وَفَاةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ الْوَلِيدِ .
- ٣٥٢ خلافة إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

- ٣٥٤ ولاية مروان الحمار الخلافة وعزله إبراهيم بن الوليد
- ٣٥٦ مروان الحمار يعقد ولاية العهد لولديه
- ٣٥٨ خروج سليمان بن هشام بن عبد الملك على مروان
- ٣٦٤ أول ظهور أبي مسلم الخراساني بخراسان
- ٣٦٩ مقتل الكرماني
- ٣٦٩ نصر بن سيار يتنبا بظهور العباسيين
- ٣٧٣ استفحال أمر أبي مسلم الخراساني
- ٣٧٣ مقتل شبان بن سلمة الحوروي
- ٣٧٥ دخول أبي حمزة الحارجي المدينة النبوية واستيلاؤه عليها
- ٣٧٩ موت نصر بن سيار وتمكن أبي مسلم من خراسان
- ٣٨٣ مقتل إبراهيم بن محمد الإمام
- ٣٨٥ خلافة أبي العباس السفاح
- ٣٨٩ السفاح يرسل جيوشه ليسط سلطان العباسيين
- ٣٩٠ مقتل مروان بن محمد بن مروان
- ٣٩٢ صفة مقتل مروان الحمار
- ٣٩٦ ترجمة مروان الحمار

المراجع

قلت في المقدمة إنني اعتمدت في جمع مادة هذا الكتاب على مصدر واحد هو كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير رحمه الله
نسخة (الشاملة)

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali_111@hotmail.com

الكويت تليفون 98866903

مصر تليفون 01099694140

تعريف



- محمد علي حسين (أبو زهرة)
 - لغوي وباحث في التراث الإسلامي
 - موجه للغة العربية - مواليد نبروه - مصر ١٩٦٢ م
 - مهتم بنشر التراث في سلسلة صدر منها اثنان وعشرون عملاً، جمعاً
 ودراسة واختصاراً وتحقيقاً، هي: (الثائران: الحسين وابن الزبير - معاوية
 كسرى العرب - خلافة علي بن أبي طالب - خلافة ذي النورين عثمان بن
 عفان - خلافة الصديق والفاروق - محمد رسول رب العالمين - - علي
 ومعاوية يوم صقين - الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر - التعازي والمرثي
 للمبرّد - محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني - الداء والدواء لابن القيم -
 أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي - النساء لابن قتيبة - بهجة المجالس
 لابن عبد البر - تهذيب تاريخ ابن خياط - مختصر زاد المعاد - قصة الإيمان
 منذ آدم حتى محمد - العواصم من القواصم لابن العربي - حقوق آل البيت
 في مفهوم ابن تيمية - الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي

— مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: "علماء معاصرون نصرُوا الإسلام"، وكتاب "غرباء".
وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور،
وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).